

سلسلة معاجم أهل الحق

إجماع أهل التَّزِيدِ

على

إبَّانِ حَقِيْبَةِ النَّاوِيكِ



الجزء ٢



حفيد الرسول

خادم الآثار النبوية الشريفة

الشيخ الدكتور جميل محمد علي حليم الأشعري الشافعي

رئيس جمعية المشايخ الصوفية

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه

شركة دار المنشاريح

سلسلة معاجم أهل الحق ٤

إجماع أهل التنزيك

على

إثبات حقيقة التاويك

الجزء الثاني

حفيد الرسول

خادم الآثار النبوية الشريفة

الشيخ الدكتور جميل محمد علي حليمة الأشعري الشافعي

رئيس جمعية المشايخ الصوفية

غفر الله له ولوالديه ولشايخه

شركة دار المشايخ

الطبعة الأولى

٢٠١٦هـ - ١٤٣٧ ر

شركة دار المنشأع

بيروت - لبنان

العنوان: المزرعة، بربور، شارع ابن خلدون،

بناية الإخلاص

تلفون وفاكس: ٣١١ ٣٠٤ (٩٦١١) ٠٠

صندوق بريد: ٥٢٨٣ - ١٤ بيروت - لبنان



ISBN 978-9953-20-823-7



email: dar.nashr@gmail.com

www.dmcpublisher.com

يتعاقبون فينا فإذا أردت أن تحمل العمل الصالح، أين تجعله؟ في موضع يقال له «عليون» وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِيَيْنَ﴾ (١).

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (٢) ما نصه: «وقال ابن بطال: غرض البخاري في هذا الباب الرد على الجهمية المجسمة في تعلقها بهذه الظواهر، وقد تقرر أن الله ليس بجسم فلا يحتاج إلى مكان يستقر فيه فقد كان ولا مكان، وإنما أضاف المعارج إليه إضافة تشریف».

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (٣).
أي أن الكلم الطيب كلا إله إلا الله يصعد إلى محلّ كرامته وهو السماء، والعمل الصالح يرفعه أي الكلم الطيب يرفع العمل الصالح وهذا منطبق ومنسجم مع الآية المحكمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (٤).

هذا من المتشابه الذي يعلم معناه الراسخون، فالكلم الطيب هو كلا إله إلا الله والعمل الصالح يشمل كل عمل صالح يتقرب به إلى الله كنحو الصلاة والصدقة وصلة الرحم، فالمعنى أن كل ذلك يصعد إلى الله أي يتقبله، هذا ليس فيه أن الله له حيز يتحيز فيه ويسكنه.

فالسماء محلّ كرامة الله أي المكان الذي هو مشرفٌ عند الله لأنها مسكن

(١) سورة المطففين، آية ١٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ (ج ١٣، ص ٤٢٧).

(٣) سورة فاطر، آية ١٠.

(٤) سورة الشورى، آية ١١.

الملائكة، هذا التفسير موافق للآية المحكمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١).

فتفسير الآيات المتشابهة يجب أن يرد إلى الآيات المحكمة، هذا في المتشابه الذي يجوز للعلماء أن يعلموه أي أن من أراد أن يفسر المتشابه يجب أن يكون موافقاً للآيات المحكمة كتفسير الاستواء بالقهر فإنه موافق للمحکمات، كذلك تفسير: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾^(٢) بمحل كرامته وهي السماء موافق للمحکمات.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»^(٣): «فمعتقد سلف الأئمة وعلماء السنة من الخلف أن الله منزه عن الحركة والتحول والحلول ليس كمثل شئ».



(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) سورة فاطر، آية ١٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد بن معاذ، (ج٧، ص١٢٤).

المبحث العاشر تأويل قوله تعالى

﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(١)

ثبت عن التابعين أنهم أولوا النصوص الموهمة للتجسيم، فقد أولّ التابعي مجاهد لفظ الوجه وصرفها عن ظاهرها لمعنى مجازي في قوله تعالى ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾^(٢) فقال: «قبلة الله، فأينما كنت من شرق وغرب فاستقبلها»^(٣).

قال المفسر فخر الدين الرازي في «التفسير الكبير»^(٤) ما نصه: «المروي عن كافة الصحابة والتابعين أنها نزلت في أمر يختص بالصلاة وقولهم حجة، وثانيهما أن ظاهر قوله ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ يفيد التوجه إلى القبلة في الصلاة».

وفي الكتاب عينه يقول^(٥): «الآية نزلت في المسافر يصلي النوافل حيث تتوجه به راحلته. وعن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه قال: إنما نزلت هذه الآية في الرجل يصلي إلى حيث توجهت به راحلته في السفر».

فمعنى الآية فأينما توجّهوا وجوهكم في صلاة النفل في السفر قبلة الله أي

(١) سورة البقرة، آية ١١٥.

(٢) سورة البقرة، آية ١١٥.

(٣) الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٥، ص ٢٠٦). الطبري، جامع البيان، (ج ٢، ص ٥٣٤). البيهقي، السنن الكبرى، (ج ٢، ص ٢٠).

(٤) الرازي، التفسير الكبير، (ج ٤، ص ١٧).

(٥) الرازي، التفسير الكبير، (ج ٤، ص ١٨).

فتلك الوجهة التي توجّهتم إليها هي قبلة لكم.

المشرق ملك لله والمغرب ملك لله فأينما تولّوا فثمّ وجه الله أي أينما توجهوا وجوهكم في صلاة النفل وأنتم راكبون الدابة في سفركم فهناك قبلة الله، فالمسافر إذا كان راكبًا الدابة يجوز أن يصلي النفل إلى الجهة التي يريدّها ولا يلتحق بذلك راكب السيارات والطائرات كما يفهم ذلك من كتب الفقه ومن المؤسف أن كثيرًا من جهلة العصر ومنهم مشايخ إذا ذكر الكلام في التوجه للكعبة يقولون: «لا تشددوا ﴿فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^(١)» ولا يراد بالوجه الجارحة وحكم من يعتقد الجارحة لله التكفير لأنه لو كانت له جارحة لكان مثلًا لنا يجوز عليه ما يجوز علينا من الفناء.

ففي هذه الآية أضاف الله إلى نفسه لفظ الوجه، فليس لنا أن نردّ ذلك لكن علينا أن نعتقد أن الوجه إذا أطلق على الله ليس معناه الجارحة التي نعرفها لأن الذي يعتقد في الله الجارحة يكفر. الجارحة من صفات الأجسام فمن اعتقد أن الله جارحة فقد نسب الجسمية إلى الله ومن نسب الجسمية إلى الله كفر، وتكفيره هو مذهب السلف والخلف قاله الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما، فقول بعض المنتسبين للمذهب الشافعي بعدم تكفيره مخالف لما عليه السلف، فلا التفات إلى ما في كتاب عز الدين بن عبد السلام الذي هو من متأخري الشافعية ولعله دسّ عليه.

فإذا قال قائل: هل ذكر في القرآن أن الله منزّه عن الجارحة وعن اللمس واللسان والأذن؟

(١) سورة البقرة، آية ١١٥.

نقول: يكفي قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) لأنه لو كان له جارحة سمع أو جارحة بصر لكان مثلاً لنا، ولو كان مثلاً لنا لم يكن إلهاً، فمن يعتقد أن الله سمعاً وبصراً بجارحتين فقد كَذَّبَ القراءان ولو أضاف إلى ذلك قوله «لا كجوارحنا». قد يراد بالوجه الطاعة التي يراد بها التقرب إلى الله تعالى كأن يقول أحدهم: «فعلت كذا وكذا لوجه الله»، ومعنى ذلك «فعلت كذا وكذا امتثالاً لأمر الله تعالى». وهذا المعنى لا يصح سواء في نحو حديث «أقرب ما تكون المرأة إلى وجه الله إذا كانت في قعر بيتها»^(٢) فليس للوجه في هذا الحديث معنى إلا طاعة الله. فماذا يفعل المجسم إذا جاء إلى هذا الحديث؟ أيفسره على حسب اعتقاده أن الله وجهها بمعنى الجزء والحجم المركب على البدن؟ فكيف يتجرأ على ذلك بعد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣) ويتجرأ على تفسير نحو قوله تعالى ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ﴾^(٤) وقوله ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٥) بالحجم المعروف المركب على البدن؟ قال البخاري^(٦) في صحيحه في تفسير قوله تعالى ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٧) ما نصه: «إلا ملكه، ويقال ما يتقرب به إلى الله».

ومعنى «ما يتقرب به إلى الله» الأعمال الصالحة فإنها تبقى قال الله تعالى:

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير، (ج ٩، ص ٢٥٩).

(٣) سورة الشورى، آية ١١.

(٤) سورة الرحمن، آية ٢٧.

(٥) سورة القصص، آية ٨٨.

(٦) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة القصص، (ج ٤، ص ١٧٨٧).

(٧) سورة القصص، آية ٨٨.

﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(١). وقول البخاري «إلا ملكه» أي إلا سُلْطَانَهُ كما في الصحيح، الله له سلطان على العالم وسلطان الله لا يفنى لأنَّ سلطانه صفة من صفاته وصفاته أزلية أبدية هذا معنى إلا مُلْكِهِ، والبخاري من أئمة السلف هو وسفيان الثوري، وقد أوَّلَا هذه الآية تأويلًا تفصيليًا ولم يحملها على الظاهر فيجب على المجسم أن يترك اعتقاده وليقل ما يناسب معنى هذا الحديث الصحيح الذي رواه ابن حبان بهذا اللفظ ليلتزم تفسير الرواية الأخرى لهذا الحديث «أقرب ما تكون المرأة إلى الله إذا كانت في قعر بيتها»^(٢) على معنى تلك الرواية، فكلتا الروايتين صحيحة إسنادًا ومعنيهما واحد.

وقال ابن عطية: «وقوله سبحانه ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ قالت فرقة: هي عبارة عن الذات، والمعنى هالك إلا هو، قاله الطبري وجماعة منهم أبو المعالي رحمه الله، وقال الزجاج: إلا إياه، وقال سفيان الثوري: المراد إلا ما أدي لوجهه أي ما عمل لذاته من طاعة وتوجُّه به نحوه، ومن هذا قول الشاعر:

أستغفر الله ذنبًا لست محصيه ربَّ العباد إليه الوجه والعمل.

ومنه قول القائل: أردت بفعلي وجه الله تعالى، ومنه قوله عز وجل ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾^(٣). وهذا ما أشار إليه البغوي^(٤) رحمه الله.

(١) سورة الكهف، آية ٤٦.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير، (ج ٩، ص ٢٥٩).

(٣) سورة الأنعام، آية ٥٢.

(٤) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٣، ص ٤٥٩).

وقال أيضًا في تفسير قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ (٥٢) ما نصه: ﴿وَجْهَهُ﴾ في هذا الموضع معناه جهة التزلف إليه كما تقول: خرج فلان في وجه كذا»^(١).

وأخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عمر أنه رأى رجلاً يصلي يلتفت في صلاته. فقال ابن عمر رضي الله عنهما: إن الله عز وجل مقبل على عبده بوجهه ما أقبل إليه، فإذا التفت انصرف عنه. قلت: ليس في صفات ذات الله عز وجل إقبال ولا إعراض ولا صرف، وإنما ذلك في صفات فعله، وكأن الرحمة التي للوجه تعلق بها تعلق الصفة بمقتضاها، تأتيه من قبل وجه المصلي، فعبر عن إقبال تلك الرحمة وصرفها بإقبال الوجه وصرفه لتعلق الوجه الذي هو صفة بها^(٢).

فمن اعتقد أن وجه الله حجم فقد أُلحد وكفر لأن الحجم مخلوق كثيفاً كان أو لطيفاً وهذا لا بدّ له من مقدار قال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٨)^(٣) فالحجم مهما كان صغيراً ومهما كان كبيراً لا بدّ له من مقدار فالله منزّه عن أن يكون حجمًا لطيفاً أو كثيفاً لأن الحجم لا بدّ أن يكون له مقدار.

ونختم هذا المبحث بقول الشاعر:

«إن كنت فوق ناقة في قافلته كل اتجاه قبلة للنافله
الله قال: ﴿أينما تولوا فثم وجه الله﴾ أي فصلُّوا

(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، (ج ٥، ص ٢١٠).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٨٩).

(٣) سورة الرعد، آية ٨.

وإن هذا لم يكن معناه
فالوجه يعني قبلة الصلاة
أليس ربنا العظيم قال
ليس كمثل الله شيء قَصَمَتْ
والمثل الأعلى لخالق الورى
وما عَلِمْتُمْ له سميًا
ما أحدٌ ذاتَ الإلهِ يُدركُ

كيفَ اتجهنا وجهه نلقاهُ
يعضدُ هذا محكمُ الآياتِ
لا تضربوا لله من أمثال
من شبَّهوا ونصَّرونا قد حَسَمَتْ
أي ليس مثل من برا وصورا
فمن يشبهه لم يكن سُنِّيَا
وقائلٌ خلافَ هذا يشركُ».



المبحث الحادي عشر تأويل قوله تعالى

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)

معنى هذه الآية أن الله تعالى هادي أهل السماوات والأرض لنور الإيمان، رواه البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما في كتابه «الأسماء والصفات»^(٢) وقال الحلبي الشافعي كما نقل عنه تلميذه الحافظ البيهقي في نفس الكتاب ما نصه: «وهو الهادي لا يعلم العباد إلا ما علمهم ولا يدركون إلا ما يسر لهم إدراكه فالحواس والعقل فطرته وخلقه وعطيته»، فالله تعالى ليس نوراً بمعنى الضوء، بل هو الذي خلق النور، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٣) أي خلق الظلمات والنور، فكيف يُمكن أن يكون نوراً كخلقه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وحكم من يعتقد أن الله تعالى نور أي ضوء التكفير قطعاً. وهذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٤) أصرح دليل على أن الله ليس حجماً كثيفاً كالسماوات والأرض وليس حجماً لطيفاً كالظلمات والنور، فمن اعتقد أن الله حجم كثيف أو لطيف فقد شبه الله بخلقه والآية شاهدة على ذلك.

أكثر المشبهة يعتقدون أن الله حجم كثيف وبعضهم يعتقد أنه حجم لطيف حيث قالوا: «إنه نور يتلألأ»، فهذه الآية وحدها تكفي للرد على الفريقين.

(١) سورة النور، آية ٣٥.

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٨٤، ٨٥).

(٣) سورة الأنعام، آية ١.

(٤) سورة الأنعام، آية ١.

وهناك العديد من العقائد الكفرية كاعتقاد أن الله تعالى ذو لون أو ذو شكل فليحذر الإنسان من ذلك جهده على أي حال. ويقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿٣٥﴾﴾^(١) فبقوله في آخرة الآية ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ ﴿٣٥﴾﴾^(٢) يفسر أول الآية، ويبين لنا أن الله تعالى عنى بقوله ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣٥﴾﴾ أنه أعطى الإيمان لأهل السماوات وهم الملائكة ولمن شاء من أهل الأرض من الإنس والجن. الإيمان هو نور الله هذا معنى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣٥﴾﴾^(٣) وبعضهم قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿٣٥﴾﴾^(٤) أي منير السماوات والأرض.

وأما الحديث الذي رواه مسلم وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «نورُ أنى أراه»^(٥). فقد نقل الحافظ العراقي أن أحمد استنكره، ولو صحَّ لكان معناه منعني نور مخلوق من رؤية الله بعيني رأسي، والتقدير فاعل لفعل محذوف. ومن فسّر هذا الحديث بأن الله نور بمعنى الضوء فقد كذب هذه الآية ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴿١﴾﴾ ويكون كافرًا بذلك.

(١) سورة النور، آية ٣٥.

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) سورة النور، آية ٣٥.

(٤) سورة النور، آية ٣٥.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام «نور أنى أراه»، وفي رواية «رأيت نورًا»، (ج ١، ص ١١١)، حديث ٤٦١.

قال الإمام أبو منصور الماتريدي في تفسيره «تأويلات أهل السنة»^(١):
«ألا ترى أنه قال في آخره ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾^(٢) أنه لم يرد
بالنور ما فهموا، ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾^(٣) دل أنه
ليس على ما فهموه به أنه نور كسائر الأنوار التي عاينوها ويشاهدونها وهم
المشبهة، وعلى هذا يُخَرِّجُ تأويل ابن عباس».

وقال الفقيه الحنفي الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي في كتابه
«أسرار الشريعة» ما نصه: «من اعتقد أن الله ضوءٌ ملاً السماوات والأرض
فهو كافر وإن زعم أنه مسلم».



(١) الماتريدي، تأويلات أهل السنة، الماتريدي، (٧م، ص ٥٦٤).

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) سورة النور، آية ٤٠.

المبحث الثاني عشر تأويل قوله تعالى

﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ﴾ (٧) ﴿١﴾

يجوز أن يقال المراد باليدين العناية والحفظ، كما في «فتح الباري» (٢) للحافظ ابن حجر العسقلاني. وهذا تأويل تفصيلي ذهب إليه بعض الخلف. فدلّ قوله تعالى: ﴿بِيَدَيَّ﴾ (٧) ﴿٣﴾ على أن آدم خُلِقَ مُشَرَّفًا مَكْرَمًا بخلاف إبليس، ولا يجوز أن نحمل كلمة بيديّ على معنى الجارحة، لو كانت له جارحة لكان مثلنا ولو كان مثلنا لما استطاع أن يخلُقنا، لذلك نقول كما قال بعض الخلف: أي خلقتُه بعنايتي بحفظي، معناه على وجه الإكرام والتعظيم له، أي على وجه الخصوصية خَلَقَ آدم، أي أراد له المقام العالي والخير العظيم. أما إبليس ما خلقه بعنايته لأن الله عالم في الأزل أنه خبيث.

قال الإمام أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي في كتابه «أصول الدين» ما نصه (٤): «وزعم بعض أصحابنا أن اليدين صفتان لله سبحانه وتعالى، وقال القلانسي: هما صفة واحدة، وتأولهما بعض أصحابنا على معنى القدرة. وقد تأول بعض أصحابنا هذا التأويل وذلك صحيح على المذهب إذ أثبتنا لله القدرة وبها خلق كل شيء، ولذلك قال الله تعالى في

(١) سورة ص، آية ٧٥.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٣٩٤).

(٣) سورة ص، آية ٧٥.

(٤) أبو منصور، أصول الدين، (ص ١١١، ١١٢).

آدم عليه السلام ﴿خَلَقْتُ يَدَيَّْ ۝٧﴾، ووجه تخصيص آدم بذلك أن خلقه بقدرته لا على مثال له سبق ولا من نطفة ولا نقل من الأصلاب إلى الأرحام كما نقل ذريته من الأصلاب إلى الأرحام. فأما إفساد تأويل المشبهة اليدين على معنى العضوين فقد مضى في الدلالة على أن الله تعالى ليس بجسم، والجوارح والأعضاء لا تكون لما ليس بجسم.. وقد أبطلنا قول المشبهة بالجارحة قبل هذا».

وقال شافعي زمانه ورفاعي أوانه الحافظ عبد الله الهرري في كتابه «الصراط المستقيم»^(١): «مثل قوله تعالى في توبيخ إبليس ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّْ ۝٧﴾^(٢) فيجوز أن يقال المراد باليدين العناية والحفظ».

ومن التحريفات لمعنى هذه الآية ما قاله يوسف القرضاوي^(٣) في كتابه المسمى «الإسلام والغرب»: «بل أعجب من هذا من أعدى أعدائه إبليس فيسأل الله إبليس أن يحاوره قال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ يَدَيَّْ ۝٧﴾^(٤)، فهذا يدلنا أن للحوار مجالاً رحباً ومجالاً واسعاً في الفكر الإسلامي».

(١) الهرري، الصراط المستقيم، (ص ٧٨).

(٢) سورة ص، آية ٧٥.

(٣) يوسف القرضاوي، ينتمي للحزب المسمى «الإخوان المسلمين». استقرَّ بقطر وراح يتفاقم خطره ويتعاضم شره بفتاوى ما أنزل الله بها من سلطان، فاعتبر المرجع الأول للإخوان في العالم. من ضلالاته: تكفيره للمسلمين الذين يحكمون بالقانون في البلاد العربية، ويذم الوقوف لرسول الله ويستحسن الوقوف لجنزة اليهودي، يمتدح الصهاينة ويستهزئ بالله، وغير ذلك من الأباطيل. وقد صدر به قرار الإعدام وذلك في ٢٢ تموز ٢٠١٥ ر. أسامة السيد، القرضاوي في العراق، (ص ١١).

(٤) سورة ص، آية ٧٥.

الرد:

أولاً: قال القرضاوي «فيسأل الله إبليسَ أن يحاوره» أي أن الله طلب من إبليس الحوار وهذا كذب وافتراء ومن تلبس إبليس عليه.

ثانياً: إن هذا الحوار المزعوم لم يحصل إنما بكت الله إبليس وقرعه بما ورد في القرآن وهل تعتبر محاكمة القاضي للمجرم حواراً بينهما! فمن باب أولى أن لا يعتبر الذم واللعن من الله لإبليس وأمره بالخروج من الجنة بقوله: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (٧٧) (١) ﴿إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الْآدِينِ﴾ (٧٨) (٢) حواراً.

والحوار عادة يكون بين شخصين حول فكرة أو قضية وكل من الطرفين يحاول إثبات الحق إلى جانبه ومن أصول الحوار أن يتمسك صاحب الحق بحقه وأن يتراجع صاحب الباطل عن باطله وليس كما قال القرضاوي في كتابه «الإسلام والغرب» ما نصه (٣): «من صفات هذا الحوار الذي ندعو إليه نحن نتحاور وكل منا يتمسك بمنهجه»، إذا كان كل من الفريقين يتمسك بمنهجه إذا فما قيمة الحوار ولماذا؟ إذا هو للمجاملة الفاسدة والتدجيل.



(١) سورة ص، آية ٧٧.

(٢) سورة ص، آية ٧٨.

(٣) القرضاوي، الكتاب المسمى الإسلام والغرب، (ص ٨٦).

المبحث الثالث عشر تأويل قوله تعالى

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(١)

اعلم أن معية الله تعالى الواردة في الكتاب والحديث كقوله تعالى ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾^(٢) وقوله تعالى ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾^(٣) وقوله تعالى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٤) وقوله تعالى ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾^(٥) من المتشابه المذكور سابقاً، وإذ كانت منه لا بد فيها من التفويض لله تعالى في المراد مع التنزيه له تعالى عما لا يليق به أو التأويل للمعنى الظاهر^(٦). قال صاحب الإضاءة:

«وما له من ذلك واحد فقط تعين الحمل عليه وانضبط
كمثل وهو معكم فأول بالعلم والرعي ولا تطول
إذا لا تصح ههنا المصاحبة بالذات فاعرف أوجه المناسبة».
فقد جعل حملها على المعية بالعلم والحفظ متعيّناً. وقد قال الألوسي عند
قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ ما نصه: «هذا تمثيل لإحاطة علمه

(١) سورة الحديد، آية ٤.

(٢) سورة التوبة، آية ٤٠.

(٣) سورة طه، آية ٤٦.

(٤) سورة الحديد، آية ٤.

(٥) سورة المجادلة، آية ٧.

(٦) محمد الخضر، استحالة المعية بالذات، (ص ٧٧، ٧٨).

تعالى بهم وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما كانوا، وقيل المعية مجاز مرسل عن العلم بعلاقة السببية ولقرينة السياق واللاحق مع استحالة الحقيقة». ومعنى قوله لقرينة السياق واللاحق هو أن ما قبلها من قوله ﴿يَعْلَمُ مَا يَلْبُجُ فِي الْأَرْضِ﴾^(١) وما بعدها من قوله ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾^(٢) دال على أن المراد بالمعية العلم، وبلاغة الكلام تقتضي تناسق المعنى. ثم قال: «وقد أول السلف هذه الآية بذلك، وأخرج البيهقي في «الأسماء والصفات» عن ابن عباس أنه قال فيها: «عالم بكم أينما كنتم».

وأخرج أيضاً عن سفيان الثوري أنه سئل عنها فقال: «علمه معكم» وفي البحر أنه اجتمعت الأمة على هذا التأويل فيها وأنها لا تحمل على ظاهرها من المعية بالذات وهي حجة على منع التأويل في غيرها مما يجري مجراها في استحالة الحمل على الظاهر. وقد تأول هذه الآية وتأول الحجر الأسود يمين الله تعالى في الأرض ولو اتسع عقله لتأول غير ذلك مما هو في معناه»^(٣).

وقال المفسر القاضي أبو محمد ابن عطية الأندلسي في كتابه «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» ما نصه^(٤): «وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٥) معناه بقدرته وعلمه وإحاطته. وهذه آية أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها، وأنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود، ودخل في

(١) سورة الحديد، آية ٤.

(٢) سورة الحديد، آية ٤.

(٣) الآلوسي، تفسير الآلوسي، (ج ٣، ص ٣٧).

(٤) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (ج ٥، ص ٢٥٧).

(٥) سورة الحديد، آية ٤.

الإجماع من يقول بأن المشتبه كله ينبغي أن يمر ويؤمن به ولا يفسر فقد أجمعوا على تأويل هذه لبيان وجوب إخراجها عن ظاهرها. قال سفيان الثوري: معناه علمه معكم، وتأولهم هذه حجة عليهم في غيرها».

وروى الحافظ البيهقي عن معدان العابد قال: سألت سفيان الثوري عن قول الله عز وجل: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(١)، قال: علمه^(١).

وقال المفسر فخر الدين الرازي في «التفسير الكبير»^(٢): «المسألة الثانية: قال المتكلمون هذه المعية إما بالعلم وإما بالحفظ، وعلى التقديرين فقد انعقد الإجماع على أنه سبحانه ليس معنا بالمكان والجهة والحيز، فإذا قوله ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٣) لا بد فيه من التأويل.

وإذا جَوَّزنا التأويل في موضع وجب تجويزه في سائر المواضع».

أما سيد قطب^(٤) فقد قال في كتابه المسمى في ظلال القرآن ما نصه^(٥):
﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٦)، كلمة على الحقيقة لا على الكناية والمجاز

(١) البيهقي، الأسماء الصفات، (ج ٢، ص ٣٤١).

(٢) الرازي، التفسير الكبير، (م ١٥، ج ٢٩، ص ١٨٧).

(٣) سورة الحديد، آية ٤.

(٤) سيد قطب، سيد بن قطب بن إبراهيم، كاتب مصري، من مواليد قرية «موشا» في أسيوط، تخرج بكلية دار العلوم بالقاهرة سنة ١٩٣٤ م، وعمل في جريدة الأهرام، تنقل في وظائف ثم انضم إلى جماعة حزب «الإخوان» فسجن معهم وعكف هناك على تأليف الكتب في سجنه، ولم يتلق علمه من أحد من الشيوخ أو العلماء ما أدى إلى إضفاء العبارات الفلسفية على ما كتب فضاع وأضاع، أُعدم سنة ١٩٦٦ م، الموافق لـ ١٣٨٧ هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ١٤٧، ١٤٨).

(٥) سيد قطب، الكتاب المسمى في ظلال القرآن، (م ٦، ص ٣٤٨١).

(٦) سورة الحديد، آية ٤.

والله تعالى مع كل شيء ومع كل واحد في كل وقت وفي كل مكان».

وقال خالد الجندي في شريط له سماه «الرزق وإنفاقه» باللغة العامية المصرية: «هو ما فيش حاجة في حياتك إلا وربنا فيها لأنه قال ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(١)». ثم قال: «كل واحد فينا في كل لحظة من حياته الله في داخله في قلبه».

الرد:

ليُعلم أن سيد قطب بعقيدته هذه يخالف جميع علماء الإسلام من السلف والخلف لأنه جعل الله منتشرًا في العالم وهذا كفر، وقوله «في كل مكان» هذا لم يقله أحد من السلف إنما قاله جهم بن صفوان الذي قُتل على الزندقة في أواخر أيام الأمويين ثم تبعه بعض جهلة المتصوفة من غير فهم للمعنى الذي كان يريده جهم. أما جهم فكان يقول هذه العبارة ويريد معناها الحقيقي وهو الانتشار، وجهلة المتصوفة يريدون منها السيطرة على كل مكان، وقد نسب هذا القول إلى جهلة المتصوفة إسماعيل حقي النازلي في تفسيره «روح البيان» وهو من الصوفية، فليعلم هؤلاء في أي وادٍ يتيهون. ثم إن كل علماء الإسلام اتفقوا على أن معنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٢) إحاطة علمه تعالى بكل الخلق، وأما سيد قطب فينطبق عليه ما قاله الرسول ﷺ: «من شدَّ شدَّ في النار» رواه الحاكم^(٣)، فبان واتضح لكل منصف أن سيد قطب مارق خارج من الدين والإسلام.

(١) سورة الحديد، آية ٤.

(٢) سورة الحديد، آية ٤.

(٣) الحاكم، المستدرک، (ج ١، ص ١٩٩)، حديث ٣٩١.

فانظر أخي المؤمن إلى هذا التجرؤ على الله تعالى حيث ينسب الحلول بكلماتٍ واضحةٍ وفاضحةٍ تكشف عمّا في نفسه، ألم يقرأ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(٣)، ألم يبلغه نقل الحافظ السيوطي في كتابه «الحاوي للفتاوى» إجماع المسلمين على تكفير من قال بالحلول أو الاتحاد؟ حيث قال ما نصه^(٤): «وقال القاضي عياض في الشفا ما معناه: أجمع المسلمون على كفر أصحاب الحلول ومن ادّعى حلول الباري سبحانه في أحد الأشخاص كقول بعض المتصوفة والباطنية والنصارى والقرامطة».

وقال في موضع آخر: «ما عرف الله من شبهه وجسمه». ثم قال بعد كلام: «بل يُقَطَّع بتكفير القائلين بالحلول إجماعاً».

وقال بعد ذلك: «فإذا أصل الاتحاد باطلٌ محالٌ مردودٌ شرعاً وعقلاً وعُرفاً بإجماع الأنبياء والأولياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء والمسلمين وليس هذا مذهب الصوفية وإنما قاله طائفةٌ غلاةٌ لقلّة علمهم وسوء حفظهم من الله تعالى فشابهوا بهذا القول النصارى».

ألم يسمع خالد الجندي وسيد قطب وناظم قبر صلي^(٥) وشيخه الداغستاني

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) سورة الإخلاص، آية ٤.

(٣) سورة النحل، آية ٧٤.

(٤) السيوطي، الحاوي للفتاوى، (ج ٢، ص ٣٠٨-٣١٠).

(٥) ناظم القبرصلي، يلقيه جماعته أحياناً بالحقّاني تلبساً وتديساً. ورث من شيخه المعروف بعدد الله الفائز الداغستاني زيغاً واحتيالاً وضلالاً، ثم زاد عليه من وسوسات شياطينه ما جعله =

وكل الحلولية والاتحادية قول الإمام الأكبر الشيخ محيي الدين بن عربي: «من قال بالحلول فدينه معلول»، نقله الإمام عبد الوهاب الشعراني في كتابه «اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر»^(١)، وقول الشيخ عبد الغني النابلسي رحمه الله في «الفيض الرباني»: «من قال إن الله انحل منه شيء أو انحل في شيء فقد كفر».

حتى إن إمام المشبهة والمجسمة ابن تيمية الحراني يقول في كتابه المسمى «مجموع الفتاوى»^(٢) ناقلاً ومؤيداً لقول الطلمنكي: «أجمع المسلمون من أهل السنة على أن معنى ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيَّنَمَا كُنْتُمْ﴾^(٣) ونحو ذلك من القرءان: أن ذلك علمه».

فيا لفضيحة الوهابية الذين يقولون بأن التأويل تعطيل، هل سيقولون عن شيخهم المجسم ابن تيمية بأنه معطل في هذه المسألة؟ هل سينسلخون منه أم سيقولون عنه بعد ذلك «شيخ الإسلام»، خوفاً من أن ينقطع عنهم الدينار والدرهم؟ ولو كان هؤلاء الحلولية شموا رائحة العلم الشرعي لعلموا أن من وصف الله بالحلول فقد نسب الكيفية لله وهي منفية عنه تعالى وعن صفاته، وأن ذلك تجسيم وكفر كما نقل الحافظ السيوطي في كتابه «الأشباه

= من البدعة إماماً. نشر كتباً أحيها بها من الكفر ما كان انقراض. تتلمذ حوله طلابٌ حذوا حذوه وتبعوه. له فتاوى عجيبة ما أنزل الله بها من سلطان، من أشهرها قوله «إن الشيخ لا يُردّ عليه ولو خالف الشريعة»، ومنها تسوية نفسه وتسوية شيخه بالله تعالى، وغير ذلك الكثير والعياذ بالله تعالى. سمير القاضي، كشف ضلالات ناظم القبرصلي، (ص ٤). توفي ناظم القبرصلي عن نحو ٩٠ سنة في ٧ مايو أيار ٢٠١٤ ر.

(١) الشعراني، اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، (ج ١، ص ٨٦).

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (م ٢، ص ١٦٣).

(٣) سورة الحديد، آية ٤.

والنظائر»^(١) عن الإمام الشافعي رضي الله عنه أنه قال: «المجسم كافر»، بل جاء ذلك عن أئمة المذاهب الأربعة رضي الله عنهم كما في كتاب «المنهاج القويم شرح ابن حجر الهيتمي على المقدمة الحضرمية» فإنه يقول فيه كما ذكرنا ما نصه^(٢): «واعلم أن القرافي وغيره حكوا عن الشافعي ومالك وأحمد وأبي حنيفة رضي الله عنهم القول بكفر القائلين بالجهة والتجسيم وهم حقيقون بذلك».

ويكفي في إثبات جهل سيد قطب ما ذكره في تفسيره^(٣) حيث قال: «ولا بقاء لشيء يطارده الله».

وقال في تفسير سورة الأعراف^(٤): «ولكننا نملك بالسر اللطيف المستمد من روح الله الذي في كياناتنا أن نستروح وأن نستشرف هذا الأفق الساحق الوضيء».

ثم قول خالد الجندي «كل لحظة من حياته الله في داخله في قلبه» فإننا نعوذ بالله من هذا الكفر فقد جعل الله تعالى يحل في القلوب، جعل الله جسمًا حادثًا وكذب قوله تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(٥). فإن في هذه الآية نفي للمادية والانحلال. وقد وقع خالد الجندي في كفر أهل الاتحاد والحلول وهو من أشد أنواع الكفر وكذب قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٦)

(١) السيوطي، الأشباه والنظائر، (ص ٤٨٨).

(٢) الهيتمي، المنهاج القويم، (ص ٢٢٤).

(٣) سيد قطب، المسمى في ظلال القرآن، (ج ٥، ص ١٥١).

(٤) سيد قطب، المسمى في ظلال القرآن، (ج ٣، ص ٢٩٠).

(٥) سورة الإخلاص، آية ٣.

(٦) سورة الشورى، آية ١١.

وكذب قول ذي النون المصري «مهما تصورت ببالك فالله بخلاف ذلك» أي لا يشبه ذلك، رواه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق^(١). فما عرف الله من اعتقد أن الله يحل في الأشياء في القلوب أو الهواء أو الإنسان أو الشجر. فتأمل في هذا الكلام وانتبه يا خالد كيف تتكلم وتطلق العبارات لأنك ستحاسب يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١٨)^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(٢٤)^(٣). وقد قال سيدنا أحمد الرفاعي رضي الله عنه: «لفظتان ثلمتان في الدين القول بالوحدة والشطح المجاوز حدّ التحدث بالنعمة». ومعنى قول الله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١٦)^(٤) أي أن الله تعالى أعلم بالعبد من نفسه، هو أعلم بنا من أنفسنا، الله تعالى تعظيماً لنفسه يقول: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾^(١٦)^(٥) أي إلى العبد ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(١٦)^(٦) والوريد عرقان في الإنسان من جانبي الرقبة ينزلان من الرأس ويتصلان بعرق القلب. وقد قال النازلي صاحب التفسير المعروف: «لا يجوز أن نقول إنه تعالى بكل مكان وهذا قول جهلة المتصوفة»، وقال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه: «قال عليّ الخواص شيخه في التصوف: لا يجوز أن يقال إنه تعالى بكل مكان، وأول من قال بهذا جهم بن صفوان».

(١) القشيري، الرسالة القشيرية، (ص ٣). ابن عساكر، تاريخ دمشق، (ج ١٧، ص ٤٠٤).

(٢) سورة ق، آية ١٨.

(٣) سورة الصافات، آية ٢٤.

(٤) سورة ق، آية ١٦.

(٥) سورة ق، آية ١٦.

(٦) سورة ق، آية ١٦.

فقول خالد الجندي «الله في داخله في قلبه» يفيد الحلول، ومن قال بالحلول فدينه معلول وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد كما قال الشيخ محيي الدين بن عربي رحمه الله.

ثم أما قرأ خالد أيضًا نقل جلال الدين السيوطي الإجماع في كتابه «الحاوي للفتاوى» على تكفير من قال بالحلول أو الاتحاد. وهذا تجرؤ على الله بهذه الكلمات كأنه لم يقرأ كلام أبي جعفر الطحاوي رحمه الله في عقيدته الشهيرة: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر»، وكأنه ما قرأ قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَكُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(٣) أي لا تشبهوا الله بخلقه، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(٤) أي الله الوصف الذي لا يشبهه وصف غيره.

وقال عمرو خالد^(٥) المصري على قناة المحور في تفسير هذه الآية: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(٦) عن سيدنا آدم، قال باللهجة المصرية: «إحنا نحن فينا حتة جزء من ربنا»، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) سورة الإخلاص، آية ٤.

(٣) سورة النحل، آية ٧٤.

(٤) سورة النحل، آية ٦٠.

(٥) عمرو خالد، مصري، أطلق عليه اسم «الداعية عمرو خالد». يسوق له البعض بأنه شخصية «مودرن» حليق يلبس ثياب مدنية غريبة وكرافات وما إلى ذلك. أفتى بفتاوي ما أنزل الله بها من سلطان. من أشهر ضلالاته، قوله باللهجة المصرية «إبليس ما كفرش» والعياذ بالله. من تصانيفه: المسمى «أخلاق المؤمن». قسم الأبحاث والدراسات في جمعية المشاريع، عمرو خالد في ميزان الشريعة، (ص ٣).

(٦) سورة الحجر، آية ٢٩.

المبحث الرابع عشر تاويل قوله تعالى

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾^(١)

قال الإمام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ﴿بِأَيْدٍ﴾ أي بقدره، وليس المقصود باليد هنا الجارحة التي لنا فإن الله منزه عن ذلك. فاليد تأتي بمعنى القدرة، والقدرة هي القوة. قال الإمام أبو بكر ابن فورك تلميذ تلميذ الأشعري في كتابه «مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري»^(٢) ناقلاً عن أبي الحسن الأشعري قوله في تفسير الآية: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾^(٣)، قال: «أي بقوة». وهذا ما ذكره البغوي في تفسيره^(٤).

فاليد تأتي في لغة العرب بمعنى القوة، وذلك كما قال البيهقي في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾^(٥)، فقال رحمه الله: «وقد قال بعض أهل النظر في معنى اليد في غير هذا الموضع أنها قد تكون بمعنى القوة، قال الله عز وجل ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾^(٦) ذَا الْقُوَّةِ^(٧)،

(١) سورة الذاريات، آية ٤٧.

(٢) ابن فورك، مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري، (ص ٤٤).

(٣) سورة الذاريات، آية ٤٧.

(٤) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٤، ص ٢٣٤).

(٥) سورة ص، آية ١٧.

(٦) سورة ص، آية ١٧.

(٧) أي في الجسم والعبادة والدين.

وقد يكون بمعنى الملك والقدرة، قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٧٣)^(١)، وقد يكون بمعنى النعمة، تقول العرب: كم يد لي عند فلان. أي كم من نعمة لي قد أسديتها إليه، وقد يكون بمعنى الصلة، قال الله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلْتَ أَيِّدِينَا أَنْعَمًا﴾ (٧١)^(٢) أي مما عملنا نحن، وقال جل وعلا: ﴿أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ (٣٧)^(٣) أي: الذي له عقدة النكاح؛ وقد يكون بمعنى الجارحة قال الله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُتْ﴾ (٤٤)^(٤). فأما قوله عز وجل: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي﴾ (٧٥)^(٥) فلا يجوز أن يحمل على الجارحة، لأن الباري جل جلاله واحد، لا يجوز عليه التبعض، ولا على القوة والملك والنعمة والصلة لأن الاشتراك يقع حينئذ بين وليه^(٦) آدم وعدوه إبليس، فيبطل ما ذكر من تفضيله عليه لبطلان معنى التخصيص، فلم يبق إلا أن يحمل معنى ﴿بِيَدِي﴾ أي بعناتي لأن آدم خلق بعناية الله وهو نبيُّ رسولٍ مشرف عند الله، لذلك أمر الملائكة بالسجود له سجود تحية واحترام^(٧).

(١) سورة آل عمران، آية ٧٣.

(٢) سورة يس، آية ٧١.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٣٧.

(٤) سورة ص، آية ٤٤.

(٥) سورة ص، آية ٧٥.

(٦) أي من تولاه الله بحفظه وعنايته لأنه رسوله وحببيه.

(٧) بتصرف خفيف.

وكذا قال البيهقي في قوله تعالى ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ (٤٥) (١) أي بالقوة والقدرة، أي أخذنا قوته وقدرته.

وقوله تعالى: ﴿وإننا لموسعون﴾ (٤٧) (٢) أي قادرون، وليس كما قال بعض العصريين حيث زعموا أن الكون في اتساعٍ دائم، فهذا كذبٌ مردود.

وتأتي اليد بمعنى العهد كما في قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١٠) (٣)، أي عهدُ الله فوق عهدِهِم أي ثبتَ ووجب عليهم عهدُ الله لأن معاهدتهم للرسول تحت شجرة الرضوان في الحديبية على ألا يفروا معاهدةً لله تبارك وتعالى لأن الله تعالى هو الذي أمر نبيّه بهذه المبايعة.

قال البغوي في تفسيره: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١٠)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يد الله بالوفاء لما وعدهم من الخير فوق أيديهم. وقال السدي: كانوا يأخذون بيد رسول الله ﷺ ويبايعونه، ويد الله فوق أيديهم في المبايعة. قال الكلبي: نعمة الله عليهم في الهداية فوق ما صنعوا من البيعة (٤).

وأما قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (٦٤) (٥)، فمعناه غنيٌّ واسعُ الكرم.

فمن حمل إضافة الوجه أو اليد أو العين الوارد في القرآن أو الحديث

(١) سورة الحاقة، آية ٤٥.

(٢) سورة الذاريات، آية ٤٧.

(٣) سورة الفتح، آية ١٠.

(٤) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٤، ص ١٩٠).

(٥) سورة المائدة، آية ٦٤.

في حق الله تعالى على الحقيقة كما فعل ابن تيمية وابن عثيمين^(١) في كتابه المسمى «فتاوى العقيدة» وبقية المجسمة المشبهة فقد كذب الله تعالى وكفر به لأن حقيقة اليد وحقيقة العين وحقيقة الوجه هذه الأعضاء والجوارح المؤلفة والمركبة في الإنس والجن والملائكة والبهائم ومن وصف الله بشيء من ذلك فقد جعله حادثاً عاجزاً محتاجاً لمن جعله على هذه الصفة والاحتياجية تنافي الألوهية والوجه والعين واليد إذا أضيفت إلى الله فلها معنى يليق بالله تعالى ليس بجسم ولا حجم ولا جارحة ولا هيئة ولا صورة ولا كيفية ولا كمية والحمد لله الذي وفق أهل السنة لمعرفة العقيدة الصحيحة.



(١) المجسم محمد بن صالح بن محمد بن عثيمين التيمي. ولد في عنيزة إحدى مدن القصيم وبقي عمره فيها. من مشايخه المجسم عبد العزيز بن باز وغيره. ومن كتبه الملائى بالتجسيم والتشبيه: الكتاب المسمى «القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنی»، والكتاب المسمى «عقيدة أهل السنة والجماعة»، والكتاب المسمى «شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد»، والكتاب المسمى «فتح رب البرية بتلخيص الحموية». توفي سنة ١٤٢١ هـ.

المبحث الخامس عشر

تأويل قوله تعالى

﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(١)

قال الله تعالى ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، قال المفسر فخر الدين الرازي في «التفسير الكبير»^(٢): «أن لا تفسر أسماؤه بما لا يصح ثبوته في حقه سبحانه نحو أن يفسر الأعلى بالعلو في المكان والاستواء بالاستقرار بل يفسر العلو بالقهر والاقترار والاستواء بالاستيلاء».

وقال المفسر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المالكي في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» ما نصه^(٣): «و«العلي» يراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان لأن الله منزّه عن التحيز».

وقال ما نصه^(٤): ﴿فَوْقَ عِبَادِهِ﴾^(٥) فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، أي هم تحت تسخيرها لا فوقية مكان».

وقال المفسر المقرئ النحوي محمد بن يوسف المعروف بأبي حيان الأندلسي في تفسيره «البحر المحيط»^(٦) عند تفسير قوله تعالى:

(١) سورة الأعلى، آية ١.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، (م ١٦، ج ٣١، ص ١٢٣).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ٣، ص ٢٧٨).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ٦، ص ٣٩٩).

(٥) سورة الأنعام، آية ١٨.

(٦) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج ٦، ص ٣٠٢).

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾^(١)

ما نصه: «عند هنا لا يراد بها ظرف المكان لأنه تعالى منزه عن المكان، بل المعنى شرف المكانة وعلو المنزلة».

وقال الشيخ مصطفى نجما^(٢) الشافعي مفتي بيروت في كتابه «كشف الأسرار لتنوير الأفكار» ما نصه^(٣): «ومعنى العلي المتعالي في جلاله وكبريائه إلى غير غاية ولا نهاية، والمراد به علو القدر والمنزلة لا علو المكان لأنه تعالى منزه عن التحيز والجهة».

وقال الشيخ يوسف الدجوي^(٤) المصري في مجلة الأزهر التي تصدرها مشيخة الأزهر بمصر^(٥)، في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾^(٦) ما نصه: «والأعلى صفة الرب، والمراد بالعلو القهر والاقْتدار، لا بالمكان والجهة، لتنزهه عن ذلك».

(١) سورة الأنبياء، آية ١٩.

(٢) مصطفى نجما، مصطفى بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد عبد القادر نجما، مفتي بيروت سنة ١٣٢٧هـ، إلى أن توفي. مولده ووفاته فيها. له كتب، منها: «نصيحة الإيمان في التربية والتعليم»، و«كشف الأسرار»، و«أرجوزة في التربية والتعليم»، و«تفسير جزء عم»، و«إرشاد المرید». ولد سنة ١٢٦٩هـ، وتوفي سنة ١٣٥٠هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٧، ص ٢٤٦).

(٣) مصطفى نجما، كشف الأسرار لتنوير الأفكار، (ص ١١٨).

(٤) يوسف بن أحمد بن نصر بن سويلم الدجوي، ولد بقريّة دجوة في قليوبة. دخل الأزهر، ونال شهادة العالمية ثم عمل بالتدريس بالأزهر، وقد اختير عضواً في هيئة كبار علماء الأزهر الشريف. له كتابات غزيرة وواضحة في شتى الأمور الإسلامية وأهم كتاباته رسائل السلام وقد ترجم إلى اللغة الإنجليزية وطبعت المشيخة الأزهرية منه عشرة آلاف نسخة. وقد نشر عنه كتاب مقالات وفتاوى بعد مماته. ولد سنة ١٢٨٧هـ، وتوفي سنة ١٣٦٥هـ عن عمر يناهز ٧٨ عاماً. عبد الرافع الدجوي، الغيث المروي في الأستاذ الدجوي، (ص ١٧-٤٦).

(٥) الأزهر، مجلة الأزهر، سنة ١٣٥٧هـ، (ص ١٦).

(٦) سورة الأعلى، آية ١.

وقال أيضا^(١): «واعلم أن السلف قائلون باستحالة العلو المكاني عليه تعالى، خلافاً لبعض الجهلة الذين يخبطون خبط عشواء في هذا المقام، فإن السلف والخلف متفقان على التنزيه».

والدجوي أحد أعضاء كبار العلماء في الأزهر بمصر، وانظر مقالات وفتاوى الدجوي^(٢) له بعنوان «تنزيه الله عن المكان والجهة».

قال الإمام عبد الله الهرري في كتابه «بغية الطالب في معرفة العلم الديني الواجب»: «ومعنى «سُبْحَانَ رَبِّيَ الْأَعْلَى» أَنْزَهُ رَبِّي الْأَعْلَى أَي الَّذِي هُوَ أَعْلَى مِنْ كُلِّ عَلِيٍّ أَي عُلُوٌّ قَدْرٍ لَا عُلُوَّ حَيْزٍ لِأَنَّ الشَّأْنَ فِي عُلُوِّ الْقَدْرِ لَيْسَ فِي عُلُوِّ الْحَيْزِ وَالْمَكَانِ. وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ حَمَلَةَ الْعَرْشِ وَالْحَافِينَ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مَكَانَهُمْ أَرْفَعُ مَكَانٍ وَمَعَ ذَلِكَ فَلَيْسُوا هُمْ أَفْضَلُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ هُمْ فِي حَيْزٍ وَمَكَانٍ دُونَ ذَلِكَ بِمَسَافَةٍ كَبِيرَةٍ، بَلِ الْأَنْبِيَاءُ وَإِنْ كَانَ مُسْتَقَرُّهُمْ الْأَرْضَ أَعْلَى قَدْرًا عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءِ الْمَلَائِكَةِ».

وقال رحمه الله في كتابه «صريح البيان»: «وأما العلو الوارد وصف الله تعالى به فنذكر ما قاله الإمام أبو منصور البغدادي في تفسير الأسماء والصفات ونصه^(٣): «والوجه الثالث أن يكون العلو بمعنى الغلبة، قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾^(٤)، أي الغالبون لأعدائكم، يقال منه: علوت

(١) الأزهر، مجلة الأزهر، (ص ١٧).

(٢) الدجوي، فتاوى الدجوي، (ص ١٨٣-١٩٤، ٢٠١-٢١١).

(٣) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ١٥١).

(٤) سورة آل عمران، آية ١٣٩.

قَرَنِي أَي غَلِبْتَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ (١) أَي غَلَبَ وَتَكَبَّرَ وَطَغَى، وَمِنْهُ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ (٢) أَي لَا تَتَكَبَّرُوا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٣) أَي لَا تَتَكَبَّرُوا فَإِذَا كَانَ مَاخُوذًا مِنَ الْعُلُوِّ فَمَعْنَى وَصْفِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِأَنَّهُ عَلِيٌّ أَنَّهُ لَيْسَ فَوْقَهُ أَحَدٌ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ فِي مَكَانٍ دُونَ مَكَانٍ، وَإِنْ كَانَ مَاخُوذًا مِنْ أَرْتِفَاعِ الشَّأْنِ فَهُوَ سَبْحَانَهُ أَرْفَعُ شَأْنًا مِنْ أَنْ نَشَبَّهُ بِهِ شَيْئًا. انْتَهَى كَلَامُ الْعَلَامَةِ الْهَرَرِيِّ وَهُوَ نَفِيسٌ جَدًّا.



(١) سورة القصص، آية ٤.

(٢) سورة الدخان، آية ١٩.

(٣) سورة النمل، آية ٣١.

المبحث السادس عشر تأويل قوله تعالى

﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (١٥) ﴿١﴾

ليعلم أن سبب نزول الآية أن المنافقين كانوا حين يجتمعون بأمثالهم يتكلمون ببغض الإسلام وكراهيته، فالله أخبرنا أنه يجازيهم بما يليق بهم وهذه المجازاة سمّاها استهزاءً. والمنافقون هنا هم الذين يكرهون الإسلام في قلوبهم ويتظاهرون بالإسلام أمام المسلمين ويعملون أعمال المسلمين ولكن قلوبهم فيها شك أو إنكار.

قال الرازي في «التفسير الكبير» ما نصه^(٢): «أحدها: أن ما يفعله الله بهم جزاءً على استهزائهم سماه بالاستهزاء».

وقال القرطبي في «الجامع»^(٣): «أي ينتقم منهم ويعاقبهم، ويسخر منهم، ويجازيهم على استهزائهم فسمى العقوبة باسم الذنب».

هذا قول الجمهور من العلماء، والعرب تستعمل ذلك كثيرًا في كلامهم من ذلك قول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا
فسمى انتصاره جهلاً، والجهل لا يفتخر به ذو عقل، وإنما قاله ليزدوج

(١) سورة البقرة، آية ١٥.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، (ج ٢، ص ٦٣).

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١، ص ٢٠٧).

الكلام فيكون أخف على اللسان من المخالفة بينهما، وكانت العرب إذا وضعوا لفظاً بإزاء لفظٍ جواباً له وجزاء ذكروه بمثل لفظه وإن كان مخالفاً في معناه، وعلى ذلك جاء القرآن والسنة وقال الله عز وجل ﴿وَجَزَّأُوا سَيِّئَةً سَيِّئَةً مِّثْلُهَا﴾ (١).

تنبيه: من قال يجوزُ تسميةُ الله ناسياً وماكراً ومستهزئاً ومخادعاً ومستدرجاً ومزيفاً كَفَرَ لأنه استخفَّ بالله كما في الكتاب المسمى «حز الغلاصم في إفحام المخاصم»^(٢) المنسوب لشيث بن إبراهيم المعروف بابن الحاج القفطي^(٣)، ونحن لا نعتقد في مؤلفه أنه يقول ذلك إنما هو مما دس عليه أو هو من تحريف النساخ فإننا لم نقف على نسخة معتبرة، فقد ذُكِرَ فيه عن الله تعالى: «فنسميه ماكراً وناسياً ومخادعاً ومزيفاً ومستدرجاً».

وأما ورود إضافة المكر والنسيان لله في القرآن فهو من باب المقابلة وهو جائزُ كقوله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا اللَّهَ وَمَكَّرَ اللَّهُ﴾^(٤) وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٥) أي تركهم من رحمته، وأما قوله تعالى:

(١) سورة الشورى، آية ٤٠.

(٢) المنسوب لابن الحاج القفطي، حز الغلاصم في إفحام المخاصم، (ص ٤١).

(٣) شيث بن إبراهيم بن محمّد بن حيدر، أبو الحسن، ضياء الدين، المعروف بابن الحاج القناوي، أديب، من العلماء. مولده بقط، عمي في كبره، وله تصانيف، منها: «الإشارة في تسهيل العبارة»، «وتهذيب ذهن الواعي في إصلاح الرعية والراعي» صنّفه للملك الناصر صلاح الدين، و«حز الغلاصم في إفحام المخاصم». ولد سنة ٥١١هـ، وتوفي سنة ٥٩٩هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ١٨١).

(٤) سورة آل عمران، آية ٥٤.

(٥) سورة التوبة، آية ٦٧.

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسِفُكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾^(١)، فقد ذُكر على وجه المقابلة، ومعناه تركناكم من رحمتنا كما أنتم تركتم طاعة الله في الدنيا بترك الإيمان به. وليس معناه أنه يوصف بالنسيان المعروف لأن هذا تشبيه لله بخلقه وهو تكذيب للقرءان، أما مَنْ استحلَّ قولَ «يا ماكرُ ارزقني» ونحو ذلك فهذا يكفرُ، وكذا يكفرُ من يُسمِّي الله المضلَّ لأنه جَعَلَهُ اسْمًا لله كالرحمن فيكونُ معنى كلامه يجوزُ أن نقولَ يا مضلُّ أعني أو أن يُسمي الشخص ولده «عبد المضل».

أما قولُ «يا الله يا جبارُ ارزقني» أو «يا الله يا متكبرُ» فلا يدلُّ على النقص في حقِّ الله، أما الذي يدلُّ على النقص فهو مثل أن يقال في حقِّ الله «يا مخادعُ» أو «يا ناسي» أو «يا مستهزيء» أو «يا ماكرُ».

فلا يجوز تسمية الله بغير ما ورد في الفرقان أو السنة الصحيحة أو الإجماع فقد قال الإمام أبو الحسن الأشعري: «لا يجوز تسمية الله إلا بما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة أو الإجماع»^(٢) نقله عنه الإمام ابن فورك في كتابه «مجرد مقالات أبي الحسن الأشعري»، وهذا هو المعتمد، وقال الإمام

(١) سورة الجاثية، آية ٣٤.

(٢) ابن فورك، مجرد مقالات الأشعري، (ص ٤٢). هذا هو المعتمد، فلا يجوز عند الإمام أبي الحسن الأشعري تسمية الله إلا بما صحَّ وروده شرعاً أي بما ورد في القرآن أو الحديث الصحيح أو بما أجمعت عليه الأمة، وأما بغير ما صحَّ وروده شرعاً فلا يجوز عنده، هذا شرط قبوله عنده، لكن بعض أتباع أبي الحسن يقولون: يجوز تسمية الله بالوصف ولو لم يكن وارداً بشرط ألا يوهم النقص، فعندهم يجوز تسمية الله «الطاهر» لأنه لا يوهم النقص لأن «الطاهر» معناه المنزه عن الصفات التي لا تليق به، فتسمية الأب ابنه «عبد الطاهر» عندهم يجوز، وهؤلاء أجازوا إطلاق اللفظ غير الوارد على الله إذا كان وصفاً غير موهم لما لا يليق بالله تعالى، واتفقوا على منع إطلاق اللفظ الموهم ما لا يليق بالله على الله.

أبو منصور البغدادي في كتابه «تفسير الأسماء والصفات»: «لا مجال للقياس في أسماء الله وإنما يُراعى فيها الشرع والتوقيف».

وكذلك لا يجوز تسمية الله بالقوة كما فعل سيد قطب وكأنه اقتدى بكلام بعض الملاحدة الذين يقولون «إن للعالم قوة مدبرة» ويعنون أن الله هو هذه القوة، ولعل هذا مما اكتسبه منهم حين كان مع الشيوعية إحدى عشرة سنة كما اعترف هو في بعض مؤلفاته وهو كتابه المسمى «لماذا أعدموني»، وكذلك تسميته بالقوة الخالقة أو الخارقة أو القوة الخفية أو القوة الكبرى، وكذلك تسمية سيد قطب لله بالريشة المبدعة والنبع الذي لا يغيض وبالعقل المدبر، لأنَّ العقل صفة من صفات البشر والجن والملائكة، والتحذير من فساد هذه التسمية يدخل تحت قول الإمام أبي جعفر الطحاوي في كتابه الذي ألفه لبيان ما عليه أهل السنة: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر»، ومثل كلام سيد قطب ما في كتاب محمد سعيد البوطي^(١) من تسمية الله بالعلّة الكبرى والسبب الأوّل والواسطة والمصدر والمنبع وذلك المذكور في كتابين له. الأوّل يسمّى «كبرى اليقينيّات الكونية» والآخر المسمى «من روائع القرآن»، وذلك نوعٌ من الإلحاد، ومثله محمد راتب^(٢) النابلسي الدمشقي

(١) محمد سعيد رمضان البوطي، مجسّم معتزلي، سوري، له ضلالات كفرية من أشهرها قوله: «إذا تصادم القرآن مع العلم فأنا مع العلم» والعياذ بالله تعالى. يدافع عن ابن تيمية (المجسّم) الذي يحلل دم المسلمين، يزعم أن الروح موصولة بالله وغير ذلك الكثير من الفتاوي الكفرية. من تصانيفه: المسمى «من الفكر إلى القلب»، والمسمى «فقه السيرة»، والمسمى «كبرى اليقينيّات الكونية» وغيرها. ولد سنة ١٣٤٧هـ، وتوفي سنة ١٤٣٤هـ. أسامة السيد، الرد العلمي على البوطي، (ص ٥٤، ٥٥، ٣٢٣).

(٢) محمد راتب النابلسي (معتزلي)، تلميذ محمد أمين شيخو، رئيس ما يُسمى بهيئة الإعجاز القرآني. من ضلالاته قوله بما تقوله المعتزلة من أن الشر هو بخلق الإنسان لا إرادة ولا مشيئة لله في ذلك. من تصانيفه: المسمى «نظرات في الإسلام»، والمسمى «تأملات في الإسلام» =

فإنه يسمي الله بالمصدر ويصفه بالاتصال الذي هو من صفات المخلوقين ذكر ذلك في كتابه المسمى «نظرات في الإسلام»^(١) يقول ما نصه: «وحيثما يتصل الإنسان بالله رب العالمين مصدر الحق والخير والجمال».

كيف يسمي الله علةً وقد قال الإمام ركن الإسلام علي السغدّي^(٢) الحنفي: «من سمى الله علةً أو سبباً كفر». نقله عنه الكمال بن أبي شريف في كتابه «المسامرة شرح المسامرة»^(٣).

قال المفسر أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي في تفسيره المسمى «تفسير النسفي» عند قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٤) ما نصه^(٥): «ومن الإلحاد تسمية الله بالجسم والجوهر والعقل والعلة».

ومثل هذه الضلالات ما جاء في كتاب محمد راتب النابلسي المسمى «نظرات في الإسلام»^(٦) يسمي الله بالكنز فيقول: «وإلى الله استنادهم» ثم بعد ذلك يقول: «هو كنزهم».

= وغيرها. ولد سنة ١٩٣٨ م، وما زال حياً.

(١) محمد راتب النابلسي، المسمى نظرات في الإسلام، (ص ١٧٠).

(٢) السغدّي، علي بن الحسين بن محمد السغدّي، أبو الحسن، فقيه حنفي. أصله من السغد بنواحي سمرقند. سكن بخارى، وولي بها القضاء، وانتهت إليه رياسة الحنفية. ومات في بخارى. له: «التنف»، و«شرح الجامع الكبير». توفي سنة ٤٦١ هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٤، ص ٢٧٩).

(٣) ابن أبي الشريف، المسامرة شرح المسامرة، (ص ٤٠).

(٤) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

(٥) أبو البركات النسفي، تفسير النسفي، (ج ٢، ص ٨٧).

(٦) محمد راتب النابلسي، المسمى نظرات في الإسلام، (ص ١٨٨).

والعجب العجب ممن يتجرأ ويسمّي الله بالكنز مع عدم ورود هذا الاسم في الشرع من ذلك ما جاء في الكتاب المسمى «معراج التشوف إلى حقائق التصوف»^(١) المنسوب لابن عجيبة، يقولون فيه عن الله والعياذ بالله تعالى: «النور الأزلي الكنزي»، وفي الكتاب نفسه^(٢) يقولون فيه عن الله: «فلذلك قالوا في حق الخمرة الأزلية». والعياذ بالله من الكفر والضلال.

ومن ذلك ما جاء في الكتاب المسمى «أبواب الفرج»^(٣) فقال عن الله تعالى ما نصه: «وجار المستجيرين ومأمن الخائفين وكنز الطالبين». والعياذ بالله تعالى.

أما ما رواه الديلمي^(٤) في كتابه المسمى «مسند الفردوس» عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: «يا جار المستجيرين يا أمان الخائفين يا عماد من لا عماد له يا سند من لا سند له يا ذخر من لا ذخر له يا حرز الضعفاء يا كنز الفقراء»، فلم يثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه، كما ذكر ذلك الحافظ السخاوي في «القول البديع»^(٥) فقال: «ضعيف»، وقال ابن عراق^(٦) في كتابه

(١) المنسوب لابن عجيبة، المسمى معراج التشوف إلى حقائق التصوف، (ص ٨١).

(٢) المنسوب لابن عجيبة، المسمى معراج التشوف إلى حقائق التصوف، (ص ٧٦).

(٣) المسمى أبواب الفرج، (ص ٢٧٢).

(٤) شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمي الهمداني، أبو منصور، من رجال الحديث. من أهل همدان. يتصل نسبه بالضحاك بن فيروز الديلمي الصحابي. له: «مسند الفردوس» اختصر به كتاب «فردوس الأخيار». ولد سنة ٤٨٣هـ، وتوفي سنة ٥٥٨هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ١٧٩).

(٥) السخاوي، القول البديع، (ص ٣٣٥).

(٦) ابن عراق، علي بن محمد بن علي بن عبد الرحمن بن عراق الكناني، نور الدين، فقيه، متصوف له نظم، وفيه قوة على نقد الشعر. ولد في دمشق ورحل إلى الحجاز، فتولى الإمامة بالمدينة وتوفي فيها. له: «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة»، و«نشر اللطائف في =

«تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعة» بعد أن عزاه للدليمي عن ابن عباس: «لم يذكر علته وفيه من لم أعرفهم».

ثم إن هذه الألفاظ الواردة في هذا الكلام المركب لم يثبت لا في الكتاب ولا في السنة الصحيحة ولا في إجماع الأمة، فلا يعول عليه ولا يعتمد، وينزه الله تعالى عن مثل هذه الأوصاف.

وما زعمه بعض الجهال حديثاً قدسياً «كنت كنزاً مخفياً فأردت أن أعرف» فهو موضوع لا أصل له. ذكر ذلك الحافظ الزركشي في كتابه «اللائئ المثورة في الأحاديث المشهورة»^(١) المعروف بـ «التذكرة في الأحاديث المشتهرة» والحافظ العسقلاني كما نقل عنه ذلك تلميذه الحافظ السخاوي في كتابه «المقاصد الحسنة» والحافظ السيوطي في كتابه «الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة»^(٢) ومثلاً علي القاري في كتابه «الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة»^(٣) والعجلوني^(٤) في كتابه «كشف الخفا» ومحمد الحوت في كتابه «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب»^(٥)

= قطر الطائف»، و«شرح الأربعين النووية»، و«تذكرة الموضوعات»، و«كتاب الجمالين» حاشية على الجلالين. ولد سنة ٩٠٧هـ، وتوفي سنة ٩٦٣هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٥، ص ١٢، ١٣).

(١) الزركشي، اللائئ المثورة في الأحاديث المشهورة، (ص ١٣٦).

(٢) جلال الدين السيوطي، الدرر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة، (ص ٢٠٣).

(٣) ملا علي القاري، الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة، (ص ١٧٩).

(٤) العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء محدث الشام في أيامه. مولده بعجلون ومنشأه ووفاته بدمشق. له كتب منها: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»، و«الفيض الجاري في شرح صحيح البخاري»، و«شرح الحديث المسلسل بالدمشقيين»، و«عقد الجواهر الثمين». ولد سنة ١٠٨٧هـ، وتوفي سنة ١١٦٢هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ١، ص ٣٢٥).

(٥) محمد الحوت، أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب، (ص ٢٤٣).

والسخاوي في كتابه «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»^(١) والعلامة محمد بن طولون الصالحي في كتابه «الشدرة في الأحاديث المشتهرة»^(٢) وعبد الرحمن بن علي الشيباني الشافعي^(٣) في كتابه «تمييز الطيب من الخبيث في ما يدور على ألسنة الناس من الحديث»^(٤).

هؤلاء العلماء نصوا على أن هذا الحديث هو من جملة الأحاديث التي لا أصل لها وأن هذا الكلام المنسوب زورًا إلى الله عز وجل، يذكره بعض مدعي التصوف تساهلاً منهم. ومعناه فاسد لا يصح ولفظه موضوع فاسد. فمن أراد به الاسم فقد كذب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾^(٥)، و(كنز) اسم جماد، فكيف يسمى الله به؟؟!! فمن سمى الله «كنزًا» كفر، فالله تعالى لا يُشَبَّه بخلقه. و(مَخْفِيًا) اسم مفعول أي غيره أخفاه. والله هو المتصرف في العالم كما يريد ولا أحد يتصرف في الله. وليس مقبولاً أن يُتكلف له معنى لأنه مخالف للنصوص القرآنية. فهذا الكلام المنسوب إلى الله فيه كفران: الأول: زَعَمُ الراوي أن الله يسمي نفسه بأسماء الجمادات،

(١) السخاوي، المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، (ص ٢٤٣).

(٢) ابن طولون، الشدرة في الأحاديث المشتهرة، (ج ٢، ص ٥١).

(٣) ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني الزبيدي الشافعي، وجيه الدين، المعروف بابن الديبع، مؤرخ محدث من أهل زبيد في اليمن مولده ووفاته فيها. مات أبوه في الهند، ولم يره. ورباه جده لأمه. له: «بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد» قسم منه، و«الفضل المزيدي في تاريخ زبيد» ذيل للأول، و«قرة العيون في أخبار اليمن»، و«تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول»، و«أحسن السلوك في من ولي زبيد من الملوك». ولد سنة ٨٦٦هـ، وتوفي سنة ٩٤٤هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ٣١٨).

(٤) عبد الرحمن الشيباني، تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، (ص ١٤٢).

(٥) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

والكفر الآخر: زَعَمُ الراوي أن الله يقول بأن غيره أخفاه.

وقد نقل الإمام أبو منصور البغدادي التميمي الإجماع على عدم تسمية الله بالكنز في كتابه «تفسير الأسماء والصفات»^(١) فقال ما نصه: «فأما قول العامة في دعواها يارجانا ويا غياثنا ويا ظهر الأغنيا ويا كنز الفقرا... لا يجوز إطلاق شيء منه على الله عز وجل إلا أن يكون قد ورد بتسميته منه توقيف أو سنة إذ ليس ذلك في القرآن أو مما أجمع عليه علماء السلف، ولا يجوز أن يقال يا غياث المستغيثين وإنما يقال يا مغيث». وكذلك يكفر من قال عن الله تعالى يا جاري اللصيق كما في كتاب «نشوار المحاضرة»^(٢) للتنوخي فقد كَفَّرَ فيه من قال ذلك عن الله تعالى.

وقد سَمَّى بعض الناس الله أصلاً والعياذ بالله مخالفين بهذه التسمية الكتاب والسنة الصحيحة والإجماع ففي كتاب محمد راتب النابلسي المسمى «تأملات في الإسلام»^(٣) يسمي الله «أصلاً» فيقول: «فالله جل جلاله أصل الخير والحق والجمال».

وهذا كفرٌ صريحٌ لأنه تشبيهٌ لله بخلقه، فنحن نقول: الماء أصل العالم، والذي يسمي الله أصلاً أو مصدرًا فقد كذب قول الله عز وجل ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(٤).

(١) أبو منصور البغدادي، تفسير الأسماء والصفات، (ص ٥٨٢).

(٢) التنوخي، نشوار المحاضرة، (ج ٢، ص ١٥٤).

(٣) محمد راتب النابلسي، المسمى تأملات في الإسلام، (ص ٢٨).

(٤) سورة النحل، آية ٦٤.

ويكفي في الزجر عن ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ (١٨٠) (١) ولا يجوز تسمية الله بالسبب ولا بالعلة فمذهب أهل السنة أن السبب والمسبب مخلوق لله تعالى، وتسمية الله بالعلة أشدُّ قبحًا من تسميته بالسبب لأن العلة في اللغة المرض ونحوه والله أزليٌّ أبديٌّ ذاتًا وصفاتٍ، فما أبعد هذا الكلام من كلام مَنْ مَارَسَ كُتُبَ عقائدِ أهلِ السنةِ فحالُه كحالِ مَنْ لم يُعْرَجْ عليها بالمرّةِ.

ولا يجوز أن يسمى الله بالمستحي ولا يجوز أن يؤخذ من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ فَمَا فَوْقَهَا﴾ (٢١) (٢)، تسمية الله بالمستحي، ومعنى الآية أننا لا نترك استحياءً كما يترك البشرُ الشيءَ استحياءً، معناه أن الله لا يُحِبُّ تَرْكَ إِظْهَارِ الْحَقِّ فَلَا يَتْرُكُهُ لِلاِسْتِحْيَاءِ كَمَا يَفْعَلُ الْخَلْقُ، وهذا مستحيلٌ على الله.

ولا يجوز كذلك أن يشتق اسمُ المستحي لله من يستحي في الحديث الذي رواه الترمذي «إِنَّ اللَّهَ حَيُّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ» معناه لا يُخَيِّبُهُ، إما أن يعطيه الثواب وإما أن يعطيه ما طَلَبَ والثواب، ومعنى «رَفَعَهُمَا إِلَيْهِ» أي إلى جِهَةِ مَهَبِطِ الرَّحْمَةِ وَهِيَ السَّمَاءُ لِأَنَّهَا قِبْلَةُ الدَّعَاءِ كَمَا نَقَلَ الْإِجْمَاعُ عَلَى ذَلِكَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْمَالِكِيُّ الْبَغْدَادِيُّ فِي كِتَابِهِ «شَرْحُ عَقِيدَةِ مَالِكِ الصَّغِيرِ» (٣) فقال: «وَلِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ عَلَى أَنَّا مُتَعَبِّدُونَ فِي الدَّعَاءِ بِرَفْعِ أَيْدِينَا إِلَى جِهَةِ الْعُلُوِّ».

(١) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٦.

(٣) عبد الوهاب البغدادي، شرح عقيدة مالك الصغير، (ص ٢٦).

وكما نَصَّ على أن السماء قبله الدعاء الحافظ النووي في شرحه على مسلم، وسيف الدين الأمدى وكثير من علماء أهل السنة والجماعة، والله منزه عن الجهات كلها.

ومن الإلحاد والكفر أيضًا قول بعض الناس في مناجاتهم لله: «يا صاحب الصوت العالى»، فالله تعالى أزلي أبدي وكلامه أزلي أبدي فلو كان يتكلم بحرف وصوت ولغة لكان مخلوقًا كالعالم لأن حدوث الصفة يستلزم حدوث الذات، فكلام الله تعالى لا يشبه كلام المخلوقين ولا بأي وجه من الوجوه.

ومن الإلحاد والكفر أيضًا قول بعض الناس في بيروت عن الله تعالى: «أبو الخيمة الزرقاء»، وهم يفهمون معنى كلمة «الأب» ويعنون «بالخيمة الزرقاء» السماء، وقد أجمعت الأمة على تكفير من نسب الأبوة أو البنوة لله تعالى.

ومن الإلحاد في أسماء الله قول بعض الناس في حمص عن الله تعالى إذا نضج التين والتمر: «طبّاخ التين» أو «طبّاخ التمر»، وبعضهم يقول: «صبّاخ الليمون» أو «سبحان المقيم»، وهذا كله لم يرد في دين الله عز وجل فلا يجوز إطلاقه على الله تعالى.

ويجب التحذير أيضًا من قول بعض الناس: «الله يشعر بنا» أو «الله يحس بنا» أو «نحس بوجود الله معنا» أو «نشعر بالله معنا» وقول ابن تيمية الحراني شيخ المشبهة في كتابه المسمى «مجموع الفتاوى»: «وأكثر أهل الحديث يصفونه باللمس»، فهذا كذبٌ على أهل الحديث، تنزه الله عن ذلك.

قال الرازي في «مختار الصحاح» ما نصه^(١): «وقوله تعالى: ﴿لَا مِسَاسَ﴾^(٢) أي لا أَمَسُّ ولا أَمَسُّ».

وقال الإمام زين العابدين في ما رواه عنه الحافظ الزبيدي: «لا إله إلا أنت سبحانك لا يحويك مكان لست بمحدود لا تُحَسُّ ولا تَمَسُّ ولا تُمَسُّ». والإحساس والشعور صفة المخلوق ويحتاج فيها المخلوق إلى عصب وجلد وغير ذلك من صفات المخلوقين، وإطلاق هذا على الله كفر. ومن الإلحاد والكفر أيضًا نسبة الشَّمِّ إلى الله تعالى كما فعل ابن تيمية الحراني شيخ المجسمة وإمام المشبهة، ونسب هذا الكفر كذبًا وزورًا إلى أئمة الأصول والعقيدة، وقد قال الله عزَّ وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٣)، ولا حجة له ولا لغيره في قول النبي ﷺ: «لخُوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» رواه البخاري^(٤) ومسلم^(٥).

وقال المجسم ابن تيمية أيضًا في كتابه المسمى «بيان تلبيس الجهمية» ما نصه^(٦): «الله يجوز أن يُحَسَّ به بالحواس الخمس السمع والبصر والشم والذوق واللمس». والعياذ بالله تعالى من التجسيم.

ويقول الوهابي ابن باز في الكتاب المسمى «مسائل الإمام ابن باز» ما

(١) الرازي، مختار الصحاح، (ص ٦٢٤).

(٢) سورة طه، آية ٩٧.

(٣) سورة الشورى، آية ١١.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، (ج ٢، ص ٦٧٠)، حديث ١٧٩٥.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، (ج ٣، ص ١٥٧)، حديث ٢٧٦٢.

(٦) ابن تيمية الحراني، بيان تلبيس الجهمية، (ج ٣، ص ٥٦٥، ٥٦٦).

نصه^(١): «سؤال: هل يؤخذ من الحديث (أطيب عند الله من ريح المسك) إثبات صفة الشم لله عز وجل؟ الجواب: ليس بعيداً».

وقد تكلم علماء أهل السنة والجماعة الحفاظ في شرح هذا الحديث مُنزهين الله عن صفة الشم واصفينه بما يليق به فقد قال الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي في كتابه «طرح التثريب في شرح التقريب»^(٢) في شرحه على هذا الحديث ما نصه: «اختلف في معنى كون هذا الخلوف أطيب من ريح المسك بعد الاتفاق على أنه سبحانه وتعالى منزّه عن استطابة الروائح الطيبة واستقذار الروائح الخبيثة فإن ذلك من صفات الحيوان الذي له طبائع تميل إلى شيء فتستطيبه، وتنفر من شيء فتستقذره».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» في شرحه على هذا الحديث في كتاب الصيام باب فضل الصوم: «القدوري»^(٣) من الحنفية والداودي^(٤) وابن عربي من المالكية والقاضي حسين والخطابي وأبو عثمان

(١) ابن باز، المسمى مسائل الإمام ابن باز، (ص ٢٧٨).

(٢) العراقي، طرح التثريب في شرح التقريب، (ج ٤، ص ٩٤).

(٣) القدوري، أحمد بن محمد بن أحمد بن جعفر بن حمدان أبو الحسين القدوري، فقيه حنفي. ولد ومات في بغداد. انتهت إليه رئاسة الحنفية في العراق، وصنف المختصر المعروف باسمه «القدوري» في فقه الحنفية، ومن كتبه: «التجريد». ولد سنة ٣٦٢هـ، وتوفي سنة ٤٢٨هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ١، ص ٢١٢).

(٤) أحمد بن نصر الداودي، الأسدي، المالكي، أبو جعفر. محدث، فقيه، ومتكلم. سكن طرابلس الغرب، وتوفي بتلمسان. من مصنفاته: «النامي في شرح الموطأ». توفي سنة ٤٠٢هـ. عمر كحالة، معجم المؤلفين، (ج ٢، ص ١٩٤).

الصابوني والنووي وأبو بكر بن السمعاني^(١) وغيرهم من الشافعية جزموا كلهم بأنه عبارة عن الرضا والقبول».

قال الحافظ اللغوي محمد مرتضى الزبيدي في كتابه «إتحاف السادة المتقين» ما نصه^(٢): «وأما على القول بجواز إطلاق المشتق مما يثبت سمعاً اتصافه بمعناه وما يُشعر بالجلال ولم يوهم نقصاً وإن لم يرد توقيف كما ذهبت إليه المعتزلة وأبو بكر الباقلائي فخطأً أيضاً لأنه لم يوجد في السمع ما يُسَوِّغُ إطلاقه ولأن شرطه بعد السمع ألا يوهم نقصاً فيكتفون حيث لا سمع بدلالة العقل على اتصافه تعالى بمعنى ذلك اللفظ. ومن قال بإطلاق الألفاظ التي هي أوصاف دون الأسماء الجارية مجرى الأعلام كالمصنف يعني الغزالي في المقصد الأسنى والإمام الرازي فالشرط عنده كذلك في ما أجازته دون توقيف. واسم الجنس يقتضي النقص من حيث اقتضاؤه الافتقار إلى أجزائه التي يتركب منها وهو أعظم مقتض للحدوث، فمن أطلقه عليه تعالى فهو عاص، بل قد كفره الإمام ركن الإسلام قاضي القضاة علي بن الحسين بن محمد السغدري في من أطلق عليه اسم السبب والعلة وهو أظهر، كما نقل عنه ذلك كمال الدين محمد بن همام الدين المشهور بابن الهمام في كتاب «المسامرة في علم الكلام»^(٣)، فإن إطلاقه عليه وهو غير مكره عليه

(١) السمعاني، محمد بن منصور بن عبد الجبار التميمي السمعاني المروزي، أبو بكر، فقيه محدث، من الوعظ المبرزين. له علم بالتاريخ والأنساب. وله كتب في الحديث والوعظ، منها: «الأمالى» مائة وأربعون مجلساً. قال السبكي: «في غاية الحسن والفوائد». مولده ووفاته بمرو. سمع بنيسابور وبغداد وهمدان وأصبهان ومكة وغيرها. وهو والد «عبد الكريم» صاحب كتاب الأنساب. ولد سنة ٤٦٦ هـ، وتوفي ٥١٠ هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٧، ص ١١٢).

(٢) محمد مرتضى الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، (ج ٢، ص ١٠٠).

(٣) ابن أبي الشريف، المسامرة شرح المسامرة، (ص ٢٨).

بعد علمه بما فيه من اقتضاء النقص استخفاف بالربوبية وهو كفر إجماعاً.
وبعد أن قُرّر أنّه لا يجوز تسمية الله بصفات النقص وأنه لا يجوز تسميته
بغير ما ورد في القرآن أو السنة الصحيحة أو الإجماع يُعلم من ذلك حرمة
إطلاق الروح على الله، وفساد قول بعض الناس إنّ آء اسم من أسماء الله لأن
آء باتفاق علماء اللغة لفظ وضع للشكاية والتوجع. وقد قرر أهل المذاهب
الأربعة أن الأئين والتأوه يفسد الصلاة، وآء من جملة ألفاظ الأئين، وقد
عدّها الزبيدي في شرح القاموس اثنتين وعشرين كلمة.

وما يروى من أن الأئين اسم من أسماء الله فلا أصل له أخرجه الرافعي
في تاريخ قزوين بإسنادٍ تالفٍ وهو مناقض لقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَىٰ﴾ (١٨٠) (١)، فقد فسّروا الحسنى بالدالة على الكمال، فلا يجوز أن
يكون اسم من أسماء الله تعالى دالاً على خلاف الكمال. وما يدل على العجز
والشكاية والتوجع مستحيل أن يكون اسمًا لله تعالى، وذلك دليلٌ على أن
الحديث المذكور موضوع كما قال الحافظ أحمد بن صديق الغماري (٢) في
كتابه «الحنين بوضع حديث الأئين».

ولا عبرة بما ورد في بعض كتب المتصوفة بإطلاق اسم الروح على الله

(١) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

(٢) أحمد بن محمد بن الصديق بن أحمد، أبو الفيض الغماري الحسني الأزهري، متفقه شافعي
مغربي، من نزلاء طنجة. تعلم في الأزهر، واستقر وتوفي بالقاهرة. عرف بابن الصديق كآبيه.
له كتب منها: «رياض التنزيه في فضل القرآن وحامله»، و«مطالع البدور في جوامع أخبار
البرور»، و«إقامة الدليل»، و«توجيه الأنظار لتوحيد المسلمين في الصوم والإفطار»، و«التصور
والتصديق»، و«المعجم الوجيز للمستحيز»، و«إبراز الوهم المكنون من كلام ابن خلدون».
توفي سنة ١٣٨٠ هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٢، ص ٢٩٠).

سبحانه لأن «الروح» اسم جامد ليس من الأوصاف حتى ينطبق عليه قول الغزالي، ولأنه يدل على النقص؛ فالروح جسم لطيف محدث يتعلق بالبدن والله منزه عن أن يكون كذلك^(١).

ولا يجوز أيضاً إطلاق الفم على الله أو الأذن لأنهما من قبيل الأجسام، ويستحيل أن يكون الله تعالى جسمًا إذ لو كان جسمًا لجاز عليه ما يجوز على الأجسام من الفناء والتغير ونحو ذلك ووجب له ما يجب للأجسام كالحدوث، ولصحت الألوهية للشمس والقمر والسماء والملائكة والجن وغير ذلك، وذلك محال، وما أدى إلى المحال، وهو كونه جسمًا محال.

أما الوجه فقد ورد في القرآن إطلاقه على الله بمعنى الذات كقوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٢). وهنا يتعين تفسيره بالذات لأنه ورد مرفوعًا موصوفًا بـ ﴿ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٣)، وذو مرفوع أيضًا لأن الصفة تتبع الموصوف في الإعراب والذات المقدّس هو الموصوف بالجلال والإكرام.

وليس في ذلك حجة للمجسمة الذين يعتقدون أن الله تعالى له وجه بمعنى الجزء المعهود.

أما العين واليد إذا أضيفتا إلى الله فلا يراد بهما الجارحتان اللتان للإنسان ونحوه، قال البيهقي في كتابه «الاعتقاد» وغيره: «إنهما صفتان ليستا

(١) إطلاق الروح على الله كفر.

(٢) سورة الرحمن، آية ٢٧.

(٣) سورة الرحمن، آية ٢٧.

جارحتين، قال أبو حنيفة: ولكن يده صفتة بلا كيف، وقال في الفقه الأيسط:
ليست بجارحة.

وقال البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» ما نصه: «وقال أبو سليمان
الخطابي رحمه الله: ليس في ما يضاف إلى الله من صفة اليدين شمال لأن
الشمال محل النقص والضعف، وقد روي: «وكلتا يديه يمين»^(١)، وليس
معنى اليد عندنا الجارحة إنما هو صفة جاء بها التوقيف فنحن نطلقها على
ما جاءت ولا نكيّف، وننتهي إلى حيث انتهى بنا الكتاب والأخبار المأثورة
الصحيحة وهو مذهب أهل السنة والجماعة»^(٢).



(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٠، ص ٢٠١).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤١٩). القرطبي، الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، (ج ٢،
ص ٣٣).

المبحث السابع عشر

تأويل قوله تعالى

﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾^(١)

المكرُّ من الخلقِ خُبثٌ وِخْدَاعٌ لا يَصِلُ الضَّررُ إلى الغيرِ باستعمالِ حيلةٍ، وأما من الله تعالى فهو مُجازاةُ الماكرين بالعُقوبة من حيث لا يدرون. وبعبارة أخرى إنَّ الله أقوى في إيصال الضَّررِ إلى الماكرين من كل ماكر، جزاءً لهم على مَكْرِهِم، أما المكرُّ بمعنى الاحتيال فهو مستحيل على الله.

قال ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير»: «قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ﴾^(٢)، قال الزجاج: المكر من الخلق: خبث وِخْدَاعٌ، ومن الله عز وجل: المجازاة، فسُمِّيَ باسم ذلك، لأنه مجازاة عليه، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٣) «^(٤). أي أن الله يجازيهم على استهزائهم بالمؤمنين فينتقم منهم.

وقال البغوي في تفسير قوله تعالى ﴿وَمَكْرُؤًا وَّمَكْرَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينِ﴾^(٥) ما نصه: «قال الضحاك: يصنعون ويصنع الله. والمكر: التدبير وهو من الله التدبير بالحق. وقيل: يجازيهم جزاء المكر»^(٦).

(١) سورة آل عمران، آية ٥٤.

(٢) سورة آل عمران، آية ٥٤.

(٣) سورة البقرة، آية ١٥.

(٤) ابن الجوزي، زاد المسير، (ج ١، ص ٣٩٥).

(٥) سورة آل عمران، آية ٥٤.

(٦) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٢، ص ٢٤٤).

وقال ابن جرير الطبري في تفسيره ما نصه: «وأما مكر الله بهم فإنه فيما ذكر السدي: إلقاءه شبه عيسى على بعض أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى وهم يحسبونه عيسى عليه السلام، وقد رفعه الله عز وجل قبل ذلك». وبمعناه قال ابن كثير.

وقال شيخ زاده في «حاشيته على تفسير البيضاوي»^(١): «قوله أي البيضاوي: والمكر من حيث الأصل حيلة، أي احتيال في إيصال الشر، والاحتيال محال في حقه تعالى، فسمى جزاء المكر مكرًا كما سمي جزاء المخادعة بالمخادعة، وجزاء الاستهزاء بالاستهزاء، أو أن معاملة الله تعالى كانت شبيهة بالمكر فسميت مكرًا على سبيل الاستعارة».

وقال الخازن في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَكْرُؤًا﴾: «يعني كفار بني إسرائيل الذين أحس عيسى منهم الكفر. وأصل المكر صرف الغير عما يقصده بضرب من الحيلة، وقيل: هو السعي بالفساد في الخفية، فأما مكرهم بعيسى فإنهم دبروا في قتله وهموا به وذلك أن عيسى عليه السلام بعد أن أخرجه قومه هو وأمه رجع مع الحواريين وصاح فيهم بالدعوة وأظهر رسالته إليهم فهِمَّوْا بقتله، والفتك به، فذلك مكرهم والمكر من الخلق الخبث والخديعة والحيلة. ﴿وَمَكْرَ اللَّهِ﴾ أي جازاهم على مكرهم فسمي الجزاء باسم الابتداء لأنه في مقابلته. وقيل: مكر الله استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يحتسب»^(٢).

ومن جملة ما نقله الفخر الرازي في تفسيره أن المكر عبارة عن الاحتيال

(١) الشيخ زاده، حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي، (ج ١، ص ٦٣٣).

(٢) الخازن، تفسير الخازن، (ج ١، ص ٣٥٣، ٣٥٤).

في إيصال الشر، والاحتيايل على الله تعالى محال، فصار لفظ المكر في حقه من المتشابهات^(١).

ففي هذه الآية أسند الله إلى نفسه المكر، ومكر الله ليس كمكر العباد، مكر الإنسان أن يُحاول إيصال الضرر إلى إنسانٍ بطريقةٍ خفيةٍ يحتاج فيها إلى استعمال بعض الحيل، أما مكر الله فليس هكذا، مكر الله هو إيصال الضرر إلى من يشاء من عباده من حيث لا يعلم ذلك العبد ولا يظن ولا يحتسب أن الضرر يأتيه من هنا.

فمكر العبد مذمومٌ أما مكر الله لا يُذمُّ لأنَّ الله لا يجوز عليه الظلم، لا يكون ظالماً إن انتقم من عباده الظالمين بما شاء.

ويكفر من يسمي الله «ماكراً» لأنه لا يدل على المدح والكمال، فلا يُؤخذ الماكر اسماً لله من هذه الآية كما ظن بعض الكفار ولا تعطي - هذه الكلمة - هذا المعنى بالمرة.

وأما معنى الخداع ففي تفسير «الدر المنثور»^(٢): قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدي في قوله تعالى ﴿وَهُوَ خَدِعُهُمْ﴾^(٣): يعطيهم يوم القيامة نوراً يمشون فيه مع المسلمين كما كانوا معه في الدنيا ثم يسلبهم ذلك النور فيطفئه فيبقون في ظلمتهم. أخرجه ابن جرير وابن المنذر، وبه قال الحسن، وأخرجه ابن جرير الطبري^(٤).

(١) الرازي، تفسير الرازي، (ج ٨، ص ٦٦، ٦٧).

(٢) السيوطي، الدر المنثور، (ج ٢، ص ٧١٩).

(٣) سورة النساء، آية ١٤٢.

(٤) الطبري، تفسير الطبري، (ج ٤، ص ٣٣٢).

وقال ابن جرير: «إِنَّ الْمُنْفِقِينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ ﴿١٤٢﴾»^(١) بإحرازهم دماءهم وأموالهم ونفقاتهم والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا ألسنتهم من الإيمان مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر استدراجاً منه لهم في الدنيا حتى يلقوه في الآخرة فيوردهم بما استبطنوا أي اتخذوه في باطنهم من الكفر نار جهنم». وكذا قال ابن عطية في تفسيره^(٢)، وابن كثير^(٣) وغيرهم.



(١) سورة النساء، آية ١٤٢.

(٢) ابن عطية، تفسير ابن عطية، (ج ٤، ص ٢٨٨).

(٣) ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج ١، ص ٥٣٧، ٥٣٨).

المبحث الثامن عشر تأويل قوله تعالى

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾^(١)

قال الفخر الرازي في «التفسير الكبير» ما نصه^(٢): «قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾^(٣) ونظيره قوله تعالى حكاية عنه ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾^(٤)»، ثم قال: «﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي متمم عمرك فحينئذ أتوفاك فلا أتركهم حتى يقتلوك بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن».

ثم نقل الرازي عن بعض المفسرين أنهم قالوا^(٥): «إن قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾^(٦) يقتضي أنه رفعه حيًّا، والواو لا تقتضي الترتيب، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير والمعنى إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن. والمراد بقوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ أي إلى محل كرامتي وجعل ذلك رفعًا إليه للتفخيم والتعظيم، ومثله قوله

(١) سورة آل عمران، آية ٥٥.

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، (ج ٨، ص ٦٠).

(٣) سورة آل عمران، آية ٥٥.

(٤) سورة المائدة، آية ١١٧.

(٥) الرازي، مفاتيح الغيب، (ج ٨، ص ٦١).

(٦) سورة آل عمران، آية ٥٥.

﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾^(١)، أي إلى طاعة ربي، أي إلى حيث وَجَّهني ربي، إلى مكانٍ أمرني الله أن أذهب إليه، وإنما ذهب إبراهيم عليه الصلاة والسلام من العراق إلى بَرِّ الشام لأنه عرفَ، بتعريف الله إياه، أن الشام مهبط الرحمات وأن أكثر الوحي يكونُ بالشام وأن أكثر الأنبياء كانوا بها، وقد يقول السلطان ارفعوا هذا الأمر إلى القاضي، فكذا ههنا.

ومثل ذلك قال القرطبي في تفسيره^(٢) «الجامع لأحكام القرآن» في شرحه لهذه الآية.

وقال أبو حيان الأندلسي: «الرفع نقل من سفلى إلى علو، و﴿إِلَى﴾، إضافة تشريف. والمعنى: إلى سمائي ومقر ملائكتي. وقد علم أن البارئ تعالى ليس بمتحيز في جهة، وقد تعلق بهذا المشبهة في ثبوت المكان له تعالى وقيل: إلى مكان لا يملك الحكم فيه في الحقيقة ولا في الظاهر إلا أنا، بخلاف الأرض، فإنه قد يتولى المخلوقون فيها الأحكام ظاهراً وقيل: إلى محل ثوابك. قال ابن عباس: رفعه إلى السماء، سماء الدنيا، فهو فيها يسبح مع الملائكة، ثم يهبه الله عند ظهور الدجال على صخرة بيت المقدس»^(٣).

ومن أمثلة التقديم والتأخير في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُ وَغُثَاءً أَحْوَىٰ﴾^(٤)^(٥)، ومعروف أن النبات يكون أولاً طرياً أخضر اللون

(١) سورة الصافات، آية ٩٩.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ٤، ص ٩٩، ١٠٠).

(٣) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج ٢، ص ٣٦٠).

(٤) سورة الأعلى، آية ٥.

(٥) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج ٢، ص ٣٦٠).

ثم يجف ويبس، وأما الآية ففيها ﴿غُثَاءً﴾ أي يابسًا، ثم جاء فيها ﴿أَحْوَى﴾ أي أخضر، والمعنى أنه بعد الخضرة يجف ويبس لكن التقديم والتأخير من أساليب البلاغة.

وليس صحيحًا أن عيسى عليه الصلاة والسلام عندما رُفِعَ إلى السماء كان ميتًا ثم أحياه الله في السماء، هذا كذب يجب الحذر منه، وقال القرطبي في تفسيره عن هذا القول: «وهذا فيه بعد»^(١).

وليس صحيحًا أنه رفع نائمًا، بل الصحيح والمعتمد أنه رفع إلى السماء حيًا يقظان، وهذه معجزة عظيمة له عليه الصلاة والسلام.

ومن سخافة عقول الوهابية أنهم احتجوا بهذه الآية على أن الله تعالى في السماء ورفع عيسى «حقيقة» إليه، وهذا من أسخف السخافات، لأن الله تعالى هو الذي خلق السماوات والأرض والجهات كلها، يعني كان موجودًا قبلها، فعلى زعم ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وابن باز ومحمد خليل هراس^(٢) ومحمد العريفي^(٣) الوهابية، أن الله تعالى بذاته حقيقة في السماء

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ٤، ص ٩٩).

(٢) محمد خليل هراس (المجسّم)، من دعاة الوهابية، مدرّس في جامعة محمد بن سعود في الرياض. أُلّف كتابًا في الدفاع عن ابن تيمية، وله عدة تصانيف منها: «تحقيق وتعليق على الكتاب المسمى «التوحيد» لابن خزيمة، و«شرح القصيدة النونية» لابن القيم، و«ابن تيمية ونقده لمسالك المتكلمين في مسائل الإلهيات»، وشرح المسمى «العقيدة الواسطية» لابن تيمية. ولد سنة ١٣٣٤هـ، وتوفي سنة ١٣٩٥هـ.

(٣) محمد العريفي (المجسّم)، من دعاة الوهابية، مدرس في جامعة محمد بن سعود في الرياض. من مشايخه: ابن باز، وعبد الله بن جبرين ومحمد صالح العثيمين. من تصانيفه: «الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية» وهي نونية ابن القيم، و«موقف ابن تيمية من الصوفية» وغيرها. ولد سنة ١٣٩٠هـ، وما زال حيًّا.

ورفع المسيح حقيقة إليه، فعلى زعمهم أين كان الله قبل أن يخلق السماء؟! وإن كان كما زعموا فقد جعلوا الله تعالى مع المسيح في السماء الثانية حقيقة، وعلى قولهم هذا فقد جعلوا الله تحت أقدام الملائكة الذين في السماء الثالثة، وجعلوا الله تعالى جسمًا تحاصره السماوات، وجعلوا الله محتاجًا إلى خلقه، وجعلوا الله متغيرًا متطورًا متبدلاً عاجزًا ضعيفًا يتغير من حال إلى حال، والتغير أكبر علامات الحدوث، وتنزه الله عن ذلك علوًا كبيرًا. وإليكم نصوص عباراتهم التي تدل على جهلهم العريض:

يقول شيخ المجسمة والمشبهة أحمد بن تيمية الحراني في كتابه المسمى «بيان تلبيس الجهمية»^(١): «قال تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ السَّمَاءِ﴾ وأجمعت الأمة على أن الله عز وجل رفع عيسى إليه إلى السماء».

ويقول تلميذه الذي جمع كتبه وعقيدته المخالفة لكتاب الله وسنة نبيه وإجماع الأمة ابن قيم الجوزية في كتابه المسمى «نونية ابن قيم» مع شرح الوهابي محمد خليل هراس عليها ما نصه^(٢): «وإليه رفع المسيح حقيقة ولسوف ينزل كي يرى بعيان». هذا الوهابي المجسم محمد خليل هراس يقول شارحًا لهذا البيت مفتريًا على الله ودينه وأهل السنة والجماعة: «هذا من جملة كلام أهل السنة والجماعة في إثبات الفوقية لله عز وجل على الحقيقة حيث أخبر سبحانه أنه رفع عيسى عليه السلام إليه بجسده وروحه حيًا كما قال تعالى: ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَرَافِعَكَ إِلَىٰ السَّمَاءِ﴾»^(٣).

(١) ابن تيمية الحراني، بيان تلبيس الجهمية، (ج ٤).

(٢) ابن قيم الجوزية، نونية ابن القيم، (ص ٧٠).

(٣) سورة آل عمران، آية ٥٥.

وقال مثل ذلك ابن باز مفتي الوهابية مستشهداً بهذه الآية بزعمه في إثبات الجهة لله تعالى، ذكر ذلك في موقعه الرسمي على الإنترنت.

ومثل ذلك قال الوهابي محمد العريفي المجسم ناقلاً عن ابن باز كذلك في موقعه الرسمي على الإنترنت.

قال تابعهم عبد الهادي حسن وهبي^(١) في كتابه المسمى «غاية البيان في إثبات علو الرحمن» ما نصه^(٢): «وليس المراد بأن السماء تحصر الرب وتحويه كما تحوي الشمس والقمر وغيرهما فإن هذا لا يقوله مسلم ولا يعتقده عاقل».

فكيف يتفق هذا مع قول ابن قيم الجوزية «إن الله رفع المسيح إليه حقيقة»؟ فهم متناقضون يُكفِّر بعضهم بعضاً.

وقول ابن القيم ومن وافقه إن الله حقيقة في السماء الثانية، يؤدي إلى أن الله محصور بلا شك، وقد كَفَّرَ الإمام جعفر الصادق من يقول ذلك. قال رضي الله عنه: «من زعم أن الله تعالى في شيء أو من شيء أو على شيء فقد أشرك، إذ لو كان في شيء لكان محصوراً، ولو كان من شيء لكان محدثاً، ولو كان على شيء لكان محمولاً». رواه القشيري في الرسالة القشيرية^(٣).

(١) عبد الهادي حسن وهبي (المجسم)، من دعاة الوهابية. يرأس الجمعية المسماة «السراج المنير الإسلامية». من مشايخه: ابن باز، وابن عثيمين، وناصر الدين الألباني. من مصنفاته: المسمى «الكلمات الحسان في بيان علو الرحمن»، والمسمى «الأسماء الحسنى والصفات العلى»، والمسمى «غاية البيان في إثبات علو الرحمن». ولد سنة ١٣٧٨هـ، وما زال حياً.

(٢) عبد الهادي وهبي، المسمى غاية البيان في إثبات علو الرحمن، (ص ٢٧).

(٣) القشيري، الرسالة القشيرية، (ص ٤٦).

قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (١٠٤). فهل الله
بزعمكم يكون طاوياً ومطوياً في آن واحد.

فلا مفر ولا مهرب للوهابية وأئمتها من الكفر والضلال إلا بأن يتركوا ما
هم عليه ويرجعوا إلى مذهب أهل السنة والجماعة من التنزيه والتوحيد.



(١) سورة الأنبياء، آية ١٠٤.

المبحث التاسع عشر

تأويل قوله تعالى

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ (١٨) ﴿١﴾

هذه الآية فيها تحذير من قول اليهود والنصارى «نحن أبناء الله» ومن قول كل من نسب لله الولد ولو كان مازحًا أو غاضبًا أو عن غير اعتقاد أو يزعم معنى آخر للكلمة أو قال «أردتُ معنى مجازيًا»، لأن قولهم هذا كفر لا تأويل له، ولا اعتبار لقول بعض هؤلاء «نحن لا نقصد البنوة بمعنى الولادة إنما نقصدُ العناية والعطفَ والرحمة»، فقد ذكر المفسر ابن عطية الأندلسي عند شرحه للآية ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ﴾ (٢) في تفسيره «المحرر الوجيز» أن إطلاق نسبة البنوة إلى الله ولو قصد به الحنان كفرًا، فقال ما نصه (٣): «والبنوة في قولهم هذا بنوة الحنان والرأفة، وذكروا أن الله تعالى أوحى إلى إسرائيل أن أول أولادك بكري فضلوا بذلك». والضلال هنا هو الكفر، كما نقل القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» (٤) عن ابن عطية، ونص عبارته: «قال ابن

(١) سورة المائدة، آية ١٨.

(٢) سورة المائدة، آية ١٨.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، (ج ٢، ص ١٧٢).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (م ٨، ص ١١٧).

عطية: ويقال إن بعضهم يعتقدونها بنوة حنو ورحمة وهذا المعنى أيضا لا يحل أن تطلق البنوة عليه وهو كفر».

وقد ذكر القرافي المالكي في كتابه «الفروق» وبهامشه «أدرار الشروق على أنواع الفروق»^(١) لابن الشاط ناقلًا عن القاضي عياض المالكي الإجماع على تكفير من نسب الأبوة والبنوة إلى الله تعالى.

فالحذر مما قاله المجسم ابن تيمية الحراني في كتابه المسمى «بيان تليس الجهمية»^(٢) وفي كتابه المسمى «شرح حديث النزول»^(٣) يقول: «وفي الإنجيل^(٤) أن المسيح قال: لا تحلفوا بالسماء فإنها كرسي الله، وقال للحواريين: إن أنتم غفرتُم للناس فإن أباكم الذي في السماء يغفر لكم كلكم، انظروا إلى طير السماء فإنهن لا يزرعن ولا يحصدن ولا يجمعن في الأهواء، وأبوكم الذي في السماء هو الذي يرزقهم، أفلستم أفضل منهن؟ ومثل هذا من الشواهد كثير يطول به الكتاب».

وقد حاول بعض المعلقين من الوهابية وهو يحيى بن محمد الهندي^(٥) أن يؤول كفر ابن تيمية وذلك في تعليقه على كتاب ابن تيمية المسمى «بيان تليس الجهمية» فإنه قال: «إن معنى أباكم أي ربكم الله». وهذا مسلك في

(١) ابن الشاط، أدرار الشروق على أنوار الفروق، (ج ١، ص ١١٧).

(٢) ابن تيمية الحراني، بيان تليس الجهمية، (م ٤، ص ٤٨٩، ٤٩٠).

(٣) ابن تيمية الحراني، المسمى شرح حديث النزول، (ص ٢١٧).

(٤) وفي حاشيته قال المعلق وهو محمد بن عبد الرحمن الخميس المشبه المجسم الوهابي: «في الإنجيل الصحيح». كيف يقول عما حُرِّف ووُضِع فيه كفرٌ وضلال «الإنجيل الصحيح»!! معاذ الله.

(٥) داعٍ من دعاة الوهابية.

التعصب لا غير بل ينطبق عليه ما قاله ابن عطية إنه كفر صريح، ومن العجب أن الوهابية تُكفّر المتأولين فكيف لجأوا هنا إلى التأويل البعيد غير الموافق لقواعد الدين واللغة العربية وما ذاك إلا ليسوغوا لشيخهم قول الضلال وهيهات أن يسوغوا، بل ثبت عند كل محقق أنهم مذبذبون يؤلفون دينًا على حسب أهوائهم لتأييد معتقداتهم الكفرية، فانظر كيف لا يقبلون أن نؤوّل الآيات المتشابهات ويقولون «التأويل تعطيل» وكيف أجازوا لأنفسهم أن يؤولوا كفر شيخهم وإمامهم الصريح ابن تيمية الحراني؟! فيا لفضيحتهم ويا لتناقضهم ويا لسخافتهم.

ومثله أحمد ديدات^(١) في مناظرته المسماة «هل المسيح ابن الله» في اسكندنافيا في تسجيل له بالصوت والصورة من إنتاج «المغامسي للإنتاج والتوزيع المدينة المنورة»، يقول: «مجازاً نحن جميعاً أبناء الله وعياله، الطيبون منا والأشرار، وعلى هذا الأساس يمكن أن يكون عيسى أقربنا في النبوة لأنه أكثرنا إخلاصاً لله أكثر منا، فمن هذه الناحية يمكن أن ننظر له ابناً لله».

ولحقه علي جمعة الذي يقول في كتابه المسمى «الدين والحياة»^(٢) حين سُئِلَ، قيل له: «هل يجوز أن أقول أنا ابن الله؟ فقال: لأن السيد المسيح كان كثيراً ما يستخدم هذه الكلمة فكان يقول قال أبوكم الذي في السماء، إن أبانا

(١) أحمد ديدات، منتسب للإسلام، ردّ على فرق أهل الضلال في بعض المسائل ووافقهم في بعض. ما سبق له أن تلقى العلم عن عالم، ليس معتمداً في نقله ولا يوثق بمحاضراته، يخلط ويخبط خبط عشواء. ومن ذلك قوله: «يُمكّن أن نعتبر السماء رمزاً عن مسكن الرب» وهذا قول النصارى والعياذ بالله.

(٢) علي جمعة، المسمى الدين والحياة، (ص ١٧١).

الذي في السماء، ثم قال والأبوة هنا بمعنى الرعاية والعناية والرزق والكلاء، فهي من الألفاظ التي حُرِفَت عن معانيها الأصلية فضلوا بها، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ﴾^(١)، ثم قال فهذه الكلمة لا بأس بها بمعنى عيال الله أو خلق من خلقه، لكن بعد ذلك نستدرج إلى البنوة الحقيقية والأبوة الحقيقية فهذا كلام لا يقول به إلا جاهل» والعياذ بالله تعالى.

ومن الضلال ما في الكتاب المسمى «الكتاب المدرسي الوطني، القراءة العربية التعليم الأساسي السنة الثامنة الجمهورية اللبنانية» يقولون^(٢): «وأبصرُ الله على هيئة نخلة، كتاج نخلة يبيّض في الظلام، أحسُّه يقول: يا بني».

وفي مجلة أتباع رجب ديب^(٣) المسمّاة «الأحباب» يقولون^(٤): «وإن معنى البنوة والأبوة الواردة في الأناجيل تتطابق مع معنى الإيمان بالله ومحبته» ثم قالوا: «أي إن كل مؤمن بالله عز وجل يُدعى ابناً لله أي مؤمناً به محباً له» ثم قالوا «أي إن كل صانع للسلام بين البشر في العالم أجمع يدعى ابناً لله أي مؤمناً به محباً له». وهذا أخذوه من شيخهم رجب ديب الذي قال في شريط بصوته: «ليس عيسى وحده ابن الله، بل كلنا أبناء الله».

(١) سورة المائدة، آية ١٨.

(٢) الجمهورية اللبنانية، الكتاب المدرسي الوطني، (ص ٢٩).

(٣) رجب ديب، رجلٌ عاميٌّ، لا يحفظ القرآن ولا يعرف العقيدة ولا الفقه ولا الحديث، حماميٌّ، كان يعمل كياًساً في دمشق، وعمل في أعمال أخرى كإصلاح السيارات كما ذكر ابنه في الكتاب المسمى «رجب ورمضان كوكبان من الشام». لبس فجأةً عمامة وجبة ونصب نفسه في يومين اثنين للتوجيه والإرشاد باسم الطريقة النقشبندية. خالف الإجماع وقال بما يقتضي الجسمية في الذات المقدس وقال بحلول الله في الحوادث. نبيل الحسيني، العجب العجيب من ضلالات محمد رجب ديب، (ص ٤، ٦).

(٤) المجلة المسمّاة الأحباب، عدد ٦، (ص ١٤).

وليُحذَرُ مما دَسَّ بعضهم على محمد بن يوسف السنوسي^(١) التلمساني الحسني في كتاب «حواش على شرح الكبرى»^(٢) للسنوسي التلمساني في معرض الاستشهاد بهذا الكلام والإقرار له، يقولون فيه إن في الزبور: «يقول الله لداود عليه السلام: سيولد لك ولد أدعى له أباً ويُدعى لي ابناً»، ثم قالوا: «فولد داود الذي دُعِيَ ابناً لله تعالى هو عيسى عليه السلام»، وفي كتابه المسمى «العقيدة الوسطى وشرحها» يقولون^(٣): «إن في الإنجيل: أنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم»، ويقولون^(٤): «قوله: أبي معناه: ربي وإلهي»، ويقولون^(٥): «ومعنى انطلاق عيسى عليه السلام إلى أبيه أي ربه»، وفيها^(٦) تكرار العبارة التي في الكتاب الأول، وفي «شرح العقيدة الكبرى المسماة عقيدة أهل التوحيد»^(٧) أيضاً فيها تكرار العبارة التي في الكتاب الأول.

ومن المعاصرين من حذا حذو هؤلاء الضالين منهم رئيس لجنة البحث العلمي في جمعية إحياء التراث الإسلامي الكويتية وهو عبد الرحمن عبد الخالق الذي تمادى في هذا الكفر وراح يدافع عنه ويؤوله، ففي بحثه

(١) السنوسي، محمد بن يوسف بن عمر بن شعيب السنوسي الحسني من جهة الأم، أبو عبد الله، عالم تلمسان في عصره، وصالحها. له تصانيف كثيرة، منها: «شرح صحيح البخاري»، و«أم البراهين» ويسمى «العقيدة الصغرى»، و«العقيدة الوسطى»، و«شرح صغرى الصغرى». ولد سنة ٨٣٢هـ، وتوفي سنة ٨٩٥هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٧، ص ١٥٤).

(٢) السنوسي، حواش على شرح الكبرى، (ص ٤٨٨).

(٣) السنوسي، المسمى العقيدة الوسطى وشرحها، (ص ٣٢٦).

(٤) السنوسي، المسمى العقيدة الوسطى وشرحها، (ص ٣٢٧).

(٥) السنوسي، المسمى العقيدة الوسطى وشرحها، (ص ٣٢٨).

(٦) السنوسي، المسمى العقيدة الوسطى وشرحها، (ص ٣٢٩).

(٧) السنوسي، المسمى شرح العقيدة الكبرى، (ص ٤٢٦).

الذي سماه «شهادة الإنجيل على أن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» وهي من جزئين يقول فيها: «ألفاظ ابن الله التي جاءت في الأناجيل والكتب المقدسة عند النصارى من المتشابه الذي يجب رده إلى المحكم فإن هذه اللفظة «ابن الله» استخدمت في عيسى وفي أتباعه وفي كل مؤمن بالله غير كافر به»، وزاد في كفره أيضًا فقال: «وهذه الكلمة تحتمل معنيين: بنوة الهداية والتشريف وهو ما يسمونه بالبنوة الروحية، والمعنى الثاني بنوة النسب والابن الذي هو قطعة من أبيه وبضعة منه».

وهذا لم يقله مسلم من عامة المسلمين فضلًا عن علمائهم، وهو ادعاء التأويل في لفظ صراح في الكفر وهو باطل غير مقبول، وعجبية هذه الصفاقة من هذا الكاتب الذي انبرى يضيع عمره وأنفاسه في تشجيع الناس على الكفر والضلال وعلى قوله لم تبق كفرية من الكفریات إلا وتكون من المتشابهات، وهذا فتح لباب الكفر على مصراعيه للناس.

وكلامهم كفرٌ صريحٌ لا يقبلُ التأويلُ وهو قولهم «نحن أبناء الله من باب المجاز»، فإن هؤلاء وافقوا اليهود بقولهم هذا، لأن اليهود لما قالوا «نحن أبناء الله» ما قصدوا أن الله والدهم إنما قصدوا أن الله يعزهم، ومع ذلك الله تعالى كفرهم فنحن أيضًا نكفر هؤلاء عملاً بحكم القرءان ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرِيُّ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴿١٨﴾﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلٍ قَتَلْتَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾^(٢).

(١) سورة المائدة، آية ١٨.

(٢) سورة التوبة، آية ٣٠.

وقال الله تعالى في الحديث القدسي الذي رواه البخاري في صحيحه، وابن حبان في صحيحه، والنسائي في سننه واللفظ للبخاري^(١): «كذّبي ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقله: لن يعيدني كما بدّاني وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته وأما شتمه إياي فقله: اتخذ الله ولدًا وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد ولم يكن لي كفوًا أحد».

وقال المفسر فخر الدين الرازي في كتابه «التفسير الكبير» في تفسير الآية ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾^(٢) ما نصه^(٣): «معناه وأثبتوا له جزءًا وذلك الجزء هو عبد من عباده والحاصل أنهم أثبتوا لله ولدا».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني ما نصه^(٤): «قوله «وأما شتمه إياي» إنما سمّاه شتمًا لما فيه من التنقيص».

وقال الإمام الحافظ شيخ الإسلام الفقيه الشيخ عبد الله الهرري المعروف بالحبشي رضي الله عنه في كتابه «الشرح القويم في حلّ ألفاظ الصراط المستقيم» ما نصه^(٥): «وأما حديث: «الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله» فليس صحيحًا بل هو حديث ساقط شديد الضعف وبعض الناس يفهمونه على اللغة المحليّة فيقعون في الكفر، فإنهم يفهمون من كلمة

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الإخلاص، (ج ٤، ص ١٩٠٣)، حديث ٤٦٩٠.

(٢) سورة الزخرف، آية ١٥.

(٣) الرازي، التفسير الكبير، (ج ٢٧، ص ١٧٢، ١٧٣).

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (م ٨، ص ١٨).

(٥) الهرري، الشرح القويم في حلّ ألفاظ الصراط المستقيم، (ص ٤٥، ٤٦).

عيال أبناء وليس المعنى كذلك، فإن عيال في لغة العرب معناها الناس الذين ينفق عليهم الشخص لو كانوا أعمامه وأخواله وزوجاته ووالديه بمعنى أنهم تحت نفقته ورعايته لكونهم محتاجين إليه ويكفيهم نفقاتهم، ولا يوجد في اللغة عيال بمعنى الأولاد. وهذه العبارة من جملة ما أخرجها الناس عن معناه الأصلي في اللغة إلى غير معناه، ولو صحَّ هذا الحديث الذي مرَّ ذكره لكان معناه فقراء الله كما قال المناوي عند شرح هذا الحديث الذي أورده السيوطي في الجامع الصغير. فمن ظنَّ أنه يجوز أن يقال عن البشر أبناء الله أو أولاد الله بالمعنى المجازي أي أنه كافيهم بالرزق كفر، كما ذكر ابن عطية الأندلسي في تفسيره هذه الآية: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّؤُهُ﴾^(١).

وأما قول بعض الصوفية «أرباب القلوب» أي أصحاب العقول المتنورة بالتقوى ليس معناه أن هؤلاء خالقو العقول، والقلوب هنا بمعنى العقول ويقع في بعض مؤلفات العلماء عن الله قول «رب الأرباب» يعنون أن الله مالك الملاك وهذا صحيح».

وقد قال المفسر المحدث إسماعيل بن محمد العجلوني^(٢) في «كشف الخفاء» عن حديث «الخلق كلهم عيال الله» ما نصه^(٣): «قال النووي في

(١) سورة المائدة، آية ١٨.

(٢) العجلوني، إسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبو الفداء، محدث الشام في أيامه. مولده بعجلون ومنشأه ووفاته بدمشق. له كتب منها: «كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس»، و«الفيض الجاري في شرح صحيح البخاري»، و«شرح الحديث المسلسل بالدمشقيين»، و«عقد الجواهر الثمين». ولد سنة ١٠٨٧هـ، وتوفي سنة ١١٦٢هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ١، ص ٣٢٥).

(٣) العجلوني، كشف الخفاء، (ج ١، ص ٤٥٧، ٤٥٨).

فتاويه: هو حديث ضعيف لأن فيه يوسف بن عطية ضعيف باتفاق الأئمة، ورواه الحافظ عبد العظيم المنذري^(١) في أربعينه عن أنس رفعه بلفظ «الخلق كلهم عيال الله فأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله»، قال أبو عبد الله محمد السلمي في تخريجها ومعنى «عيال الله» فقراء الله، فالخلق كلهم فقراء إلى الله، وهو الذي يعولهم»، ثم قال: «وقال ابن حجر في الفتاوى الحديثية: حديث «الخلق عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله» ورد من طرق كلها ضعيفة».



(١) المنذري، عبد العظيم بن عبد القوي بن عبد الله، أبو محمد، زكي الدين المنذري، عالم بالحديث والعربية، من الحفاظ المؤرخين. له: «الترغيب والترهيب»، و«التكملة لوفيات النقلة»، و«أربعون حديثاً»، و«شرح التنبيه»، و«مختصر صحيح مسلم»، و«مختصر سنن أبي داود». تولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة، وانقطع بها نحو عشرين سنة عاكفاً على التصنيف والتخريج والإفادة والتحديث. مولده ووفاته بمصر. ولد سنة ٥٨١هـ، وتوفي سنة ٦٥٦هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٤، ص ٣٠).

المبحث العشرون

تأويل قوله تعالى

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ
يُنزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(١)

معنى قوله تعالى حكاية عن أصحاب عيسى عليه السلام ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾^(٢)، أي هل يستجيب ربك لك إن طلبت منه هذا الطلب، بدليل هذه القراءة الواردة لهذه الآية وهي ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قال الفراء معناه: هل تقدر أن تسأل ربك، فلا يجوز أن يُتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله تعالى على إنزال هذه المائدة من السماء، فالله تعالى قادر على كل شيء لا يعجزه شيء، وإنما كما يقول الإنسان لصاحبه: هل تستطيع أن تقوم معي وهو يعلم أنه مستطيع.

قال القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»^(٣): «وقيل إن القوم أي الحواريين، لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي وقد علمت أنه يستطيع، فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيبي إلى ذلك أم لا؟». ونقل الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتابه «فتح الباري شرح

(١) سورة المائدة، آية ١١٢.

(٢) سورة المائدة، آية ١١٢.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (م ٦، ص ٣٦٤).

صحيح البخاري»^(١) عن الإمام الحافظ ابن الجوزي الحنبلي أنه قال: «جحد
صفة القدرة كفر اتفاقاً».

ويدخل في هذا أيضاً من شك في قدرة الله تعالى على كل شيء.



(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ٦، ص ٦٠٤).

المبحث الحادي والعشرون

تأويل قوله تعالى

﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(١)

النفس في كلام العرب على وجوه، منها نفس منفوسة مجسمة مروّحة، ومنها مجسمة غير مروّحة، تعالى الله عن هذين الوجهين علواً كبيراً. ومنها نفسٌ بمعنى إثبات الذات، كما تقول في الكلام: «هذا نفس الأمر تريد إثباته» لا أن له نفساً منفوسة، فعلى هذا المعنى يقال في الله أنه نفس^(٢) لا أن له نفساً منفوسة أو جسماً مروّحاً، وقد قيل في قوله تعالى ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(٣) أي تعلم ما أكنه وأسرّه ولا علم لي بما أسرّه وتغيّبه عني^(٤).

فمعنى هذه الآية تعلم ما في سري ولا أعلم ما في غيبك، وليس المعنى أن الله له نفس بمعنى الروح، بل الله هو خالق الروح وخالق الجسد، الله ليس روحاً ولا جسداً ولا هو روحٌ فقط ولا هو جسداً بلا روح، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٥) ما كان وما يكون وما لم يكن وما هو كائن.

(١) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٢) أي ذاته، وذاته لا يشبه الذوات.

(٣) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٤) القرطبي، صفات الله تعالى، (ص ١٢٣).

(٥) سورة المائدة، آية ١١٦.

قال القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»^(١): أي تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك. وقيل: المعنى تعلم ما أعلم ولا أعلم ما تعلم. وقيل: تعلم ما أخفيه ولا أعلم ما تخفيه. وقيل: تعلم ما أريد ولا أعلم ما تريد. وقيل: تعلم سري ولا أعلم سرك لأن السر موضعه النفس وقيل: تعلم ما كان مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة.

قلت أي القرطبي: والمعنى في هذه الأقوال متقارب أي تعلم سري وما انطوى عليه ضميري الذي خلقته ولا أعلم شيئاً مما استأثرت به من غيبك وعلمك. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾^(٢) ما كان وما يكون وما لم يكن وما هو كائن».

وقال القشيري في تفسيره^(٣): ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي ﴿١١٦﴾﴾ أي علمك محيطٌ بكل العلوم. ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴿١١٦﴾﴾ أي لا أطلع على غيبك إلا بقدر ما تُعرِّفني بإعلامك».

وفي حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي^(٤): «تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه، ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك».

وقال أبو حيان الأندلسي في «تفسير البحر المحيط»^(٥): «قيل المعنى تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي».

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ٦، ص ٣٧٦).

(٢) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٣) القشيري، لطائف الإشارات، (م ١، ص ٢٨٤).

(٤) البيضاوي، تفسير البيضاوي، (ج ٣، ص ٥٨٤).

(٥) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (م ٤، ص ٥٩).

ثم قال: «وقد استدلت المجسمة بقوله تعالى: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(١)، وقالوا النفس هي الشخص وذلك يقتضي كونه جسمًا تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا».

ونرد على المجسمة الذي يُنكرون التأويل ويقولون نأخذ بالظاهر، بقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾^(٢)، فهل سيقولون بأن الله يلحقه الموت؟ تنزه الله.

قال أبو الفضل عبد الواحد التميمي في كتابه «اعتقاد الإمام المبجل أبي عبد الله أحمد بن حنبل» ما نصه^(٣): «وقرأ أحمد بن حنبل ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٤)، وقال عز وجل ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾^(٥)، وقال ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(٦)، وليست كنفس العباد التي هي متحركة متعددة مترددة في أبدانهم».

ثم قال «وأنكر أي أحمد على من يقول بالجسم وقال: إن الأسماء مأخوذة من الشريعة واللغة، وأهل اللغة وضعوا هذا الاسم على كل ذي طول وعرض وسمك وتركيب وصورة وتأليف، والله تعالى خارج عن ذلك كله أي منزه عن ذلك فلم يجوز أن يسمى جسمًا لخروجه عن معنى الجسمية، ولم يجيء في الشرع فبطل».

(١) سورة آل عمران، آية ١٨٥.

(٢) التميمي، اعتقاد الإمام المبجل الإمام أحمد بن حنبل، (ص ٤٤، ٤٥).

(٣) سورة آل عمران، آية ٣٠. ومعنى قوله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٣) أي ويحذركم عقابه. ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج ٢، ص ٣١).

(٤) سورة الأنعام، آية ٥٤.

(٥) سورة طه، آية ٤١.

وقال ابن اللبان الشافعي ما نصه^(١): «من المتشابه صفة النفس: في قوله تعالى ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(٢) لأن النفس في اللغة تستعمل لمعانٍ تتعذر في الظاهر ههنا، وأولها العلماء بتأويلات.

منها: أن النفس عُبر بها عن الذات.. وهذا وإن كان شائعاً في اللغة ولكن يُعدى الفعل إليها بفي المفيدة للظرفية وهذا محال، لأن الظرفية يلزمها التركيب، والتركيب في ذاته محال.

وقد أولها بعضهم بالغيب، أي ولا أعلم ما في غيبك وسرك، وهذا حسن لقوله في آخر الآية ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾^(٣).

وقال الطبري في تفسيره: «ومعنى قوله تعالى ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي﴾^(٤) يقول أي عيسى عليه السلام: إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي فكيف بما قد نطقت به وأظهرته بجوارحي؟

﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(٥) يقول: ولا أعلم أنا ما أخفيته عني، فلم تطلعني عليه لأنني إنما أعلم من الأشياء ما أعلمتني»^(٤).

ونقل البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» ما نصه: «ومعنى قول من قال: الله سبحانه وتعالى نفسٌ، أي أنه موجودٌ ثابت غير منتف، ولا معدوم، وكل

(١) ابن اللبان، إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المتشابهات، (ص ٣٩).

(٢) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٣) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٤) الطبري، تفسير الطبري، (ج ٥، ص ١٣٩).

موجود نفس، وكل معدوم ليس بنفسٍ، والنفس في كلام العرب على وجوه:
فمنها نفس منفوسة مجسمة مروحة.

ومنها مجسمة غير مروحة، تعالى الله عن هذين علوًّا كبيرًا.

ومنها نفس بمعنى إثبات الذات كما تقول في الكلام^(١): «هذا نفس الأمر»
تريد إثبات الأمر لا أن له نفسًا منفوسةً أو جسمًا مروحًا، فعلى هذا المعنى
يقال في الله سبحانه: إنه نفس، لا أن له نفسًا منفوسة، أو جسمًا مروحًا، وقد
قيل في قوله تعالى ﴿تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(١١٦) أي تعلم
ما أكنه وأسره ولا أعلم بما تستره عني وتغيبه، ومثل هذا قول النبي ﷺ فيما
رويناه عنه: «فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»^(٢) أي حيث لا يعلم به
أحدٌ ولا يطلع عليه، وأما الاقتراب والإتيان المذكوران في الخبر، فإنما يعني
بهما إخبارًا عن سرعة الإجابة والمغفرة، كما رويناه عن قتادة.



(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٥٣، ٥٤).

(٢) الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٥، ص ٥٨١).

المبحث الثاني والعشرون

تأويل قوله تعالى

﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾^(١)

قول الله تعالى: ﴿وَعَلِمَ﴾ ليس راجعاً لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾، بل المعنى أنه تعالى خَفَّفَ عنكم الآن لأنه عَلِمَ بعلمه السَّابِقِ في الأزل أنه يكون فيكم ضعف. هذه الآية معناها أنه تُسِيخَ ما كان واجباً عليهم من مقاومةٍ واحدٍ من المسلمين لأضعافٍ كثيرةٍ من الكفار بإيجابٍ مقاومةٍ واحدٍ لاثنين من الكفار رحمةً بهم للضعف الذي فيهم.

والدليل العقليُّ على صفة العلم هو أنه تعالى لو لم يكن عالماً لكان جاهلاً والجهل نقصٌ والله منزّهٌ عن النقص، وأما من حيث النقل فالنصوص كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

قال الإمام أبو منصور الماتريدي في تفسيره «تأويلات أهل السنة» ما نصه^(٣): «أمر الله بذلك مع علمه أن فيهم ضعفاً».

وقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبَلِّغَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾^(٤).

(١) سورة الأنفال، آية ٣٦.

(٢) سورة الحديد، آية ٣.

(٣) أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة، (م ٥، ص ٢٥٤).

(٤) سورة محمد، آية ٣١.

هذه الآية لا تعني أن الله يتجدد له علم، وليس معنى ذلك أنه سوف يعلم المجاهدين بعد أن لم يكن عالمًا بهم بالامتحان والاختبار، ويكفر من يقول إن الله تعالى يكتسب علمًا جديدًا، وهذا يستحيل على الله تعالى، بل معنى الآية حتى نُمَيِّزَ أي حتى نُظْهِرَ للعباد المجاهدين منكم والصابرين من غيرهم، الله يتبلي عباده حتى يُظْهِرَ وَيُمَيِّزَ لعباده من هو الصادق ومن هو غير الصادق، فالملائكة يعرفون أن هذا صادقٌ صابرٌ على طاعة الله وأن هذا ليس بصابرٍ، يَكشِفُ اللهُ تعالى لهم ولمن شاء من خلقه من الذين يجاهدون في سبيل الله صابرين على المشقَّات، يُظْهِرُهم لعباده من غيرهم الذين لا يصبرون، وهو عالم بعلمه الأزلي من هو الصَّابِرُ ومن هو غير الصَّابِرِ كما نقل ذلك البخاري في صحيحه عن أبي عُبَيْدَةَ مَعْمَرِ بنِ المثنى وهذا شبيهٌ بقوله تعالى: ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْحَبِيثَ مِنَ الصَّيِّبِ﴾ (٣٧) (١) (٢).

قال القاضي المفسر ابن عطية الأندلسي في كتابه «المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز» في شرحه لقول الله تعالى: ﴿حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ﴾ (٣١) (٣) ما نصه (٤): «وَعِلْمُ اللهِ بِالْمُجَاهِدِينَ قَدِيمٌ أَزَلِيٌّ».

وقال الإمام أبو منصور الماتريدي في تفسيره «تأويلات أهل السنة» ما نصه (٥): «ويكون التغيّر في ذلك المعلوم لا في علمه تعالى، والله الموفق».

(١) سورة الأنفال، آية ٣٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ٨، ص ٥١٠).

(٣) سورة محمد، آية ٣١.

(٤) ابن عطية الأندلسي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (ج ٥، ص ١٢١).

(٥) أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة، (م ٩، ص ٢٨٣).

فلا يجوز اعتقاد أن الله تعالى يتجدد له علم لم يكن علمه في الأزل، بل يكفر من اعتقد ذلك.

وكذلك يكفر من يقول «الله لا يعلم بالشيء إلا بعد حصوله»، ويجب التحذير من قول بعض أدعياء التصوف ومن قول بعض المبتدعة من أهل الأهواء الزائغين عن الإسلام الذين كفروا وضلوا أن الله لا يعلم ما سيفعل هذا الإنسان إلا بعد أن يفعله، وعلى زعمهم لم يعلم الله أن الكافر سيكفر إلا بعد أن يكفر، فهو لاء من أشد الناس كفرًا.

قال الإمام الطحاوي في «العقيدة الطحاوية»: «وقد علم الله تعالى في ما لم يزل عدد من يدخل الجنة وعدد من يدخل النار جملة واحدة، فلا يزداد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم في ما علم منهم أن يفعلوه، وكلُّ ميسر لما خلق له».

وقال الحافظ الشيخ عبد الله الهرري في «إظهار العقيدة السنية بشرح العقيدة الطحاوية» في شرحه لكلام الطحاوي، ما نصه^(١): «ويستحيل ألا يعلم ما يكون من مخلوقاته قبل وجودهم إذ ذاك جهل والجهل في حق القديم محال، فثبت سبق علمه في الأزل بما يكون من مخلوقاته».

قال أبو بكر أحمد بن علي الجصاص الرازي في كتابه «أصول الجصاص المسمى الفصول في الأصول» ما نصه^(٢): «ومن جوز النسخ في اعتقاد معاني خبر الله تعالى وخبر الرسول عليه السلام فقد وصف الله تعالى بالبداء، وأنه

(١) الهرري، إظهار العقيدة السنية بشرح العقيدة الطحاوية، (ص ١٨٩).

(٢) الجصاص، الفصول في الأصول، (م ١، ص ٣٥٨، ٣٥٩).

ظهر له في الثاني ما لم يكن علمه قبل، لأن البداء، معناه الظهور، قال الله تعالى: ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ﴾^(١)، يعني إن تظهر لكم، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِحُجَّتِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾^(٢)، ومن جَوَزَ البداء على الله تعالى فهو خارج عن ملة الإسلام.

وهذا تكفير صريح لكل من قال أو اعتقد أن الله يتجدد له علم، أو لا يعلم شيئاً إلا بعد حصوله، أو لا يعلم الصابر أنه صابر إلا بعد صبره، أو أنه ظهر له شيء كان خافياً عليه، لأنه يكون قد نسب الجهل إلى الله، والله تعالى يقول ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣)، ويكون شبهه بخلقه، والإمام الطحاوي يقول: ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر.



(١) سورة المائدة، آية ١٠١.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٨٤.

(٣) سورة الحديد، آية ٣.

المبحث الثالث والعشرون

تأويل قوله تعالى

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ (٥٦) (١)

إنَّ معنى الصلاة على النبي والسلام عليه، الدعاء بأن يزيد الله تعالى النبي تعظيمًا وأن يؤمنه الله مما يخاف على أمته، فالله تعالى أمر المؤمنين بأن يعتنوا بإظهار شرفه وتعظيم شأنه، وقد رَغِبَ النبي ﷺ بالصلاة عليه في يوم الجمعة فقال: «إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة، فأكثرُوا عليَّ من الصلاة فيه فإنَّ صَلَاتِكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»، قالوا: يا رسول الله وكيف تُعَرِّضُ صَلَاتِنَا عَلَيْكَ وقد أَرُمْتُ؟ (أي بليت) قال: «إن الله عز وجل حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ» (٢).

ومعنى الحديث أن الصلاة على النبي ﷺ في يوم الجمعة فيها نمو للثواب لشرف الزمان وكونها معروضة عليه يعرضها عليه ملائكة موكلون بذلك فيمن يصلي عليه من بُعدٍ وأما من صلى عند قبره الشريف فيسمعه ﷺ لأن الأنبياء حَرَّمَ اللهُ عَلَى الْأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَهُمْ فَهُمْ أَحْيَاءُ فِي قُبُورِهِمْ يُصَلُّونَ.

وحكم الصلاة على النبي ﷺ أنها سنة إذا ذُكِرَ عليه الصلاة والسلام إلا في الصلاة المفروضة فإنها ركن من أركان الصلاة لا تصح الصلاة بدونها،

(١) سورة الأحزاب، آية ٥٦.

(٢) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، (ج ١، ص ٤٠٥)، حديث ١٠٤٩.

وموضع وجوبها في الصلاة في الجلوس الأخير بعد التشهد.

قال الإمام المفسر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» في شرحه لهذه الآية ما نصه^(١): «هذه الآية شرف الله بها رسوله عليه السلام حياته وموته، وذكر منزلته منه، وظهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء، أو في أمر زوجاته ونحو ذلك. والصلاة من الله رحمته ورضوانه، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره».

فمعنى اللهم صل على محمد اللهم زده شرفاً وتعظيماً والنبى ﷺ هو أعلى خلق الله وأفضل العالمين رتبة ومنزلة ومع ذلك يزداد رفعة بصلاة المصلين عليه وليس معناها الله يصلي بقيام وركوع وسجود أو يقف إماماً والملائكة خلفه نعوذ بالله من هذا الكفر فالله لا شبيه له ولا مثل والله المثل الأعلى وكذلك قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ﴾^(٢) أي ينزل الرحمة الخاصة على أتقياء أمة محمد وأما معنى وسلم أي سلمه يا رب مما يخاف على أمته ويكره.

وليس كما زعم بعض جهلة هذا العصر ممن لا حظ ولا نصيب له في العلم وهو مفتي دولة عربية كبيرة قال والعياذ بالله: «طوبى لك أيها المصلي فأنت تصلي والله يصلي والملائكة يصلون فأنت في صف الله» ثم زعم أن النبي ﷺ وصل في ليلة المعراج إلى مكان في السماء وأراد أن يدخل فقيل له قف فإن ربك يصلي الآن، وهذا الدكتور لم يعرف الخالق من المخلوق

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (م ١٤، ص ٢٣٢).

(٢) سورة الأحزاب، آية ٤٣.

فشبه الله تعالى بالإنس والجن المؤمنين وبالملائكة ووصف الله تعالى بالقيام والركوع والاعتدال والسجود والجلوس بين السجدين والجلوس للتشهد والتحيات وبالحركات والسكنات والانتقال فضلاً عن نسبة المكان له والله منزه عن كل ذلك. قال الإمام أحمد بن سلامة أبو جعفر الوراق الطحاوي في عقيدته المشهورة وهي العقيدة الطحاوية التي أجمع على قبولها واستحسانها المسلمون سلفاً وخلفاً في الشرق والغرب والشمال والجنوب وتلقوها بالقبول الحسن وأقبلوا عليها حفظاً وفهماً وتعلماً وتعليماً وذكر أنها عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب فقهاء الملة أبي حنيفة وصاحبيه: «تعالى (يعني الله) عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» ثم قال: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر».

وقد قال أبو حنيفة رضي الله عنه وأرضاه: «من قال بحدوث صفة من صفات الله أو شك أو توقف فقد كفر». وهذا إجماع لا خلاف فيه. ونصيحتنا لكل من يشبه الله بخلقه أو ينسب له الاعضاء أو الجهة أو المكان أو التطور أو التغير أو الحركة والسكون والجلوس والاتصال والانفصال والتطور والتغير أن يرجع عن هذه العقيدة إلى عقيدة أهل الإسلام كما قال الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، مهما تصورت ببالك فالله لا يشبه ذلك، فالله موجود بلا جهة ولا مكان ولينطق بالشهادتين ليكون في دائرة المسلمين.

(١) سورة الشورى، آية ١١.

المبحث الرابع والعشرون

تأويل قوله تعالى

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١)

قال الإمام المفسر السلفي محمد بن جرير الطبري في كتابه «تفسير الطبري» في تفسير هذه الآية ما نصه^(٢): «إنما يخاف الله فيتقي عقابه بطاعته العلماء بقدرته على ما يشاء من شيء، وأنه يفعل ما يريد، لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته؛ فخافه ورهبه خشية منه أن يعاقبه».

وذكر مثل ذلك المفسر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»، والمفسر الحسين بن مسعود البغوي في تفسيره المسمى «معالم التنزيل»، والمفسر الإمام أبو الفرج بن الجوزي الحنبلي في تفسيره «زاد المسير»، والخازن في تفسيره، والرازي في «التفسير الكبير».

وقال الإمام الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» ما نصه^(٣): «قوله أي البخاري باب الخوف من الله عز وجل: هو من المقامات العلية وهو من لوازم الإيمان، قال الله تعالى ﴿وَحَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٤)، وقال تعالى ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخِشُونِ﴾^(٥)، وقال تعالى

(١) سورة فاطر، آية ٢٨.

(٢) الطبري، تفسير الطبري، (ج ٢، ص ٨٧).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١١، ص ٣١٩).

(٤) سورة آل عمران، آية ١٧٥.

(٥) سورة المائدة، آية ٤٤.

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(١)، وتقدم حديث «أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»، وكلما كان العبد أقرب إلى ربه القرب المعنوي كان أشد له خشية ممن دونه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾^(٢) فوقية القهر والغلبة فالله موجود بلا مكان، والأنبياء بقوله ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾^(٣).

وقال الحافظ يحيى بن شرف أبو زكريا النووي في «شرح صحيح مسلم» ما نصه: «قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وكأن المراد قوم غلب عليهم الخوف كما جاء عن جماعات من السلف في شدة خوفهم، وقيل: المراد متوكلون. والله أعلم».

وهذا هو الصحيح الذي لا محيد عنه، وهو أن العلماء الأتقياء هم أشد خشية لله من غيرهم، وليس كما حَرَّفَ معنى هذه الآية بعض الزنادقة من أدعياء الولاية والتصوف من أمثال رجب ديب الدمشقي الذي قال «إن الله يعتذر من العلماء يوم القيامة» وافترى على رسول الله ﷺ فنسب إليه ما لم يقله، وهو قوله والعياذ بالله «إن الله يستحي من العلماء»، وهذا وأمثاله من التحريفات خروجٌ عن الحق ومروق من الدين، فالله أزلي أبدي وصفاته أزلية أبدية، فلا يستحي من أحد ولا يخاف أحداً، ألا له الخلق والأمر فعال لما يريد والله على كل شيء قدير.

(١) سورة فاطر، آية ٢٨.

(٢) سورة النحل، آية ٥٠.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٣٩.

المبحث الخامس والعشرون

تاويل قوله تعالى

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) (١)

لأهل السنة في شرح هذه الآية تفسيران أما الأول وهو ما قال به إمام الهدى أبو منصور الماتريدي: أن الله تعالى يوجد الأشياء بدون تعب ومشقة وبدون ممانعة أحد له، أي أنه يخلق الأشياء التي شاء أن يخلقها بسرعة بلا تأخر عن الوقت الذي شاء وجودها فيه، فمعنى ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ يدل على سرعة الإيجاد وليس معناه كلما أراد الله خلق شيء يقول كن كن كن، وإلا لكان معنى ذلك أن الله كل الوقت يقول «كن كن كن» وهذا محال لأن الله عز وجل يخلق في اللحظة الواحدة ما لا يدخل تحت الحصر.

ثم «كن» لغة عربية والله تعالى كان قبل اللغات كلها وقبل أصناف المخلوقات فعلى قول المشبهة يلزم أن يكون الله ساكتاً قبل ثم صار متكلماً وهذا محال لأن هذا شأن البشر وغيرهم، وقد قال أهل السنة: الحرف والصوت عرضان، فلو كان يجوز على الله أن يتكلم بالحرف والصوت لجاز عليه كل الأعراض من الحركة والسكون والبرودة واليبوسة والألوان والروائح والطعوم وغير ذلك وهذا محال، وقال أهل السنة إن الله تعالى خلق بعض العالم متحركاً دائماً كالنجوم وخلق بعض العالم ساكناً دائماً كالسماوات، وخلق بعض العالم متحركاً في وقتٍ وساكناً في وقتٍ ومنهم

(١) سورة يس، آية ٨٢.

الإنس والجن والملائكة والبهائم والرياح والنور والظلام والظلال، وهو سبحانه وتعالى لا يشبه شيئاً من هذه العوالم كلها.

قال أبو بكر الباقلاني في «الإنصاف» ما نصه^(١): «ويدل عليه قول شيخ طبقة التصوف الجنيّد رحمه الله، فإنه قال: جل ذاته عن الحدود، وجل كلامه عن الحروف، فلا حد لذاته، ولا حروف لكلامه».

وأما التفسير الثاني لأهل السنة فهو قول الأشاعرة كالبهقي فإنه يقول: إن الله يخلق الخلق بكن أي بالحكم الأزلي بوجوده فالآية عندهم عبارة عن أن الله تعالى يخلق العالم بحكمه الأزلي، وحكمه سبحانه كلامه الأزلي ليس كلاماً مركباً من حروف ولا صوت.

وأما ما ذهب إليه المجسمة من أن الله ينطق بالكاف والنون عند خلق كل فرد من أفراد المخلوقات فهو سفيه لا يقول به عاقل لأنهم قالوا قبل إيجاد المخلوق ينطق الله بهذه الكلمة المركبة من كاف ونون فيكون خطاباً للمعدوم، وإن قالوا إنه يقول ذلك بعد إيجاد الشيء قلنا لا معنى لإيجاد الموجد.

وأما التفسيران اللذان ذهب إليهما أهل السنة فإنهما موافقان للعقل والنقل، ثم إنه يلزم على قول المجسمة بشاعة كبيرة وهي أن الله تبارك وتعالى لا يفرغ من النطق بـ«كن» وليس له فعل إلا ذلك، لأنه في كل لحظة يخلق ما لا يدخل تحت الحصر. فكيف يصح في العقل أن يخاطب الله كل فرد من أفراد المخلوقات بهذا الحرف.

(١) الباقلاني، الإنصاف، (ص ١٥٢).

كيف يُعقل أن ينطق الله تعالى بالكاف والنون بعدد كل مخلوق يخلقه فإن هذا ظاهر الفساد لأنه يلزم عليه أن يكون الله ليس له كلام إلا الكاف والنون. فما أشبع هذا الاعتقاد المؤدّي إلى هذه البشاعة.

ثم إن الله ما وصف نفسه بالنطق إنما وصف نفسه بالكلام أي بأنه متكلم فلو كان كلام الله نطقاً ل جاءت بذلك آية من القرآن.

والموجود في القرآن الكلام والقول وهما عبارة عن معنى قائم بذات الله أي ثابت له معناه الذكر والإخبار وليس نطقاً بالحروف والصوت. وقد ألف الحافظ أبو المكارم المقدسي^(١) وقيل أبو الحسن جزءاً في تضعيف أحاديث الصوت على وجه التحقيق^(٢)، والبيهقي رحمه الله قد صرح بأنه لا يصح حديث في نسبة الصوت إلى الله^(٣).

(١) علي بن المفضل بن علي بن مفرج بن حاتم بن حسن بن جعفر، الشيخ الإمام المفتي الحافظ الكبير المتقن شرف الدين، أبو الحسن ابن القاضي الأنجب أبي المكارم المقدسي ثم الإسكندراني المالكي. مولده في سنة ٥٤٤هـ. ناب في الحكم بالإسكندرية مدة، ثم درس بمدرسته التي هناك مدة، ثم إنه تحول إلى القاهرة، ودرس بالمدرسة التي أنشأها صاحب ابن شكر إلى أن مات. وكان مقدماً في المذهب، وفي الحديث، له تصانيف محررة، رأيت له في سنة ست وثمانين كتاب «الصيام» بالأسانيد، وله «الأربعون في طبقات الحفاظ». حدث عنه: المنذري، والرشيدي الأرموي، وزكي الدين البرزالي، ومجد الدين علي بن وهب القشيري، والعلم عبد الحق ابن الرصاص، والشرف عبد الملك بن نصر الفهري اللغوي، وإسحاق ابن بلكويه الصوفي، والحسن بن عثمان القابسي المحتسب، والجمال محمد بن سليمان الهواري، والقاضي شرف الدين أبو حفص السبكي، ومحمد بن مرتضى بن أبي الجود، والشهاب إسماعيل القوصي، والنجيب أحمد بن محمد السفاسقي، ومحمد بن عبد الخالق بن طرخان الأرموي، والمحبي عبد الرحيم بن الدميري، وعدة. قال زكي الدين المنذري: «توفي في مستهل شعبان سنة ٦١١هـ، ودفن بسفح المقطم». الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٢٢، ص ٦٦).

(٢) ابن المعلم القرشي، نجم المهدي ورجم المعتدي، (ص ٤٨٧، ٤٨٨).

(٣) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٢٧٣).

وأما ما في كتاب «فتح الباري» في «كتاب التوحيد»^(١) من القول بصحة أحاديث الصوت فهو مردود، وابن حجر نفسه في «كتاب العلم»^(٢) ذكر خلاف ما ذكره في كتاب التوحيد، على أن ما ذكره في كتاب التوحيد من إثبات الصوت قال إنه صوت قديم ولم يحمله على الظاهر الذي تقوله المشبهة أنه صوت حادث يحدث شيئاً فشيئاً يتخلله سكوت كما قال زعيم المشبهة ابن تيمية إن كلامه تعالى قديم النوع حادث الأفراد^(٣)، ومثل ذلك قال في إرادة الله^(٤) وكلا الأمرين باطل. والحافظ ابن حجر العسقلاني لا يعتقد قيام الحادث بذات الله، فشرحه هذا مشحون بذكر نفي الحركة والانتقال ونحو ذلك عن الله تعالى في مواضع كثيرة، فهو يؤول الأحاديث التي ظاهرها قيام صفة حادثة بذات الله على غير الظاهر. على طريقة أهل السنة.

ثم إنه يلزم من قول المشبهة إن الله يخلق بلفظ كن الذي هو لفظ مركب من حرفين يوجدان بعد عدم ويسبق أحدهما الآخر خَلَقُ المخلوق بالمخلوق وهذا محال، إنما يخلق الله المخلوقات بقدرته القديمة ومشيئته القديمة وعلمه القديم.

قال الإمام الحافظ الهرري الحبشي رضي الله عنه في رده على ابن تيمية في كتابه «المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية» تحت

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾، (ج ٦، ص ٢٧١٩).

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، (ج ١، ص ٤١)، حديث .٧٨

(٣) ابن تيمية الحراني، المسمى المنهاج، (ج ١، ص ٢٢١).

(٤) ابن تيمية الحراني، المسمى المنهاج، (ج ١، ص ٢٢٤).

عنوان «زعمه (أي ابن تيمية) أن الله يتكلم بحرفٍ وصوتٍ وأنه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء» ما نصه^(١): «ومن جملة افتراءات ابن تيمية على أئمة الحديث وأهل السنة والجماعة نقله عنهم أن الله متكلم بصوت نوعه قديم أي يحدث في ذات الله شيئاً بعد شيء، فإنه قال في كتابه رسالة في صفة الكلام^(٢) ما نصه: «وحيثُذ فكلامه قديم مع أنه يتكلم بمشيئته وقدرته وإن قيل إنه ينادي ويتكلم بصوت ولا يلزم من ذلك قدم صوت معين، وإذا كان قد تكلم بالتوراة والقرآن والإنجيل بمشيئته وقدرته لم يمتنع أن يتكلم بالباء قبل السين، وإن كان نوع الباء والسين قديماً لم يستلزم أن يكون الباء المعينة والسين المعينة قديمة لما علم من الفرق بين النوع والعين».

وقال في موضع^(٣) آخر منه: «وقال الشيخ الإمام أبو الحسن محمد بن عبد الملك الكرخي الشافعي في كتابه الذي سمّاه «الفصول في الأصول»: سمعت الإمام أبا منصور محمد بن أحمد يقول: سمعت الإمام أبا بكر عبد الله بن أحمد يقول: سمعت الشيخ أبا حامد الأسفرايني يقول: مذهبي ومذهب الشافعي وفقهاء الأمصار أن القرآن كلام الله غير مخلوق ومن قال إنه مخلوق فهو كافر، والقرآن حمله جبريل عليه السلام مسموعاً من الله والنبي سمعه من جبريل والصحابة سمعوه من رسول الله ﷺ وهو الذي نتلوه نحن مقروءاً بألسنتنا وفي ما بين الدفتين وما في صدورنا مسموعاً ومكتوباً ومحفوظاً ومقروءاً وكل حرف منه كالباء والتاء كله كلام الله غير مخلوق ومن قال مخلوق فهو كافر عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

(١) الهرري، المقالات السنوية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية، (ص ١٠٠-١١٢).

(٢) ابن تيمية الحرّاني، المسماة رسالة في صفة الكلام، (ص ٥١).

(٣) ابن تيمية الحرّاني، المسماة رسالة في صفة الكلام، (ص ٥٤).

وقال في المنهاج^(١) «وسابعا قول من يقول إنه لم يزل متكلمًا إذا شاء بكلام يقوم به وهو متكلم بصوت يسمع وإن نوع الكلام قديم وإن لم يجعل نفس الصوت المعين قديمًا وهذا هو المأثور عن أئمة الحديث والسنة».

وقال في الموافقة ما نصه^(٢): «وإذا قال السلف والأئمة إن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء فقد أثبتوا أنه لم يتجدد له كونه متكلمًا، بل نفس تكلمه بمشيئته قديم وإن كان يتكلم شيئًا بعد شيء، فتعاقب الكلام لا يقتضي حدوث نوعه إلا إذا وجب تناهي المقدورات المرادات».

ثم قال فيه ما نصه^(٣): «فلما رجع موسى إلى قومه قالوا له صف لنا كلام ربك فقال: سبحان الله وهل أستطيع أن أصفه لكم، قالوا: فشبّهه، قال: هل سمعتم أصوات الصواعق التي تقبل في أحلى حلاوة سمعتموها فكأنه مثله».

وقال في «الموافقة» ما نصه^(٤): «وحيثذ فيكون الحق هو القول الآخر وهو أنه لم يزل متكلمًا بحروف متعاقبة لا مجتمعة».

وقال في فتاويه ما نصه^(٥): «فعلم أن قدمه عنده أنه لم يزل إذا شاء تكلم وإذا شاء سكت، لم يتجدد له وصف القدرة على الكلام التي هي صفة كمال، كما لم يتجدد له وصف القدرة على المغفرة، وإن كان الكمال هو أن يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء».

(١) ابن تيمية الحرّاني، المنهاج، (ج ١، ص ٢٢١).

(٢) ابن تيمية الحرّاني، الموافقة، (ج ٢، ص ١٤٣).

(٣) ابن تيمية الحرّاني، الموافقة، (ج ٢، ص ١٥١).

(٤) ابن تيمية الحرّاني، الموافقة، (ج ٤، ص ١٠٧).

(٥) ابن تيمية الحرّاني، مجموع الفتاوى، (ج ٦، ص ١٦٠).

وقال فيه أيضا ما نصّه^(١): «وفي الصحيح: إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات كجر السلسلة على الصفوان»، فقوله: «إذا تكلم الله بالوحي سمع» يدل على أنه يتكلم به حين يسمعون، وذلك ينفي كونه أزلّيًا، وأيضًا فما يكون كجر السلسلة على الصفا، يكون شيئًا بعد شيء والمسبوق بغيره لا يكون أزلّيًا».

وقال أيضًا ما نصّه^(٢): «وجمهور المسلمين يقولون: إن القرءان العربي كلام الله، وقد تكلم الله به بحرف وصوت، فقالوا: إن الحروف والأصوات قديمة الأعيان، أو الحروف بلا أصوات، وإن الباء والسين والميم مع تعاقبها في ذاتها فهي أزلية الأعيان لم تزل ولا تزال كما بسطت الكلام على أقوال الناس في القرءان في موضع آخر».

وقال في مجموعة تفسير ما نصّه^(٣): «وقولهم: «إن المحدث يفتقر إلى إحداث وهلم جرا» هذا يستلزم التسلسل في الآثار مثل كونه متكلمًا بكلام بعد كلام، وكلمات الله لا نهاية لها، وأن الله لم يزل متكلمًا إذا شاء، وهذا قول أئمة السنة، وهو الحق الذي يدل عليه النقل والعقل».

فلا يغتر مطالع كتبه بنسبة هذا الرأي الفاسد إلى أئمة أهل السنة وذلك دأبه أن ينسب رأيه الذي يراه ويهواه إلى أئمة أهل السنة، وليعلم الناظر في مؤلفاته أن هذا تلبيس وتمويه محض يريد أن يروجه على ضعفاء العقول الذين لا يوفقون بين العقل والنقل، وقد قال الموفقون من أهل الحديث وغيرهم إن

(١) ابن تيمية الحرّاني، مجموع الفتاوى، (ج ٦، ص ١٦٠).

(٢) ابن تيمية الحرّاني، مجموع الفتاوى، (ج ٦، ص ٢٣٤).

(٣) ابن تيمية الحرّاني، مجموعة تفسير ستّ سور، (ص ٣١١).

ما يحيله العقل فلا يصح أن يكون هو شرع الله كما قال ذلك الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي: «إن الشرع لا يأتي إلا بمجوزات العقول»، وبهذا يردّ الخبر الصحيح الإسناد أي إذا لم يقبل التأويل كما قاله علماء المصطلح في بيان ما يعلم به كون الحديث موضوعاً، وأيدوا ذلك بأن العقل شاهد الشرع فكيف يرد الشرع بما يكذبه شاهده.

فمن قال: إن الله يتكلم بصوت، وقال: إنه صوت أزلي أبدي ليس فيه تعاقب الحروف فلا يُكفَّر إن كانت نيته كما يقول، وإلا فهو كافر كسائر المشبهة. وأما أحاديث الصوت فليس فيها ما يحتج به في العقائد، وقد ورد حديث مختلف في بعض رواته وهو عبد الله بن محمد بن عقيل، روى حديثه البخاري^(١) بصيغة التمريض، قال: ويذكر، وفيه: «فينادي بصوت فيسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب، أنا الملك أنا الديان»، وإنما ذكره البخاري بصيغة التمريض من أجل راويه هذا.

قال الحافظ ابن حجر^(٢): «ونظر البخاري أدق من أن يعترض عليه بمثل هذا فإنه حيث ذكر الارتحال فقط جزم به لأن الإسناد حسن وقد اعتضد، وحيث ذكر طرفاً من المتن لم يجزم به لأن لفظ الصوت مما يتوقف في إطلاق نسبته إلى الرب ويحتاج إلى تأويل، فلا يكفي فيه مجيء الحديث من طريق مختلف فيها ولو اعتضدت». أي لا يكفي ذلك في مسائل الاعتقاد وإن كان البخاري ذكر أوله في كتاب العلم^(٣) بصيغة الجزم لأنه ليس فيه ذكر

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ﴾، (ج ٦، ص ٢٧١٩).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١، ص ١٧٤، ١٧٥).

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الخروج في طلب العلم، (ج ١، ص ٤١)، =

الصوت، إنما فيه ذكر رحيل جابر بن عبد الله إلى عبد الله بن أنيس من المدينة إلى مصر.

والحديث الآخر^(١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «يقول الله يوم القيامة: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثاً إلى النار»، هذا اللفظ رواه رواية البخاري على وجهين، بعضهم رواه بكسر الدال وبعضهم رواه بفتح الدال.

قال الحافظ ابن حجر^(٢): «ووقع فينادي مضبوطاً للأكثر بكسر الدال، وفي رواية أبي ذر بفتحها على البناء للمجهول، ولا محذور في رواية الجمهور، فإن قرينة قوله: إن الله يأمرك، تدل ظاهراً على أن المنادي ملك يأمره الله بأن ينادي بذلك». وهذا الحديث رواه البخاري موصولاً مسنداً، لكنه ليس صريحاً في إثبات الصوت صفة لله فلا حجة فيه لذلك للصوتية.

قال الحافظ ابن حجر^(٣): «قال البيهقي: اختلف الحفاظ في الاحتجاج بروايات ابن عقيل لسوء حفظه، ولم يثبت لفظ الصوت في حديث صحيح عن النبي غير حديثه، فإن كان ثابتاً فإنه يرجع إلى غيره في حديث ابن مسعود^(٤) وفي حديث أبي هريرة أن الملائكة يسمعون عند حصول

= حديث ٧٨.

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ﴾، (ج ١٣، ص ٤٦٠).

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٤٦٠).

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٤٥٨).

(٤) يعني به قوله: «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات شيئاً، فإذا فُزع عن قلوبهم وسكن الصوت عرفوا أنه الحق، ونادوا ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق» رواه البخاري. وفي حديث أبي =

الوحي صوتاً، فيحتمل أن يكون الصوت للسماء أو للملك الآتي بالوحي أو لأجنحة الملائكة، وإذا احتمل ذلك لم يكن نصّاً في المسألة، وأشار يعني البيهقي في موضع آخر إلى أن الراوي أراد فينادي نداء فعبر عنه بصوت». قال الكوثري في مقالاته^(١) ما نصه: «ولم يصح في نسبة الصوت إلى الله حديث».

وكذا قال البيهقي في «الأسماء والصفات»^(٢) فليس فيها ما يصح الاحتجاج به لإثبات الصفات لأن حديث الصفات لا يقبل إلا أن يكون رواه كلهم متفقاً على توثيقهم، وهذه الروايات المذكورة في فتح الباري في كتاب التوحيد ليست على هذا الشرط الذي لا بدّ من حصوله لأحاديث الصفات كما ذكره صاحب الفتح في كتاب العلم. لكنه خالف في موضع بما أورده في كتاب التوحيد من قوله: بعد صحة الأحاديث يتعين القول بإثبات الصوت له ويؤول على أنه صوت لا يستلزم المخارج.

ثم قال الكوثري: «وقد أفاض الحافظ أبو الحسن المقدسي شيخ المنذري في رسالة خاصة في تبين بطلان الروايات في ذلك زيادة على ما يوجهه الدليل العقلي القاضي بتنزيه الله عن حلول الحوادث فيه سبحانه، وإن أجاز ذلك الشيخ الحراني^(٣) تبعاً لابن ملكا اليهودي الفيلسوف المتمسلم، حتى اجترأ

= هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، قال علي وقال غيره صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فرغ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحق وهو العلي الكبير» رواه البخاري.

(١) الكوثري، مقالات الكوثري، (ص ٣٣).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٣٣).

(٣) يعني ابن تيمية نسبةً إلى حرّان.

على أن يزعم أن اللفظ حادث شخصاً قديماً نوعاً، يعني أن اللفظ صادر منه تعالى بالحرف والصوت فيكون حادثاً حتماً، لكن ما من لفظ إلا وقبلة لفظ صدر منه إلى ما لا أول له فيكون قديماً بالنوع، ويكون قدمه بهذا الاعتبار في نظر هذا المخرف، تعالى الله عن إفك الأفاكين، ولم يدر المسكين بطلان القول بحلول الحوادث في الله جل شأنه وأن القول بحوادث لا أول لها هذيان، لأن الحركة انتقال من حالة إلى حالة، فهي تقتضي بحسب ماهيتها كونها مسبوقه بالغير، والأزل ينافي كونه مسبوقاً بالغير، فوجب أن يكون الجمع بينهما محالاً، ولأنه لا وجود للنوع إلا في ضمن أفراده، فادعاء قدم النوع مع الاعتراف بحدوث الأفراد يكون ظاهر البطلان. وقد أجاد الرد عليه العلامة قاسم في كلامه على المسايرة).

وقد ذكر الفقيه المتكلم ابن المعلم القرشي في كتابه «نجم المهتدي ورجم المعتدي» أثناء ترجمة الحافظ ناصر السنة أبي الحسن علي بن أبي المكارم المقدسي المالكي ما نصه^(١): «كان صحيح الاعتقاد مخالفاً للطائفة التي تزعم أنها أثرية، صنف كتابه المعروف بكتاب الأصوات أظهر فيه تضعيف رواة أحاديث الأصوات وأوهامهم، وحكى الشيخ تقي الدين شرف الحفاظ عن والده مجد الدين قال بأنه بلغ رتبة المجتهدين».

فلا يصحُّ حمل ما ورد في النص من النداء المضاف إلى الله تعالى في حديث «يحشر الله العباد فيناديهم بصوت...» على معنى خروج الصوت من الله، فتمسك المشبهة بالظاهر لاعتقاد ذلك تمويه لا يروج إلا عند سُخفاء العقول الذين حُرِّموا منفعة العقل الذي جعل الشرع له اعتباراً، وهل عُرِفَ

(١) ابن المعلم القرشي، نجم المهتدي ورجم المعتدي (مخطوط)، (ص ٢٤٩).

المعجزة أنها دليل على صحة نبوة من أتى بها من الأنبياء إلا بالعقل؟

وقال أي الكوثري في تعليقه على «السيف الصقيل» ما نصه^(١): «وحدث جابر المعلق في «صحيح البخاري» مع ضعفه في سياق ما بعده من حديث أبي سعيد ما يدل على أن المنادي غير الله حيث يقول: ... فينادى بصوت إن الله يأمرك...» فيكون الإسناد مجازيًا، على أن الناظم يعني ابن زفيل وهو ابن قيم الجوزية. ساق في «حادي الأرواح» بطريق الدارقطني^(٢) حديثاً فيه: «يبعث الله يوم القيامة منادياً بصوت...» وهذا نص من النبي ﷺ على أن الإسناد في الحديث السابق مجازي، وهكذا يخرب الناظم بيته بيده وبأيدي المسلمين، وللحافظ أبي الحسن المقدسي جزء في تبين وجوه الضعف في أحاديث الصوت فليراجع ثمة».

وهناك حديث آخر^(٣): «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماوات شيئاً»،

(١) الكوثري، تعليق الكوثري على السيف الصقيل، (ص ٥٢).

(٢) الدارقطني، الامام الحافظ المجود، شيخ الاسلام، علم الجهادة، أبو الحسن، علي بن عمر ابن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار بن عبد الله البغدادي المقرئ المحدث، من أهل محلة دار القطن ببغداد. ولد سنة ست وثلاثمائة، هو أخبر بذلك. وسمع وهو صبي من أبي القاسم البغوي، ويحيى بن محمد بن صاعد، وأبي بكر بن أبي داود، وخلق كثير. وكان من بحور العلم ومن أئمة الدنيا، انتهى إليه الحفظ ومعرفة علل الحديث ورجاله، مع التقدم في القراءات وطرقها، وقوة المشاركة في الفقه، والاختلاف، والمغازي، وأيام الناس، وغير ذلك. قال أبو عبد الله الحاكم في كتاب «مزي الأخبار»: أبو الحسن صار واحد عصره في الحفظ والفهم والورع. وإماما في القراء والنحويين. صنف التصانيف: وسار ذكره في الدنيا، وهو أول من صنف القراءات، وعقد لها أبواباً قبل فرش الحروف. حدث عنه: الحافظ أبو عبد الله الحاكم، والحافظ عبد الغني، وتمام بن محمد الرازي، والفقيه أبو حامد الاسفراييني، وخلق سواهم. توفي يوم الخميس لثمان خلون من ذي القعدة من سنة خمس وثمانين وثلاثمائة. الذهبي. سير أعلام النبلاء. (ج ١٦، ص ٤٤٩-٤٦١)، رقم الترجمة ٣٣٢.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا =

ورواه أبو داود^(١) بلفظ: «سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفوان»، وهذا قد يحتج به المشبهة، وليس لهم فيه حجة لأن الصوت خارجٌ من السماء، فالحديث فسر الحديث بأن الصوت للسماء، فتبين أن قول الحافظ ابن حجر في موضع من الشرح: إن إسناد الصوت إلى الله ثبت بهذه الأحاديث الصحيحة فيه نظر فليُتأمل.

قال الشيباني^(٢) في «شرح الطحاوية» ما نصه^(٣): «والحرف والصوت مخلوق، خلق الله تعالى ليحصل به التفاهم والتخاطب لحاجة العباد إلى ذلك أي الحروف والأصوات، والبارئ سبحانه وتعالى وكلامه مستغن عن ذلك أي عن الحروف والأصوات، وهو معنى قوله: «ومن وصف الله تعالى بمعنى من معاني البشر فقد كفر».

فإذا قال قائل إن بعض اللغويين قال: النداء الصوت، قلنا ليس مراد من قال ذلك أن النداء لا يكون في لغة العرب في جميع الموارد إلا بالصوت، وإنما المراد أنه في غالب الاستعمال يكون بالصوت، وقد قال آخرون من اللغويين: النداء طلب الإقبال، فليعلم المغفلون الآن ما جهلوه من أن قول السلف عند ذكر هذه الآيات والأحاديث المتشابهة بلا كيف معناه ليس على

= لِمَنْ أَدْنَى لَهُ ﴿٢٣﴾، (ج ٦، ص ٢٧١٩).

(١) أبو داود، سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في القرآن، (ج ٤، ص ٣٧٨).

(٢) إسماعيل بن إبراهيم بن أحمد بن الموصلي الشيباني الدمشقي الحنفي، محدث، فقيه، أصولي، متكلم، قاضي دمشق. من تصانيفه: «مقدمة في الفرائض»، و«المنقذ» وقيل «المعتقد» وقيل «البيان» وكلها لمضمون واحد. ولد سنة ٥٤٤هـ، وتوفي سنة ٦٢٩هـ. إسماعيل الشيباني، شرح العقيدة الطحاوية، (ص ٤).

(٣) الشيباني، شرح الطحاوية، (ص ١٤).

المعنى الظاهر المتبادر من صفات المخلوقين، ولو كان يصح أن يكون المجيء في قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾^(١)، المجيء المعهود من الخلق لما قال الإمام أحمد في هذه الآية: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾^(٢) إنما جاءت قدرته.

قال القرطبي في «التذكرة» ما نصه^(٣): (فصل: قوله في الحديث: «فيناديهم بصوت»): استدل به من قال بالحرف والصوت وأن الله يتكلم بذلك، تعالى عما يقول المجسمون والجاحدون علواً كبيراً، إنما يُحمل النداء المضاف إلى الله تعالى على نداء بعض الملائكة المقربين بإذن الله تعالى وأمره، ومثل ذلك سائغ في الكلام غير مستنكر أن يقول القائل: نادى الأمير، وبلغني نداء الأمير، كما قال تعالى: ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ﴾^(٤)، وإنما المراد نادى المنادي عن أمره، وأصدر نداءه عن إذنه، وهو كقولهم أيضاً قتل الأمير فلاناً، وضرب فلاناً، وليس المراد توليه لهذه الأفعال وتصديقه لهذه الأعمال، ولكن المقصود صدورها عن أمره.

وقد ورد في صحيح الأحاديث أن الملائكة ينادون على رؤوس الأشهاد فيخاطبون أهل التقى والرشاد: ألا إن فلان ابن فلان كما تقدم.

ومثله ما جاء في حديث النزول مفسراً في ما أخرجه النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه وأبي سعيد قالاً: قال رسول الله: «إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر منادياً. يقول: هل من داع يستجاب له، هل

(١) سورة الفجر، آية ٢٢.

(٢) القرطبي، التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، (ص ٣٣٨، ٣٣٩).

(٣) سورة الزخرف، آية ٥١.

من مستغفر يغفر له، هل من سائل يعطى»^(١) صححه أبو محمد عبد الحق^(٢)، وكل حديث اشتمل على ذكر الصوت أو النداء فهذا التأويل فيه، وأن ذلك من باب حذف المضاف، والدليل على ذلك ما ثبت من قَدَم كلام الله تعالى على ما هو مذكور في كتب الديانات».

فإن قال بعض الأغبياء: «لا وجه لحمل الحديث على ما ذكرتموه فإن فيه: «أنا الديان»، وليس يصدر هذا الكلام حقاً وصدقاً إلا من رب العالمين؟».

قيل له: «إن الملك إذا كان يقول عن الله تعالى وَيُنَبِّئُ عَنْهُ فَالْحَكْمُ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، والدليل عليه أن الواحد منا إذا تلا قول الله تعالى ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾^(٣)، فليس يرجع إلى القارئ وإنما القارئ ذاكراً لكلام الله تعالى ودالاً عليه بأصواته وهذا بين».

وهذا له أيضاً دليل قوي في الصحيح^(٤) في حديث المعراج الذي ذكر فيه

(١) النسائي، سنن النسائي، كتاب العمل والليلة، باب الوقت الذي يستحب فيه الاستغفار، (ج ٦، ص ١٢٤)، حديث ١٠٣١٦.

(٢) عبد الحق الإمام الحافظ البارع المجود العلامة، أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحسين بن سعيد الأزدي الأندلسي الإشبيلي المعروف في زمانه بابن الخراط. حدث عن: أبي الحسن شريح بن محمد، وأبي الحكم بن برجان، وطائفة. روى عنه: علي بن محمد المعافري وغيره. سكن مدينة بجاية وقت الفتنة التي زالت فيها الدولة اللمتونية بالدولة المؤمئية، فنشر بها علمه، وصنف التصانيف، واشتهر اسمه، وسارت بـ «أحكامه الصغرى»، و«الوسطى» الركبان. وله: «أحكام كبرى»، قيل: هي بأسانيد. وولي خطابة بجاية. ولد سنة ٥١٠هـ، وتوفي ببجاية في شهر ربيع الآخر سنة ٥٨١هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٢١، ص ١٩٨-٢٠٢)، رقم الترجمة ٩٩.

(٣) سورة طه، آية ١٤.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب في مناقب الأنصار، باب المعراج، (ج ٣، ص ١٤١٠)، حديث ٣٦٧٤.

تخفيف الخمسين صلاة إلى خمس قوله ﷺ: «فلما جاوزت ناداني منادٍ: أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي»، فما أراد رسول الله بقوله: «ناداني» إلا المَلَك. فإذا ثبت هذا النداء من المَلَك مبلِّغاً عن الله فلا يمتنع أن ينادي المَلَك بتلك الجمل الثلاث: «هل من داع يستجاب له، هل من مستغفر يغفر له، هل من سائل يعطى»^(١)، فبطل استنكار أن يكون هذا اللفظ من المَلَك في حديث النزول، فأين تذهب المشبهة.

قال الشيخ شرف الدين بن التلمساني في «شرح لمع الأدلة» للجويني ما نصه^(٢): «وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني زورت في نفسي كلاماً. الطرف الثالث: إذا أطلق الكلام على المعنى القائم بالذات وعلى الألفاظ الدالة عليه فهل هو حقيقة فيهما معاً أو حقيقة في اللفظ مجاز في القائم بالذات أو بالعكس؟ اختلفوا في ذلك، فنقل عن الشيخ أبي الحسن قولان: أحدهما: إنه حقيقة في المعنى القائم بالذات مجاز في العبارات من مجاز إطلاق الدليل على المدلول.

والقول الثاني: إنه حقيقة فيهما لاستعماله فيهما جميعاً، والأصل في الإطلاق الحقيقة. وصار غيره إلى أنه حقيقة في العبارات لتبادرها إلى الفهم عند الإطلاق وعدم القرائن، ومجاز في المعنى القائم بالذات لخفائه. ولا يبعد أن يكون حقيقة لغوية في المعنى القائم بالذات، ومجازاً في الألفاظ».

(١) النسائي، سنن النسائي، كتاب العمل والليلة، باب الوقت الذي يستحب فيه الاستغفار، (ج ٦، ص ١٢٤)، حديث ١٠٣١٦.

(٢) ابن التلمساني، شرح لمع الأدلة (مخطوط)، (ص ٧١).

ثم قال أيضًا ما نصه^(١): «الفرقة الثانية: وهم الكرامية زعموا أن البارئ تعالى تقوم به الأقوال المركبة من الحروف والأصوات، قالوا: ولا يكون قائلًا بها وإنما هو قائل للقائلية، وفسروا القائلية بالقدرة على القول، وكذلك أثبتوا له مشيئة قديمة وإراداتٍ حادثة تقوم به، قالوا: وإذا أراد الله تعالى إحداث محدثٍ في الوجود خلق بذاته كافيًا ونونًا وإرادة يوجب بها ما هو خارج عن ذاته أخذًا من قوله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ وَكُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢)، وما ذكروه من قيام الحوادث بذاته يلزم منه حدوثه، فإن كل ما قبل الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث حادث، وأما الآية فهي إشارة إلى سرعة وقوع المراد فعبر عن القصد إلى الإيقاع بالأمر، وعن الوقوع بصورة الامتثال».

وتبع ابن تيمية الكرامية في ذلك في قوله «إن الله تقوم به كلمات تحدث في ذاته من وقت بعده وقت وهكذا على الاستمرار»، يقول: «فكلامه تعالى قديم النوع حادث الأفراد» كما قالت الكرامية، وينسب هذا المذهب الرديء الذي أخذه من الكرامية إلى أئمة أهل الحديث^(٣)، وأئمة أهل الحديث على خلاف ما يدعيه وما يقول، فإن معتقدهم أن ذات الله تعالى لا تحدث فيه صفة تتجدد من وقت إلى وقت، ويكفي في ذلك ما ذكره الحافظ الطحاوي الشهير بقوله «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر»، ناسبًا ذلك

(١) ابن التلمساني، شرح لمع الأدلة (مخطوط)، (ص ٦٤، ٦٥).

(٢) سورة يس، آية ٨٢.

(٣) وهو كثيرًا ما يذكر في كتبه عقب كلامه أنه هذا من كلام أئمة الحديث، وتختلف عبارته ما بين مسألة وأخرى، والمؤدى واحدٌ أن هذا من كلام أئمة هذا الفن، وهم أي أئمة علم المصطلح برءاء منه ومن كلامه.

إلى معتقد أبي حنيفة وصاحبيه ومن كان في تلك العصور من الأئمة، لأنه ألف عقيدته هذه المشهورة لبيان ما عليه أهل السنة وليس لبيان ما هو معتقده الخاص.

وأما ما احتج به ابن تيمية موهماً أن أئمة الحديث على ذلك فإنما هو قول بعض المشبهة من الحنابلة وغيرهم، وهؤلاء الذين يعتمد عليهم ليسوا من أصحاب المنزلة العالية في الحديث، لأنه يعتمد على مثل أبي إسماعيل الهروي السجزي^(١) وعثمان بن سعيد الدارمي^(٢)، وأما ما يذكره عن ابن المبارك فهو غير ثابت إسناداً، وقد نص أبو حنيفة رضي الله عنه على أن الله تعالى متكلم بكلام ليس حرفاً ولا صوتاً، وكل الحفاظ المنتسبين إلى مذهبه على هذا، وكذا الحفاظ المشاهير المنتسبون إلى الشافعي على هذا، وكذلك حفاظ المالكية ومتقدمو الحنابلة، فكيف يتجرأ ابن تيمية على نسبة هذا إلى أئمة الحديث موهماً أن هذا مما أجمعوا عليه، وكثيراً ما ينقل اتفاق العلماء على أشياء انفرد هو بها.

ويكفي أهل السنة دليلاً على أن الله تعالى لا يتكلم بالحرف والصوت قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾﴾^(٣)، يعني أن القرآن الذي هو

(١) الهروي (المجسم)، عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، أبو إسماعيل. له: «الفاروق في الصفات»، وكتاب «الأربعين»، و«منازل السائرين»، و«سيرة الإمام أحمد بن حنبل» ولد سنة ٣٩٦هـ، وتوفي سنة ٤٨١هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٤، ص ١٢٢).

(٢) الدارمي (المجسم)، عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني، أبو سعيد. له تصانيف في الرد على الجهمية، منها: «التقضى على بشر المريسي» سماه ناشره «رد الإمام الدارمي عثمان ابن سعيد على بشر المريسي العنيد». ولد سنة ٢٠٠هـ وتوفي سنة ٢٨٠هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٩، ص ٥٧).

(٣) سورة التكويد، آية ١٩.

اللفظ المنزل مقروء جبريل ليس مقروء الله ولو كان اللفظ المنزل هو الصفة القائمة بذات الله لكان جبريل متصفاً بصفة الله وهذا محال لأن صفات الخالق لا يجوز أن تقوم بالمخلوق، وإلى هذا أشار الطحاوي في عقيدته بقوله: «وأن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً»، والمراد بقوله: «بلا كيفية قولاً»، نفي أن يكون الله تعالى يتكلم بالحرف والصوت كما يتكلم العباد لأنه هو الذي نفاه بقوله «بلا كيفية»، وإلا فلو كان الله قرأ القرآن على جبريل بالحرف والصوت لم يقل «بلا كيفية» لأن الحروف كيفيات، سبحانه الله الذي يقفل قلوب من شاء من عباده عن فهم الحق.

وأما قول الطحاوي: «منه بدا»، فليس معناه أن الله أحدثه في ذاته بعد أن لم يكن يتكلم به، إنما معناه منزل من عنده، أي نزل به جبريل بأمر الله.

وأما قول الله تعالى: ﴿مَا نَفَدْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾^(١)، فالجمع ليس لأن كلام الله حروف متعاقبة، إنما ذكر بالجمع في الآية للتعظيم أي لتعظيم كلامه كما قال البيهقي في «الأسماء والصفات»^(٢) مع كونه في الحقيقة واحداً لا تعدد فيه، شامل لكل متعلقاته من الواجب والجائز والمستحيل، لأن الكلام معناه الإخبار والذكر، ولا يُقاس صفة من صفات الله بصفات غيره، فمن قاس كلام الله الأزلي على كلام العباد فقد شبهه بخلقه. ومنشأ ضلالة المشبهة أنهم قاسوا ذاته الذي ليس حجماً وجسماً بذوات الخلق فأثبتوا له الحيز والشكل، وقاسوا صفاته بصفات خلقه فجعلوها حادثة وهذا

(١) سورة لقمان، آية ٢٧.

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٣١٣).

يشهد عليهم بأنهم لم يفهموا قول الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١).

قال الفقيه أبو بكر محمد بن سابق الصقلي (٢) في كتاب «الحدود الكلامية والفقهية على رأي أهل السنة الأشعرية» (٣) ما نصه: «فالذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة، أن كلام الله تعالى صفة من صفات ذاته، قديم أزلي، وأنه شيء واحد لا يتجزأ ولا ينقسم ولا يتبعض، ولا هو لغة من اللغات، ولا هو حروف وأصوات، لم يزل تعالى متكلماً به ولا يزال، غير مُشبهٍ لِمَا عَقَلْنَاهُ من الكلام، وأن المتكلم به تعالى بلا لسان ولا لهوات ولا آليات، ولا حركات ولا نغمات، ولا خلق ولا صدر، ولا شفة ولا خياشيم ولا جارحة، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٤). فكما أنه تعالى متكلم، وليس كمثل متكلم، كذلك كلامه تعالى مسموع وليس كمثل مسموع، كما أنه موجود وليس كمثل موجود، وكما أنه مرئي وليس كمثل مرئي. وقد أجمع أهل السنة وسائر أهل البدع من الخوارج والقدرية وغيرهم

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) محمد بن سابق الصقلي، يكنى أبا بكر، الجزيري نسبة إلى جزيرة شقر، وعرف بابن الرماح. من مشايخه: أبو مروان بن سراج، وعبد الباقي بن فارس بن أحمد بن موسى، وكريمة بنت أحمد بن محمد بن حاتم المروزي أم الكرام المجاورة المعمرة المتبتلة وغيرهم. من تصانيفه: «الكتاب المجموع في الأصول والفروع»، و«تقريب الأصول العقلية وترتيب الفصول الشرعية»، و«أدلة النظر والرد على من زاغ وكفر»، و«إحكام المحاضرة في أحكام المناظرة»، و«المسالك في شرح موطأ مالك»، و«الحدود الكلامية والفقهية على رأي أهل السنة الأشاعرة ومعه مسألة الشارع في القرآن». قال فيه محمد بن أحمد بن علي السوسي الرّداني: «الفقيه الحافظ الأشعري». استقر به المقام بمصر ينهل من علوم مشايخها إلى أن توفي بها سنة ٤٩٣ هـ. الصقلي، كتاب الحدود الكلامية والفقهية على رأي أهل السنة الأشعرية، (ص ٩-٣١).

(٣) الصقلي، الحدود الكلامية والفقهية على رأي أهل السنة الأشعرية، (ص ٢١٣-٢١٥).

(٤) سورة الشورى، آية ١١.

على اختلاف مذاهبهم، على أنه لا يجوز أن يوجَد بذات الله تعالى كلامٌ هو حروفٌ وأصواتٌ، وعلى أن مَنْ قَالَ إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ المتصِف به حروفٌ وأصواتٌ فقد كَفَرَ لجهله بالله؛ لأنه سَوَّاه بالحوادثِ، باستِفتاح الوجود له، وذلك أن المتكلمَ بالحرفِ والصوت لا يَصِلُ إلى النُّطقِ بحرفٍ حتى يذهب ما قبله، ويحدث فيه الحرفُ الثاني بعد ذهاب الأول؛ فلا ينطقُ بالدال من «قد» حتى يذهب القافُ، وتحدث بعدها الدالُ، وَمَنْ قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يحدثُ فيه الحَرْفُ بعدَ الحَرْفِ، فقد جعلَ رَبَّهُ محلًّا للحوادثِ، وشبَّهه بمخلوقاته، وشبَّه مخلوقاته به!؛ وهذا كُفْرٌ بإجماع، تعالى الله عن قولهم علوًّا كبيرًا.

وأجمع أهل السنة وأهل البدع على أن مَنْ قَالَ إِنَّ التَّلَاوَةَ المسموعة التي هي أصواتُ القارئ وحروفه ونغماته قديمةٌ فقد كفر أيضًا، وقال بقدم الحوادثِ، ولحق بالدَّهْرِيَّة. وهذه المقالةُ عليها جُهالٌ لا يدرون حقيقة ما يتكلمون به؛ وكان منهم الشيرازيُّ بمصرَ وهو بدعي مشبه وليس الشيرازي الفقيه الشافعي لعنه الله ولعن كلَّ من يقولُ بقوله، وقد أضلَّ^(١) خلقًا كثيرًا بذلك لجهلهم، وهو كُفْرٌ، ويدل على سخافةِ قائله وعمى قلبه.

فائدة جليلة: الدليل على أن كلام الله ليس حرفًا ولا صوتًا ولا لغةً ما ثبت أن الله تعالى يكلم كل فرد من أفراد العباد يوم القيامة ويفرغ من حسابهم في وقت قصير، فلو كان الله تبارك وتعالى يكلمهم بصوت وحرف لم يكن حسابه لعباده سريعًا، والله تبارك وتعالى وصف نفسه بأنه سريع الحساب.

(١) أي الشيرازي البدعي الذي بمصر.

ولو كان كلام الله تعالى بحرف وأصوات لكان أبطأ الحاسبين، وهذا ضد الآية: ﴿ثُمَّ رُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقَّ ۖ لَا لَهُ الْكُفْمُ ۖ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٦٢) (١)، فلا يتحقق معنى أسرع الحاسبين إلا على مذهب أهل السنة أن الله متكلم بكلام أزلي بغير حرف ولا صوت.

وذلك لأن عدد الجن والإنس كثير لا يحصيهم إلا الله، ومن الجن من يعيش آلافًا من السنين، ومن الإنس من عاش سنة فأكثر، فقد عاش ذو القرنين في ملكه ألفي عام كما قال الشاعر العربي: (٢)
الصَّعْبُ ذُو الْقَرْنَيْنِ (٢) أَمْسَى مَلِكُهُ أَلْفَيْنِ عَامًا ثُمَّ صَارَ رَمِيمًا
 ومن الإنس أيضًا يأجوج ومأجوج كما ورد في الحديث أنهم من ولد آدام، وورد أنهم أكثر أهل النار كما روى البخاري، وورد أنه لا يموت أحدهم

(١) سورة الأنعام، آية ٦٢.

(٢) ذو القرنين، اسمه الصعب بن الحارث وقيل الصعب بن ذي مراند وهو أشهر التبابعة الذين هم ملوك اليمن. كان غازيًا مجاهدًا، منصورًا مظفرًا. وصل إلى بلاد ما بين الجبلين، وهما جبلان متقابلان عاليان أملسان ويسكن بينهما قوم لا تكاد تعرف لغتهم، قد جاوروا قومًا خبثاء هم قوم يأجوج ومأجوج، وهم قوم في الأرض، مفسدون ضالون مضلون. ولما رأى أهل ما بين الجبلين أن ذا القرنين ملك قوي، شديد المراس، واسع السلطان، كثير الأعوان، التجأوا إليه طالبين أن يقيم سدًا بينهم وبين جيرانهم، يفصل بلادهم، ويمنع عنهم عدوانهم، فجاءوه بقطع الحديد الضخمة حسب طلبه فكانت كل قطعة تزن قنطارًا أو أكثر، ووضعها بين الجبلين الواحدة فوق الأخرى من الأساس وأضرم النار فيها، وأمر بالنفخ عليها بالمنافخ حتى تحمى، ثم جاء بالنحاس المذاب مع الرصاص فأفرغهما على تلك القطع الحديدية فالتأمت واشتدت والتصقت ببعضها حتى صارت سدًا شامخًا أملس سميكا جدًا يصل ارتفاعه إلى مائتين وخمسين ذراعًا يصعب الصعود عليه إذ لا تنوء ولا ثقب فيه ويصعب بالتالي ثقبه. ولما بني ذو القرنين السد بعون الله وتوفيقه: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (١٨) وحجز قوم يأجوج ومأجوج خلفه. عاش ذو القرنين مئات السنين حتى توفاه الله تعالى وقد تزود لآخرته بزيادة التقوى والعمل الصالح. قسم الدراسات والأبحاث في جمعية المشاريع، الطريق المحبوب، (ج ٢، ص ١٤ - ١٧).

حتى يلد ألفاً لصلبه كما رواه ابن حبان^(١) والنسائي^(٢)، وهؤلاء يحاسبهم الله على أقوالهم وأفعالهم واعتقاداتهم مع كثرتهم الكثيرة ويكلم كل فرد منهم تكليماً بلا ترجمان، ويحاسبهم على عقائدهم ونواياهم وأفعالهم، فلا بد أن يأخذ حسابهم على موجب قول المشبهة الذين يقولون كلام الله حرف وصوت يتكلم من وقت إلى وقت ثم من وقت إلى وقت مدة واسعة جداً، فعلى موجب كلامهم يستغرق ذلك جملة مدة القيامة التي هي خمسون ألف سنة، وعلى قولهم هذا لم يكن الله أسرع الحاسبين وهو وصف نفسه بأنه أسرع الحاسبين كما تقدم، فقول المشبهة يؤدي إلى خلاف القرآن وذلك محال، وما أدى إلى المحال محال.

وأما أهل السنة فإنهم يقولون إن كلام الله ليس متجزئاً فيسمع الناس يوم القيامة كلامه الذي ليس بحرف وصوت وغير متجزئ في ساعة واحدة ويفهم كل واحد منهم ما شاء الله له أن يفهمه^(٣)، فيتحقق على ذلك أنه أسرع الحاسبين.

فائدة أخرى: قال الشيخ الإمام المتكلم ابن المعلم القرشي في كتابه «نجم المهتدي» ما نصه^(٤): «قال الشيخ الإمام أبو علي الحسن بن عطاء في أثناء جواب عن سؤال وجه إليه سنة إحدى وثمانين وأربعمائة: الحروف مسبوق بعضها ببعض، والمسبوق لا يتقرر في العقول أنه قديم، فإن القديم لا ابتداء لوجوده وما من حرف وصوت إلا وله ابتداء، وصفات الباري جلّ جلاله

(١) ابن بلبان، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، (ج ١، ص ٢٩٢).

(٢) النسائي، السنن الكبرى، كتاب التفسير، تفسير سورة طه، (ج ٦، ص ٤٠٨).

(٣) والمراد بها جزء قليل لا الساعة الزمنية المعتادة في محاورات الناس اليوم.

(٤) ابن المعلم القرشي، نجم المهتدي ورجم المعتدي (مخطوط)، (ص ٥٥٩).

قديمة لا ابتداء لوجودها، ومن تكلم بالحروف يترتب كلامه ومن ترتب كلامه يشغله كلام عن كلام، والله تبارك وتعالى لا يشغله كلام عن كلام، وهو سبحانه يحاسب الخلق يوم القيامة في ساعة واحدة، فدفعة واحدة يسمع كل واحد من كلامه خطابه إياه، ولو كان كلامه بحرف ما لم يتفرغ عن يا إبراهيم ولا يقدر أن يقول يا محمد فيكون الخلق محبوسين ينتظرون فراغه من واحد إلى واحد وهذا محال».

قال الإمام الأسفراييني ذاكراً عقيدة أهل السنة والجماعة ما نصه^(١):
«وأن تعلم أن كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت لأن الحرف والصوت يتضمنان جواز التقدم والتأخر، وذلك مستحيل على القديم سبحانه».

وقال ملا علي القاري في «شرح الفقه الأكبر» ما نصه^(٢): «ومبتدعة الحنابلة قالوا: كلامه حروف وأصوات تقوم بذاته وهو قديم، وبالغ بعضهم جهلاً حتى قال: الجلد والقرطاس قديمان فضلاً عن الصحف، وهذا قول باطل بالضرورة ومكابرة للإحساس بتقدم الباء على السين في بسم الله ونحوه».

وقال أيضاً ما نصه^(٣): «وقد ذكر المشايخ رحمهم الله تعالى أنه يقال: القراءان كلام الله غير مخلوق، ولا يقال القراءان غير مخلوق لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلف من الأصوات والحروف قديم كما ذهب إليه بعض جهلة الحنابلة». انتهى كلام الهرري.

(١) الأسفراييني، التبصير في الدين، (ص ١٠٢).

(٢) ملا علي القاري، شرح الفقه الأكبر، (ص ٢٩-٣٥).

(٣) ملا علي القاري، شرح الفقه الأكبر، (ص ٤١).

المبحث السادس والعشرون

تأويل قوله تعالى

﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(١)

قال المفسر القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»^(٢): «وعن النحاس: وأصح ما قيل فيه ما رواه أبو وائل^(٣) عن ابن مسعود قال: يحشر الناس على أرض بيضاء مثل الفضة لم يعص الله جل وعز عليها، فيؤمر منادٍ ينادي ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾^(٤). «ثم قال: «والقول صحيحٌ عن ابن مسعودٍ وليس هو مما يؤخذ بالقياس ولا بالتأويل».

وقد قال الفقيه المفسر فخر الدين الرازي في كتابه «التفسير الكبير»^(٥) في

(١) سورة غافر، آية ١٦.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (م ١٥، ص ٣٠٠).

(٣) شقيق بن سلمة، الإمام الكبير شيخ الكوفة، أبو وائل الأسدي أسد خزيمة الكوفي، مخضرم، أدرك النبي ﷺ، وما رآه. وحدث عن: عمر، وعثمان، وعلي، وعمار، ومعاذ، وابن مسعود، وأبي الدرداء، وأبي موسى، وحذيفة، وعائشة، وخباب، وأسامة بن زيد، والأشعث بن قيس، وسلمان بن ربيعة، وسهل بن حنيف، وشيبة بن عثمان، وعمرو بن الحارث المصطلق، وقيس ابن أبي غرزة، وأبي هريرة، وأبي الهياج الأسدي، وخلق سواهم. ويروي عن أقرانه: كمسروق، وعلقمة، وحمران بن أبان. وكان من أئمة الدين. حدث عنه: عمرو بن مرة، وحبيب بن أبي ثابت، والحكم بن عتيبة، وواصل الأحذب، وحماد الفقيه، وعبد بن أبي لبابة، وعاصم بن بهدلة، وأبو حصين، وأبو إسحاق، ونعيم بن أبي هند، ومنصور والأعمش، ومغيرة، وعطاء ابن السائب، وزبيد الياامي، وسيار أبو الحكم، ومحمد بن سوقة، والعلاء بن خالد، وأبو هاشم الرماني، وأبو بشر، وخلق كثير. قال ابن سعد: «كان ثقة كثير الحديث». قال أبو نعيم: «مات ابن سبع وعشرين ومائة». الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٤، ص ١٦١).

(٤) سورة غافر، آية ١٦.

(٥) الرازي، التفسير الكبير، (م ١٤، ج ٢٧، ص ٤١).

الرد على من قال إن الله تعالى يسأل ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾^(١) فلا يجيبه أحد وهو تعالى يجيب نفسه ويبين أنه باطل لا أصل له: «الأول: قال المفسرون إذا هلك كل من في السماوات ومن في الأرض فيقول الرب تعالى: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ يعني يوم القيامة فلا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول ﴿لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢) قال أهل الأصول هذا القول ضعيف وبيانه من وجوه:

الأول: أنه تعالى بيّن أن هذا النداء إنما يحصل يوم التلاق ويوم البروز ويوم تجزى كل نفس بما كسبت، والناس في ذلك الوقت أحياء، فبطل قولهم إن الله تعالى إنما ينادي بهذا النداء حين هلك كل من في السماوات والأرض.

والثاني: أن الكلام لا بد فيه من فائدة لأن الكلام إما أن يذكر حال حضور الغير، أو حال ما لا يحضر الغير، والأول: باطل ههنا لأن القوم قالوا إنه تعالى إنما يذكر هذا الكلام عند فناء الكل، والثاني: أيضاً باطل لأن الرجل إنما يحسن تكلمه حال كونه وحده إما لأنه يحفظ به شيئاً كالذي يكرر على الدرس وذلك على الله محال، أو لأجل أنه يحصل سرور بما يقوله وذلك أيضاً على الله محال، أو لأجل أن يعبد الله بذلك الذكر وذلك أيضاً على الله محال، فثبت أن قول من يقول إن الله تعالى يذكر هذا النداء حال هلاك جميع المخلوقات باطل لا أصل له.

(١) سورة غافر، آية ١٦.

(٢) سورة غافر، آية ١٦.

وقال أيضًا: «إن في يوم التلاق إذا حضر الأولون والآخرون وبرزوا نادى منادٍ ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾»^(١).

ومثل هذا الكلام ذكر محمد بن مصلح الدين مصطفى القوجوي الحنفي في كتابه «حاشية محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي»^(٢): «من أنه إذا حضر الأولون والآخرون يوم التلاق وبرزوا لله جميعًا نادى منادٍ ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾».

وقال القاضي أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى العمادي الحنفي في كتابه «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم»^(٣): «أي ينادي منادٍ لمن الملك اليوم» ثم قال: «لما روي أنه يجمع الله الخلائق يوم القيامة في صعيد واحد في أرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يعص الله فيها قط فأول ما يتكلم به أن ينادي منادٍ ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾». قال معلقًا أخرجه ابن المبارك في «الزهد»^(٤) وابن أبي الدنيا في «الأهوال»^(٥) عن ابن مسعودٍ موقوفًا.

فقد تبين واتضح أن القول الصحيح المعتمد الموافق لعقيدة المسلمين أن الملك هو الذي ينادي في موقف القيامة بأمرٍ من الله والملك نفسه يجب وليس الله كما زعم أهل التشبيه والتجسيم الذين وصفوا الله بصفات حادثة واعتقدوا أن كلامه ككلام خلقه يتكلم بعد سكوت ويسكت بعد كلام وأن

(١) سورة غافر، آية ١٦.

(٢) شيخ زاده، حاشية شيخ زاده على شرح البيضاوي، (ج ٧، ص ٣٠٧).

(٣) العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، (م ٧، ص ٢٣٠).

(٤) ابن المبارك، الزهد والرقائق، (ج ٢، ص ١١٥).

(٥) ابن أبي الدنيا، الأهوال، (ج ١، ص ١٤٦).

كلامه يتخلله انقطاع وهذا تشبيه لله بخلقه وتكذيب لقول الله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (٧٤) (١).

فلا حجة للمشبهة الصوتية في ما قيل من أن الله تعالى يقول بعد أن يقبض عزرائيل أرواح الخلق والملائكة فيقبض الله روح عزرائيل ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ (١٦) فيجيب نفسه بنفسه ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١٦) لأنه حديث ضعيف رواه الطبراني.

يقال لهم: أليس الله تعالى كان موجوداً قبل هذه الحروف فهي محدثة أحدثها هو، فكيف يتصف الله بشيء محدث. بل قولهم فيه نسبة الحدوث إلى ذات الله لأن ما يتصف بالحدث فهو حادث وإنما تأويل ما ورد في القرآن من هذه الألفاظ أنها عبارة عن كلامه الأزلي الأبدي. فالكلام الأزلي يُعبر عنه باللفظ الماضي ولفظ المضارع ولفظ الأمر، فكلام الله القائم بذاته غير مُجتزئ ولا متبعض كما أن حياته صفة قائمة بذاته أي ثابتة له لا تتجزأ ولا يتخللها انقطاع.

وأحسن منه من حيث الإسناد ما رواه أبو بكر عبد الله بن أبي داود في كتابه «البعث» قال (٢): «حدثنا الحسن بن يحيى بن كثير قال: حدثنا أبي قال: حدثنا سليم بن أخضر عن التيمي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد بين يدي الصيحة يا أيها الناس أتتكم الساعة ومدّ بها التيمي صوته قال فيسمعه الأحياء والأموات وينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا ثم ينادي مناد لمن الملك اليوم لله الواحد القهار».

(١) سورة النحل، آية ٧٤.

(٢) ابن أبي داود، البعث، (ص ٢٦).

وإضافة النزول إلى الله ليس على حقيقته ولا على ظاهره بل هو متأولٌ عند جميع أهل السنة والجماعة وقد قال الإمام مالك: «نزول رحمة لا نزول نُقْلة» رواه الزرقاني في شرحه على موطأ مالك^(١)، لأن الله موجود بلا مكان منزّه عن الحركة والسكون والانتقال. أخرج هذا الحديث الديلمي في «فردوس الأخبار» وعزاه السيوطي لابن أبي الدنيا في «البعث» مرفوعاً، ولعبد بن حميد في «زوائد الزهد»، وابن أبي حاتم والحاكم وصححه في «المستدرک»^(٢)، وأبي نعيم في «الحلية»^(٣) عن ابن عباس موقوفاً عليه. وهذا سالم من نسبة النطق بالصوت إلى الله وهو عقيدة أهل التنزيه والإثبات، يثبتون لله ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له نبيه مع تجنب حمل النصوص على ظواهر المتشابه، بل يعتقدون للمتشابه معاني تليق بالله ليس فيها إثبات صفة حادثة لله كما أنهم ينزهون ذاته عن الحجمية والجسمية. فينبغي ألا يلتفت إلى ما يذكر في كثير من التفاسير من أن الله تعالى هو الذي يقول بعد فناء الخلق كلهم سوى الجن والملائكة مجيباً لنفسه لمن الملك اليوم لله الواحد القهار فإنه يتبادر إلى ذهن المطالع لهذا الكلام أن الله ينطق بالصوت في ذلك الوقت وهذا مما لا يجوز اعتقاده وهو تشبيه وكفر.

ويجب الحذر مما قاله الدكتور وهبة الزحيلي السوري في كتابه المسمى

(١) ونص عبارته هي: «والحاصل أنه تأوله بوجهين: إما أن المعنى ينزل أمره أو الملك، وإما أنه استعارة بمعنى التلطف بالداعين والإجابة لهم ونحوه. وكذا حكى عن مالك أنه أوله بنزول رحمته وأمره أو ملائحته كما يقال فعل الملك كذا أي أتباعه بأمره». الزرقاني، شرح الزرقاني على الموطأ، باب ما جاء في الدعاء، (ج ٢، ص ٤٩).

(٢) الحاكم، المستدرک، كتاب التفسير، تفسير سورة الواقعة، (ج ٢، ص ٥١٩)، حديث ٣٧٨١.

(٣) أبو نعيم، حلية الأولياء، (ج ٨، ص ٩٩).

«الموسوعة القراءانية الميسرة»^(١): «ويقول الله حينئذٍ: لِمَنِ الْمُلْكُ الْمَطْلُوقُ يوم القيامة؟ فلا يجيبه أحد، فيجيب الله سبحانه نفسه قائلاً: لله الواحد الأحد القهار لخلقه». ويقول ما نصه^(٢): «فلما أتى النار، نودي بصوت: يا موسى، إني أنا الله ربك». والعياذ بالله تعالى من هذا الكفر.

قال الإمام الطحاوي رضي الله عنه: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر» ونسبة الصوت^(٣) إلى الله أو أنه يتكلم بكلام حادث أو بحروف أو أنه تحدث له صفة لم تكن في الأزل فهو تكذيب للقرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٤)، وكم تكون فرحة الوهابية المجسمة بكلام الزحيلي هذا لأنه عين عقيدتهم وليس من عقيدة أهل السنة والجماعة الأشاعرة والماتريدية في شيء.



(١) وهبة الزحيلي، المسمى الموسوعة القراءانية الميسرة، (ص ٤٦٩).

(٢) وهبة الزحيلي، المسمى الموسوعة القراءانية الميسرة، (ص ٣١٣).

(٣) المراد به الصوت الحادث، وقد سبق الكلام على من يصف الله تعالى بأنه يتكلم بصوتٍ أزليٍّ غير حادث، فتأمل.

(٤) سورة الشورى، آية ١١.

المبحث السابع والعشرون

تاويل قوله تعالى

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْلِمُنِ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(١)

يقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾^(٢)... وقال تعالى عن فرعون: ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَى﴾^(٣) ثُمَّ أَذْبَرَ يَسْعَى^(٤) فَحَشَرَ فَنَادَى^(٥) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى^(٦) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى^(٧)...^(٣)

ومن أعجب العجائب أن الوهابية وأئمتهم في التجسيم والتشبيه، كابن تيمية في كتابه المسمى «مجموع الفتاوى» وابن قيم الجوزية في كتابه المسمى «القصيدة النونية» وابن باز في «موقعه الإلكتروني» وابن عثيمين في كتابه المسمى «فتاوى في العقيدة» وابن جبرين^(٤) في كتابه المسمى «التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية» وعلي بن يحيى بن حزم وأحمد ابن يحيى النجمي في رسالة لهما اسمها «الاعتقاد أن الله تعالى في كل مكان من أفسد المعتقدات وأخبثها» ومحمد خليل هراس في «شرح على نونية ابن قيم» وعبد الرحمن دمشقية في «كثير من كتاباته» وعبد الهادي وهبي

(١) سورة غافر، آية ٣٧.

(٢) سورة هود، آية ٩٧.

(٣) سورة النازعات، آية ٢١-٢٥.

(٤) عبد الله بن جبرين (مجسّم). من مشايخه: محمد بن إبراهيم آل الشيخ، وعبد العزيز بن باز، وعبد العزيز بن محمد الشثري. من مصنفاته: المسمى «أخبار الآحاد في الأحاديث النبوية»، والمسمى «ذم اتباع الهوى» وغيرها من الكتب فاحذروها. ولد سنة ١٣٥٣هـ، وتوفي سنة ١٤٣٠هـ.

في كتابه المسمى «غاية البيان في إثبات علو الرحمن» وأضرابهم من الذين أنكروا قيمة البرهان النقلى والعقلى لجأوا إلى قول فرعون لهامان لإثبات عقيدتهم الفاسدة المكذبة للقرءان التى هى نسبة الحيز والمكان إلى الله، تعالى الله وتقدس عن ذلك لأنه سبحانه قال: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ (٣) (١)، وقال عليه الصلاة والسلام: «أنت الأول فليس قبلك شىء وأنت الآخر فليس بعدك شىء وأنت الظاهر فليس فوقك شىء وأنت الباطن فليس دونك شىء» رواه مسلم (٢). ومن كان كذلك كان موجوداً بلا مكان.

وقال الحافظ البيهقى في كتابه «الأسماء والصفات»: «استدل بعض أصحابنا يعنى العلماء من أهل السنة والجماعة من هذا الحديث على نفى المكان عن الله تعالى».

وقال رسول الله ﷺ: «كان الله ولم يكن شىء غيره...»، رواه البخارى (٣) والبيهقى (٤) والسيوطى (٥)، والمكان العلوى والسفلى وأمام وخلف ويمين وشمال والعالم بأسره غير الله، معناه فى الأزل لم يكن عرش ولا سماء ولا مكان، يعنى كان الله ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان لأنه لا يجوز عليه التغير ولأن التغير أكبر علامات الحدوث، فوجب شرعاً وعقلاً أن يكون الله

(١) سورة الحديد، آية ٣.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، (ص ١٠٤٤)، حديث ٢٧١٣.

(٣) البخارى، صحيح البخارى، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء فى قول الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (٤)، (ج ٣، ص ١١٦٤)، حديث ٣٠١٩.

(٤) البيهقى، السنن الكبرى، كتاب السير، باب مبتدأ الخلق، (ج ٢، ص ٢٥١)، حديث ١٨١٥٦.

(٥) السيوطى، جمع الجوامع، (ج ١، ص ١٥٦٣١).

تعالى بلا مكان وإلا لكان مثل خلقه. وبعد هذه الأدلة القرآنية والحديثية لم يستح هؤلاء الوهابية لا من الله ولا من الناس، ولجأوا إلى فرعون الكذاب المفتري الذي ادعى الألوهية لنفسه واحتجوا به في عقيدتهم التي هي أوهى من بيت العنكبوت، فقال داعية فسادهم المدعو عبد الله بن جبرين في كتابه المسمى «التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية» ما نصه: «الآية الرابعة: وهي قصة فرعون، حكى الله عنه أنه قال: ﴿يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(١)، الصرح هو البناء الرفيع والأسباب هي الحبال، ﴿أَسْبَابِ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾^(٢)، أي حبال السماء فأصعد فيها حتى أصل إلى السماء فأطلع إلى إله موسى الذي يقول إنه في السماء هل هو صادق أم لا ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾^(٣). هكذا ذكره الله تعالى في سورة مؤمن وغافر، وقال في سورة القصص: ﴿فَأَوْقَدُ لِي يَهْمَنُ عَلَىٰ الظُّمَيْنِ فَأَجْعَل لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٤). لعلني أتخذ بناءً رفيعاً أصعد إليه حتى أصل إلى السماء لأنظر هل في السماء إله كما يقول موسى أم لا، فأنا أظن أنه من الكاذبين ليس في السماء إله، هذا دليل على أن موسى أخبر فرعون أن إلهه في السماء... إلى آخره.

وبعد هذه الترهات والسخافات والأكاذيب المفضوحات من الوهابية وزعمائها كما رأيت ما قاله ابن جبرين، نحن أهل السنة والجماعة نقول: إن الوهابية تستبيح الكذب على الله وعلى أنبيائه وعلى دينه فلا يستبعد منهم

(١) سورة غافر، آية ٣٦.

(٢) سورة غافر، آية ٣٧.

(٣) سورة غافر، آية ٣٧.

(٤) سورة القصص، آية ٣٨.

ولا يستغرب هذا التحريف العريض والجرأة الهوجاء على نبي الله موسى عليه الصلاة والسلام، وتتحدى كل جماعة الوهابية أن يثبتوا بزعمهم ما قاله ابن جبرين في افتراءه هذا على موسى ولن يستطيعوا. وانظروا إلى قوله «إن موسى قال لفرعون بأن إلهه في السماء»، وأن هذا مذكور في القرآن، سورة غافر والقصص. وهذا لا وجود له في هذه السورة ولا في غيرها إلا إذا زعمت الوهابية أنهم يحتفظون بمصحف خاص بزعمهم غير المصحف الذي مع المسلمين، ففي أي موضع أيها الوقحون بزعمكم، موسى قال لفرعون إن الله في السماء؟!!

بل الذي قاله موسى كما في سورة الشعراء: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾^(١)، فلاحظوا إلى قول الله عن موسى ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ٢٤﴾ وما قال «الله في السماوات» كما كذبت الوهابية على القرآن وعلى موسى. وانظروا إلى ما أخبر الله تعالى عن فرعون قال ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٣﴾ لأنه في الأصل هو لا يؤمن بالله ولا يعتقد بوجوده فلم يقل «أين الله» لأنه لا يعترف بوجوده، فكيف يسأل عن مكانه كما افتري ابن جبرين وقال: «لا بد أن يكون فرعون سأل موسى أين إلهك، وأن موسى قال له في السماء»؟!!

انظروا أيها الوهابية إلى تفسير حبيكم ابن كثير لقول فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٣﴾ قال ابن كثير في تفسيره ما نصه^(٢): «يقول تعالى مخبراً عن كفر فرعون وطغيانه وجحوده في قوله ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ٢٣﴾ وذلك أنه كان

(١) سورة الشعراء، آية ٢٣-٢٥.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج ٦، ص ١٣٨).

يقول لقومه: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(١)، ﴿فَأَسْتَخَفَّ قَوْمَهُ وَفَأَطَاعُوهُ﴾^(٢)، وكانوا يجحدون الصانع تعالى ويعتقدون أنه لا رب لهم سوى فرعون، فلما قال موسى ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، قال له: ومن هذا الذي تزعم أنه رب العالمين غيري؟ هكذا فسره علماء السلف وأئمة الخلف، حتى قال السدي هذه الآية كقوله تعالى: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَىٰ﴾^(٤) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ^(٥). ومن زعم من أهل المنطق وغيرهم أن هذا سؤال عن الماهية فقد غلط، فإنه لم يكن مقرا بالصانع حتى يسأل عن الماهية، بل كان جاحداً له بالكلية في ما يظهر، وإن كانت الحجج والبراهين قد قامت عليه فعند ذلك قال موسى عندما سأله عن رب العالمين: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(٥) أي خالق جميع هذا ومالكة».

فأين يا وهابية الرجس سؤال فرعون لموسى عن مكان الله تعالى بزعمكم؟ وأين قول موسى كما كذبتكم عليه وافتريتم أنه قال إن الله في السماء؟ فهذا لا وجود له في كل آيات القرآن، لا في منطوقها ولا في مفهومها وإنما هو محض تقول منكم على موسى وفي حقيقة الأمر، افتريتم أيضاً على إمامكم فرعون في هذه الكفرية وقتلتم إنه أنكرها على موسى فأنتم أخذتم هذا من موسى لأنه قاله لفرعون وأنكره فرعون على موسى وفي حقيقة الأمر، لا

(١) سورة القصص، آية ٣٨.

(٢) سورة الزخرف، آية ٥٤.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٠٤.

(٤) سورة طه، آية ٤٩-٥٠.

(٥) سورة النبأ، آية ٣٧.

فرعون سأله عن هذا ولا موسى قاله، بل الذي قاله موسى عن الله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾^(١) ولم يقل إن الله بذاته في السماء، فما أوقفكم في الكذب على الله وعلى موسى وعلى كتاب الله تعالى.

ومن تليفقاتهم وخيالاتهم السخيفة الساقطة ما قاله ابن جبرين في نفس الموضوع: «ثم إن المعتزلة والأشعرية ونحوهم قالوا إن هذا من ظن فرعون وإن من اعتقد أن الله في السماء فقد تشبه بفرعون فهم عكسوا القضية وقالوا: أنتم أيها المشبهة يا من اعتقدتم أن ربكم في السماء قدوتكم فرعون الذي قال: إن إله موسى في السماء، فكيف نجيب وكيف نرد عليهم؟ نقول لهم فرعون جاحد منكر أن يكون هناك إله بل يدعي أنه هو فقط، فهو منكر أن يكون له رب لا في السماء ولا في الأرض، فلما جاءه موسى وأخبره بأن هنالك إلهًا، فلا بد أنه قد سأله أين هذا الإله الذي تزعم يا موسى، ولا بد أن موسى أخبره أن إلهه في السماء».

وهنا كأن ابن جبرين نسي أن هذه الأمة فيها عقلاء وأذكياء وفطناء يحفظون العقيدة الإسلامية السنية ويحافظون عليها ويدفعون عنها تمويهات المموهين وكذب الكاذبين وتشكيك المشككين حتى ألصق بموسى عليه السلام أنه لا بد أن يكون قال لفرعون إن الله في السماء بزعمه، وكيف يستطيع أن يثبت هذا؟ فلو انتظر إلى آخر الدنيا هو وزمرة الوهابية، لن يستطيعوا أن يثبتوا هذا على موسى من كتاب الله عز وجل ولا من غيره بنقل معتبر.

أما إن قالوا: هذا يفهم من الآيات، يقال لهم: فهمكم معكوس وعقلكم

(١) سورة النبأ، آية ٣٧.

منكوس وقلبيكم مطموس فلا عبرة بوهمكم ولا بفهمكم السقيم لأنكم كما قال ابن عثيمين في كتابه المسمى «شرح رياض الصالحين»: «إن الحشرات والبهائم إبان الزلزلة في القاهرة هاجت وضجت ورفعت رؤوسها إلى السماء» وقال: «حتى البهائم بالفطرة تعرف أن الله في السماء... فاعجبوا من هذا واضحكوا من حشرات نجد وبقرها! فإذا كنتم أخذتم دينكم وعقيدتكم عن الحشرات والبهائم كيف يؤخذ بفهمكم. وأما ما في بعض كتب التفسير مما يتعلق بهذا الموضوع فكلنا يعرف أن كتب التفاسير فيها الغث والسمين، فإن قلت في تفسير كذا أو فلان قال كذا أي أن فرعون بنى الصرح ليصل إلى الله، لأنه فهم ذلك من موسى، وهو ينكره عليه ويريد أن يكذبه، فماذا تقولون في ما جاء في بعض الكتب أنه لما بنى لفرعون الصرح ارتقى فوقه فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه وهي متلطخة دما، فقال قد قتلت إله موسى، تعالى الله عما يقول؟ فماذا تقولون أيها الوهابية إن زعمتم أن موسى قال إن الله في السماء وإن فرعون صعد وارتقى فوق الصرح ليصل إليه ليتأكد من كذب موسى بزعمه ثم يقول إنه ضرب الله بنشابة فقتله فعلى زعمكم إن أقررتم بهذه العقيدة وأخذتم بكلام فرعون الذي افترتم فيه على موسى تقولون إن الله قتل وإن فرعون وصل إليه وإن الله تعالى جرح ومات كما زعم فرعون لعنكم الله واياها.

تنزه الله عن كل ذلك فهو القائل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (٥٨) (١)، وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١) (٢)، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (٧٤) (٣).

(١) سورة الفرقان، آية ٥٨.

(٢) سورة الشورى، آية ١١.

(٣) سورة النحل، آية ٧٤.

وأما قولكم أيها الوهابية إن الأشاعرة أنكروا أن يكون الله في السماء بذاته وبذلك هم موافقون لفرعون الذي كذب موسى في هذه المسألة فنقول: قد بان كذبكم وانفضح بأن موسى عليه السلام لم يقل إن الله في السماء بذاته كما افتريتم وإن الأشاعرة موافقون لموسى ولكل الأنبياء في تنزيه الله عما لا يليق به كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُكُوفًا أَحَدٌ﴾^(١)، أي ليس له شبيهًا أحد وليس له مثيلًا أحد.. وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ وِسْمِيًّا﴾^(٢)، فالأشاعرة والماتريدية هم مجموع أهل السنة والجماعة وهم السواد الأعظم موافقون لما في القرآن ولما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام ولإجماع الأمة، وأما أنتم أيها الوهابية فقد خرقتم وخالفتم الإجماع وهل بعد الإجماع إلا الضلال؟!!

قال الإمام الأستاذ الكبير الأصولي أبو منصور البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق»^(٣): «وأجمعوا أي أهل السنة على أنه تعالى لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان».

وأما افتراؤكم على أبي الحسن الأشعري وعلى أبي محمد الجويني وبعض أئمة أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية أنهم قالوا بهذا الذي افتريتم به على موسى، فنقول لكم: أبو الحسن يكفر من يقول إن الله جسم، وهو يقول إن الله موجود بلا مكان، وأنتم تكفرون من يقول ذلك، فكيف تحتجون به بعد هذا؟!!

(١) سورة الإخلاص، آية ٤.

(٢) سورة مريم، آية ٦٥.

(٣) أبو منصور البغدادي، الفرق بين الفرق، (ص ٣٣٣).

وكذبكم على الله وعلى الأنبياء والقراء والأئمة الأعلام معروف مشهور، فلا يستغرب منكم أن تكذبوا على الأئمة لتموهوا على الناس أنهم على عقيدتكم الكفرية، وهذا مفتيكم ابن باز يقول في فتوى له نشرت في مجلة الحجاز الكبرى: «إن الله يجوز أن يخلف وعده»... وبهذا تنسبون الكذب الى الله فهو الذي قال: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾^(١)، والله لا يخلف وعده، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾^(٢)، ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾^(٣)، ﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾^(٤)، فإذا أجزتم الكذب على الله كيف يوثق بنقلكم بعد ذلك؟! أفبقوا من غفلتكم، أيها الجهوية الفرعونية.

وفي كتاب «براءة الأشعريين من عقائد المخالفين» تأليف أبي حامد المرزوقي ما نصه^(٥): «وقد احتج ابن تيمية على إثبات الجهة لله تعالى مقلداً سلفه المجسمة بقوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْلِمَنُ ابْنِ لِي صَرَخًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٦) أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾^(٦) وقد ذكر ذلك في رسالته التي نقضها عصره أحمد بن يحيى الكلابي مجملًا فقال العلامة المذكور رادًا عليه:

(١) سورة آل عمران، آية ٩٥.

(٢) سورة آل عمران، آية ١٥٢.

(٣) سورة إبراهيم، آية ٤٧.

(٤) سورة الحج، آية ٤٧.

(٥) المرزوقي، براءة الأشعريين، (ج ١، ص ٨٣).

(٦) سورة غافر، آية ٣٦-٣٧.

ليت شعري كيف فهم من كلام فرعون أن الله تعالى فوق السماوات وفوق العرش، أما أن إله موسى في السماوات فما ذكره، وعلى تقدير فهم ذلك من كلام فرعون فكيف يستدل بظن فرعون مع إخبار الله تعالى عنه بأنه زين له سوء عمله وأنه حاد عن سبيل الله وإن كيده في ضلال، مع أنه لما سأل موسى عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) لم يتعرض موسى للجهة بل لم يذكر إلا أخص الصفات وهي القدرة على الاختراع ولو كانت الجهة ثابتة لكان التعريف بها أولى لأن الإشارة الحسية من أقوى المعارف حسًا وعرفاً، وفرعون سأل بلفظ «ما» فكان الجواب بالتحيز أولى من الصفة، وغاية ما فهمه من هذه الآية واستدل به فهم فرعون فيكون عمدة هذه العقيدة كون فرعون ظنها وهو مشيدها، فليت شعري لما لا ذكر النسبة إليه كما ذكر إن عقيدة سادات أمة محمد ﷺ الذين نبذهم بالجهمية لمخالفتهم هواه متلقاة من لبيد بن الأعصم اليهودي».

وقد بين عقيدته فأراً من شناعة مشيخة فرعون عليه وعلى أسلافه محاولاً إصاقتها بموسى، برأه الله تعالى من ذلك وصلى عليه، في رسالته المسماة «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»، قال^(٢): «فلولا أن موسى أخبره أن ربه فوق العالم لما قال: ﴿أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾^(٣)، وفيها قال^(٤): «وحقيقة قول الجهمية المعطلة هو قول فرعون»، وثرثر إلى أن قال: «وكان ينكر أن يكون الله كلم موسى أو لا يكون لموسى إله فوق السماوات».

(١) سورة الشعراء، آية ٢٣.

(٢) ابن تيمية الحرّاني، المسمى الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، (ص ١٣٤).

(٣) سورة القصص، آية ٣٨.

(٤) ابن تيمية الحرّاني، المسمى الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، (ص ١٤٤).

وقال في رسالته المسماة: «صفات الله وعلوه على خلقه»^(١): «كذب فرعون موسى في قوله: إن الله فوق السماوات.»، والمفسرون متفقون على أن معنى ﴿وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذِبًا﴾^(٢) ﴿٣٧﴾ في أن له إليها غيري بدليل قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾^(٣) انتهى.

ولمزيد الفائدة والبيان نذكر لكم بعض ما ذكر في كتب التفسير في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٤) ﴿٣٦﴾ ﴿السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾^(٥) ﴿٣٧﴾:

قال ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾^(٦) الآية ما نصه^(٥): «يقول تعالى مخبرًا عن فرعون عن عتوه وتمرده وافتراءه في تكذيبه لموسى عليه السلام أنه أمر وزيره هامان أن يني له صرحًا.. ثم قال^(٦): قوله تعالى: ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأُظَنُّهُ كَذِبًا﴾^(٧) وهذا من كفره، وتمرده أنه كذب موسى في أن الله تعالى أرسله إليه...

(١) ابن تيمية الحرّاني، المسمى صفات الله وعلوه على خلقه، (ص ٢١١).

(٢) سورة غافر، آية ٣٧.

(٣) سورة القصص، آية ٣٨.

(٤) سورة غافر، آية ٣٦، ٣٧.

(٥) ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج ٧، ص ١٤٤).

(٦) ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج ٧، ص ١٤٤).

قال ابن كثير في تفسيره لقول الله تعالى^(١): ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾^(٢٨)، أي: في قوله إن ثم ربًّا غيري لا أنه كذبه في أن الله أرسله لأنه لم يكن يعترف بوجود الصانع».

قال المفسر البغوي في تفسيره لقول الله تعالى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾^(٣٨) ما نصه^(٣): «وإني لأظن موسى ﴿مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾ في ادعائه في زعمه أن للأرض إلها غيري وأنه رسوله».

وفي كتاب «البحر المحيط» قال أبو حيان الأندلسي في تفسيره لقول الله تعالى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ﴾^(٣٨) ما نصه^(٤): «وهو الكاذب في انتفاء علمه باله غيري».

وقال في تفسير قول الله تعالى ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلٰهِ مُوسَىٰ﴾^(٥) ما نصه^(٦): «أوهم قومه أن إله موسى يمكن الوصول إليه والقضاء عليه وهو عالم متيقن أن ذلك لا يمكن له، وقومه لجهلهم وغباوتهم وإفراط عمايتهم يمكن ذلك عندهم».

وقال أيضا في تفسير قول الله تعالى ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كٰذِبًا﴾^(٧) ما

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج٦، ص٢٣٨).

(٢) سورة القصص، آية ٣٨.

(٣) البغوي، تفسير البغوي، (ج٦، ص٢٠٩).

(٤) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج٧، ص١١٤).

(٥) سورة القصص، آية ٣٨.

(٦) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج٧، ص١١٥).

(٧) سورة غافر، آية ٣٧.

نصه^(١): «أي في ادعاء الإلهية».

وقال الإمام القرطبي في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾^(٢) في «الجامع لأحكام القرآن»^(٣) ما نصه: «أي وإنني لأظن موسى كاذبًا في ادعائه إلهًا دوني».

والحمد لله الذي نصر وأيد أهل السنة والجماعة بالأدلة الباهرة والبراهين الساطعة لرد شبهة المفتريين على الله وعلى دينه.

قال أحد مشايخ وأدباء أهل السنة والجماعة:

«زعم المجسم أنه	الله يسكن في العلى
فرعون صار إمامه	ذاك المكفن بالبلى
إذ قال فرعون ابن لي	هامان صرحا في العلا
نسب المكان لربنا	بغبائه لما غلا
كذا فراعنة الزما	ن تتبعوا أثر الألى
ظهر الولاء بطبعهم	والبدر في الحق انجلي
لوقيل عنهم إنهم	شرُّ البلية والبلا
أو ليس بان كفرهم	فجوابنا طبعابلى».

(١) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج٧، ص ١١٥).

(٢) سورة غافر، آية ٣٧.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (م ١٥، ص ٣١٥).

المبحث الثامن والعشرون

تأويل قوله تعالى

﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾^(١)

إنَّ الرسولَ ﷺ فسَّرَ هذه الآية بقوله: «يغفرُ ذنبًا ويفرج كربًا ويرفع قومًا ويضع آخرين» رواه الحافظ ابن حبان^(٢) في صحيحه.

ويوافق هذا قول الناس «سبحان الذي يُغيِّر ولا يتغيَّر» وهو كلام حسن جميل إذ التغيُّر في المخلوقات وليس في ذات الله وصفاته. أما المجسمة الوهابية فيزعمون أن معنى الآية أن الله يتغيَّر كل يوم، والعياذ بالله تعالى.

قال أبو بكر الباقلاني في «الإنصاف» ما نصه^(٣): «ويجب أن يعلم: أن كل ما يدل على الحدوث أو على سمة النقص فالرب تعالى يتقدس عنه. فمن ذلك: أنه تعالى متقدس عن الاختصاص بالجهات، والاتصاف بصفات المحدثات، وكذلك لا يوصف بالتحول، والانتقال، ولا القيام، ولا القعود، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٤)، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٥)، ولأن هذه الصفات تدل على الحدوث، والله تعالى يتقدس عن ذلك».

(١) سورة الرحمن، آية ٢٩.

(٢) ابن حبان، صحيح ابن حبان، كتاب الرقائق، باب الزهد والفقر والقناعة، (ج ٢، ص ١٢٩)، حديث ٦٨٦.

(٣) الباقلاني، الإنصاف، (ص ٦٤).

(٤) سورة الشورى، آية ١١.

(٥) سورة الإخلاص، آية ٤.

فتبين أن الله يغيّر أحوال العباد من مرض إلى صحّة ومن فساد إلى صلاح ومن فقر إلى غنى ومن غنى إلى فقر على حسب المشيئة الربانية الأزلية فالتغير يطرأ على أحوال المخلوقات وليس على مشيئة الله وعلمه فإذا دعا العبد ربه أن يشفيه فاستجاب له يصحّ أن يقال إن دعاءه وافق مشيئة الله. وإذا لم يستجب له يصحّ أن يقال إن الله لم يشأ له الشفاء وعلى كِلا الحالين يستفيد المؤمن بدعائه لربه سواء حصل النفع بالشفاء أو لم يحصل النفع بالشفاء لأن الثواب كُتب له.

تنبيه وتحذير: جرت العادة في بعض البلدان أن يجتمع بعض الناس في ليلة النصف من شعبان في المساجد أو البيوت لقراءة دعاءٍ فيه لفظ فاسد ينسبونه للنبي ﷺ ولبعض الصحابة وهو كذب على رسول الله لم يثبت عنه ولا عن واحد من الصحابة، وهو قولهم: «اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًّا أو محرومًا أو مطرودًا أو مقتّرًا عليّ في الرزق فامح اللهم شقاوتي وحرمانِي وطردِي وإقتار رزقي واكتبني عندك من السعداء»، فهذا الكلام لم يثبت عن سيدنا عمر ولا عن ابن عباس ولا عن مجاهد ولا عن أيّ واحد من السلف ومعناه مخالف للعقيدة الصحيحة وهي أن الشقيّ شقيّ في بطن أمّه فلا يتبدل سعيدًا لأنّه صحّ الحديث الشريف بذلك، واعتقاد تبدل المشيئة أو العلم أو أي صفة من صفات الله تعالى كفر كما قال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه وغيره من العلماء الأفاضل.

وهذا دأب كثير ممن يقرؤون هذا الدعاء الفاسد يعتقدون أن الله يغيّر مشيئته في تلك الليلة فينقلب العاصي إلى طائع والمسيء إلى محسن والشقيّ إلى سعيد والمحروم إلى ميسور فمن اعتقد ذلك فسدت عقيدته

وعليه أن يعتقد الحق ويرجع إليه ويتشهد أي يقول الشهادتين للخلاص من الكفر، نسأل الله السلامة.

وأخيرًا ينبغي للإنسان أن يسارع إلى الخيرات بجدّ ونشاط ويستقبل الليالي المباركة ومنها ليلة النصف من شعبان بتوبة صادقة ليفوز يوم القيامة. وأما قول الله تعالى في سورة الرعد ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣٩) فقد قال البيهقي: «وحدّثنا أبو عبد الله الحافظ حدّثنا أبو العباس محمد بن يعقوب حدّثنا محمد بن إسحاق الصاغانى حدّثنا روح بن عباد حدّثنا حماد بن سلمة عن سليمان التيمي عن عكرمة عن ابن عباس ما نصه: «يمحو الله ما يشاء من أحد الكتابين، هما كتابان يمحو الله ما يشاء من أحدهما ويثبت ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾».

معناه اللوح المحفوظ يشتمل على الممحو والمثبت وأما في غير اللوح المحفوظ مما يستنسخه الملائكة أو يكتبه الملك في أمر خاص هذا فيه ذكر أحد الوجهين، أي أنهم كتبوا في صحفهم مثلاً فلان إن وصل رحمه يعيش إلى المائة وإن لم يصل رحمه يعيش إلى الستين وهذا معنى القضاء المعلق وليس المبرم، هم لا يعرفون في الابتداء أيّ الأمرين سيقع أخيراً، ليس موكولاً إلى الملائكة علم المستقبل إنما هم يكتبون ما أمروا به وهذا بالنسبة لمن لم يطلعه الله منهم على الأمرين. فأحد الكتابين هو اللوح المحفوظ والآخر هو الذي في أيدي الملائكة الذين أمروا بالاستنساخ من اللوح.

(١) سورة الرعد، آية ٣٩.

قال البيهقي^(١): «والمعنى في هذا أن الله جل ثناؤه قد كتب ما يصيب عبداً من عباده من البلاء والحرمان والموت وغير ذلك وأنه إن دعا الله تعالى أو أطاعه في صلة الرحم وغيرها لم يصبه ذلك البلاء ورزقه كثيراً وعمّره طويلاً وكتب في أم الكتاب ما هو كائن من الأمرين، فالمحو والإثبات يرجع إلى أحد الكتابين كما أشار إليه ابن عباس».

وقيل يمحو الله ما يشاء ويثبت أي من الناسخ والمنسوخ وليس في الآية أن مشيئة الله تتغير لأن الله قال: ﴿مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(٢). وورد في الحديث عند مسلم أنه ﷺ قال عن الله: «وقال لي يا محمد إنني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد»^(٣).



(١) البيهقي، القضاء والقدر، (ج ١، ص ١٧٥).

(٢) سورة ق، آية ٢٩.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض، (ج ٨، ص ١٧١)، حديث ٧٤٤٠.

المبحث التاسع والعشرون

تأويل قوله تعالى

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾^(١)

ورد عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾^(٢): «هذا وعيد من الله لعباده وليس بالله شغل. روى ذلك السيوطي^(٣) وابن أبي حاتم^(٤).

قال الإمام الماتريدي في تفسيره «تأويلات أهل السنة» ما نصه^(٥): «قال الزجاج: قوله تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيَّةَ الثَّقَلَانِ﴾^(٦) ليس هو الفراغ عن الشغل».

ثم قال: «ومنهم من يقول: هذا على الوعيد في كلام العرب».

فمن وصف الله تعالى بأنه يشغله شيء عن شيء ويأخذ عليه وقتاً فقد شبهه بخلقه ووصفه بالعجز والضعف فالله تعالى هو خالق المكان والزمان كما قال الامام أبو منصور البغدادي في كتابه «الفرق بين الفرق»^(٦): «وأجمعوا على انه لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان». فليس في هذه الآية أن الله

(١) سورة الرحمن، آية ٣١.

(٢) سورة الرحمن، آية ٣١.

(٣) السيوطي، الدر المنثور، (ج ٧، ص ٧٠١).

(٤) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم، (ج ٢، ص ١٨٧).

(٥) الماتريدي، تأويلات أهل السنة، (ص ٤٧٣).

(٦) أبو منصور البغدادي، الفرق بين الفرق، (ص ٣٣٣).

تعالى ينشغل بشيء ثم عندما ينتهي منه ينتقل إلى شيء آخر وهكذا فهذا مستحيل على الله والله منزّه عن ذلك وإنما معنى هذه الآية تهديد ووعيد.

وقال ابن جرير الطبري^(١): «وأما تأويله فإنه وعيد من الله لعباده وتهديد كقول القائل الذي يتهدد غيره ويتوعده ولا شغل له يشغله عن عقابه: لأتفرغنّ لك، وسأتفرغ لك بمعنى سأجدّ في أمرك وأعاقبك وقد يقول القائل للذي لا شغل له: قد فرغت لي وقد فرغت لشتمي أي أخذت فيه، وأقبلت عليه، وكذلك قوله جل ثناؤه ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾^(٢) أي سنحاسبكم ونأخذ في أمركم أيها الإنس والجن فنعاقب أهل المعاصي ونثيب أهل الطاعة».

وقال ابن عطية في قوله تعالى ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ﴾^(٣) ما نصه^(٣): «عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمور عباده وذلك يوم القيامة وليس معنى أن ثمّ شغلاً يتفرغ منه، وإنما هي إشارة ووعيد».



(١) الطبري، تفسير الطبري، (ج ١١، ص ٥٩٣).

(٢) سورة الرحمن، آية ٣١.

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، (ج ٥، ص ٢٠٩).

المبحث الثالثون تأويل قوله تعالى

﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(١)

ليعلم أن الله تعالى خالق الرُّوح والجسد فليس روحًا ولا جسدًا، ومع ذلك أضاف الله تعالى روح عيسى ﷺ إلى نفسه على معنى المَلِكِ والتشريف لا للجزئية في قوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾^(٢)، قال الفخر الرازي في «التفسير الكبير»^(٣): «وإنما أضاف الله سبحانه روح آدم إلى نفسه تشريفًا له وتكريمًا». وكذلك في حق آدم قوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِي﴾^(٤) وفي حق عيسى قوله تعالى: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(٥)، أي أمرنا جبريل عليه السلام أن ينفخ في مريم الرُّوح التي هي ملك لنا ومشرفة عندنا.

كلتا الإضافتين للتشريف مع إثبات الملك أي أنهما ملكٌ لله وخلق له، فإن قيل: كل الأرواح ملك لله وخلق له فما فائدة الإضافة؟ قيل: فائدة الإضافة الدلالة على شرفهما عند الله. ولا يجوز عقلاً أن يكون الله روحًا لأن الرُّوح حادث. وعلى مثل ذلك يحمل حديث: «خلق الله آدم على صورته» رواه البخاري^(٥)، ومعناه إضافة الملك والتشريف لا إضافة الجزئية أي على

(١) سورة التحريم، آية ١٢.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، (م ١٠، ج ١٩، ص ١٤٤).

(٣) سورة الحجر، آية ٢٩.

(٤) سورة التحريم، آية ١٢.

(٥) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام، (ج ٥، ص ٢٢٩٩)، حديث

الصورة التي خلقها وجعلها مشرفة مكرّمة.

الشيء يضاف إلى الله إما بمعنى أنه خلق له هو خلقه وكونه، ويضاف إلى الله على أنه صفته، فإذا قلنا «قدرة الله»، «علم الله» هذه الإضافة إضافة الصفة إلى الموصوف، أما إذا قلنا «ناقة الله»، «بيت الله» هذه إضافة المملك والتشريف، فالكعبة نسّميتها «بيت الله» وكلّ مسجد كذلك.

فالأرواح قسمان: أرواح مشرفة وأرواح خبيثة، وأرواح الأنبياء من القسم الأول، فإضافة روح عيسى وروح آدم إلى نفسه إضافة ملك وتشريف. ويكفر من يعتقد أن الله تعالى روح، فالروح مخلوقة تنزه الله عن ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادٍ جُزْءًا﴾^(١).

حتى نعرف أن الله أعطى عيسى وءادم منزلة عنده أضاف روح عيسى وءادم إلى نفسه ليس على معنى الجزئية، وكما أضاف ناقة صالح إلى نفسه فقال ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا﴾^(٢) لما كان لها من خصوصية على غيرها من النوق بالشأن العظيم الذي كان لها، لأنه هو خالقها هو الذي أخرجها من الصخرة وأخرج معها فصيلها وكانت تعطي أهل البلد كفايتهم من الحليب فيأخذون منها الحليب في يوم ورودها الذي هي خصصت به الذي لا ترد مواشيهم فيه، فدل ذلك على مكانتها فأنزل الله على نبيه ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَهَا﴾^(٣) وقد أُنذروا أن يعتدوا على ناقة الله وعلى سقياها أي اليوم الذي ترد فيه إلى الماء، ذلك اليوم لا تورّد مواشيهم الماء.

(١) سورة الزخرف، آية ١٥.

(٢) سورة الشمس، آية ١٣.

وقول الإمام الأشعري «فلا يجوز وصفُ الله بالروح» الذي نقله عنه الإمام ابن فورك في كتابه «مقالات أبي الحسن الأشعري»^(١)، يُفهمُ منه بطلانُ قول «يا روح» مرادًا به الله، فليُحذَر كما تقدّم ما في كتاب «قوت القلوب» من إيراد ذلك في ذكرٍ سبقَ هناك، فإن الروحَ ليس وصفًا بل هو اسمٌ جامدٌ وفيه إيهاؤُ النقصِ لأن الروحَ جسمٌ لطيفٌ والجسمُ اللطيفُ أحدُ نوعي الجسمِ.

وقد نقل الإمام أبو منصور البغدادي الإجماع على أن حياة الإله بلا روح في كتابه «الفرق بين الفرق» فقال ما نصه^(٢): «وأجمع أهل السنة على أن حياة الإله سبحانه بلا روح ولا اغتذاء، وأن الأرواح كلها مخلوقة».

وقال الإمام المجتهد الحافظ محمد بن نصر المروزي: «الروح مُحدثةٌ بإجماع الأمة».

وقال الفقيه الحنفي عبد الغني النابلسي في كتابه «أسرار الشريعة»: «يكفر من وصف الله بالروح».

قال إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك الجويني الشافعي في كتابه «الشامل في أصول الدين»^(٣): «وقد قدمنا أن الإضافة منقسمة: فمنها إضافة الملك، ومنها إضافة التشريف»، ثم قال: «وهذا نحو إضافة الروح إلى الله عز وجل في قوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(٤)، وقد اتفق أهل القبلة على أن وجه الإضافة في قوله ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ ما ذكرناه».

(١) ابن فورك، مقالات أبي الحسن الأشعري، (ص ٤٥).

(٢) أبو منصور البغدادي، الفرق بين الفرق، (ص ٣٣٦).

(٣) الجويني، الشامل في أصول الدين، (ص ٣٢٣).

(٤) سورة التحريم، آية ١٢.

فيجب الحذر والتحذير من هذه المصرية نوال سعداوي الملحدة ومن أقوالها حيث قالت في مقابلة لها على فضائية الـ «ال بي سي» المؤسسة اللبنانية للإرسال في البرنامج المسمى «بلا رقيب»: «الله روحٌ والروح أنثى فالله أنثى». وقالت: «كان ينبغي أن يقول (قل هي الله أحد) وليس ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(١)»، وهذا كفر صراح بواح لا يشك في كفر قائله مؤمن، ونسيت هذه المستأجرة أن الله تعالى ليس ذكراً وليس أنثى، ولكنه سبحانه يُخاطَبُ بلفظٍ مُذَكَّرٍ كأن يُقال هو الله، وهذا تذكير للفظ وليس للمخاطبِ سبحانه، وهذا تعظيم وتقديس وتمجيد له سبحانه، وهو الأدب والاحترام والتمجيد، وهو سبحانه لا يوصف بصفة من صفات خلقه لا بالذكورة ولا بالأنوثة وهذا التعظيم والاحترام لا يكون في لفظ هي الله، بل هذا يدل على الاستخفاف والاستهزاء والله تعالى هو خالق الذكور والإناث يهب لمن شاء من عباده الإناث ولمن شاء الذكور، وقد قال الله تعالى في سورة الشورى ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾^(٢). ولتعلم مدعية العلم هذه أن الروح يُذَكَّرُ ويؤنَّثُ فكان ينبغي لها أن تتعلم قبل أن تتكلم، فالروح حجم لطيفٌ، الله أعلم بحقيقته، فإن ذُكِّرَ اللفظ لا يعني ذلك أن الروح بحد ذاتها تكون ذكراً، وإن ذُكِّرَتْ بلفظ التأنيث فلا يعني ذلك أن الروح بحد ذاتها أنثى، وهذا تذكير وتأنيث للفظ بدليل ما قاله سيد الفصحاء وإمام البلغاء محمد ﷺ: «إِذَا الرُّوحُ قُبِضَ تَبِعَهُ البَصْرُ»^(٣)، فماذا ستقول هذه المتهتكة بعد قول سيد العالمين محمد ﷺ

(١) سورة الإخلاص، آية ١.

(٢) سورة الشورى، آية ٤٩.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب في إغماض الميت والدعاء له إذا حضر، (ج ٣، =

«إِذَا الرُّوحُ قُبِضَ»، هل ستقول الله ذكر؟! والعياذ بالله من كفرها وفجورها، سبحانه ليس كمثله شيء لا شبيهه ولا مثيل له بالمرة.

ونختم هذه المسألة بقول الله عز وجل ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٨٥) (١)، فكيف يُجمع على زعم هذه المرأة بين قول الله عز وجل ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (٨٥) (٢) وبين قولها الله روح، فعلى حسب ادّعائها الفاسد الكاسد «أن الله مخلوق والمخلوق لا يخلق فكيف يكون المخلوق خالقًا للروح وللعالم»، وعلى زعمها الشاذ كان ينبغي أن يقول قل الروح هي ربي وليس ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ كما افترت مدعية العلم التي شتمت الله واستهزأت به وكذّبت به وكذّبت القرءان وشتمت النبي ﷺ في بعض مقابلاتها واستخفّت به وبالحجج والكعبة الشريفة.. نسأل الله أن يحفظ علينا ديننا وعقولنا.

قال الحافظ شيخ الإسلام والمسلمين عبد الله الهرري رضي الله عنه في رسالته في «الرد على من قال لم نقول هو الله ولا نقول هي الله» ما نصه: «اعلم أرشدنا الله وإياك، أن الله تعالى ليس ذكرًا ولا أنثى ولا شيئًا يشبه شيئًا من العالم، موجود لا كالموجودات، فإذا ذُكر يُذكر اللفظ الذي يُضاف إليه بلفظ التذكير لا التأنيث، لأن التأنيث فيه نقص واستخفاف. فيقال هو الله ولا يقال هي الله، لأن الذكر أفضل من الأنثى والأنبياء كلهم ذكور، والذكر أقوى من الأنثى جسمًا وعقلا، فتذكير الخطاب تعظيم، أما تأنيث الخطاب

= (ص ٣٨)، حديث ٢١٦٩.

(١) سورة الإسراء، آية ٨٥.

(٢) سورة الإسراء، آية ٨٥.

تحقير لله وذلك كفر. أما من حيث ذات الله فهو ذات ليس كالذوات ليس ذكرًا ولا أنثى، ليس كالإنسان وليس كالضوء ولا كالظلام، وهو قبل الضوء والظلام كان موجودًا وليس ضوءًا ولا ظلامًا، وقبل الهواء كان موجودًا ولا هواء، وليس ذاتًا متحركًا ولا ساكنًا، وليس جوهرًا ولا عرضًا ولا حالًا في الأشياء، منزّه عن الحد لأن الحد لا بد له من حاد أو جدّه، لا يجوز عليه التطور والتغير لأنه لو جاز عليه التغير لكان محدثًا يحتاج إلى خالق، غاية ما يقال فيه موجود بلا كمية ولا كيفية، موجود منزّه عن الكمية وعن الكيفية، ليس الأمر كما قالت الفلاسفة إن مادة العالم هيولى لا كمية لها ولا كيفية، قالت: هذه المادة هي أزلية وكذبوا. الأزلي لا يتطور لأن التطور ينافي الأزلية، المادة تطورت على حسب اعتقادهم فلا يصح في العقل كلامهم هذا، فإن قالوا هي مادة طوّرت نفسها، يُقال لهم الشيء لا يخلق نفسه. الحادث لا بد له من محدث، وذلك المُحدِّثُ يجب عقلاً أن يكون ليس له ابتداء. والله تعالى أعلم وبه التوفيق».



المبحث الحادي والثلاثون تأويل قوله تعالى

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٣١) إِلَّا مَنْ أَرْضَىٰ
مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٣٧﴾ (١)

ليعلم أن هذه الآية ليست حجة لمن يقول إن الرسل يطلعهم الله على جميع غيبه كما يدعي كثير من الجهال، إنما معناه أن الذي ارتضاه الله من رسول يجعل له رصداً أي حفظة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه من الشيطان، فـ «إلا» هنا ليست استثنائية بل هي بمعنى «لكن» فيفهم من الآية أن علم الغيب جميعه خاصٌ بالله تعالى فلا يتطرق إليه الاستثناء فتكون الإضافة في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ غَيْبِهِ﴾ للعموم والشمول من باب قول الأصوليين المفرد المضاف للعموم، فيكون معنى غيبه أي جميع غيبه، وليس المعنى أن الله يطلع على غيبه من ارتضى من رسول فإن من المقرر بين الموحدين أن الله تعالى لا يساويه خلقه بصفة من صفاته، ومن صفاته العلم بكل شيء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣) والعجب كيف يستدل بعض الناس بهذه الآية على علم الرسل ببعض الغيب إنما الذي فيها أن الله هو العالم بكل الغيب، ولكن الرسل يجعل الله لهم حرساً من الملائكة يحفظونهم. وأما اطلاع بعض خواص عباد الله من أنبياء وملائكة وأولياء البشر على بعض

(١) سورة الجن، آية ٢٦، ٢٧.

(٢) سورة الحديد، آية ٣.

الغيب فمأخوذ من غير هذه الآية ومن حديث «اتقوا فإنة ينظر بنور الله»^(١). فلو كان يصحّ لغيره تعالى العلم بكل شيء لم يكن الله تعالى تمدّح بوصفه نفسه بالعلم بكل شيء، فمن يقول إن الرسول يعلم كل شيء يعلمه الله جعل الرسول مساويا لله في صفة العلم فيكون كمن قال الرسول قادر على كل شيء وكمن قال الرسول مرید لكل شيء سواء قال هذا القائل إن الرسول عالم بكل شيء بإعلام الله له أو لا فلا مخلص له من الكفر. وقد قال الفخر الرازي في «التفسير الكبير» ما نصه^(٢): «وقت وقوع القيامة من الغيب الذي لا يُظهره الله لأحد».

وقال مفتي المدينة المنورة الشيخ أحمد البرزنجي^(٣) الحسيني في كتابه «غاية المأمول» ما نصه^(٤): «ومن اعتقد تسوية علم الله ورسوله يكفر إجماعاً». ومما يردّ به على هؤلاء قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(٥)، وقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٦)، فإن الله تبارك وتعالى تمدّح بإحاطته بالغيب والشهادة علماً.

(١) الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٤، ص ٣٦٠).

(٢) الرازي، التفسير الكبير، (م ١٥، ص ٣٠، ص ١٤٨).

(٣) البرزنجي، محمد بن عبد الرسول بن عبد السيد الحسيني البرزنجي، فاضل، له علم بالتفسير والأدب. من فقهاء الشافعية، برزنجي الأصل. ولد وتعلم بشهرزور، ورحل إلى همدان وبغداد ودمشق والقسطنطينية ومصر، واستقر في المدينة، فتصدر للتدريس، وتوفي بها. له كتب، منها: «الإشاعة في أشراف الساعة»، و«حل مشكلات ابن العربي»، و«أنهار السلسيل»، و«النواقض للروافض»، و«شرح ألفية المصطلح»، و«خالص التلخيص». وهو غير البرزنجي صاحب المولد. ولد سنة ١٠٤٠هـ، وتوفي سنة ١١٠٣هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٦، ص ٢٠٤).

(٤) البرزنجي، غاية المأمول، (ص ٣٩٧).

(٥) سورة الأنعام، آية ٥٩.

(٦) سورة الرعد، آية ٩.

ومما يردّ به على هؤلاء أيضا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفَعَّلُ بِي وَلَا بِيكُمُ إِنِ اتَّبِعُوا إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ (١) فإذا كان الرسول بنصّ هذه الآية لا يعلم جميع تفاصيل ما يفعله الله به وبأمته، فكيف يتجرأ متجرئ على قول إن الرسول يعلم بكل شيء، وقد روى البخاري في الجامع حديثًا بمعنى هذه الآية وهو ما ورد في شأن عثمان بن مظعون، فقائل هذه المقالة قد غلا الغلو الذي نهى الله ورسوله عنه قال الله تعالى ﴿قُلْ يٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ﴾ (٢)، وقال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين» رواه ابن ماجه (٣)، وقد قال الرسول ﷺ: «أنا محمد بن عبد الله أنا عبد الله ورسوله وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلنيها الله» (٤).

وروى البخاري في «الجامع» (٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ تَعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾» (٦)، وأول من يكسى يوم القيامة إبراهيم، وإن أناسا من أصحابي يؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول

(١) سورة الأحقاف، آية ٩.

(٢) سورة المائدة، آية ٧٧.

(٣) ابن ماجه، سنن ابن ماجه، (ج ٢، ص ١٠٠٨).

(٤) النسائي، سنن النسائي، كتاب عمل اليوم والليلة، ذكر اختلاف الأخبار في قول القائل سيدنا وسيدي، (ج ٦، ص ٧٠).

(٥) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾، (ج ٤، ص ١٣٩).

(٦) سورة الأنبياء، آية ١٠٤.

أصحابي أصحابي، فيقول: إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾^(١) إلى قوله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

ومعنى أن أول ما يكسى ابراهيم أي ما يلبسه من ثياب الجنة فوق ثيابه التي تكون عليه عند خروجه من القبر فإنه لا يخرج عاريًا لأن هذا لا يليق بأنبياء الله ومعنى أول أي من أول لأن نبينا محمدًا ﷺ هو أول من يكسى من ثياب الجنة.

ومن أعجب ما ظهر من هؤلاء الغلاة لما قيل لأحدهم: كيف تقول الرسول يعلم كل شيء يعلمه الله وقد أرسل سبعين من أصحابه إلى قبيلة ليعلموهم الدين فاعترضتهم بعض القبائل فحصدوهم، فلو كان يعلم أنه يحصل لهم هذا هل كان يرسلهم؟ فقال: نعم يرسلهم مع علمه بذلك. وهذا الحديث رواه البخاري وغيره.

ومثل هذا الغالي في شدة الغلوّ رجل كان يدّعي أنه شيخ أربع طرق في بيروت من آل عنتر فقال: الرسول هو المراد بهذه الآية: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٣) وهذا من أكفر الكفر لأنه جعل الرسول الذي هو خلق من خلق الله أزليا أبديا، لأن الأول هو الذي ليس لوجوده بداية وهو الله بصفاته فقط.

(١) سورة المائدة، آية ١١٧.

(٢) سورة المائدة، آية ١١٨.

(٣) سورة الحديد، آية ٣.

المبحث الثاني والثلاثون

تأويل قوله تعالى

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(١)

قال المفسر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ما نصه^(٢): «﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٣)، أي وما يدري عدد ملائكة ربك الذين خلقهم لتعذيب أهل النار إلا هو أي إلا الله جل ثناؤه».

وقال المفسر الحسين بن مسعود البغوي في تفسيره المسمى «معالم التنزيل» ما نصه^(٤): «قال عطاء: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾^(٥) يعني من الملائكة الذين خلقهم لتعذيب أهل النار، لا يعلم عدتهم إلا الله، والمعنى: إن تسعة عشر هم خزنة النار، ولهم من الأعوان والجنود من الملائكة ما لا يعلم إلا الله عز وجل».

هذا معنى الآية، الملائكة جنود الله أي يُطيعونه في ما أمرهم ولا يعصونه، قال الله تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(٦)^(٥)، ليس معنى الجنود في هذه الآية أن الله يحتاج إليهم أو يستعين بهم كما أن

(١) سورة المدثر، آية ٣١.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٩، ص ٨٢).

(٣) سورة المدثر، آية ٣١.

(٤) البغوي، معالم التنزيل، (ج ٤، ص ٤١٧).

(٥) سورة التحريم، آية ٦.

المَلِكِ أَوْ السُّلْطَانِ يَحْتَاجُ إِلَى جُنُودِهِ وَيَسْتَعِينُ بِهِمْ، الْآيَةُ ﴿جُنُودَ رَبِّكَ﴾ (٣١) لَيْسَ مَعْنَاهَا أَنَّهُمْ أَعْوَانُهُ كَمَا حَرَّفَ وَادَّعَى وَافْتَرَى إِمَامَ الْمَشْبَهَةِ وَالْمَجْسَمَةِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِي فِي كِتَابِيهِ «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» (١) وَالْمَسْمُوعِي «بَيَانُ تَلْيِيسِ الْجَهْمِيَّةِ» (٢) حَيْثُ قَالَ: «أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِجُنُودِهِ وَأَعْوَانِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ».

وَإِبْنُ تَيْمِيَّةَ هَذَا يُسَمِّي الْمَلَائِكَةَ «أَعْوَانَ اللَّهِ» وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ مِنَ الْكُفْرِ. وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ (٩٧) (٣)، أَيْ مُسْتَعِينٌ عَنِ كُلِّ مَا خَلَقَ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (١٦) (٤)، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا مَعِينَ وَلَا أَمْرَ لَهُ، وَلَا شَبِيهَةَ وَلَا نَظِيرَ لَهُ، وَلَا وَزِيرَ وَلَا مُشِيرَ لَهُ، وَلَا ضِدًّا وَلَا مُغَالِبًا وَلَا مُكْرِهًا لَهُ، وَلَا نِدًّا وَلَا مِثْلَ لَهُ.

وَلَقَدْ دَافَعَ عَنِ هَذَا الْمُنْكَرِ الْقَبِيحِ وَالْكَفْرِ الصَّرِيحِ، الذَّنْبُ الْوَهَابِيُّ الْجَوَالِ الْمَدْعُو عَبْدُ الرَّحْمَنِ دِمَشْقِيَّةَ فِي تَسْجِيلِ لَهُ بِالصَّوْتِ وَالصُّورَةِ نَشَرَهُ عَلَى الْإِنْتَرْنِتِ، حَيْثُ أَوَّلَ كُفْرَ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ فِي التَّجْسِيمِ وَالتَّشْبِيهِ، فَقَطَّ لِأَنَّهُ صَدَرَ مِنْ ابْنِ تَيْمِيَّةَ، فَعَجَبًا لِهَؤُلَاءِ الْمَجْسَمَةِ الْمَشْبَهَةِ كَيْفَ يَنْكُرُونَ تَأْوِيلَ أَهْلِ الْحَقِّ لِلآيَاتِ الْمُتَشَابِهَةِ ثُمَّ يُوَوَّلُونَ الْكَفْرَ الصَّرِيحَ لِمَشَايخِهِمْ.

فِيَا لِفُضِيحَةِ الْوَهَابِيَّةِ، لِأَيِّ شَيْءٍ يُكْفِّرُونَ الْمُسْلِمِينَ؟! كَيْفَ يُنْكُرُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ اسْتِعَانَتَهُمْ بِالْأَنْبِيَاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ، وَلَا يُنْكُرُونَ عَلَى إِمَامِهِمُ الْمَجْسَمِ ابْنِ تَيْمِيَّةَ نِسْبَةَ الْأَعْوَانِ لِلَّهِ بَلْ يُوَوَّلُونَ لَهُ، أَلَيْسَ الْأَوْلَى بِهِمْ

(١) ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِي، مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى، (م، ٥، ص ٥٠٧).

(٢) ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِي، بَيَانُ تَلْيِيسِ الْجَهْمِيَّةِ، (ج، ٦، ص ٣٦).

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ، آيَةُ ٩٧.

(٤) سُورَةُ الرَّعْدِ، آيَةُ ١٦.

أَنْ يُحذِّروا مِنْهُ حَيْثُ نَسَبَ لِهٖ الْأَعْوَانُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الَّذِينَ هُمْ أَوْلِيَاءُ، بَدَلًا
أَنْ يُنْفِقُوا الْأَمْوَالَ الطَّائِلَةَ فِي سَبِيلِ تَكْفِيرِ الْمُسْلِمِينَ حَيْثُ اسْتَعَانُوا بِالْأَنْبِيَاءِ
وَالْأَوْلِيَاءِ!



المبحث الثالث والثلاثون

تأويل قوله تعالى

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾﴾^(١)

ذكر الخازن في تفسيره ما نصه^(٢): «معناه قريب بالعلم والحفظ لا يخفى عليه شيء، وفيه إشارة إلى سهولة إجابته لمن دعاه وإنجاح حاجة من سأله». أي إذا توفرت شروط الدعاء. قم قال: «وقوله تعالى ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴿١٨٦﴾﴾^(٣) أي أسمع دعاء عبدي الداعي إذا دعاني، وقيل: الدعاء عبارة عن التوحيد والثناء على الله تعالى كقول العبد «يا الله لا إله إلا أنت» فقولك «يا الله» فيه دعاء وقولك «لا إله إلا أنت» فيه توحيد وثناء على الله تعالى، فسمي هذا دعاء بهذا الاعتبار، وسمي قبوله إجابة لتجانس اللفظ. وفيه إشارة إلى أن العبد يعلم أن له ربًا ومدبرًا يسمع دعاءه إذا دعاه ولا يخيب رجاء من رجاه وذلك ظاهر فإن العبد إذا دعا وهو يعلم أن له ربًا بإخلاص وتضرع أجاب الله دعوته. فإن قلت: إنا نرى الداعي يبالي في الدعاء والتضرع فلا يجاب له فما وجه قوله أجيب دعوة الداعي، وقوله تعالى: ﴿أَدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴿٦٠﴾﴾^(٤) قلت ذكر العلماء فيه أجوبة:

(١) سورة البقرة، آية ١٨٦.

(٢) الخازن، تفسير الخازن، (ج ١، ص ١١٦).

(٣) سورة البقرة، آية ١٨٦.

(٤) سورة غافر، آية ٦٠.

أحدها أن هذه الآية مطلقة وقد وردت آية أخرى مقيدة وهي قوله تعالى ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾^(١)، والمطلق يحمل على المقيد.

وثانيهما أن معنى الدعاء هنا هو الطاعة ومعنى الإجابة هو الثواب وذلك في الآخرة.

وثالثها أن معنى الآيتين خاص وإن كان لفظهما عامًا فيكون معناه أجيب دعوة الداعي إذا وافق القضاء أو أجيبه إن كانت الإجابة خيرًا له أو أجيبه إذا لم يسأل إثما أو محالًا.

ورابعها أن معناها عام أي أسمع وهو معنى الإجابة المذكورة في الآية، وأما إعطاء الأمانة فليس بمذكور، فالإجابة حاصلة عند وجود الدعوة وقد يجيب السيد عبده ولا يعطيه سؤله.

وخامسها: أن للدعاء آداب وشرائط وهي أسباب الإجابة فمن استكملها وأتى بها كان من أهل الإجابة ومن أخطأها كان من أهل الاعتداء في الدعاء فلا يستحق الجواب والله أعلم.

وذكر النسفي في تفسيره^(٢) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» ما نصه^(٣): «علمًا وإجابةً لتعالیه عن القرب مكانا».

وأفرد ابن الجوزي في تفسيره «زاد المسير»^(٤) فصلًا في الدعاء فقال ما نصه: «إن قال قائل هذه الآية تدل على أن الله تعالى يجيب أدعية الداعين

(١) سورة الأنعام، آية ٤١.

(٢) مطبوع في حاشيته على تفسير الخازن.

(٣) الخازن، تفسير الخازن، (ج ١، ص ١١٦).

(٤) ابن الجوزي، تفسير زاد المسير، (ج ١، ص ١٨٩، ١٩٠).

وترى كثيرا من الداعين لا يستجاب لهم.

فالجواب: أن أبا سعيد روى عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلم دعا الله تعالى بدعوة ليس فيها قطيعة رحم ولا إثم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال، إما أن يعجل دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها»^(١).

وجواب آخر: وهو أن الدعاء تفتقر إجابته إلى شروط أصلها الطاعة لله ومنها أكل الحلال فإن أكل الحرام يمنع إجابة الدعاء ومنها حضور القلب ففي بعض الحديث «لا يقبل الله دعاءً من قلب غافل لاه».

وجواب آخر: وهو أن الداعي قد يعتقد المصلحة في إجابته إلى ما سأل وقد لا تكون المصلحة في ذلك فيجاب إلى مقصوده الأصلي وهو طلب المصلحة وقد تكون المصلحة في التأخير أو في المنع».

وللفخر الرازي في تفسيره الكبير كلام جميل في تفسير الآية فقال: «المسألة الأولى: اعلم أنه ليس المراد من هذا القرب بالجهة والمكان بل المراد منه القرب بالعلم والحفظ فيحتاج ههنا إلى بيان المطلبين:

المطلب الأول: في بيان أن هذا القرب ليس قرباً بحسب المكان ويدل عليه وجوه. الأول: أنه لو كان في المكان مشاراً إليه بالحسب لكان منقسماً إذ يمتنع أن يكون في الصغر والحقارة مثل الجوهر الفرد ولو كان منقسماً لكانت ماهيته مفتقرة في تحققها إلى تحقق كل واحد من أجزاءها المفروضة

(١) رواه البخاري بلفظ: «ما من مسلم يدعو ليس بإثم ولا بقطيعة رحم إلا أعطاه إحدى ثلاث، إما أن يعجل له دعوته وإما أن يدخرها له في الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثلها». البخاري، الأدب المفرد، كتاب الأذكار، باب ما يدخر للداعي من الأجر والثواب، (ج ١، ص ٢٤٨)، حديث ٧١٠.

وجزاء الشيء غيره فلو كان في مكان لكان مفتقرا إلى غيره والمفتقر إلى غيره ممكن لذاته ومحدث ومفتقر إلى الخالق وذلك في حق الخالق القديم محال فثبت أنه تعالى يمتنع أن يكون في المكان فلا يكون قربه بالمكان.

والثاني: أنه لو كان في المكان لكان إما أن يكون غير متناه عن جميع الجهات أو غير متناه عن جهة دون جهة أو كان متناهيًا من كل الجوانب والأول محال لأن البراهين القاطعة دلت على أن فرض بُعد غير متناه محال.

والثاني: محال أيضًا لهذا الوجه، ولأنه لو كان أحد الجانبين متناهيًا والآخر غير متناه لكانت حقيقة هذا الجانب المتناهي مخالفة في الماهية لحقيقة ذلك الجانب الذي هو غير متناه فيلزم منه كونه تعالى مركبا من أجزاء مختلفة الطبائع والخصم لا يقول بذلك.

وأما القسم الثالث: وهو أن يكون متناهيًا من كل الجوانب فذلك باطل بالاتفاق بيننا وبين خصومنا فبطل القول بأنه تعالى في الجهة.

الثالث: وهو أن هذه الآية من أقوى الدلائل على أن القرب المذكور في هذه الآية ليس قربًا بالجهة وذلك لأنه تعالى لو كان في المكان لما كان قريبًا من الكل بل كان يكون قريبًا من حملة العرش وبعيدًا من غيرهم ولكان إذا كان قريبًا من زيد الذي هو بالمشرق كان بعيدًا عن عمرو الذي هو في المغرب فلما دلت الآية على كونه تعالى قريبًا من الكل علمنا أن القرب المذكور في هذه الآية ليس قربًا بحسب الجهة ولما بطل أن يكون المراد منه القرب بالجهة ثبت أن المراد منه القرب بمعنى أنه تعالى يسمع دعاءهم ويرى تضرعهم أو المراد من هذا القرب العلم والحفظ.

المبحث الرابع والثلاثون

تأويل قوله تعالى:

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾^(١)

أجمع المُعتبرون من العقلاء على أنه سبحانه وتعالى منزّه عن المجيء والذهاب ويدل عليه وجوه:

أحدها: ما ثبت في علم الأصول أن كل ما يصح عليه المجيء والذهاب لا ينفك عن الحركة والسكون، وهما محدثان، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث، فيلزم أن كل ما يصح عليه المجيء والذهاب يجب أن يكون محدثاً مخلوقاً والإله القديم يستحيل أن يكون كذلك.

وثانيها: أن كل ما يصح عليه الانتقال من مكان إلى مكان، فأما أن يكون في الصغر والحقارة كالجزء الذي لا يتجزأ، وذلك باطل باتفاق العقلاء، وإما أن لا يكون كذلك بل يكون شيئاً كبيراً فيكون أحد جانبيه مغايراً للآخر فيكون مركباً من الأجزاء والأبعاض وكل ما كان مركباً، فإن ذلك المركب يكون مفتقراً في تحققه إلى تحقق كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره فكل مركب هو مفتقر إلى غيره وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو محتاج في وجوده إلى المرجح والموجد، فكل ما كان كذلك فهو محدث مخلوق مسبوق بالعدم، والإله القديم يمتنع أن يكون كذلك.

(١) سورة البقرة، آية ٢١٠.

وثالثها: أن كل ما يصح عليه الانتقال من مكان إلى مكان فهو محدود ومتناه فيكون مختصاً بمقدار معين، مع أنه كان يجوز في العقل وقوعه على مقدار أزيد منه أو أنقص، فاخصاصه بذلك القدر المعين لا بد وأن يكون لترجيح مرجح، وتخصيص مخصص، وكل ما كان كذلك كان فعلاً لفاعل مختار، وكل ما كان كذلك فهو محدث مخلوق، فالإله القديم الأزلي يمتنع أن يكون كذلك.

ورابعها: أنا متى جوزنا في الشيء الذي يصح عليه المجيء والذهاب أن يكون إلهاً قديماً أزلياً فحينئذ لا يمكننا أن نحكم بنفي الإلهية عن الشمس والقمر، فمن جوز المجيء والذهاب على الله تعالى فلم لا يحكم بالإلهية الشمس، وما الذي أوجب عليه الحكم بإثبات موجود آخر يزعم أنه إله^(١). وإذا عرفت هذا فنقول: ذكر أهل الكلام في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾^(٢) وجوهاً.

الوجه الأول: هو مذهب السلف الصالح أنه لما ثبت بالدلائل القاطعة أن المجيء والذهاب على الله تعالى محال، علمنا قطعاً أنه ليس مراد الله تعالى من هذه الآية هو المجيء والذهاب، وأن مراده بعد ذلك شيء آخر.

الوجه الثاني: وهو قول جمهور المتكلمين: أنه لا بد من التأويل على سبيل التفصيل، ثم ذكروا فيها أوجهاً.

منها أن معنى قوله تعالى ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾^(٣) آيات

(١) الرازي، تفسير الرازي، (ج ٣، ص ٢٣٠).

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٠.

(٣) سورة البقرة، آية ٢١٠.

الله، فجعل مجيء الآيات مجيئاً له على التفخيم لشأن الآيات، كما يقال: جاء الملك إذا جاء جيش عظيم من جهته، والذي يدل على صحة هذا التأويل أنه تعالى قال في الآية المتقدمة ﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (١)، فذكر ذلك في معرض الزجر والتهديد، ثم إنه تعالى أكد ذلك بقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ (٢) ومعلوم أن التقدير أن يصح المجيء على الله لم يكن مجرد حضوره سبباً للتهديد والزجر لأنه عند الحضور كما يزجر الكفار ويعاقبهم، فهو يثيب المؤمنين ويخصهم بالتقريب، فثبت أن مجرد الحضور لا يكون سبباً للتهديد والوعيد، فلما كان المقصود من الآية إنما هو الوعيد والتهديد، وجب أن يضم في الآية مجيء الهيبة والقهر والتهديد، ومتى أضمرنا ذلك زالت الشبهة بالكلية، وهذا تأويل حسن موافق لنظم الآية.

ومنها أن يكون المراد ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ (٣) أي أمر الله، ومدار الكلام في هذا الباب أنه تعالى إذا ذكر فعلاً وأضافه إلى شيء، فإن كان ذلك محالاً فالواجب صرفه إلى التأويل، كما قاله العلماء في قوله: ﴿الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ (٤) والمراد يحاربون أولياءه، وقال: ﴿وَسَأَلَ الْقَرْيَةَ﴾ (٥) والمراد: وأسأل أهل القرية، فكذا قوله: ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ (٦) المراد به يأتيهم أمر الله، وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾ (٧)، المراد: جاء أمر ربك،

(١) سورة البقرة، آية ٢٠٩.

(٢) سورة المائدة، آية ٣٣.

(٣) سورة يوسف، آية ٨٢.

(٤) سورة البقرة، آية ٢١٠.

(٥) سورة الفجر، آية ٢٢.

وليس فيه إلا حذف المضاف، وإقامة المضاف إليه مقامه، وهو مجاز مشهور، يقال: ضرب الأمير فلاناً، وصلبه، وأعطاه، والمراد أنه أمر بذلك، لأنه تولى ذلك العمل بنفسه، ثم الذي يؤكد القول بصحة هذا التأويل وجهان:

الأول: أن قوله ههنا: ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾^(١) وقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾^(٢) إخبار عن حال القيامة، ثم ذكر هذه الواقعة بعينها في سورة النحل فقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾^(٣) فصار هذا الحكم مفسراً لذلك المتشابه لأن كل هذه الآيات لما وردت في واقعة واحدة لم يبعد حمل بعضها على البعض.

والثاني: أنه تعالى قال بعده: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾^(٤)، ولا شك أن الألف واللام للمعهود السابق، فلا بد وأن يكون قد جرى ذكر أمر قبل ذلك حتى تكون الألف واللام إشارة إليه، وما ذلك إلا الذي أضمرناه من أن قوله ﴿يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾^(٥) أي يأتيهم أمر الله^(٦).

ومنها أن المعنى: هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بما وعد من العذاب والحساب.. والمعنى أتاهم الله بخذلانه إياهم من حيث لم يحتسبوا وكذلك قوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوَقِهِمْ وَأَتَتْهُمُ الْعَذَابُ﴾^(٧) فقوله: ﴿وَأَتَتْهُمُ الْعَذَابُ﴾^(٨) كالتفسير لقوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾^(٩) ويقال في العرف الظاهر إذا سمع

(١) سورة البقرة، آية ٢١٠.

(٢) سورة النحل، آية ٣٣.

(٣) الرازي، تفسير الرازي، (ج ٣، ص ٢٢٩).

(٤) سورة النحل، آية ٢٦.

(٥) سورة النحل، آية ٢٦.

بولاية جائر: قد جاءنا فلان بجوره وظلمه، ولا شك أن هذا مجاز مشهور.
ومنها في التأويل أن يكون ﴿فِي﴾ بمعنى الباء، وحروف الجر يقام بعضها مقام البعض، وتقديره هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله بظلل من الغمام والملائكة، والمراد العذاب الذي يأتيهم في الغمام مع الملائكة^(١).

ونقل الخازن في تفسير هذه الآية ما نصه^(٢): «واعلم أن هذه الآية من آيات الصفات وللعلماء في آيات الصفات وأحاديث الصفات مذهبان:

أحدهما: وهو مذهب سلف هذه الأمة وأعلام أهل السنة: الإيمان والتسليم لما جاء في آيات الصفات وأحاديث الصفات، وأنه يجب علينا الإيمان بها-. ونؤمن بها كما جاءت ونكل علمها إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مع الإيمان، والاعتقاد بأن الله تعالى منزه عن سمات الحدوث وعن الحركة والسكون.

المذهب الثاني: وهو قول جمهور علماء المتكلمين، وذلك أنه أجمع المتكلمون من العقلاء والمعتبرين من أصحاب النظر على أنه تعالى منزه عن المجيء والذهاب، ويدل على ذلك أن كل ما يصح عليه المجيء والذهاب لا ينفك عن الحركة والسكون وهما محدثان، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث، والله تعالى منزه عن ذلك فيستحيل ذلك في حقه تعالى، فثبت بذلك أن ظاهر الآية ليس مرادًا، فلا بد من التأويل على سبيل التفصيل، فعلى هذا قيل في معنى الآية ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾^(٣)، الآيات،

(١) الرازي، تفسير الرازي، (ج ٣، ص ٢٣٣).

(٢) الخازن، تفسير الخازن، (ج ١، ص ١٩٨).

(٣) سورة البقرة، آية ٢١٠

فيكون مجيء الآيات مجيئاً لله تعالى على سبيل التفخيم لشأن الآيات، وقيل
معناه إلا أن يأتيهم أمر الله، ووجه هذا التأويل أن الله تعالى فسره في آية
أخرى فقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ﴾ (١٥٨) (١)
فصار هذا الحكم مفسراً لهذا المجمل في هذه الآية. وقيل: معناه يأتيهم الله
بما أوعد من الحساب والعقاب.. فيكون المعنى هل ينظرون إلا أن يأتيهم
الله بظلم من الغمام والملائكة، والمراد العذاب الذي يأتي من الغمام مع
الملائكة، وقيل معناه ما ينظرون إلا أن يأتيهم قهر الله وعذابه في ظلل من
الغمام.

فإن قلت: لم كان إتيان العذاب في الغمام؟

قلت: لأن الغمام مظنة الرحمة ومنه ينزل المطر، فإذا نزل منه العذاب كان
أعظم وأفظع وقيل إن نزول الغمام علامة لظهور القيامة وأهوالها.



(١) سورة الأنعام، آية ١٥٨.

المبحث الخامس والثلاثون

تأويل قوله تعالى

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١)

ذكر الخازن في «لَبَابِ التَّأْوِيلِ» ما نصه^(٢): «قوله تعالى ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ﴾^(٣) يعني قل لهم يا محمد إن التوفيق للإيمان والهداية للإسلام ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾^(٤) أي أنه مالك له وقادر عليه دونكم ودون سائر خلقه ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٥) يعني الفضل الذي هو دين الإسلام يعطيه من يشاء من عباده ويوفق له من أراد من خلقه وفيه تكذيب لليهود حيث قالوا لن يؤتي الله أحدًا مثل ما أوتي بنو إسرائيل من النبوة فقال الله ردًّا عليهم ﴿قُلْ﴾ لهم: ليس ذلك إليهم وإنما الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء».

وقال أبو حيان الأندلسي في «تفسير البحر المحيط»^(٦): «﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٧) هذا توکید لمعنى ﴿قُلْ إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾^(٨) وفي ذلك تكذيب لليهود حيث قالوا: شريعة موسى مؤبدة ولن يؤتي الله أحدًا مثل ما أوتي بنو إسرائيل من النبوة، فالفضل هو بيد الله. أي: متصرف فيه كالشيء في اليد، وهذه كناية عن قدرة التصرف والتمكن فيها والباري

(١) سورة آل عمران، آية ٧٣.

(٢) الخازن، لباب التأويل، (ج ١، ص ٣٨٦).

(٣) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج ٢، ص ٤٩٧).

(٤) سورة آل عمران، آية ٧٣.

تعالى منزّه عن الجارحة. ثم أخبر بأنه يعطيه من أراد، فاخصّصه بالفضل من شاء، إنّما سببه الإرادة فقط، وفسر: الفضل، هنا بالنبوة».

وقال ابن الجوزي^(١): «قوله تعالى ﴿إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ﴾^(٢) قال ابن عباس: يعني النبوة والكتاب والهدى ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) لا ما تمنيتموه أنتم معاشر اليهود من أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم».

وقد ذكر الرازي في تفسيره^(٣) أن المراد بالفضل الرسالة.. وقوله ﴿بِيَدِ اللَّهِ﴾ أي أنه مالك له قادر عليه، وقوله ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾^(٣) أي هو تفضل موقوف على مشيئته. وهذا يدل على أن النبوة تحصل بالتفضل لا بالاستحقاق لأنه تعالى جعلها من باب الفضل.



(١) ابن الجوزي، زاد المسير، (ج ١، ص ٤٠٨).

(٢) سورة آل عمران، آية ٧٣.

(٣) الرازي، التفسير الكبير، (ج ٨، ص ٩٩).

المبحث السادس والثلاثون

تأويل قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(١)

يجب الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى موجود أزلاً وأبداً بلا مكان فهو لا في جهة واحدة ولا في كل الجهات وليس حالاً في الأماكن وليس محيطاً بالعالم كما يحيط قشر البيضة بما فيها ولا كما تحيط قشرة البرتقالة بما فيها، فهذا لا يقوله مسلم مؤمن، بل هو من كلام المشبهة المجسمة كالألباني^(٢) الذي قال في تعليقه على «مختصر الترغيب والترهيب» للمنذري «إن الله يحيط بالعالم كما تحيط الحقة بما فيها»، وهذا تشبيهه الله بخلقه صريح، فالله سبحانه وتعالى ليس حجماً كثيفاً وليس حجماً لطيفاً، وأما تفسير الآية الكريمة فهو أن الله تعالى محيط بكل شيء علماً، فهو عالم بكل شيء لا تخفى عليه خافية، فعلمه علم واحد شامل لكل الأشياء لا يتجدد ولا يتبعض ولا يتغير ولا يزيد ولا ينقص بدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٣)، فالإحاطة هنا بالعلم وليس ذاته هنا وهناك وفي كل

(١) سورة النساء، آية ١٢٦.

(٢) ناصر الدين الألباني (المجسم)، الساعاتي، نسب نفسه للعلم والعلماء، والحديث والمحدثين زوراً وبهتاناً، فأطلق لسانه وقلمه بغير علم، وعمد من خلال فتاويه إلى زرع الفتنة وبث الحقد والعداوة والبغضاء بين المسلمين. هوايته قراءة الكتب بدون تلقى للعلم من أهله ودون أن يكون له إسناد معتبر فيه، فتخطب هنا وهناك بين الكتب ونسب نفسه إلى السلف مع مخالفته لهم في العقيدة والأحكام الفقهية. زعم أنه من المحدثين وهو لا يحفظ حديثاً واحداً بالإسناد المتصل إلى رسول الله ﷺ. دار الفتوى في أستراليا، الرد على ناصر الدين الألباني، (ص ٤، ٥).

(٣) سورة الطلاق، آية ١٢.

مكان يحاصر العالم والكون فهذا إلهاد وزندقة وكفر صريح.

وإن قالت المشبهة المجسمة «إنا نأخذ بالظاهر ولا نؤول» يُردُّ عليهم بقول الإمام الحافظ الشيخ عبد الله الهرري الحبشي في كتابه «الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم»^(١): «إن قالت المشبهة المجسمة لنا ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٢) نأخذ بظاهره فنقول إنه هناك ونثبت أنه ساكن على العرش قاعد عليه أو مستقر» قلنا لهم «الله تعالى قال أيضًا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(٣) وقال ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾^(٤) فنحن على زعمكم إذا أخذنا بظاهر هاتين الآيتين كما أنتم أخذتم بظاهر استوى فقلتم «ساكن فوق» فيكون الله تعالى على كلامكم معنا وعلى العرش ومحيطا بنا وبالعالم هكذا كالدائرة فهل هذا يصح عندكم؟ فإن حملتم أنتم تلك على ظاهرها ونحن حملنا هاتين الآيتين على ظاهرهما الله على زعمكم يكون بذاته فوق العرش ويكون بذاته مع كل شخص في الأرض ويكون كالدائرة المحيطة بما فيها فماذا تقولون؟ فليس لهم جواب فهل يصح في العقل أن يكون الله بذاته فوق وهو بذاته مع كل شخص لأن ظاهر قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾^(١) أنه مع هذا بذاته ومع هذا، ومع هذا، وظاهر قول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾^(٢) أن يكون هو كالدائرة تحيط بما فيها بما في ضمنها، فهذا لا يعقل أي أن يكون الشيء الواحد في أماكن متعددة بذات واحد».

(١) عبد الله الهرري، الشرح القويم، (ص ٢٧٠).

(٢) سورة طه، آية ٥.

(٣) سورة الحديد، آية ٤.

(٤) سورة فصلت، آية ٥٤.

قال الإمام القشيري رحمه الله: «والواحد يستحيل أن يكون بذاته في حالة واحدة بكل مكان». فالشئ الواحد بعينه لا يصح في العقل أن يكون في كل مكان، أما ما يقوله الصوفية «إن الولي يكون له شبح مثالي» أي غير الجسم الأصلي فلا يحيله العقل لأنهم لا يقولون الذات الذي هنا بعينه هناك، إنما يكون مثاله».

قال المفسر الحسين بن مسعود البغوي في تفسيره «معالم التنزيل» ما نصه^(١): «قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(١٢٦) (٢) أي: أحاط علمه بجميع الأشياء».

وقال المفسر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ما نصه^(٣): «قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(١٢٦) (٤) أي أحاط علمه بكل الأشياء».

وقال اللغوي المفسر أبو حيان الأندلسي في «تفسير البحر المحيط» ما نصه^(٥): «﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا﴾^(١٢٦) أي: عالمًا بكل شئ من الجزئيات والكيليات».

(١) البغوي، معالم التنزيل، (م١، ص ٢٩٣).

(٢) سورة النساء، آية ١٢٦.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (م٥، ص ٤٠٢)

(٤) سورة النساء، آية ١٢٦.

(٥) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (م٣، ص ٣٧٣).

المبحث السابع والثلاثون

تأويل قوله تعالى

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾^(١)

إن الله واحد لا شريك له وأنه سبحانه وتعالى وحده المستحق للعبادة، قال تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾^(٢)، وهذه الآية الكريمة ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾^(٣) معناها أن الله معبود من قبل الملائكة الكرام في السماوات ومعبود من قبل المؤمنين من الإنس والجن في الأرض.

وليس معناها أنه سبحانه حال في السماوات أو في الأرض وليس فيها أنه يسكن السماء أو الأرض وليس كما زعم بعض الملاحدة من أدياء الإسلام والطريقة النقشبندية في بيروت من أن ما تشتهييه يكون إلهًا لك فقالوا كل ما تهواه من زوجة أو ما ينشغل به قلبك من متاع الدنيا يكون إلهًا لك! نعوذ بالله من كفرهم، فالآية لا تعني هذا وليس فيها أن السماء لها إله والأرض لها إله آخر، قال الله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾^(٤) والفاء هنا بمعنى اللام أي لو كان لهما إله مسيطر عليهما مع الله لخربت السماوات والأرض فهذا دليل على أن الله واحد لا شريك له وهو وحده

(١) سورة الأنعام، آية ٣.

(٢) سورة الأنبياء، آية ٢٥.

(٣) سورة الأنعام، آية ٣.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٢٥.

الذي يستحق العبادة، أما من زعم أن كل ما يشتهي الإنسان يكون اتخذه إلها
له فهو كفر صريح لأنه تكفير للأنبياء ولكل المسلمين.



المبحث الثامن والثلاثون

تأويل قوله تعالى

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا
بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (٦٤) (١)

قال الخازن: «قوله عز وجل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (٦٤) (٢) نزلت هذه الآية في فنحاص بن عازوراء اليهودي. قال ابن عباس: «إن الله كان قد بسط على اليهود حتى كانوا أكثر الناس أموالاً وأخصبهم ناحية، فلما عصوا الله ومحمدًا ﷺ وكذبوا به كف عنهم ما بسط عليهم من السعة فعند ذلك قال فنحاص يد الله مغلولة يعني محبوسة مقبوضة عن الرزق والبذل والعطاء، فانسبوا الله تعالى إلى البخل والقبض، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. ولما قال هذه المقالة الخبيثة فنحاص ولم ينهه بقية اليهود ورضوا بقوله لا جرم أن الله تعالى أشركهم معه في هذه المقالة فقال تعالى إخباراً عنهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (٦٤) يعني نعمته مقبوضة عنا».

واعلم أن غل اليد وبسطها مجاز عن البخل والجود بدليل قوله تعالى لنيه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (٢٩) (٣) والسبب أن اليد آلة لكل الأعمال لاسيما لدفع المال وإنفاقه وإمساكه، فأطلقوا اسم السبب على المسبب، وأسندوا الجود والبخل إلى اليد مجازاً،

(١) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٢) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٣) سورة الإسراء، آية ٢٩.

فقيل للجواد الكريم فَيَأْضُ اليد ومبسوط اليد، وقيل للبخيل مقبوض اليد.
 وقوله تعالى: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(١) قال الزجاج: «رد
 الله عليهم فقال: أنا الجواد الكريم وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة
 الممسوكة، وقيل هذا دعاء على اليهود عَلَّمَنَا اللهُ كَيْفَ نَدْعُو عَلَيْهِمْ فقال:
 ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾^(٢) أي في نار جهنم، فعلى هذا هو من الغل حقيقة أي
 شُدَّتْ أَيْدِيهِمْ إِلَى أَعْنَاقِهِمْ وطرحوا في النار جزاء لهم على هذا القول
 ومعنى ﴿وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾^(٣) عذبوا بسبب ما قالوا، فمن لعنتهم أنهم
 مسخوا في الدنيا قردة وخنازير، وضربت عليهم الذلة والمسكنة والجزية،
 وفي الآخرة لهم عذاب النار. وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٤)
 يعني أنه تعالى جوادٌ كريمٌ ينفق كيف يشاء، وهذا جوابٌ لليهود وردَّ عليهم
 بما افتروا واختلقوه على الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وإنما أجبوا
 بهذا الجواب على قدر كلامهم».

قال أبو حيان في «تفسير البحر المحيط»^(٣): «معتقد أهل الحق أن الله
 تعالى ليس بجسم ولا جارحة، ولا يُشَبَّهُ بشيءٍ من خلقه، ولا يُكَيَّفُ ولا
 يتحيز ولا تحله الحوادث، وكل هذا مقررٌ في علم أصول الدين، والجمهور
 على أن هذا استعارة عن جوده وإنعامه السابغ، وأضاف ذلك إلى اليدين
 جاريًا على طريقة العرب في قولهم فلانٌ ينفقُ بـكلتا يديه ومنه قوله:
 «يَدَاكَ يَدَا مُجِدِّ فَكَفُّ مَفِيدَةٌ وَكَفُّ إِذَا مَا ضَنَّ بِالْمَالِ تُنْفِقُ»

(١) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٢) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٣) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج ٣، ص ٤١٩).

ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق، ومن نظر في كلام العرب عرف يقيناً أن بسط اليد وقبضها استعارة للجود والبخل، قال الشاعر:

«جَادَ الحِمَى بَسَطَ اليَدَيْنِ بَوَابِلٍ شَكَرْتُ نَدَاهُ تِلَاعُهُ وَوَهَادُهُ»

وقال لبيد:

«وَعْدَاةَ رِيحٍ قَدْ وَزَعْتُ وَقَرَّةً إِذَا أَصْبَحْتُ بِيَدِ الشِّمَالِ زِمَامُهَا».



المبحث التاسع والثلاثون

تأويل قوله تعالى

﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيْهِ وَلَا تَأْيِسُّوْا مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِنَّهٗ لَا يَأْيِسُّ مِنْ رَّوْحِ اللّٰهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكٰفِرُوْنَ ﴿٨٧﴾﴾^(١)

قال الله تعالى: ﴿وَلِلّٰهِ اَلْاَسْمَاءُ الْحُسْنٰى فَاَدْعُوْهُ بِهَا وَذَرُوْا الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِيْ اَسْمٰئِهٖ﴾^(٢) قال النسفي في تفسيره: «من الإلحاد تسمية الله بالروح والعقل والجسم والجوهر»، فأسماء الله كلها حسنى أي تدل على الكمال، ما منها من اسم إلا وهو دال على الكمال، والروح لا يدل على الكمال، فتسمية الله بالروح إلحادٌ وكفرٌ، وقد قال الفقيه الحنفي المحدث الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي في كتابه «أسرار الشريعة» ما نصه: «من سمى الله روحاً كفر».

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري في ما نقله عنه تلميذ تلميذه أبو بكر بن فورك ما نصه: «لا يجوز تسمية الله بالروح لأنه لم يجز في الشريعة».

ونبي الله يعقوب ما قال «من روح الله» بضم الراء، وحاشى لأنبياء الله أن يسموه «روحاً» وإنما قال «من رُوحِ الله» بفتح الراء أي من رحمة الله.

قال الحسين بن مسعود البغوي في تفسيره^(٣) ما نصه: «قال ابن عباس:

(١) سورة يوسف، آية ٨٧.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

(٣) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٤، ص ٢٧١).

معناه التمسوا ﴿وَلَا تَأْيِسُوا﴾ ولا تقنطوا ﴿مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي: من رحمة الله.

وقال الطبري في تفسيره^(١) ما نصه: «حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد عن قتادة في قوله: ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾^(٢)، أي من رحمة الله».

وقال المفسر اللغوي أبو حيان الأندلسي ما نصه^(٣): «و﴿رَّوْحِ اللَّهِ﴾ رحمته وفرجه وتنفيسه».

وقال المفسر محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»^(٤) ما نصه: «﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من فرج الله قاله ابن زيد يريد: أن المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة. وقال قتادة والضحاك: من رحمة الله».

وقال الأخفش في تفسير هذه الآية ما نصه^(٥): «قوله ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾ من انقطاع الرجاء وهو من يئس وهو مثل «إيس» في تصريفه. وإن شئت مثل خشيت في تصريفه».



(١) الطبري، جامع البيان، (ج٧، ص٧٢).

(٢) سورة يوسف، آية ٨٧.

(٣) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج٥، ص٢٧٧).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج٩، ص٢٥٢).

(٥) الأخفش، معاني القرآن، (ص٣٩٢).

المبحث الأربعون تأويل قوله تعالى

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا^ط
وَلَا يَأْتُونَ الْبَاسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(١)

إن مما أجمعت عليه الأمة أن الله عز وجل أزلي أبدي قال تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ
وَالْآخِرُ﴾^(٢)، وصفاته أزلية أبدية، قال تعالى ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ
﴿٧٦﴾^(٣)، فصفاته لا تتغير ولا تزيد ولا تنقص وليست كصفات المخلوقين.

ومن صفات الله العلم، وعلمه علمٌ واحدٌ شاملٌ لكل المعلومات الكليات
والجزئيات جملةً وتفصيلاً، وعلمه لا يزيد ولا ينقص ولا يتغير ولا يتطور
وليس كعلم المخلوقين فلا يتجدد له علم، قال تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ
عَلِيمٌ﴾^(٤).

فمن اعتقد أو ظن أن الله تعالى يغيب عن علمه شيءٌ أو يتجدد له علمٌ
شيءٌ لم يكن علمه في الأزل فهو كافرٌ بالله العظيم لأن حدوث الصفة
يستلزم حدوث الذات، وأما قول الله تعالى ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾^(٥)، فهذا
ليس للاحتمال والشك، بل معناه عند كل علماء التفسير ﴿قَدْ يَعْلَمُ﴾ أي

(١) سورة الأحزاب، آية ١٨.

(٢) سورة الحديد، آية ٣.

(٣) سورة النحل، آية ٧٤.

(٤) سورة الحديد، آية ٣.

(٥) سورة الأحزاب، آية ١٨.

عالم في الأزل، وليس معناه أنه يتجدد له بعد أن لم يكن.

قال الطبري في كتابه التفسير ما نصه: «يقول تعالى ذكره: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ﴾ الذين يعوقون الناس ﴿مِنْكُمْ﴾ عن رسول الله ﷺ فيصدونهم عنه».

وفي كتاب «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» لمحمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي في تفسير سورة المجادلة ما نصه: «اللطيفة الأولى: يقول علماء اللغة: ﴿قَدْ﴾ حرف يُوجِبُ به الشيء وهي إذا دخلت على الماضي تفيد التحقيق، وإذا دخلت على المضارع تفيد التقليل لأنها تميل إلى الشك تقول: قد ينزل المطر، وقد وجود البخيل، وأمّا في كلام الله فهي للتحقيق سواء دخلت على الماضي أو المضارع كقوله تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ﴾^(١).

ومثله قال الفقيه بدر الدين الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن».

وقال الحافظ المجتهد عبد الله الهرري رضي الله عنه في كتابه «الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم» ما نصه^(٢): «اعلم أن علم الله قديم أزلي كما أن ذاته أزلي فلم يزل عالماً بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته فلا يتصف بعلم حادث لأنه لو جاز اتصافه بالحوادث لانتفى عنه القدم لأن ما كان محلاً للحوادث لا بد أن يكون حادثاً.

العلم صفة أزلية أبدية ثابتة لله تعالى، والله تعالى ليس جوهرًا يحلّ به العرض فعلمنا عرض يحلّ بأجسامنا ويستحيل ذلك على الله تعالى،

(١) سورة الأحزاب، آية ١٨.

(٢) عبد الله الهرري، الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم، (ص ٢٠٠).

والله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون، ولا يقبل علمه الزيادة ولا النقصان فهو سبحانه وتعالى محيطٌ علمًا بالكائنات التي تحدث إلى ما لا نهاية له حتى ما يحدث في الدار الآخرة التي لا انقطاع لها يعلم ذلك جملةً وتفصيلاً، قال تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيّطًا ۝١٣٦﴾^(١). وعلم الله تعالى أعمّ من الإرادة والقدرة، فالإرادة والقدرة تتعلقان بالممكنات العقلية أما علمه يتعلق بالممكنات العقلية والمستحيلات وبالواجب العقلي.

وأما قوله تعالى ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ۝١٥٥﴾^(٢)، فمعناه أن أهل السماوات وهم الملائكة وأهل الأرض من أنبياء وأولياء فضلاً عن غيرهم لا يحيطون بشيءٍ من علمه أي معلومه إلا بما شاء، أي إلا القدر الذي شاء الله أن يعلموه هذا الذي يحيطون به.

أما قول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ۝٦٥﴾^(٣) فالمنفي عن الخلق علم جميع الغيب، أما بعض الغيب فإن الله يطلع عليه بعض البشر وهم الأنبياء والأولياء وكذلك الملائكة، وأما من ادعى أن الرسول يعلم كل ما يعلمه الله فقد سوى الرسول بالله وذلك كفرٌ.

ولا فرق بين من يقول الرسول يعلم كل ما يعلمه الله من غير أن يعطيه الله ذلك، ومن يقول إنه يعلم كل ما يعلمه الله من غير أن يعطيه الله ذلك، فكلا الاعتقادين كفرٌ من أشنع الكفر لأن الله تعالى لا يصح عقلاً ولا شرعاً أن يعطي أحداً من خلقه جميع ما يعلمه لأن معنى إن النبي يعلم كل ما يعلم الله

(١) سورة النساء، آية ١٢٦.

(٢) سورة البقرة، آية ٢٥٥.

(٣) سورة النمل، آية ٦٥.

من باب العطاء أن الله تعالى يساوي خلقه بنفسه، وهذا مستحيلٌ. فهذا القائل كأنه يقول الله يجعل بعض خلقه مثله والعياذ بالله. وكيف خفي على بعض الناس فساده فتجروا وابل صاروا يرون هذا من جواهر العلم، فلو قيل لهؤلاء فعلى قولكم هذا يصح أن يجعل الله الرسول قادرًا على كل شيء الله قادر عليه فماذا يقولون؟! حسبنا الله. وهذا من الغلو الذي نهانا الله عنه ورسوله. وهؤلاء يزعمون أن هذا من قوة تعظيم الرسول ومحبته. وهؤلاء لهم وجودٌ في فرقة تنتسب إلى التصوف في الهند.

ولو كان يصح لغيره تعالى العلم بكل شيء لم يكن لله تعالى تمدح بوصفه نفسه بالعلم بكل شيء، فمن يقول إن الرسول يعلم بكل شيء يعلمه الله جعل الرسول مساويًا لله في صفة العلم، فيكون كمن قال الرسول قادر على كل شيء وكمن قال الرسول يريد لكل شيء سواءً قال هذا القائل أن الرسول عالم بكل شيء بإعلام الله له أو لا فلا مخلص له من الكفر.

ومما يرد به على هؤلاء قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾^(٢) فإن الله تبارك وتعالى تمدح بإحاطته بالغيب والشهادة علمًا.

وما أوهم تجدد العلم لله تعالى من الآيات القرآنية كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾^(٣)، فليس المراد به ذلك، وقوله ﴿وَعَلِمَ﴾ ليس راجعًا لقوله ﴿الَّذِينَ﴾، بل المعنى أن الله تعالى خفف

(١) سورة الأنعام، آية ٥٩.

(٢) سورة الأنعام، آية ٧٣.

(٣) سورة الأنفال، آية ٦٦.

عنكم الآن لأنه علم بعلمه السابق في الأزل أنه يكون فيكم ضعف.

هذه الآية معناها أنه نسخ ما كان واجباً عليهم من مقاومة واحد من المسلمين لأضعاف كثيرة من الكفار بإيجاب مقاومة واحد لاثنين من الكفار رحمة بهم للضعف الذي فيهم.

وكذلك قوله تعالى ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ (٣١)^(١)، معناه ولنبلونكم حتى نميز أي نظهر للخلق من يجاهدوا ويصبروا من غيرهم، وكان الله عالمًا قبل كما نقل البخاري في صحيحه في كتاب التفسير.

قال الله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ أَلْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (٣٧)^(٢). أي أن الله تعالى يتلي عبادته بما شاء من البلايا حتى يظهر ويميز لعباده من هو الصادق المجاهد في سبيل الله الذي يصبر على المشقات مع إخلاص النية لله تعالى ومن هو غير الصادق الذي لا يصبر.

وكذلك قوله تعالى ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ أَلْحَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (٣٧) فليس معناه أن الله لم يكن عالمًا من هو الخبيث ومن هو الطيب ثم علم بل المعنى ليظهر لعباده من هو الخبيث ومن هو الطيب.

وأما الدليل العقلي على صفة العلم فهو أنه تعالى لو لم يكن عالمًا لكان جاهلاً والجهل نقصٌ والله منزّهٌ عن النقص، وأما من حيث النقل فالنصوص كثيرة منها قوله تعالى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٣)^(٣).

(١) سورة محمد، آية ٣١.

(٢) سورة الأنفال، آية ٣٧.

(٣) سورة الحديد، آية ٣.

المبحث الحادي والأربعون

تأويل قوله تعالى

﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهْزِءُونَ﴾ (٣٠) (١)

إن مما أجمعت عليه الأمة ونصّ عليه القرءان والحديث أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن كل ما كان من معاني المخلوقين وصفات المحدثين، فهو سبحانه لا يجوز عليه التحسر لأن الحسرة في لغة العرب هي الندم، فلو كان الله متحسراً لكان متأثراً، ولو كان متأثراً لكان متصفاً بالجسم والعروق والعصب والإحساس والشعور وهذا كله ضد الآية ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١) (٢) وتكذيب لقوله تعالى ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (٧٤) (٣) فالله عزّ وجلّ لو كان متصفاً بصفة من صفات الحوادث لجاز عليه أن يتصف بكل صفات المخلوقين ومن صفات المخلوقين الموت والعجز والضعف والزوال والتغير والفناء والهلاك والتعب والجوع والقعود والجلوس والحركة والسكون والاتصال والانفصال والتألم واللذة والانزعاج والحلول في الأماكن والجهل والغباء، هذا من صفات المخلوقين والله منزّه عن كل ذلك. قال الإمام أبو جعفر الطحاوي أحمد بن سلامة الذي كان من علماء السلف في عقيدته التي سماها بالعقيدة الطحاوية التي ذكر أن الإجماع قائم

(١) سورة يس، آية ٣٠.

(٢) سورة الشورى، آية ١١.

(٣) سورة النحل، آية ٧٤.

عليها وأنها عقيدة أهل السنة والجماعة: «ومن وصف الله بمعنى من معاني البشر فقد كفر»، أي من وصف الله بصفة من صفات المخلوقين فهو كافر بالإجماع.

فقد تبين أن هذه الآية ﴿يَحْسِرَةَ﴾ الحسرة فيها تعود للمخلوق لا إلى الخالق جلّ جلاله.

قال الطبري في تفسير الطبري في تفسيره لهذه الآية ما نصه^(١): «يقول تعالى ذكره: يا حسرة من العباد على أنفسها وتندماً وتلهفاً في استهزائهم برسول الله ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ﴾ من الله ﴿إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾^(٣٠) وذكر أن ذلك في بعض القراءات يا حسرة العباد على أنفسها. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر قال: حدثنا يزيد قال: حدثنا سعيد، عن قتادة ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾^(٣٠) (٢) أي: يا حسرة العباد على أنفسها على ما ضيعت من أمر الله، وفرطت في جنب الله. قال: وفي بعض القراءات: (يا حسرة العباد على أنفسها).

حدثني محمد بن عمرو قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنا عيسى وحدثني الحارث قال: حدثنا الحسن؛ قال: حدثنا ورقاء، جميعاً عن ابن أبي نجيح عن مجاهد قوله ﴿يَحْسِرَةَ عَلَى الْعِبَادِ﴾^(٣٠) قال: كان حسرة عليهم استهزؤهم بالرسول.

(١) الطبري، جامع البيان، (ج ١٨، ص ٣، ٤).

(٢) سورة يس، آية ٣٠.

حدثني عليّ قال: حدثنا أبو صالح قال: حدثني معاوية، عن علي، عن ابن عباس، قوله ﴿يَحْسِرَةٌ عَلَى الْعِبَادِ﴾^(١) يقول: يا ويلاً للعباد. وكان بعض أهل العربية يقول: معنى ذلك: يا لها حسرة على العباد».

وقال الحسين بن مسعود البغوي في تفسيره «معالم التنزيل» ما نصه^(٢): «أنه من قول الهالكين. قال أبو العالية: لما عاينوا العذاب قالوا: يا حسرة أي: ندامة على العباد، يعني: على الرسل الثلاثة حيث لم يؤمنوا بهم، فتمنوا الإيمان حين لم ينفعهم».

وقال المفسر اللغوي أبو حيان الأندلسي في «تفسير البحر المحيط» ما نصه^(٣): «فيجوز أن تكون الحسرة منهم على ما فاتهم، ويجوز أن تكون الحسرة من غيرهم عليهم، لما فاتهم من اتباع الرسل حين أحضروا للعذاب؛ وطباع البشر تتأثر عند معاينة عذاب غيرهم وتتحسر عليهم».

وقال القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ما نصه^(٤): «وحقيقة الحسرة في اللغة أن يلحق الإنسان من الندم ما يصير به حسيراً».



(١) سورة يس، آية ٣٠.

(٢) البغوي، معالم التنزيل، (ج٧، ص١٦).

(٣) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج٧، ص٣١٨).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج١٥، ص٢٢).

المبحث الثاني والأربعون

تاويل قوله تعالى

﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِئَاءَ بِالتَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٩) (١)

إن الله عز وجل من أسمائه النور بمعنى الهادي وليس بمعنى الضوء وهذا معنى ما جاء في قوله تعالى ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣٥) (٢) أي هادي المؤمنين لنور الإيمان، ومن حمل الآية على معنى الضوء سواءً قال ضوءً كبيراً أو صغيراً أو أصفر أو أحمر أو أخضر أو أبيض أو غير ذلك فهو مشبهٌ لله بخلقه، وهو مكذبٌ لقول الله عز وجل ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ (٣٥) (٣) أي لنور الإيمان، وقد قال الله سبحانه ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (٧٤) (٤)، فمن اعتقد أن الله ضوءٌ فهو غير عارفٍ بربه وإنه كافرٌ به وإن زعم أنه مسلم وإن صام وصلى صورةً، وكذلك من اعتقد أن الله جسمٌ يتوقد نوراً أو أنه جسمٌ تشع منه الأنوار أو أنه نورٌ يتلألأ أو أنه تنبثق منه الأضواء فكل هذا تكذيب لقول الله عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١) (٥) وقد أجمعت الأمة على كفر المشبهة والمجسمة.

(١) سورة الزمر، آية ٦٩.

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) سورة النور، آية ٣٥.

(٤) سورة النحل، آية ٧٤.

(٥) سورة الشورى، آية ١١.

وأما قول الله تعالى ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾^(١) فالأرض في هذه الآية هي أرض القيامة، ومعنى ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ أي بحكم ربها وليس معناها أن الله ضوء يغطي أرض القيامة كما نقل ابن تيمية عن أسلافه المشبهة المجسمة موافقاً لهم ومقرراً لذلك فقال في كتابه الأسماء والصفات ما نصه^(٢): «إِذَا جَاءَهُمْ وَجِلْسٌ عَلَى كُرْسِيِّهِ أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِأَنْوَارِهِ»، فهذا خلطٌ وخبطٌ وكفرٌ صراحٌ، قائله ومعتقده لم يذق طعم الإيمان ولا عرف الإسلام.

قال أبو حيان الأندلسي في «تفسير البحر المحيط» ما نصه^(٣): «الأرض في هذه الآية: الأرض المبدلة من الأرض المعروفة، ومعنى أشرقت: أضاءت وعظم نورها، ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾. قيل: يخلق الله نوراً يوم القيامة، فيلبسه وجه الأرض، فتشرق الأرض به، وقال ابن عباس: النور هنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء الأرض.

وروي أن الأرض يومئذٍ من فضة، والمعنى: أشرقت بنور خلقه الله تعالى، أضافه إليه إضافة الملك إلى الملك، ويقولون للملك العادل: أشرقت الآفاق بعدلك وأضاءت الدنيا بقسطك، كما يقولون: أظلمت البلاد بجور فلان. وقال رسول الله ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة»^(٤)، وكما فتح الآية بإثبات العدل، ختمها بنفي الظلم».

(١) سورة الزمر، آية ٦٩.

(٢) ابن تيمية، المسمى الأسماء والصفات، (ص ٨١).

(٣) أبو حيان، تفسير الأسماء والصفات، (ج ٧، ص ٤٢٣).

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، (ج ٢، ص ٨٦٤)، حديث ٢٣١٥.

وقال محمد بن أحمد القرطبي الأنصاري في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ما نصه: «قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾^(١) إشراقها إضاءة لها، يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت. ومعنى: بنور ربها بعدل ربها، قاله الحسن وغيره. وقال الضحاك: بحكم ربها، والمعنى واحد، أي: أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلماتٌ والعدل نورٌ. وقيل: إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به. وقال ابن عباس: النور المذكور ههنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض وقد ضل قوم ههنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس، وهو متعالٍ عن مشابهة المحسوسات، بل هو مُنورٌ السماوات والأرض أي خالق النور في السماوات والأرض، فمنه كل نور خلقاً وإنشاءً».

وقال البغوي في تفسيره «معالم التنزيل»^(٢) ما نصه: «وقال الحسن والسدي: بعدل ربها، وأراد بالأرض عرصات القيامة»^(٣).

وقال الفخر الرازي في «التفسير الكبير» ما نصه^(٤): «﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: هذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض التي يقعد

(١) سورة الزمر، آية ٦٩.

(٢) البغوي، معالم التنزيل، (ج ٧، ص ١٣٢).

(٣) أي مواقف القيامة.

(٤) الرازي، مفاتيح الغيب، (ج ١، ص ٣٨٧).

عليها الآن، بدليل قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ (٤٨) (١)،
 وبدليل قوله تعالى: ﴿وَحَمَلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾ (١٤) (٢) بل
 هي أرض أخرى يخلقها الله تعالى لمحفل يوم القيامة.

المسألة الثانية: قالت المجسمة: إن الله تعالى نورٌ محضٌ، فإذا حضر الله
 في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرفت تلك الأرض بنور الله،
 وأكدوا هذا بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣٥) (٣).

واعلم أن الجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

الأول: أنا بينا في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣٥) أنه
 لا يجوز أن يكون الله سبحانه وتعالى نوراً، بمعنى كونه من جنس هذه الأنوار
 المشاهدة، وبيننا أنه لما تعذر حمل الكلام على الحقيقة وجب حمل لفظ
 النور ههنا على العدل، فنحتاج ههنا إلى بيان أن لفظ النور قد يستعمل في
 هذا المعنى، ثم إلى بيان أن المراد من لفظ النور ههنا ليس إلا هذا المعنى، أما
 بيان الاستعمال فهو أن الناس يقولون للملك العادل: أشرفت الآفاق بعدلك،
 وأضاءت الدنيا بقسطك، كما يقولون: أظلمت البلاد بجورك، وقال ﷺ:
 «الظلم ظلمات يوم القيامة». وأما بيان أن المراد من النور ههنا العدل فقط
 أنه قال: ﴿وَجَاءَءَ بِالتَّبِيَّيْنِ وَالشُّهَدَاءِ﴾ (٦٩) (٤)، ومعلوم أن المجيء بالشهداء
 ليس إلا لإظهار العدل، وأيضا قال في آخر الآية: ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (٦٩)

(١) سورة إبراهيم، آية ٤٨.

(٢) سورة الحاقة، آية ١٤.

(٣) سورة النور، آية ٣٥.

(٤) سورة الزمر، آية ٦٩.

فدل هذا على أن المراد من ذلك النور إزالة ذلك الظلم، فكأنه تعالى فتح هذه الآية بإثبات العدل وختمها بنفي الظلم.

والوجه الثاني: في الجواب عن الشبهة المذكورة أن قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾^(١) يدل على أنه يحصل هناك نورٌ مضافٌ إلى الله تعالى، ولا يلزم كون ذلك صفة ذات الله تعالى لأنه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب، فلما كان ذلك النور من خلق الله وَشَرَفَهُ بَأَن أَضَافَهُ إِلَى نَفْسِهِ، كان ذلك النور نور الله، كقوله: بيت الله، وناقه الله وهذا الجواب أقوى من الأول لأن في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة والذهاب إلى المجاز..».

وبعد الذي أوضحناه وشرحناه وبيناه من أن الله سبحانه وتعالى ليس ضوءاً ولا يشبه الأضواء يتبين لك أن ما قاله ابن تيمية في تفسير هذه الآية ناقلاً له عن بعض أئمتهم هو تحريفٌ صريحٌ وتزويرٌ لتفسير الآية وليس شرحاً لها، فقولهم والعياذ بالله تعالى من الكفر والضلال عن الله عز وجل: «إذا جاءهم وجلس على كرسيه أشرق الأرض كلها بأنواره» فيه نسبة الانتقال والحركة والسكون والجلوس والتغير إلى الله تعالى، وهذه عقيدةٌ فاسدةٌ كاسدةٌ نجسةٌ خسيئةٌ لا يقولها من عرف ربه، وهذا ثابتٌ عن ابن تيمية وليس تقولاً عليه، ومع ذلك فأشياعه وأتباعه يسمونه بشيخ الإسلام كذباً وزوراً وبهتاناً وما هو إلا رأس الفتنة وشيخ الضلالة وداعية النفاق، فلا يُستغرب أن يكون أتباعه الجماعات التكفيرية التخريبية الدموية الإرهابية الإفسادية الإجرامية الذين دمروا البلاد وعاثوا فيها الفساد قتلاً وسفكاً للدماء وهتكاً للأعراض وانتهاكاً للحرمان وفضحاً للمسلمات الحرائر وكل ذلك باسم الدين والإسلام والإسلام منهم براء.

(١) سورة الزمر، آية ٦٩.

المبحث الثالث والأربعون

تأويل قوله تعالى

﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)

إن مما أجمعت عليه الأمة أن الله سبحانه وتعالى ليس جسمًا فلا يقبل الانقسام ولا التجزؤ، لأنه سبحانه قال في القرآن الكريم في ذم المشركين ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ (٢) والجسم هو الذي يقبل التركيب والانقسام والله تعالى ليس جسمًا وليس صفة للجسم، وقد قال الفقيه المحدث الحنفي الشيخ عبد الغني بن إسماعيل النابلسي: «معرفة الله عليك تفترض بأنه لا جوهر ولا عرض»، والله تعالى لو كان جسمًا لاحتاج إلى من يوجده والاحتياجية تنافي الألوهية ولو كان جسمًا لكان مخلوقًا والمخلوق لا يخلق، وأما قول الله تعالى ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ فليس معناه أنه جسم وأن العالم أجزاء منه فهذا مستحيل شرعًا وعقلًا ولو كان الله تعالى جسمًا وعنه تفرع العالم لكان معنى ذلك على مقتضى قول المجسمة أن الشياطين والخنازير والكلاب والجرذان والفئران والنجاسات أجزاء منه، وهذا أصح الصريح في الكفر، تقدس الله وتنزهه عن هذه السخافات، ولكن معنى الآية الكريمة ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي أن كل الأشياء التي في هذا الكون صادرة من الله خلقًا وتكوينًا، ومعنى صادرة من الله أي وجدت بقدرته، وليس معناه انبثقت عنه

(١) سورة الباقية، آية ١٣.

(٢) سورة الزخرف، آية ١٥.

ولا أنها خرجت منه ولا أنها أجزاء منه سبحانه بل هي مسخرة للإنسان
أخرجها الله من العدم إلى الوجود بقضائه وقدره وخلقه وإيجاده ليس غير
الله أو جدها.

وقد أجمعت الأمة على كفر من نسب إلى الله الجسمية أو الانقسام أو
التجزؤ.

قال الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن»^(١) ما نصه:
«ذكر كمال قدرته وتمام نعمته على عباده، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ خَلَقَ مَا خَلَقَ لِمَنَافِعِهِمْ.
﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾^(٢)؛ يعني أن ذلك
فعله وخلقه وإحسان منه وإنعام».

وقال الرازي في كتابه التفسير الكبير ما نصه: «فإن قيل: ما معنى ﴿مِّنْهُ﴾ في
قوله: ﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾؟ قلنا: معناه: أنها واقعة موقع الحال، والمعنى أنه سخر
هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده يعني أنه تعالى مكونها وموجدتها
بقدرته وحكمته ثم مسخرها لخلقها».

وكذلك قوله ﷺ: «وَرُوحٌ مِنْهُ»^(٣) معناه أن روح المسيح روحٌ صادرةٌ من
الله تعالى خلقًا وتكوينًا، أي روحه روحٌ مشرفٌ كريمٌ على الله، وإلا فجميعُ
الأرواح صادرةٌ من الله تعالى تكوينًا لا فرق في ذلك بين روح وروح وكلمة
«روح منه» ليس معناها أن المسيح عيسى جزء من الله إنما معناها روح

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٦، ص ١٦٠).

(٢) سورة الجاثية، آية ١٣.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله «لا تغلوا في دينكم»، (ج ٣، ص ١٢٦٧)،
حديث ٣٢٥٢.

وجدت بإيجاد الله أي الله أوجدها من العدم ليس معناها أنه جزء من الله كما ادعى بعض ملوك النصارى محتجين بزعمهم بقوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (١٧١) ﴿١﴾ على أن المسيح جزء من الله، فردَّ عليه القاضي أبو بكر الباقلاني بهذه الآية: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (١٣) ﴿٢﴾، فسكت ذلك الملك لأن كلمة ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (١٣) في النصِّين موجودة، فكما أنها لا تدل في الآية على أن ما في السماوات وما في الأرض جزء من الله كذلك لا تدل كلمة ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (١٧١) في آية ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ (١٧١) على أن روح عيسى جزء من الله.

وليعلم أن عقيدة التجسيم قد انتشرت بين الغوغاء ممن يدعون الإسلام والإسلام منهم براء، وما ذاك إلا بسبب الجهل. وهذه العقيدة في الأصل أخذت من اليهود، فيجب الحذر من ذلك والتحذير، فهذا ننبه المسلمين إلى خطر عظيم وبلاء جسيم وحيل شيطانية تسعى المجسمة الوهابية في تطبيقها سعياً حثيثاً، فقد بثوا وزرعوا أبواقاً لهم بين الناس باسم الأشاعرة فاغتر بهم من لا يعرف حقيقتهم وأنهم من الوهابية، وتحلقوا حولهم لظنهم أنهم من أئمة الأشاعرة لطلب العلم منهم، فعمل هؤلاء الأبواق على نشر فسادهم وتشبيهِهم وتجسيمهم موهمين من استمع إليهم أن عقيدة الأشعري التشبيهِ ونسبة التحيز لله وأن الله في السماء ساكن، فيتحول من التجأ إليهم إلى مجسم كافر عدو لأهل السنة الذين نشأ بينهم، بل يصير عدواً للأشعري

(١) سورة النساء، آية ١٧١.

(٢) سورة الجاثية، آية ١٣.

نفسه حين تظهر له الحقيقة فلا ينفع معه دواء لسريان الضلال من تشبيهه وتجسيم إلى قلبه سريان الكلب الذي يفتك بصاحبه.

وأعان الوهابية على ذلك أناسٌ مهدوا لهم في البلاد وساعدوهم في نشر هذا الفساد، منهم المدعو حسن قاطرجي اللبناني والمدعو فريد الباجي التونسي والمدعو سعيد فودة الأردني والمدعو علي الجفري اليمني والمدعو أبو علي الحبيري محمود قرطام وآخر تركي وآخر مصري، فهؤلاء يتسترون باسم الأشاعرة وينشرون بين الناس عدم تكفير المجسمة، إمّا جهلاً منهم، أو رغبة في الجمع بين مهتد وضالّ اعتصامًا بغير جبل الله، أو تملقًا للوهابية، أو حبًا بمال، أو لأجل جاه أو لغير ذلك من الشهوات الخفية أو الظاهرة، وهم بفعالهم هذا يخربون ويفسدون عقيدة كثير من أهل السنة الأشاعرة والماتريدية، وهذا شر مستطير وفساد كبير وخطر عظيم لأنهم ساعون في هدم العقيدة الحققة وخرابها من الداخل، فليتنبه لهم فإنهم بعملهم هذا يهونون شر عقيدة الوهابية فيمهدون الطريق لهم ويفتحون لهم الأبواب ليتغلغلوا في مجتمعات المسلمين، فما أشد إفسادهم وخيانتهم للمسلمين وغشهم لمن يثق بهم من الأشاعرة والماتريدية، فهؤلاء وأمثالهم يفرح الوهابية أعداء الدين لأنهم سبب في سرعة انتشارهم السرعة التي لا تقدر عليه الوهابية لوحدها ولو ببذل المال، فالمال وحده فتنة فكيف إذا اجتمع معه خداع وغش وخيانة عمي القلوب الذين غشوا الناس وخدعوهم وخانوا الأمة بقولهم «المجسم ليس كافرًا» وبقولهم «المسألة خلافية» وبقولهم «الصحيح أن المجسم لا يكفر». ونذكر هؤلاء العمي المغفلين بموقف عظيم سيقفونه يوم الدين سيسألون فيه عن هذا الفساد الخطير وعن

أفعالهم المردية المؤدّية إلى هدم العقيدة والدين.

فكن أخي المسلم متيقظًا حذرًا ملتزمًا الحق الذي عليه أهل التنزيه مجتنبًا
كفر أهل التجسيم والتشبيه ونفاق المتمشعة الزائغين، الساعين لك عوائد
المسلمين أشاعرةً وماتريديّةً، من الخارج ومن الداخل.



المبحث الرابع والأربعون

تأويل قوله تعالى

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ
يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ (٢) ﴿١﴾

قال ابن عادل^(٢) الدمشقي^(٣): «﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾»^(٤) لكي توقنوا بوعدته، وتصدقوا. واعلم أن الدلائل الدالة على وجود الصانع الحكيم تدلُّ أيضًا على صحّة القول بالحشر والنشر لأن من قدر على خلق هذه الأشياء وتديرها على عظمها وكثرتها، فبأن يقدر على الحشر والنشر أولى. وروي أن رجلاً قال لعليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: كيف يحاسب الله الخلق دفعة واحدة؟ قال: كما يرزقهم الآن دفعة واحدة، وكما يسمع نداءهم ويوجب دعاءهم الآن دفعة واحدة. واعلم أنه تعالى كما قدر على بقاء الأجرام الفلكية، والنيرات الكوكبية في الجو العالي، وكما يمكنه تدبير ما فوق العرش إلى ما تحت الثرى لا يشغله شأن عن شأن، كذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن.

واعلم أن لفظ «اللقاء» يدل على رؤية الله تعالى».

(١) سورة الرعد، آية ٢.

(٢) ابن عادل، عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص، سراج الدين، صاحب التفسير الكبير «اللباب في علوم الكتاب». توفي بعد سنة ٨٨٠هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٥، ص ٥٨).

(٣) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب، (ج ١١، ص ٢٤٠).

(٤) سورة الرعد، آية ٢.

قال الثعالبي في تفسيره^(١): «لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾» أي توقنون بالبعث».

وقال أبو الليث السمرقندي في تفسير هذه الآية^(٣): «لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾» يعني تصدقون بالبعث».

فقد حمل بعض المفسرين اللقاء على معنى البعث، وحمل بعضهم اللقاء على الرؤية.

وقد قال الرازي في تفسيره ما نصه^(٤): «ومن الأصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى».

فإن حُمل اللقاء على معنى الرؤية أقول إن الرؤية لله تعالى في الآخرة للمؤمنين بالأبصار ثابتة وإليك البيان:

قال الله تعالى في كتابه المبين في سورة القيامة ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾^(٥) وقال الله تعالى عن الكافرين: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحُجُونَ ﴿١٥﴾﴾^(٦).

(١) أبو الليث السمرقندي، نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي، الملقب بإمام الهدى. علامة، من أئمة الحنفية، من الزهاد المتصوفين. له تصانيف نفيسة منها: «تفسير القرآن»، و«عمدة العقائد»، و«تنبيه الغافلين». وتوفي سنة ٣٧٣هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٨، ص ٢٧).

(٢) سورة الرعد، آية ٢.

(٣) أبو الليث السمرقندي، بحر العلوم، (ج ٢، ص ٢١٦).

(٤) الرازي، التفسير الكبير، (ج ٩، ص ١٣٩).

(٥) سورة القيامة، آية ٢٢-٢٣.

(٦) سورة المطففين، آية ١٥.

فلما عاقب الكفار بحجبهم عن رؤيته دلّ على أنه يثيب المؤمنين برفع الحجاب عنهم عن أعينهم حتى يروه ولما قال في وجوه المؤمنين ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ﴾ فقيدها بيوم القيامة ووصفها فقال ﴿تَّاضِرَةٌ﴾ ثم أثبت لها الرؤية فقال ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴿١٣﴾ علمنا أن الآية الأخرى في نفيها عنهم في الدنيا دون الآخرة وفي نفيها عن الوجوه الباسرة دون الوجوه الناضرة جمعاً بين الآيتين وحملًا للمطلق من الكلام على المقيد منه ثم قال بعض أصحابنا إنما نفى عنه الإدراك دون الرؤية والإدراك هو الإحاطة بالمرئي دون الرؤيا.

ومما يدل على أن الله عز وجل يرى بالأبصار قول موسى الكليم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ ﴿١٤٣﴾^(١)، ولا يجوز أن يكون نبي من الأنبياء قد ألبسه الله جلباب النبیین وعصمه مما عصم منه المرسلين يسأل ربه ما يستحيل عليه، وإذا لم يجوز ذلك على موسى عليه السلام فقد علمنا أنه لم يسأل ربه مستحيلاً وأن الرؤية جائزة على ربنا عز وجل.

ومما يدل على ذلك قول الله عز وجل لموسى عليه السلام ﴿فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ ﴿١٤٣﴾^(٢)، فلما كان الله قادراً على أن يجعل الجبل مستقراً كان قادراً على الأمر الذي لو فعله لراه موسى فدل ذلك على أن الله قادر على أن يري نفسه عباده المؤمنين وأنه جائز رؤيته، وقوله ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ ﴿١٤٣﴾^(٣) أراد به في الدنيا دون الآخرة بدليل ما مضى من الآية، ولأن الله تعالى قال ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ وَسَلَامٌ﴾ ﴿٤٤﴾^(٤).

(١) سورة الأعراف، آية ١٤٣.

(٢) سورة الأعراف، آية ١٤٣.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٤٣.

(٤) سورة الأحزاب، آية ٤٤.

واللقاء إذا أطلق على الحي السليم لم يكن إلا رؤية العين، وأهل هذه التحية لا آفة بهم ولأنه قال ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ (٣٥) (١)، وقال ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ (٢٦) (٢).

وقد فسّر رسول الله ﷺ المبيّن عن الله عز وجل فمن بعده من الصحابة الذين أخذوا عنه والتابعين الذين أخذوا عن الصحابة أن الزيادة في هذه الآية: النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى أي إلى ذات الله والله منزّه عن الجارحة، وانتشر عنه وعنهم إثبات رؤية الله عز وجل في الآخرة بالأبصار بلا كيف ولا مكان.

وجاء في تفسير هذه الآية عن جماعة كبيرة من العلماء بالإسناد المتصل ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ﴾ أي الجنة، ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ النظر إلى وجه الرب عز وجل أي إلى ذاته، فعن عبد الرحمن بن صخر قال: كان رسول الله ﷺ بارزاً للناس فاتاه رجل فقال يا رسول الله ما الإيمان؟ قال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخر، وذكر باقي الحديث، قال البيهقي رحمه الله: واللقاء المذكور في هذا الحديث هو لقاء الله عز وجل فقد أفرد البعث بالذكر، وقال في حديث دعاء التهجد: «ووعدك حق ولقاؤك حق». رواه البخاري في دعاء التهجد ومسلم في صلاة المسافرين وفي رواية أبي بكرة عن النبي ﷺ «وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم» أخرجه البخاري (٣)، وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الأنصار

(١) سورة ق، آية ٣٥.

(٢) سورة يونس، آية ٢٦.

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾، (ج ٦، ص ٢٧١٠)، حديث ٧٠٠٩.

أن النبي ﷺ قال لهم: «اصبروا حتى تلقوا الله ورسوله» أخرجه البخاري^(١).
وفي الكتاب قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢).

وذكر الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي الحنبلي في تفسيره «زاد المسير في
علم التفسير»^(٣) في قوله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾^(٤)
ما نصه: أي مشرقة بالنعيم، روى عطاء عن ابن عباس قال: إلى الله ناظرة، قال
الحسن: حق لها أن تنظر وهي تنظر إلى الخالق. ورؤية الله عز وجل حق لا
شك فيه والأحاديث فيها صحاح وقد ثبتت رؤية المؤمنين لله تعالى في الدار
الآخرة في الأحاديث الصحاح من طرق متواترة عند أئمة الحديث لا يمكن
دفعها ولا منعها».

وانظر تفسير الخازن^(٥) في تفسير هذه الآية، وانظر «تفسير البحر المحيط»
لأبي حيان الأندلسي، وانظر «التفسير الكبير» للإمام الفخر الرازي وكل
كتب التفسير المعتمدة عند أهل الحق.

وفي «إحياء علوم الدين»^(٦) للفقير الشافعي أبي حامد محمد بن محمد
الغزالي تحت عنوان بيان العلم بصفات الله عز وجل قال: «الأصل التاسع:

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾،
(ج ٦، ص ٢٧١٠)، حديث ٧٠٠٣.

(٢) سورة الكهف، آية ١١٠.

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، (ج ٨، ص ٤٢٢، ٤٢٣).

(٤) سورة القيامة، آية ٢٢-٢٣.

(٥) الخازن، تفسير الخازن، (ج ٤، ص ٣٣٥).

(٦) الغزالي، إحياء علوم الدين، (ج ١، ص ١٠٨).

العلم بأنه تعالى مع كونه منزهاً عن الصورة والمقدار مقدساً عن الجهات والأقطار مرئي بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾^(١) ولا يرى في الدنيا تصديقاً لقوله عز وجل ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ ﴿١٣﴾﴾^(٢) ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام ﴿لَنْ تَرِنِي ﴿١٤٣﴾﴾^(٣).

وانظر في كتاب «لمع الأدلة»^(٤) لإمام الحرمين أبي المعالي عبد الملك الجويني تحت عنوان رؤية الله، وفي كتابه «الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد»^(٥) تحت عنوان: كل موجود يجوز أن يرى، وفي موضع آخر^(٦) تحت عنوان: رؤية الله تعالى، وفي موضع آخر^(٧) تحت عنوان رؤية الله تعالى ستكون في الجنان بلا كيف ولا جهة ولا مكان كما عرفناه في الدنيا ليس كمثله شيء نراه في الآخرة.

وتأمل كتاب «الإنصاف»^(٨) في ما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به لإمام المتكلمين القاضي أبي بكر بن الطيب الباقلاني البصري قوله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢﴾﴾^(٩) الآية.

(١) سورة القيامة، آية ٢٢-٢٣.

(٢) سورة الأنعام، آية ١٠٣.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٤٣.

(٤) الجويني، لمع الأدلة، (ص ١٠١).

(٥) الجويني، قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد، (ص ١٦٣).

(٦) الجويني، قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد، (ص ١٦٤).

(٧) الجويني، قواعد الأدلة في أصول الاعتقاد، (ص ١٦٥).

(٨) الباقلاني، الإنصاف، (ص ٣٧).

(٩) سورة القيامة، آية ٢٢.

وإليك كتاب «الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد»^(١) للإمام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي تحت عنوان القول في إثبات الرؤية لله عز وجل في الآخرة بالأبصار.

وافهم أرشدك الله إلى سبيل أهل الحق ما ذكره الإمام العالم الجليل عمدة المتكلمين أبو جعفر الطحاوي في كتابه «العقيدة الطحاوية»^(٢) ما نصه: «والرؤية حق لأهل الجنة بغير إحاطة ولا كيفية كما نطق به كتاب ربنا ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾».

وتدبر معنى ما قاله المتكلم النحوي الفقيه محمد بن هبة الله المكي في كتابه «حدائق الفصول وجواهر العقول» المعروفة بالعقيدة الصلاحية والتي نظمها بأمر من السلطان صلاح الدين الأيوبي رضي الله عنه فأقبل عليها وأمر بتدريسها في الكتاب حتى للصبيان^(٣):

رؤية الخالق

وقد أتى في الخبر المنقول	الثابت النقل عن الرسول
رؤية رب الخلق في القيامة	كالقمر النائي عن الغمامة
ولم يرد بضربه المثالا	إلا انتفاء الشك والإجلال
إذ رؤية الخالق لا تكيف	هذا ما كان عليه السلف
فمنكروها خالفوا الرسولا	وعاندوا المنقول والمعقول».

(١) البيهقي، الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، (ص ٧٤).

(٢) الطحاوي، العقيدة الطحاوية، (ص ١١).

(٣) ابن هبة الله، حدائق الفصول وجواهر العقول، (ص ٥٧).

وذكر الإمام عمر بن محمد النسفي في كتابه «العقيدة النسفية» يقول^(١):
«ورؤية الله تعالى جائزة في العقل واجبة بالنقل».

وقد ورد الدليل السمعي بإيجاب رؤية المؤمنين لله تعالى في دار الآخرة فيرى لا في مكان ولا في جهة ولا على جهة من مقابلة أو اتصال شعاع أو ثبوت مسافة بين الرائي وبين الله تعالى.

قال الحافظ البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات»^(٢): «وأما الحديث الذي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف الفقيه، حدثنا علي بن محمد بن عيسى، حدثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة^(٣)، عن الزهري، قال: أخبرني سعيد بن المسيب، وعطاء بن يزيد الليثي، أن أبا هريرة، أخبرهما أن الناس قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونها سحاب؟»، قالوا: لا يا رسول الله قال: «فهل تمارون الشمس ليس دونها سحاب؟»، قالوا: لا يا رسول الله قال: «فإنكم ترونه كذلك، يحشر الناس يوم القيامة»، فيقال: من كان يعبد شيئاً فليتبَّعه فمنهم من يتبع

(١) النسفي، العقيدة النسفية، (ص ٢٦).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٢٧٨، ٢٧٩).

(٣) شعيب بن أبي حمزة، الإمام، الثقة، المتقن، الحافظ، أبو بشر الأموي مولا هم، الحمصي، الكاتب، واسم أبيه: دينار. سمع الزهري فأكثر، ونافعاً، وعكرمة بن خالد، ومحمد بن المنكدر، وزيد بن أسلم، وأبا الزناد، وعدة. وعنه: ابنه بشر، وبقية، والوليد بن مسلم، ومحمد بن حمير، وأبو اليمان وآخرون. كان بديع الكتابة، وافر المهابة. قال المفضل الغلابي: «كان عند شعيب، عن الزهري نحو ١٧٠٠ حديث». وقال حنبل: «سمعت أبا عبد الله يقول: كان شعيب بن أبي حمزة قليل السقط، وروايات أبي اليمان عنه ثابتة في الصحيحين». توفي سنة ١٦٢ هـ، وقيل سنة ١٦٣ هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٦، ص ١٠٥-١٠٨)، رقم الترجمة ١٨٠١.

الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تبارك وتعالى في غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون..».

ثم قال^(١): «فهذا حديثٌ قد رواه البخاري في الصحيح عن أبي اليمان دون ذكر الصورة، ثم أخرجه من حديث معمر عن الزهري، عن عطاء بن يزيد، وفيه ذكر الصورة وأخرجه أيضًا من حديث إبراهيم بن سعد، عن الزهري، ورواه أيضًا مسلم بن الحجاج عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، عن أبي اليمان نحو حديث إبراهيم بن سعد، عن الزهري، عن عطاء بن يزيد وفيه ذكر الصورة».

وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري في تعليقه على كتاب «الأسماء والصفات»^(٢) للبيهقي: «اضطربت الروايات في ذكر الصورة والإتيان كما يظهر من استعراض طرق هذا الحديث ومتونه في الصحيحين وجامع الترمذي، والمسمى توحيد^(٣) ابن خزيمة^(٤) وسنن الدارمي وغيرها».

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٢٨١).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٢٧٩).

(٣) هذا الكتاب مليء بالضلال والفساد، حتى إن بعض العلماء سماه كتاب الشرك.

(٤) ابن خزيمة، محمد بن إسحاق بن خزيمة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف. ولد سنة ٢٢٣هـ، له كتاب «التوحيد» أساء فيه، ومصنفاته تزيد على مائة وأربعين كتابًا سوى المسائل، والمسائل المصنفة أكثر من مائة جزء. توفي في ثاني ذي القعدة، سنة ٣١١هـ، وعاش تسعا وثمانين سنة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٤، ص ٣٦٥)، رقم الترجمة ٢١٤.

ونقل الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء»^(١) إنكار الإمام مالك للفظ الصورة: «قال ابن القاسم^(٢): سألت مالكا عمَّن حَدَّثَ بالحديث، الذين قالوا: «إن الله خلق آدم على صورته»، والحديث الذي جاء: «إن الله يكشف عن ساقه»، وأنه «يُدخل يده في جهنم حتى يُخرج من أراد». فأنكر مالك ذلك إنكارًا شديدًا، ونهى أن يُحدِّثَ بها أحد». ولا شك أن مالكا أوسع اطلاعًا ممَّن أثبت هذا اللفظ من غير تحقيق ومع ذلك مالك يُنكره.

وقال ابن بطَّال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك في كتابه «شرح صحيح البخاري»^(٣): «وأما وصفه ﷺ الله تعالى بالإتيان بقوله: «فيأتيهم الله». فليس على معنى الإتيان المعهود فيما بيننا الذي هو انتقال وحركة؛ لاستحالة وصفه بما توصف به الأجسام». بل هو كقوله تعالى ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾^(٤).

وقال الحافظ ابن الجوزي الحنبلي في كتابه «كشف المشكل من حديث الصحيحين»^(٥): «وهذا شيء قد تخبط فيه جماعة، فالمتقدمون من السلف قرأوه وعبروا ولم ينطقوا بشيء مع علمهم واعتقادهم أن الصورة التي هي تخاطيط لا تجوز على الله عز وجل ولا التغير، وهذان أصلان لا بد من

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٦، ص ٣٢٩).

(٢) ابن القاسم، عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي المصري، أبو عبد الله، فقيه، جمع بين الزهد والعلم، وتفقه بالإمام مالك ونظرائه. له: «المدونة» وهي من أجل كتب المالكية، رواها عن الإمام مالك. مولده ووفاته بمصر. ولد سنة ١٣٢هـ، وتوفي سنة ١٩١هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ٣٢٣).

(٣) ابن بطَّال، شرح صحيح البخاري، (ج ١٠، ص ٤٦٢).

(٤) سورة النحل، آية ٢٦.

(٥) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (ج ١، ص ٧٦٥).

اعتقادهما، التخاطيط لا تكون إلا في الأجسام، والتغير لا يصلح أن يطرأ على الإله، فإن الخليل عليه السلام عاب النجم بالأفول فقال ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾^(١)، لأنه علم أن ما يطرقة التغير لا يصلح أن يكون معبوداً.

وقال محمد بن خليفة الوشتاني الأبي في شرحه على صحيح مسلم المسمى «إكمال إكمال المعلم»^(٢) ما نصه: «قلت قال في الإرشاد:... وأنت تعرف أن الإتيان حركة وانتقال، والصورة تُشعر بالتركيب، وكلُّ على الله سبحانه محال»، وقال^(٣): «وقد جهل من لم يحصل كلامه ممن تقدم فأثبت صورة لا كالصور وهذا تناقض وتجسيم».

وقال بدر الدين العيني الحنفي في كتابه «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»^(٤): «فإن قلت: لا بد للرؤية من المواجهة والمقابلة وخروج الشعاع من الحدقة إليه وانطباع صورة المرئي في حدقة الرائي ونحوها، مما هو محال على الله تعالى، قلت: هذه شروط عادية لا عقلية يمكن حصولها بدون هذه الشروط عقلاً» ثم قال^(٥): «قال ابن الجوزي: معنى الخبر يأتيهم الله بأهوال يوم القيامة».

وكذا قال محمد بن يوسف الكرمانى في كتابه «شرح الكرمانى على صحيح البخاري»^(٦).

(١) سورة الأنعام، آية ٧٦.

(٢) الأبي، إكمال إكمال المعلم، (ج ١، ص ٥٥٧).

(٣) الأبي، إكمال إكمال المعلم، (ج ١، ص ٥٥٩).

(٤) العيني، عمدة القاري، (ج ٢٥، ص ١٨٥).

(٥) العيني، عمدة القاري، (ج ٢٥، ص ٢٠٥).

(٦) الكرمانى، شرح الكرمانى على صحيح البخاري، (ج ١٢، ص ٣١٣).

فلا يسع المبتدع المعاند الجاهل الذي ينكر رؤية الله تعالى للمؤمنين في الآخرة بعد هذا البيان الشامل الذي أظهرنا فيه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال التابعين والعلماء العاملين إلا أن يتقي الله سبحانه وتعالى ويرجع عن اعتقاده الذي خالف فيه القرآن والحديث وإجماع الأمة الإسلامية إلى ما ورد فيه القرآن الكريم بالنص الصريح ﴿وَجُوهٌ يَّوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾^(١).



(١) سورة القيامة، آية ٢٢، ٢٣.

المبحث الخامس والأربعون

تأويل قوله تعالى

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (٢٦) (١)

كان هذا والله أعلم يخرج جواباً على أثر قول قاله الكفرة برسول الله ﷺ على ما ذكره بعض أهل التأويل، فقالوا: ما يستحي ربك أن يذكر البعوض والذباب ونحوها مما يصغر في نفسه، وملوك الأرض لا يذكرون ذلك، ويستحيون؟

فقال الله عز وجل لا يستحيي عن ذلك، لأن الأعجوبة في الدلالة على وحدانية الله تعالى وربوبيته في خلق الصغير من الجثة والجسم أكبر من الكبار منها العظام لأن الخلائق لو اجتمعوا على تصوير صورة من نحو البعوض والذباب، وتركيب ما يحتاج إليه من الفم والأنف والرجل واليد والمدخل والمخرج ما قدروا.

فأولئك لم ينظروا لما فيه من الأعجوبة واللطافة، ولكن نظروا للحقارة والخساسة أنفة منهم وانكفافاً.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى لا يترك ولا يدع بيان الحق من أجل قولكم. وقد قال القرطبي (٢): «واختلف المتأولون في معنى ﴿يَسْتَحْيِي﴾ في هذه

(١) سورة الرعد، آية ٢.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١، ص ٢٤٢).

الآية فقيل: لا يخشى، ورجحه الطبري، وفي التنزيل: ﴿وَتَخَشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَهُ﴾ (٣٧) (١) بمعنى تستحي. وقال غيره: لا يترك. وقيل: لا يمتنع.

وأصل الاستحياء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفا من واقعة القبيح، وهذا محال على الله تعالى. وفي صحيح مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أم سليم إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق (٢). المعنى لا يأمر بالحياء فيه، ولا يمتنع من ذكره.

وقال عند قوله تعالى ﴿إِنَّ ذَالِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ (٥٣) (٣): «أي لا يمتنع من بيانه وإظهاره، ولما كان ذلك يقع من البشر لعله الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر» (٤).

معناه لا يأمر عباده بالحياء في الحق أي لا ينبغي لهم أن يُحجموا ويمتنعوا عن بيان الحق بسبب الحياء من الناس وإن حصل منهم ذلك، فهو حياءٌ مذمومٌ قبيحٌ نهى الشرع عنه لأنه يترتب على ذلك كتمان الحق وترك الناس على جهلهم وعدم إنقاذهم وهذا لا يُحبّه الله ولا يأمر به، والحياء الممدوح المطلوب شرعاً هو الحياء الذي يحجز صاحبه ويمنعه عن المُحرّمات والردائل والقبائح.

(١) سورة الأحزاب، آية ٣٧.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما لا يستحي من الحق للفقهاء في الدين، (ج ٥، ص ٢٢٦٨)، حديث ٥٥٧٠.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٥٣.

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١، ص ٢٤٢).

وقال ابن عاشور^(١): «إن الله لا يستحي من الحق^(٢)، أنه لا يستحي لبيانه وإعلانه. وقد أفاد قوله «والله لا يستحي من الحق» أن من واجبات دين الله على الأمة أن لا يستحي أحد من الحق الإسلامي في إقامته، وفي معرفته إذا حل به ما يقتضي معرفته، وفي إبلاغه وهو تعليمه، وفي الأخذ به».

وقال الماوردي^(٣): «قوله ﴿لَا يَسْتَحِي﴾ فيها ثلاثة تأويلات:

أحدها: معناه لا يترك.

والثاني: يريد، لا يخشى.

والثالث: لا يمتنع، وهذا قول المفضل».

وقال البيهقي: «قال أبو الحسن بن مهدي فيما كتب لي أبو نصر بن قتادة من كتابه: قوله: «إن الله لا يستحي»^(٤)، أي لا يترك لأن الحياء سبب للترك، ألا ترى أن المعصية تترك للحياء كما تترك للإيمان، لا على معنى الاستحياء الذي يعرض للمخلوقين، تعالى الله سبحانه».

وقال أيضًا في حديث رسول الله ﷺ «فاستحي الله منه»^(٥) ما نصه: «أي جازاه على استحيائه بأن ترك عقوبته على ذنوبه».

(١) ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، (ج ٢٢، ص ٣٢٥).

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما لا يستحي من الحق للفقهاء في الدين، (ج ٥، ص ٢٢٦٨)، حديث ٥٥٧٠.

(٣) الماوردي، النكت والعيون، (ج ١، ص ٨٧).

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما لا يستحي من الحق للفقهاء في الدين، (ج ٥، ص ٢٢٦٨)، حديث ٥٥٧٠.

(٥) ابن حبان، صحيح ابن حبان، (ج ١، ص ٢٩٩).

قال ابن فورك^(١): «اعلم أن وصف الله تعالى بالحياء على معنى ما يوصف المخلوق من الحياء الذي منه انقباض وتغير وتجمع لا يجوز، لاستحالة كونه جسمًا متغيرًا تحله الحوادث، وأما أن يوصف بالحياء على معنى الترك فصحيح، وقد عبرت العرب عن سبب الشيء باسمه، والاستحياء من الله تعالى الترك لأن المستحي يترك للحياء أشياء كما يترك للإيمان وينقطع بالحياء عن المعاصي، كما ينقطع بالإيمان عنها».



(١) ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص ١٣٥، ١٣٦).

المبحث السادس والأربعون

تأويل قوله تعالى

﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١)

اعلم وفقك الله أن ربنا عز وجل ليس متحيزًا بمكان ولا ينتقل من جهة إلى أخرى.

واعلم أن قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٢) ليس معناه أن الله تعالى محيط بالكافرين إحاطة مكان، حاشاه، فالله تعالى منزه عن الحلول في المكان.

وفي الآية عدة أقوال:

أحدها: أنه لا يفوته أحدٌ منهم، فهو جامعهم يوم القيامة. ومثله قوله تعالى ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٣)، قاله مجاهد.

والثاني: أن الإحاطة: الإهلاك، مثل قوله تعالى ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾^(٤).
والثالث: أنه لا يخفى عليه ما يفعلون.

وقال الشنقيطي في تفسير هذه الآية^(٥): «قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١٩)، قال بعض العلماء: ﴿مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(١٩): أي مهلكهم،

(١) سورة البقرة، آية ١٩.

(٢) سورة البقرة، آية ١٩.

(٣) سورة الطلاق، آية ١٢.

(٤) سورة الكهف، آية ٤٢.

(٥) الشنقيطي، المسمى أضواء البيان، (ج ٣، ص ١٣).

ويشهد لهذا القول قوله تعالى: ﴿لَتَأْتُنِّي بِهِ إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾^(١)، أي تهلكوا عن آخركم».

وقد ذكر القرطبي رحمه الله في كتابه «الجامع لأحكام القرآن» آيات قريبة لهذه الآية، فقال ما نصه^(٢): «قوله تعالى: ﴿وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ﴾^(٣). وأصله محيط، نقلت حركة الياء إلى الحاء فسكنت. فالله سبحانه محيط بجميع المخلوقات علمًا، أي هي في قبضته وتحت قهره، كما قال: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾^(٤). وقيل: ﴿مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي عالم بهم. دليله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(٥). وقيل: مهلكهم وجامعهم. دليله قوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾^(٦)، أي إلا أن تهلكوا جميعًا. وخص الكافرين بالذكر لتقدم ذكرهم في الآية».

وقال السيوطي في تفسير هذه الآية ما نصه^(٧): «﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٨) قال: جامعهم في جهنم».

وقال النيسابوري^(٩): «﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾^(٩)، أي عالم بهم، يدل عليه

(١) سورة يوسف، آية ٦٦.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١، ص ٢٢١).

(٣) سورة الكهف، آية ٤٢.

(٤) سورة الزمر، آية ٦٧.

(٥) سورة الطلاق، آية ١٢.

(٦) سورة يوسف، آية ٦٦.

(٧) السيوطي، الدر المنثور، (ج ١، ص ٧٥).

(٨) سورة البقرة، آية ١٩.

(٩) النيسابوري، الكشف والبيان، (ج ١، ص ١٦٤).

قوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾^(١). وقيل: معناه: والله مهلكهم وجامعهم، دليله قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾^(٢): أي تهلكوا جميعًا.

وأما قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾^(٣) فيه تهديد ووعد، يعني أنه تعالى عالم بجميع الأشياء، لا يخفى عن علمه شيء لأنه محيط بأعمال العباد كلها، فيجازي المحسنين، ويعاقب المسيئين^(٤).

وقوله تعالى ﴿قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾^(٥) فيه قولان:

أحدهما: أحاط بها علما أنها ستكون من فتوحكم.

والثاني: حفظها لكم ومنعها من غيركم حتى فتحتموها^(٦).

وقد قال البغوي في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾^(٧) ما نصه: «أي عالمٌ بهم لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، يقدر أن ينزل بهم ما أنزل بمن كان قبلهم».

فبعد ما تبين لك أيها القارئ من تفاسير، يظهر لك جلياً أن إحاطة الله بخلقه إحاطة علم لا إحاطة مكان، والله الموفق للصواب.

(١) سورة الطلاق، آية ١٢.

(٢) سورة يوسف، آية ٦٦.

(٣) سورة الأنفال، آية ٤٧.

(٤) الخازن، المسمى لباب التأويل، (ج ٣، ص ٤٠).

(٥) سورة الفتح، آية ٢١.

(٦) ابن الجوزي، زاد المسير، (ج ٤، ص ٤٣٦).

(٧) سورة البروج، آية ٢٠.

(٨) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٨، ص ٣٨٩).

المبحث السابع والأربعون

تأويل قوله تعالى

﴿إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُم بِهَا﴾^(١)

قال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية ما نصه: «قوله تعالى ﴿نِعْمًا يَعِظُكُم بِهَا﴾^(٢) يقول: نعم الشيء يعظكم به»^(٣).

وقال أبو حيان في «تفسير البحر المحيط»^(٤): «أصله نعم ما، وما معرفة تامة على مذهب سيبويه والكسائي، كأنه قال نعم الشيء يعظكم به ويعظكم صفة لشيء، وشيء هو المخصوص بالمدح، وموصولة على مذهب الفارسي في أحد قوليه، والمخصوص محذوف، التقدير: نعم الذي يعظكم به تأدية الأمانة».

وكذا أشار إلى ذلك الرازي قائلاً^(٥): «أي نعم الشيء يعظكم به، أو نعم الذي يعظكم به، والمخصوص بالمدح محذوف، أي نعم الشيء يعظكم به ذاك، وهو المأمور به من أداء الأمانات والحكم بالعدل».

(١) سورة النساء، آية ٥٨.

(٢) سورة النساء، آية ٥٨.

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير، (ج ٢، ص ١١٥).

(٤) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج ٢، ص ٢٧٧).

(٥) الرازي، التفسير الكبير، (ج ١، ص ١٤٢).

المبحث الثامن والأربعون تأويل قوله تعالى

﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴿٦٤﴾﴾^(١)

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴿٦٤﴾﴾^(٢)، نزلت هذه الآية في فنحاص اليهودي. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن الله قد بسط على اليهود حتى كانوا أكثر الناس أموالاً وأخصبهم ناحية، فلما عصوا الله ومحمدًا ﷺ وكذبوا به، كف عنهم ما بسط عليهم من السعة. فعند ذلك قال فنحاص: يد الله مغلولة، يعني محبوسة مقبوضة عن الرزق والبذل والعطاء. فنسبوا الله تعالى إلى البخل والقبض، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ولما قال هذه المقالة الخبيثة فنحاص ولم ينهه بقية اليهود ورضوا بقوله لا جرم أن الله تعالى أشركهم معه في هذه المقالة فقال تعالى إخباراً عنهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴿٦٤﴾﴾، يعني نعمته مقبوضة عنا^(٣).

وقوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴿٦٤﴾﴾^(٤)، يعني أنه تعالى جواد كريم ينفق كيف يشاء، وهذا جواب لليهود ورد عليهم على ما افتروه على الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، وإنما أجيوا بهذا الجواب على قدر كلامهم^(٥).

(١) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٢) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٣) الخازن، تفسير الخازن، (ج ٢، ص ٧٠).

(٤) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٥) الخازن، تفسير الخازن، (ج ١، ص ٤٧٧، ٤٧٨).

وقال أبو حيان: «معتقد أهل الحق أن الله تعالى ليس بجسم، ولا جارحة له، ولا يُشَبَّهُ بشيء من خلقه، ولا يكيّف، ولا يتحيّز، ولا تحلّه الحوادث، وكل هذا مقرر في علم أصول الدين. والجمهور على أن هذا استعارة عن جوده وإنعامه السابغ، وأضاف ذلك إلى اليدين جاريًا على طريقة العرب في قولهم: فلان ينفق بكلتا يديه.

ومنه قوله:

يداك يدا مجد فكف مفيدة وكفّ إذا ما ضنّ بالمال تنفُّ
ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق. ومن نظر في كلام العرب عرف يقينًا أن بسط اليد وقبضها استعارة للجود والبخل، وقد استعملت العرب ذلك حيث لا يكون، قال الشاعر:

جاد الحمى بسط اليدين بوابل شكرت نداه تلاعه ووهاده
وقال لبيد:

وغداة ريح قد وزعت وقرة قد أصبحت بيد الشمال زمامها
ويقال: بسط اليأس كفه في صدري، واليأس معنى لا عين وقد جعل له كفاً.
وقد قيل: ومن لم ينظر في علم البيان عمي عن تبصر محجة الصواب في تأويل أمثال هذه الآية، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا عبث به.

ثم قال: فإن قلت: لم تُثبِتَ اليد في ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (٦٤) وهي مفردة في قولهم يد الله مغلولة؟

(١) سورة المائدة، آية ٦٤.

قلت: ليكون رد قولهم وإنكاره أبلغ وأدل على إثبات غاية السخاء له ونفي البخل عنه، وذلك أن غاية ما يبذله السخيُّ بماله من نفسه أن يعطيه بيديه جميعاً، فبني المجاز على ذلك انتهى. وكلامه في غاية الحسن.

وقيل عن ابن عباس: يده نعمته، فقيل: هما مجازان عن نعمة الدين ونعمة الدنيا، أو نعمة سلامة الأعضاء والحواس ونعمة الرزق والكفاية، أو الظاهرة والباطنة، أو نعمة المطر ونعمة النبات، وما ورد مما يوهم التجسيم كهذا. وقوله: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٧٥) (١)، و﴿مِمَّا عَمِلْتُ أَيِّدِينَ﴾ (٧١) (٢)، و﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (١٠) (٣)، و﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْتِي﴾ (٣٩) (٤)، و﴿تُجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾ (١٤) (٥)، و﴿هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (٨٨) (٦) ونحوها. فجمهور الأمة أنها تفسر على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين الكلام (٧).

وقال ابن عطية في تفسيره (٨): «وقوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ (٦٤) (٩) العقيدة في هذا المعنى نفي التشبيه عن الله تعالى. وأنه ليس بجسم ولا جارحة ولا يُشَبَّه ولا يَكَيَّف ولا يَتَحَيَّز في جهة كالجواهر، ولا تحله الحوادث، وتعالى عما يقول المبطلون».

(١) سورة ص، آية ٧٥.

(٢) سورة يس، آية ٧١.

(٣) سورة الفتح، آية ١٠.

(٤) سورة طه، آية ٣٩.

(٥) سورة القمر، آية ١٤.

(٦) سورة القصص، آية ٨٨.

(٧) أبو حيان، تفسير البحر المحيط، (ج ٣، ص ٤١٩، ٤٢٠).

(٨) ابن عطية، المحرر الوجيز، (ج ٤، ص ٥٠٩).

(٩) سورة المائدة، آية ٦٤.

وللرازي في تأويل هذه الآية كلامٌ، فقال ما نصه: «واعلم أن الكلام في هذه الآية من المهمات، فإن الآيات الكثيرة من القرآن ناطقة بإثبات اليد، فتارةً المذكور هو اليد من غير بيان العدد. قال تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾^(١) وتارةً بإثبات اليدين لله تعالى: منها هذه الآية، ومنها قوله تعالى لإبليس الملعون ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾^(٢)، وتارةً بإثبات الأيدي. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا﴾^(٣).

إذا عرفت هذا فنقول اختلفت الأمة^(٤) في تفسير يد الله تعالى، فقالت المجسمة: إنها عضو جسماني كما في حق كل أحد، واحتجوا عليه بزعمهم بقوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَّهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾^(٥) وجه الاستدلال أنه تعالى قدح في إلهية الأصنام أي المزعومة عند المشركين لأجل أنها ليس لها شيء من هذه الأعضاء، فلو لم تحصل لله هذه الأعضاء لزم القدح في كونه إلهًا، ولما بطل ذلك وجب إثبات هذه الأعضاء له، قالوا: وأيضًا اسم اليد موضوع لهذا العضو، فحمله على شيء آخر ترك للغة، وإنه لا يجوز.

(١) سورة الفتح، آية ١٠.

(٢) سورة ص، آية ٧٥.

(٣) سورة يس، آية ٧١.

(٤) مراده أمة الدعوة الذين أرسل إليهم النبي، وليست أمة الإجابة لأن الذين استجابوا للرسول وعامنوا بما جاء به هم منزهون لله عن الجسمية وعن صفاتها، وهم أمة الإجابة، والمجسمة كفارٌ فليسوا أتباعًا للنبي ولا آمنوا بالله وبرسوله.

(٥) سورة الأعراف، آية ١٩٥.

واعلم أن الكلام في إبطال هذا القول مبني على أنه تعالى ليس بجسم، والدليل عليه أن الجسم لا ينفك عن الحركة والسكون، وهما محدثان، وما لا ينفك عن المحدث فهو محدث، ولأن كل جسم فهو متناه في المقدار، وكل ما كان متناهياً في المقدار فهو محدث، ولأن كل جسم فهو مؤلف من الأجزاء، وكل ما كان كذلك كان قابلاً للتركيب والانحلال، وكل ما كان كذلك افتقر إلى ما يركبه ويؤلفه، وكل ما كان كذلك فهو محدث، فثبت بهذه الوجوه أنه يمتنع كونه تعالى جسمًا، فيمتنع أن تكون يده عضوًا جسمانيًا. وأما جمهور الموحدين فلهم في لفظ اليد قولان:

الأول: قول من يقول: القرءان لما دلّ على إثبات اليد لله تعالى آمننا به، والعقل لما دل على أنه يمتنع أن تكون يد الله عبارة عن جسم مخصوص وعضو مركب من الأجزاء والأبعاض آمننا به، فأما أن اليد ما هي وما حقيقتها فقد فوضنا معرفتها إلى الله تعالى، وهذا هو طريقة السلف^(١).

وأما المتكلمون فقالوا: اليد تذكر في اللغة على وجوه:

أحدها: الجارحة وهو معلوم أي في حق المخلوق -.

وثانيها: النعمة، تقول: لفلان عندي يد أشكره عليها.

وثالثها: القوة قال تعالى ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾^(٢) فسروه بذوي القوى والعقول، وحكى سيبويه أنهم قالوا: لا يد لك بهذا، والمعنى سلب كمال القدرة.

(١) الرازي، تفسير الرازي، (ج ١٢، ص ٤٣).

(٢) سورة ص، آية ٤٥.

ورابعها: الملك، يقال: هذه الضيعة في يد فلان، أي في ملكه. قال تعالى: ﴿الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الرِّجَالِ﴾^(١) أي يملك ذلك.

وخامسها: شدة العناية والاختصاص. قال تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾^(٢) والمراد تخصيص آدم عليه السلام بهذا التشريف، فإنه تعالى هو الخالق لجميع المخلوقات. ويقال: يدي لك رهن بالوفاء إذا ضمن له شيئاً. إذا عرفت هذا فنقول: اليد في حق الله يمتنع أن تكون بمعنى الجارحة، وأما سائر المعاني فكلها حاصلة^(٣).

وقال البغوي: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٤) ويد الله صفة من صفات ذاته كالسمع والبصر والوجه، وقال جل ذكره ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾^(٥)، وقال ﷺ: «كلتا يديه يمين»^(٥) والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم.

وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: «أمروها كما جاءت بلا كيف»^(٦).

وقال الحافظ ابن حجر^(٧): «وقع ذكر اليد في القرآن والحديث مضافاً إلى الله تعالى، واتفق أهل السنة والجماعة على أنه ليس المراد باليد الجارحة التي هي من صفات المحدثات، وأثبتوا ما جاء من ذلك وآمنوا به».

(١) سورة البقرة، آية ٢٣٧.

(٢) سورة ص، آية ٧٥.

(٣) الرازي، تفسير الرازي، (ج ٦، ص ١٠٦).

(٤) سورة المائدة، آية ٦٤.

(٥) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٠، ص ٢٠١).

(٦) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٢، ص ٥٠).

(٧) ابن حجر، فتح الباري، (ص ٢٠٨).

المبحث التاسع والأربعون

تأويل قوله تعالى

﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ﴾ (١)

ليعلم أنه لا يجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ محتجبًا ولا محجوبًا لاستحالة كونه جوهرًا أو جسمًا محددًا لأن ما يستره الحجاب أكبر منه، ويكون متناهيًا محاذيًا جائزًا عليه المماسة والمفارقة، وما كان كذلك كانت علامات الحدث منه قائمة، وذلك أن الموحدین إنما توصلوا إلى العلم بحدث الأجسام من حيث وجدوها متناهية محدودة محلًّا للحوادث فكان تعاقبها عليها دليلًا على حدثها.

وقال ابن عجيبة^(٢): «﴿كَلَّا﴾ ردعٌ وزجرٌ عن الكسب الرائن، ﴿إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَّحْجُوبُونَ﴾ (٣) لَمَّا رانت قلوبهم في الدنيا حجبوا عن الرؤية في الآخرة، بخلاف المؤمنين».

وقال القرطبي ما نصه^(٤): «قال الشافعي: لما حجب قوما بالسخط، دل على أن قوماً يرونه بالرضا.. وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿لَمَّحْجُوبُونَ﴾ أي عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته،

(١) سورة المطففين، آية ١٥ .

(٢) ابن عجيبة، البحر المديد، (ج ٤، ص ٧٧).

(٣) سورة المطففين، آية ١٥ .

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٩، ص ٢٥٩).

ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم. وعلى الأول الجمهور، وأنهم محجوبون عن رؤيته فلا يرونه».

وقال القرطبي ما نصه^(١): «وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿لَمَحْجُوبُونَ﴾: أي عن كرامته ورحمته ممنوعون. وقال قتادة: هو أن الله لا ينظر إليهم برحمته، ولا يزيكهم ولهم عذاب أليم. وعلى الأول الجمهور..».

وقال النيسابوري ما نصه^(٢): «﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾^(٣)، قال بعضهم: من كرامته ورحمته ممنوعون، وقال قتادة: هو أن لا ينظر إليهم [برحمته] ولا يزيكهم، وقال أكثر المفسرين: عن رؤيته، قال الحسين بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيد حجبهم في الآخرة عن رؤيته».



(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٩، ص ٢٦١).

(٢) النيسابوري، الكشف والبيان، (ج ١٠، ص ١٥٤).

(٣) سورة المطففين، آية ١٥.

المبحث الخمسون تأويل قوله تعالى

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(١)

البطش إنما يقع حقيقة في اليد ذات الطول والقوة والتحطيم، وهو هنا في هذه الآية ليس كذلك إذ لا يصدر عن يد، ولا يخرج من جارحة، فالله منزّه عن الجوارح. وقد قال ابن اللبان الشافعي في تفسير هذه الآية ما نصه^(٢): «من صفاته تعالى بطشه، قال تعالى ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(٣) إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ^(٤)»، ولا تشابه فيه لأن الآية الثانية تفسيرٌ للأولى، ولذلك جاء بها على وجه البدل من غير عطفٍ تنبيهاً على أن بطشه عبارة عن تصرفه في بدئه وإعادته، وما من شيء من الكائنات جواهرها وأعضائها إلا وهي مفتقرة إلى بدئه وإعادته، فبطشه سبحانه اسمٌ شاملٌ لجميع تصرفه في مخلوقاته بدءاً وإعادةً».

وقال النيسابوري في معنى البطش أي أخذه بالعذاب والانتقام^(٤)، وكذا ابن عادلٍ الدمشقي.

ونقل السمرقندي في تفسير هذه الآية أن عذاب ربك لشديد، وهذا قول مقاتل، وقال الكلبي: إن أخذ ربك لشديد وهذا ما قال به أبو حيان الأندلسي

(١) سورة البروج، آية ١٢.

(٢) ابن اللبان، إزالة الشبهات، (ص ٧٧).

(٣) سورة البروج، آية ١٢، ١٣.

(٤) النيسابوري، الكشف والبيان، (ج ١٠، ص ١٧٥).

في «تفسير البحر المحيط»^(١) ومعناها واحد. ويقال: العقوبة الشديدة، وهذا موضع هذا القسم^(٢).

وقال البغوي: «قال ابن عباس: إن أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد، كقوله: «إن أخذه أليم شديد»^(٣).

وقال الخازن: «قوله عز وجل: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾^(٤)، قال ابن عباس إن أخذه بالعذاب إذا أخذ الظلمة لشديد»^(٥).



(١) أبو حيان الأندلسي، تفسير البحر المحيط، (ج ٨، ص ٤٤٥).

(٢) السمرقندي، بحر العلوم، (ج ٤، ص ٣٩٢).

(٣) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٨، ص ٣٨٨).

(٤) سورة البروج، آية ١٢، ١٣.

(٥) الخازن، تفسير الخازن.

المبحث الحادي والخمسون

تأويل قوله تعالى

﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَحْسَرْتَنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(١)

هذه الآية إخبارٌ عن حال المقصر المفرط في حق الله وفي أوامره الذي ضيَّع الحقوق وأهمَل الواجبات وارتكب المحرمات وأنه يخبر عن حسرته على ذلك ويعبّر عن ندمه وألمه.

وقد قال القرطبي في تفسير هذه الآية ما نصه: «﴿يَحْسَرْتَنِي﴾^(٢) والحسرة الندامة ﴿فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٣)، قال الحسن: في طاعة الله. وقال الضحاك: أي في ذكر الله عز وجل. قال: يعني القراءان والعمل به. وقال أبو عبيدة: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٤) أي في ثواب الله.. وقال الزجاج: أي على ما فرطت في الطريق الذي هو طريق الله الذي دعاني إليه. والعرب تسمي السبب والطريق إلى الشيء جنبًا؛ تقول: تجرعت في جنبك غصصًا أي لأجلك وسببك ولأجل مرضاتك. وقيل: ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٤) أي في الجانب الذي يؤدي إلى رضا الله عز وجل وثوابه، والعرب تسمي الجانب جنبًا، قال الشاعر:

(١) سورة الزمر، آية ٥٦.

(٢) سورة الزمر، آية ٥٦.

(٣) سورة الزمر، آية ٥٦.

(٤) سورة الزمر، آية ٥٦.

قسم مجهودا لذلك القلب الناس جنب والأمير جنب
يعني الناس من جانب والأمير من جانب. وقال ابن عرفة^(١): أي تركت من
أمر الله؛ يقال ما فعلت ذلك في جنب حاجتي؛ قال كثير:
ألا تتقين الله في جنب عاشق له كبد حرى عليك تقطع
وكذا قال مجاهد أي ضيعت من أمر الله^(٢).

وقال ابن عطية^(٣): «﴿فَرَطْتُ﴾ معناه قصرت في اللازم.
وقوله ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٤) معناه: في مقاصدي إلى الله وفي جهة
طاعته، أي في تضييع شريعته والإيمان به، والجنب يعبر به عن هذا ونحوه،
ومنه قول الشاعر:

أفي جنب بكر قطعني ملامة لعمرى لقد طالت ملامتها بيا
ومنه قول الشاعر:

قسم مجهودًا لذلك القلب الناس جنب الأمير والأمير جنب». .
وقال البغوي في تفسيره: «﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ قال الحسن: قصرت في
طاعة الله. وقال مجاهد: في أمر الله. وقال سعيد بن جبير: في حق الله..

(١) ابن عرفة، محمد بن محمد بن عرفة الورغمي، أبو عبد الله. إمام تونس وعالمها وخطيبها
في عصره. مولده ووفاته فيها. تولى إمامة الجامع الأعظم وقدم لخطابته وللفتوى، من كتبه:
«المختصر الكبير»، في فقه المالكية، و«المختصر الشامل»، في التوحيد. نسبه إلى ورغمة،
قرية بإفريقية. ولد سنة ٧١٦هـ، وتوفي سنة ٨٠٣هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٧، ص ٤٣).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٥، ص ٢٧١).

(٣) ابن عطية، المحرر الوجيز، (ج ١٢، ص ٥٦).

(٤) سورة الزمر، آية ٥٦.

وقيل: قصرت في الجانب الذي يردني إلى رضا الله^(١).

وقال أيضاً النيسابوري في تفسير هذه الآية ما نصه^(٢): ﴿عَلَى مَا فَرَّطْتُ﴾
قَصَّرْتُ، ﴿فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٣)، قال الحسن: في طاعة الله. وقال سعيد بن
جبير: في حق الله في أمر الله. قاله مجاهد. قال أهل المعاني: هذا كما يقال
هذا صغير في جنب ذلك الماضي، أي في أمره.

فقول الحسن هذا قاله النيسابوري والبيضاوي^(٤) والسمرقندي^(٥) وغيرهم.
وجاء في «الدر المنثور» للسيوطي أنه قال: «عن مجاهد في قوله تعالى
﴿يَحْسُرُنِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(٦) قال: في ذكر الله، أخرجه آدم
ابن أبي إياس وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في «الأسماء
والصفات»^(٧).

وقال قتادة: معناه على ما ضيع من طاعة الله، أخرجه عبد بن حميد، وابن
جرير كذا في «الدر المنثور».

قال ابن جرير الطبري: «يقول على ما ضيعت من العمل بما أمرني الله به
وقصرت في الدنيا في طاعة الله، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل،

(١) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٤، ص ٨٥).

(٢) النيسابوري، الكشف والبيان، (ج ٨، ص ٢٤٦).

(٣) سورة الزمر، آية ٥٦.

(٤) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، (ج ٣، ص ٢٧٨).

(٥) السمرقندي، بحر العلوم، (ج ٤، ص ٤٣).

(٦) سورة الزمر، آية ٥٦.

(٧) السيوطي، الدر المنثور، (ج ٧، ص ٢٤١).

ثم روي بإسناده عن مجاهد في قوله في جنب الله يقول: في أمر الله»^(١).

وبهذا المعنى قال ابن جماعة في «إيضاح الدليل»^(٢).

قال الفخر الرازي: «القائلون بإثبات الأعضاء لله تعالى استدلوا بإثبات الجنب بزعمهم بهذه الآية، واعلم أن نفي الأعضاء قد كثرت.. وللمفسرين فيه عبارات، قال ابن عباس: يريد ضيعة في طاعة الله، وقال مقاتل: ضيعة من ذكر الله، وقال مجاهد: في أمر الله، وقال الحسن: في طاعة الله، وقال سعيد بن جبير: في حق الله»^(٣).



(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، (ج ٤، ١٤، ص ٩٧).

(٢) ابن جماعة، إيضاح الدليل، (ص ٦٦، ٧٦).

(٣) الفخر الرازي، تفسير الرازي، (ج ٦، ص ٢٧).

المبحث الثاني والخمسون

تاويل قوله تعالى

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١)

الضمير في قوله تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ يعود على المشركين، و﴿وَمَا قَدَرُوا﴾: أي ما عظموا، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته.

وقد قال ابن كثير في تفسير هذه الآية ما نصه^(٢): «وما قدر المشركون الله حق قدره، حين عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته. قال مجاهد: نزلت في قريش.

وقال السدي: ما عظموه حق عظمتهم.

وقال محمد بن كعب^(٣): لو قدروه حق قدره ما كذبوه.

(١) سورة الزمر، آية ٦٧.

(٢) ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج٧، ص ١١٣).

(٣) محمد بن كعب بن سليم القُرظي، الإمام، العلامة، الصادق، أبو حمزة وقيل أبو عبد الله، المدني، من حلفاء الأوس، حدث عن أبي أيوب الأنصاري، وأبي هريرة، ومعاوية، وزيد بن الأرقم، وابن عباس وغيرهم، وكان من أوعية العلم، روى عنه أخوه عثمان ويزيد بن الهاد، وأبو جعفر الخطمي، وأبو سبرة النخعي وخلق كثير. قال ابن سعد: «كان ثقةً، عالمًا، كثير الحديث، ورعًا». وزاد العجلي: «مدنيّ تابعيُّ رجل صالح، عالم بالقرآن». ولد محمد بن كعب في آخر خلافة عليّ، سنة ٤٠ هـ، وتوفي سنة ١٠٨ هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج٥، ص ٤٠-٤٢)، رقم الترجمة ٧٧٣.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما - : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(١) هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدره الله تعالى عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الكريمة، والطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

وقال الطبري في قوله تعالى^(٢): ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٧٤)، وجوه: قال ابن عباس: ما عظموا الله حق تعظيمه.

وروى عنه أيضاً أنه قال معناه: ما آمنوا إن الله على كل شيء قدير.

وقال أبو العالية: ما وصفوه حق صفته.

وقال الأخفش: ما عرفوه حق معرفته، وحقق الواحدي رحمه الله ذلك، فقال يقال: قدر الشيء إذا سبره وحرره، وأراد أن يعلم مقداره يقدره بالضم قدرًا ومنه قوله عليه السلام: «وإن غم عليكم فاقدروا له»^(٣) أي فاطلبوا أن تعرفوه هذا أصله في اللغة، ثم قال يقال لمن عرف شيئاً هو يقدر قدره، وإذا لم يعرفه بصفاته أنه لا يقدر قدره، فقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٧٤) صحيح في كل المعاني المذكورة.

(١) سورة الزمر، آية ٦٧.

(٢) الطبري، تفسير الطبري، (ج ١٤، ص ١١١).

(٣) رواه البخاري بلفظ: «فإن غم عليكم». البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ومن رأى كله واسعاً، (ج ٢، ص ٦٧٢)، حديث ١٨٠١.

المبحث الثالث والخمسون تأويل قوله تعالى

﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾^(١)

ليعلم أن معنى كلمة نَعَبْدُ في أصل اللغة أي نأنف ونغضب^(٢) كما قال ذلك الرازي في «مختار الصحاح»، فمعنى ﴿أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ أي فأنا أول الجاحدين كما مشى على ذلك الأئمة المفسرون.

وقد قال الطبري في تفسير هذه الآية ما نصه^(٣): «قول الله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾^(٤) قال: هذا قول العرب معروف، إن كان: ما كان، إن كان هذا الامر قط».

ثم قال ما نصه^(٥): «اختلف أهل التأويل في تأويل قوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾^(٦) فقال بعضهم: في معنى ذلك: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ في قولكم وزعمكم أيها المشركون، فأنا أول المؤمنين بالله في تكذيبكم، والجاحدين ما قلت من أن له ولدا».

(١) سورة الزخرف، آية ٨١.

(٢) الرازي، مختار الصحاح، (ص ١٧٣).

(٣) الطبري، جامع البيان، (ج ٢٠، ص ١٤٢).

(٤) سورة الزخرف، آية ٨١.

(٥) الطبري، جامع البيان، (ج ٢٠، ص ١٤٠، ١٤١).

(٦) سورة الزخرف، آية ٨١.

عن مجاهد، في قوله تعالى: ﴿فَأَنَا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ﴾^(١)، قال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾^(١) في قولكم، فأنا أول من عبد الله ووحده وكذبكم. وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل ما كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين له بذلك».

وقال الأخفش في «معاني القرآن» ما نصه^(٢): ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾^(١) أي ما كان للرحمن ولد، ﴿فَأَنَا أَوْلُ الْعَبِيدِينَ﴾^(١) من هذه الأمة للرحمن بنفي الولد عنه. أي: أنا أول العابدين بأنه ليس للرحمن ولد».

لذلك من المبطل للصلاة قراءة نعبد بفتح الباء فهو من اللحن المغير للمعنى، فلا تصح الصلاة إن لم يعد الكلمة على الصواب، وأما تعمدتها أي تعمد قراءتها بفتح الباء مع معرفة المعنى فهو كفرٌ لأن معنى نعبد نأنف ونغضب، فليحذر مما في كتاب «فتح العلام»^(٣) من أنه لا يبطل.



(١) سورة الزخرف، آية ٨١.

(٢) الأخفش، معاني القرآن، (ص ٢٤٤).

(٣) الجرداني، فتح العلام بشرح مرشد الأنام، (ج ٢، ص ٢٥٦).

المبحث الرابع والخمسون

تأويل قوله تعالى

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ
نُورَهُ ۗ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾^(١)

قال أبو عبد الله الخطيب الإسكافي في تفسير قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾^(٢) ما نصه^(٣): «إن الإرادة في الآية الأولى تعلقت بإطفاء نور الله بأفواههم، وإطفاء نور الله إنما هو بما حاولوه من دفع الحق بالباطل، والحق يسمى نور الله لأن حججه وبراهينه تضيء لطالبه فيهتدي بها إليه، والباطل هو قولهم بأفواههم، وهو ما أخبر الله تعالى به قبل عن اليهود والنصارى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾^(٤) ذلك قولهم بأفواههم^(٤) أي هو قول لا حقيقة له ولا محصول، وبمثله لا يدفع الحق وبالأفواه لا يطفأ هذا النور كما يطفأ السراج لأن هذا النور وإن أشبهه في أنه يهدي ويبين الحق من الباطل، فهو بخلافه في الامتناع من الإطفاء كما يتهياً ذلك في السراج، والنور يجوز أن تكون الآية المنيرة والحجة الساطعة ويجوز أن يكون المراد به القرءان ويجوز أن

(١) سورة التوبة، آية ٣٢.

(٢) سورة التوبة، آية ٣٢.

(٣) الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، (ص ١٠٦).

(٤) سورة التوبة، آية ٣٠.

يكون المراد به النبي ﷺ كما قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذِنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (٤٦)^(١) ، فالسراج المنير يُسَمَّى نورًا، وكل واحدٍ من الثلاثة إذا دفعوه جاز أن يقال حاولوا إطفاءه».

وقال البغوي في قوله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ (٣٢)^(٢) ما نصه^(٣): «أي: يبطلوا دين الله بألسنتهم وتكذيبهم إياه. وقال الكلبي: النور القراءان، أي: يريدون أن يردوا القراءان بألسنتهم تكذيبًا، ﴿وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ﴾ (٣٢)^(٤) أي: يعلي دينه ويظهر كلمته ويتم الحق الذي بعث به محمدا ﷺ ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢)^(٥)».



(١) سورة الأحزاب، آية ٤٥-٤٦.

(٢) سورة التوبة، آية ٣٢.

(٣) البغوي، تفسير البغوي، (ج ٤، ص ٣٩).

(٤) سورة التوبة، آية ٣٢.

(٥) سورة التوبة، آية ٣٢.

المبحث الخامس والخمسون تأويل قوله تعالى

﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١)

قال العلماء: الروح الذي نفخ في آدم عليه السلام كان خلقاً من خلق الله تعالى، جعل الله تعالى حياة الإسلام به وإنما أضافه إلى نفسه على طريق الخلق والملك لا أنه جزء منه وهو كقوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾^(٢).

وقوله في مريم ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾^(٣) يريد درع مريم عليها السلام وقوله ﴿فِيهَا﴾^(٤) يريد نفس مريم وذلك أن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إليها، وقوله ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ أي من نفخ جبريل عليه السلام^(٥).

وقد قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما^(٦): «خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها، فلما طهرت إذا هي برجلٍ معها وهو قوله

(١) سورة الحجر، آية ٢٩.

(٢) سورة الباقية، آية ١٣.

(٣) سورة التحريم، آية ١٢.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٩١.

(٥) القرطبي، صفات الله تعالى، (ص ١٣٢).

(٦) القرطبي، صفات الله تعالى، (ص ١٣٢).

عز وجل ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾^(١) وهو جبريل عليه السلام، ففزعته منه وقالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾^(٢) قال ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾^(٣) الآية. فخرجت وعليها جلبابها فأخذ بكمها فنفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قدامها فدخلت النفخة في صدرها فحملت».

قال بعض أهل التفسير: وقد يكون الروح بمعنى الرحمة، قال الله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾^(٤) أي قواهم برحمة منه.

وقال القرطبي في تفسيره ما نصه^(٥): ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي﴾^(٦) النفخ إجراء الريح في الشيء، والروح جسم لطيف أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة في البدن مع ذلك الجسم، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق فالروح خلق من خلقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً^(٧).

وقال أبو الليث السمرقندي في تفسير هذه الآية ما نصه^(٨): «قال أبو منصور أي جعلت الروح فيه».

(١) سورة مريم، آية ١٧.

(٢) سورة مريم، آية ١٨.

(٣) سورة مريم، آية ١٩.

(٤) سورة المجادلة، آية ٢٢.

(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٠، ص ٢٤).

(٦) سورة الحجر، آية ٢٩.

(٧) فأرواح الأنبياء أرواح مشرفة عند الله، أما أرواح الكفار فهي أرواح خبيثة.

(٨) أبو الليث السمرقندي، بحر العلوم، (ج ٢، ص ٢٥٥).

وقال الألوسي في تفسير الآية^(١): «أضاف سبحانه الروح إلى نفسه تشريةً لها وتعظيمًا لقدرها لما أنها سر خفي من أسرارهِ جَلَّ وعلا^(٢)».



(١) الألوسي، تفسير الألوسي، (ج ١٠، ص ١٥).

(٢) أي لا يعلم حقيقتها إلا الله.

المبحث السادس والخمسون

تاويل قوله تعالى

﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(١)

قال ابن جماعة بعد أن ساق عددًا من الآيات منها قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾^(٢)، وقوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(٣)، وقوله تعالى ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾^(٤)، وقوله تعالى ﴿أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾^(٥)، وقوله تعالى ﴿وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَكَابٍ﴾^(٦)، وقوله ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٧) ما نصه: «كل ذلك ليس المراد به عندية الجهة بل عندية الشرف والكرامة والإعانة والجبر واللطف، لا عندية الحيز والمكان، فإن كون الرب تعالى عند الإنسان باعتبار الجهة والمكان محالًا بالإجماع»^(٨).

وقال أبو حيان الأندلسي في تفسيره: «ومعنى العندية الزلفى والقرب منه تعالى بالمكانة لا بالمكان»^(٩).

(١) سورة الأعراف، آية ٢٠٦.

(٢) سورة الأعراف، آية ٢٠٦.

(٣) سورة البقرة، آية ٢٥٥.

(٤) سورة القمر، آية ٥٥.

(٥) سورة التحريم، آية ١١.

(٦) سورة ص، آية ٤٠.

(٧) سورة الأنبياء، آية ١٩.

(٨) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١١٢).

(٩) العراقي، طرح التثريب في شرح التقريب، (ج ٨، ص ٨٤).

وقال الرازي: «قوله تعالى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾^(١)، وهذه العندية ليست عندية المكان مثل قوله ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢) وليست عندية الجهة بدليل قوله: «أنا عند المنكسرة قلوبهم» بل عندية الإكرام والتشريف والتعظيم»^(٣).

وروى النسائي أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِأَلْفِي سَنَةٍ فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَإِنَّهُ أَنْزَلَ مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابَ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ»^(٤)، وفي لفظ لمسلم: «فهو موضوعٌ عنده»^(٥).

وقد قال الحافظ المجتهد عبد الله الهرري في تفسير كلمة ﴿عِنْدَ﴾ ما نصه: «عند» للتشريف ليس لإثبات تحيز الله فوق العرش لأن «عند» تستعمل لغير المكان قال الله تعالى ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾^(٦) مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ^(٧)، إنما تدل «عند» هنا أن ذلك بعلم الله وليس المعنى أن تلك الحجارة مجاورة لله تعالى في المكان. فمن يحتج بمجرد كلمة عند لإثبات المكان والتقارب بين الله وبين خلقه فهو من أجهل الجاهلين، وهل يقول عاقل إن تلك الحجارة التي

(١) سورة التكويد، آية ٢٠.

(٢) سورة الأنبياء، آية ١٩.

(٣) الرازي، مفاتيح الغيب، (ج ٣١، ص ٦٨).

(٤) النسائي، السنن الكبرى، كتاب عمل اليوم والليلة، باب ٢٢٨.

(٥) مسلم، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله، (ج ٨، ص ٩٦).

(٦) سورة هود، آية ٨٢، ٨٣.

أنزلها الله على أولئك الكفرة نزلت من العرش إليهم وكانت مكومةً بمكان
في جنب الله فوق العرش»^(١).



(١) الهري، الشرح القويم، (ص ١٥٥، ١٥٦).

المبحث السابع والخمسون

تأويل قوله تعالى

﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾^(١)

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولًا رجل يخرج من النار حبواً فيقول الله: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى فيرجع فيقول: يا رب وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة، فيأتيها فيخيل إليه أنها ملأى، فيرجع فيقول: يا ربي وجدتها ملأى، فيقول: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إن لك مثل عشرة أمثال الدنيا، فيقول: تسخر مني أو تضحك مني وأنت الملك». فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه وكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة^(٢).

نقل القرطبي جملة من أقوال المفسرين للآية، ومما نقل قوله: «وقال آخرون: قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾^(٣) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ^(٤)»، وقوله: ﴿يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾^(٥)»، وقوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾^(٦)»، ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٦) وما أشبه ذلك إخبار من الله أنه

(١) سورة التوبة، آية ٧٩.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب صفة الجنة والنار، (ج ٥، ص ٢٤٠٢).

(٣) سورة البقرة، آية ١٤، ١٥.

(٤) سورة النساء، آية ١٤٢.

(٥) سورة التوبة، آية ٧٩.

(٦) سورة التوبة، آية ٦٧.

مجازيهم جزاء الاستهزاء، ومعاقبهم عقوبة الخداع، فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذي عليه استحقوا العقاب في اللفظ وإن اختلف المعنيان، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾^(١)، ومعلوم أن الأولى من صاحبها سيئة، إذ كانت منه لله تبارك وتعالى معصية، وأن الأخرى عدلٌ لأنها من الله جزاء للعاصي على المعصية. فهما وإن اتفق لفظاهما مختلفا المعنى. وكذلك قوله: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾^(٢). فالعدوان الأول ظلم، والثاني جزاء لا ظلم، بل هو عدلٌ لأنه عقوبةٌ للظالم على ظلمه، وإن وافق لفظه لفظ الأول.

وإلى هذا المعنى وجهوا كل ما في القرآن من نظائر ذلك مما هو خبر عن مكر الله عز وجل بقوم، وما أشبه ذلك^(٣).

وقد ذكر فخر الدين الرازي خمسة أوجه في تأويل معنى الاستهزاء من الله تعالى، فأتى بكلامٍ بديعٍ فراجعه^(٤).

وذكر ابن الجوزي في كتابه «زاد المسير في علم التفسير» تسعة أقوال لمعنى الاستهزاء أيضاً^(٥).

وقال ابن كثير: «قوله: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾^(٦) هذا

(١) سورة الشورى، آية ٤٠.

(٢) سورة البقرة، آية ١٩٤.

(٣) الطبري، جامع البيان، (ج ٢، ص ٣٤٢).

(٤) الرازي، تفسير الرازي، (ج ٢، ص ٦٩، ٧٠).

(٥) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، (ج ١، ص ٣٥، ٣٦).

(٦) سورة التوبة، آية ٧٩.

من باب المقابلة على سوء صنيعهم، واستهزائهم بالمؤمنين لأن الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعدّ للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزاء من جنس العمل»^(١).

وقال القاضي البيضاوي في معنى قوله تعالى ﴿سَخَرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾^(٢): «جازاهم على سخريتهم، كقوله تعالى ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٣). قال شيخ زاده: قوله جازاهم على سخريتهم فيكون جزاء السخرية بالسخرية مبنياً على المشاكلة، فإنها تورث الكلام حسناً، كما سمي جزاء الاستهزاء استهزاءً، وجزاء السيئة سيئة أو على الاستعارة، فإن جزاء السخرية مماثل لها، فأطلق أحد المثليين على الآخر لمشابهته له، فعلى هذا يكون «سخر الله» استعارة تبعية»^(٤).

وقال القاضي عياض في معنى السخرية الواردة في الحديث: «قول الله تعالى للرجل اذهب فادخل الجنة، فيخيل إليه أنها ملأى، فيقول الله له: اذهب فادخل الجنة، فيقول: أتسخر بي أو أتضحك مني وأنت الملك؟ قال الإمام^(٥): ويتعلق بهذا الحديث سؤالان، فيقال: ما معنى قوله: «أتضحك بي وأنت الملك»، وهبكم أنكم تأولتم الضحك على ما ذكرتم من الرضى وغيره وهذا غير متأت هنا، والسؤال الثاني أن يقال: كيف يُقال للباري سبحانه ابتداءً: أتسخر مني؟ وإنما جاز ذلك في الشرع على طريق المقابلة،

(١) ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج ٢، ص ٣٥٩).

(٢) سورة التوبة، آية ٧٩.

(٣) سورة البقرة، آية ١٥.

(٤) شيخ زاده، حاشية شيخ زاده على البيضاوي، (ج ٢، ص ٣٤٤).

(٥) أي المازري.

كقوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾^(١)، ﴿مُسْتَهْزِئُونَ﴾^(٢)،
﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(٣).

فالجواب عن السؤال الأول أن يقال: من عادة المستهزئ من المخلوقين
والسّاخر أن يضحك، فيوضع ههنا يضحك موضع يستهزئ ويسخر لما
كانت حالة السّاخر.

وأما الجواب عن السؤال الثاني: فإن هذا ههنا لم يقع إلا على جهة المقابلة،
وهي وإن لم تكن موجودة في اللفظ فهي موجودة في معنى الحديث؛ لأنه
ذكر فيه أنه عاهد الله مراراً ألا يسأله غير ما سأل، ثم غدر فحل غدره محل
الاستهزاء والسخرية، فقدّر أن قول الله تعالى له: «ادخل الجنة» وتردده إليها
وتخيله أنها ملاءى، ضرب من الإطماع له أو السخرية به، جزاءً على ما تقدّم
من غدره، وعقوبة له فسمّى الجزاء على السخرية سخرية فقال: «أتسخر
مني؟»: أي تُعاقبني بالإطماع.

قال القاضي: ذهب أبو بكر الصوفي أن قوله: «أتَهْزَأُ مِنْي أَوْ تَسْخُرُ مِنْي»
نفي للاستهزاء والسخرية التي لا تجوز على الله، قال: كأنه قال: أعلم أنك لا
تهزأ مني لأنك رب العالمين، وما أعطيتني من جزيل العطاء وأضعاف مثل
الدنيا حق، لكن العجب أن فعلت لي هذا وأنا غير مستأهل له، قال: فالألف
في أتستهزئ وتسخر ألف نفي على هذا التأويل، كما قال تعالى: ﴿أَتُهْلِكُنَا﴾
بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا^(٣) معناه: لا تهلكننا بفعالهم.

(١) سورة التوبة، آية ٧٩.

(٢) سورة البقرة، آية ١٤، ١٥.

(٣) سورة الأعراف، آية ١٥٥.

قال القاضي: وقد يكون قول هذا الرجل لما قال من هذا اللفظ الشنيع وهو غير ضابط لما قاله، وبما وَلَهُ عقله من السرور، وبلوغ ما لم يخطر بباله، إذ كان أولاً عاهد الله ألا يسأل غير ما رغب فيه، ثم أعطي من غير مسألة ما لم يتوهمه، فيكون قوله هذا لما قاله، وهو لا يضبط لسانه دهشاً وسروراً وفرحاً، وهو لا يعتقد قلبه في حق بارئه، ظن أنه على عادته يخاطب غيره، كما أخبر عَلَيْهِ السَّلَام عن الآخر في الحديث الصحيح: «أنه لم يضبط نفسه من الفرح، فقال: «أنت عبدي وأنا ربك»^(١).

وذكر القرطبي مثل هذا التأويل في «المفهم»^(٢).
ونقل ابن حجر بعض هذه الأقوال وأقرها^(٣).



(١) القاضي عياض، إكمال المعلم، (ج ١، ص ٥٥٨-٥٦٠).

(٢) القرطبي، المفهم، (ج ٧، ص ٢٠٣).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١، ص ٤٤٣، ٤٤٤).

المبحث الثامن والخمسون

تأويل قوله تعالى

﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(١)

وردت آيات قرآنية كثيرة تذكر حب الله للطائعين منها قوله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢)، وآيات تنفي حب الله عن العاصين منها قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾^(٣)، بالإضافة إلى ورود أحاديث صحيحة تنسب الحب لله منها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض»^(٤).

قال القاضي عياض: «محبة الله عبده: إرادة الخير به في الدنيا والآخرة، من هدايته له وإنعامه عليه ورحمته له، وبغضه له: أراد به شقاء عقابه وشقاوته في الدنيا والآخرة، وقد تكون محبة جبريل والملائكة على وجهها من معنى المحبة، وظاهرها التي تليق بالمخلوقين، ويتنزه عنها الخالق، وهو ميل النفس ونزوع الروح والقلب إليه وحب لقاءه، وأنه لما كان ممن أطاع وأحبه الله كان ممن يجب أن يكون مع جبريل والملائكة متحابين في الله،

(١) سورة البقرة، آية ١٩٥.

(٢) سورة البقرة، آية ١٩٥.

(٣) سورة البقرة، آية ١٩٠.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، (ج ٣، ص ١١٧٥).

وقد يكون من جبريل والملائكة استغفارهم له، وذكرهم الجميل في الملائكة الأعلى له ودعائهم له»^(١).

وقال المفسر القرطبي: «قوله: «من كان الله ورسوله أحبَّ إليه ممَّا سواهما» دليلٌ على جواز إضافة المحبة لله تعالى، وإطلاقها عليه، ولا خلاف في إطلاق ذلك عليه محبًّا ومحبوبًا، كما قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾^(٢)، وهو في السنة كثير. ولا يختلف النظار من أهل السنة وغيرهم أنها مؤولة في حق الله تعالى لأن المحبة المتعارفة في حقنا إنما هي ميلٌ لما فيه غرضٌ يستكمل به الإنسان ما نقصه، وسكونٌ لما تلتذُّ به النفس، وتكمل بحصوله، والله تعالى منزَّه عن ذلك. وقد اختلف أئمتنا رضي الله عنهم في تأويلها في حق الله سبحانه وتعالى:

فمنهم: من صرفها إلى إرادته تعالى إنعامًا مخصوصًا على من أخبر أنه يحبه من عباده؛ وعلى هذا فترجع إلى صفة ذاته.

ومنهم: من صرفها إلى نفس الإنعام والإكرام؛ وعلى هذا فتكون من صفات الفعل.

وعلى هذا المنهاج يتمشى القول في الرحمة والنعمة والرضا، والغضب والسخط وما كان في معناها، ولبسط ذلك موضع آخر.

فأما محبة العبد لله تعالى، فقد تأولها بعض المتكلمين لأنهم فسروا المحبة بالإرادة، والإرادة إنما تتعلق بالحادث لا بالقديم، ومنهم من قال: لأن محبتنا

(١) القاضي عياض، إكمال المعلم، (ج ٨، ص ١١٦).

(٢) سورة المائدة، آية ٥٤.

إنّما تتعلّق بمستلذّ محسوسٍ، والله تعالى منزّهٌ عن ذلك. وهؤلاء تأوّلوا محبة العبد لله تعالى بطاعته له، وتعظيمه إياه، وموافقته له^(١) على ما يريد منه. وأما أرباب^(٢) القلوب^(٣)، فمنهم: من لم يتأوّل محبة العبد لله تعالى، حتى قال: المحبة لله تعالى: هي الميل الدائم، بالقلب الهائم. وقال أبو القاسم القشيري: أما محبة العبد لله تعالى، فحالةٌ يجدها العبد من قلبه تطف عن العبارة، وقد تحمله تلك الحالة على التعظيم لله تعالى، وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه. قال الشيخ رحمه الله: فهؤلاء قد صرّحوا بأنّ محبة العبد لله تعالى هي ميلٌ من العبد وتوقان، وحالٌ يجدها المحبّ من نفسه من نوع ما يجده في محبوباته المعتادة له، وهو صحيح^(٤).

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني^(٥): «والمراد بمحبة الله إرادة الخير للعبد وحصول الثواب له وبمحبة الملائكة استغفارهم له وإرادتهم خير الدارين له وميل قلوبهم إليه لكونه مطيعاً لله محباً له، ومحبة العباد له اعتقادهم فيه الخير وإرادتهم دفع الشر عنه ما أمكن، وقد تطلق محبة الله تعالى للشيء على إرادة إيجاده وعلى إرادة تكميله».

(١) أي العمل بأوامره والوقوف عند حد شرعه.

(٢) أي أصحاب.

(٣) أي الأولياء الكبار كالجنيد البغدادي والرفاعي والجيلاني والبدوي والدسوقي رضي الله عنهم وأرضاهم ومن كان على طريقتهم.

(٤) القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (ج ١، ص ٢١٢).

(٥) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ٤، ص ٢٦٩).

المبحث التاسع والخمسون

تاويل قوله تعالى

﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾^(١)

ورد عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾^(١) أنه قال: «أي نتركهم في النار كما تركوا لقاء يومهم هذا». أخرجه السيوطي^(٢) وابن أبي حاتم^(٣) والطبري^(٤) وابن كثير^(٥). وقال ابن جرير في قوله تعالى ﴿فَالْيَوْمَ نَنْسَهُمْ﴾ أي نتركهم في العذاب المبين جياعًا عطاشًا^(٦). وبه قال ابن عطية^(٧).

هذا وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٨)، فقد قال القاضي عياض في تفسير هذه الآية ما نصه: «قوله تعالى ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٩) من مجانسة اللفظ مجازاة على فعلهم، أي جازاهم على نسيانهم، والنسيان هو امتناع من فعل ما نسي، وهو من الله يمنعهم الرحمة والفضل الكبير»^(٩).

(١) سورة الأعراف، آية ٥١.

(٢) السيوطي، الدر المشور، (ج ٣، ص ٤٧٠).

(٣) ابن أبي حاتم، تفسير ابن أبي حاتم، (ج ٦، ص ٩٨).

(٤) الطبري، تفسير الطبري، (ج ٣٣، ص ٣٣٦).

(٥) ابن كثير، تفسير ابن كثير، (ج ٣، ص ٤٢٥).

(٦) ابن جرير، تفسير ابن جرير، (ج ٥، ص ٥١٠).

(٧) ابن عطية، تفسير ابن عطية، (ج ٧، ص ٧٢).

(٨) سورة التوبة، آية ٦٧.

(٩) القاضي عياض، إكمال المعلم، (ج ٨، ص ٥٢١).

وقال ابن عطية^(١): «وإن قَدَّر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة ذكر الله تسمية العقوبة باسم الذنب».

وقال شيخ زاده في «حاشيته على تفسير البيضاوي» ما نصه: «إن الله تعالى منزّه عن حقيقة النسيان، ووصفهم بالنسيان لأنهم لم يكونوا معترفين بلقاء يوم القيامة، ولا عارفين له، والنسيان إنما يكون بعد المعرفة، شبه معاملته تعالى مع الكفار بمعاملة من نسي عبده من الخير ولم يلتفت إليه، وشبه عدم إخطارهم لقاء الله تعالى ببالهم وعدم مبالاتهم بحال من عرف شيئاً ونسيه وكثرت مثل هذه الاستعارات في القرآن العظيم لأن المعاني التي في عالم الغيب لا يمكن أن يُعبّر عنها إلا بما يماثلها من عالم الشهادة»^(٢).



(١) ابن عطية، المحرر الوجيز، (ج٧، ص٧٢).

(٢) شيخ زاده، حاشية شيخ زاده، (ج٢، ص٣٤٢).

المبحث الستون تأويل قوله تعالى

﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾^(١)

إن غضب الله ورضاه عند أهل الحق ليسا انفعالاً، لذلك قال ابن جماعة في «إيضاح الدليل» ما نصه^(٢): «اعلم أن الغضب فينا له مبدأ وغاية، فمبدأه حقيقة غليان الدم عند مرارة الغيظ لإرادة انتقام بالمغضوب عليه، والرب تعالى منزّه عن الغليان أي من مبدأ الغيظ فوجب تأويله بأن المراد غايته وهو الانتقام».

وقال الفخر الرازي^(٣): «الغضب تغيّر يحصل عند غليان القلب لشهوة الانتقام، واعلم أن هذا على الله تعالى محال، لكن ههنا قاعدة كلية وهي أن جميع الأعراض النفسانية الرحمة والفرح والسرور والغضب والحياء والغيرة والمكر والخداع والتكبر والاستهزاء لها أوائل ولها غايات، ومثاله الغضب، فإن أوله غليان دم القلب، وغايته إيصال الضرر إلى المغضوب عليه، فلفظ الغضب في حق الله تعالى لا يحمل على أوله الذي هو غليان دم القلب، بل على غايته التي هي إرادة الإضرار، وأيضاً الحياء له أول، وهو انكسار يحصل في النفس، وله غرض، وهو ترك الفعل، فلفظ الحياء في حق الله يحمل على ترك الفعل، لا على انكسار النفس، وهذا قاعدة شريفة في هذا الباب».

(١) سورة النساء، آية ٩٣.

(٢) ابن جماعة، إيضاح الدليل، (ص ٧١).

(٣) الرازي، تفسير الفخر الرازي، (ج ١، ص ٢٦٢).

وقرّر مثله القاضي البيضاوي، وقال شيخ زاده^(١): «اعلم أن الغضب تغير يحصل عند غليان دم القلب إرادة الانتقام، ومنه قوله ﷺ: «اتقوا الغضب، فإنه جمرةٌ توقد في قلب ابن آدم ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه، وحمرة عينيه»^(٢). وإذا وصف به الباري سبحانه وتعالى يراد إرادة الانتقام لا غير»^(٣). ثم ساق كلام الفخر الرازي.

وقال القرطبي في تفسيره: «ومعنى الغضب في صفة الله تعالى: إرادة العقوبة، فهو صفة ذات، وإرادة الله تعالى من صفات ذاته، أو نفس العقوبة، ومنه الحديث: «إن الصدقة لتطفى غضب الرب»^(٤). فهو صفة فعل»^(٥).



-
- (١) أحمد، مسند أحمد، (ج ٣، ص ١٩).
(٢) التبريزي، مشكاة المصابيح، (ج ٣، ص ١١٦).
(٣) الشيخ زاده، حاشية الشيخ زاده على تفسير البيضاوي، (ج ١، ص ٥٠، ٥١).
(٤) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب الزكاة، باب فضل الصدقة، (ج ٣، ص ٥٢)، حديث ٦٦٤.
(٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١، ص ١٥٠).

الباب الرابع

تأويل بعض الأحاديث المتشابهة

يتضمن سبعة وخمسين مبحثاً:

١- المبحث الأول: جملة من الأحاديث المتشابهة وردت شبهات المجسمة.

٢- المبحث الثاني: تأويل حديث النزول.

٣- المبحث الثالث: تأويل حديث الرحمة.

٤- المبحث الرابع: تأويل حديث «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها».

٥- المبحث الخامس: تأويل حديث «لا يوطن الرجل المسجد للصلاة أو لذكر الله إلا تبشش الله به كما يتبشش أهل الغائب إذا قدم عليهم غائبهم».

٦- المبحث السادس: تأويل حديث «يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه».

٧- المبحث السابع: تأويل حديث «ضحك الله الليلة».

٨- المبحث الثامن: تأويل حديث «وإن اقترب إلي شبراً اقتربت منه

ذراعًا، وإن اقترب إليّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

٩- المبحث التاسع: تأويل حديث «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد».

١٠- المبحث العاشر: تأويل حديث «لا يمل الله حتى تملوا».

١١- المبحث الحادي عشر: تأويل حديث «فاستحيا الله منه».

١٢- المبحث الثاني عشر: تأويل حديث «حتى يلقاها ربها».

١٣- المبحث الثالث عشر: تأويل حديث «فعتب الله عليه».

١٤- المبحث الرابع عشر: تأويل حديث «إن الله لا يستحي من الحق».

١٥- المبحث الخامس عشر: تأويل حديث «فارجع إلى ربك».

١٦- المبحث السادس عشر: تأويل حديث «إن ربه بينه وبين قبلته».

١٧- المبحث السابع عشر: تأويل حديث «يضحك الله إلى رجلين».

١٨- المبحث الثامن عشر: تأويل حديث «وقال يد الله ملأى لا تغيضها نفقة».

١٩- المبحث التاسع عشر: تأويل حديث «يدنو أحدكم من ربه».

٢٠- المبحث العشرون: تأويل حديث «حتى يضع رب العزة فيها قدمه».

٢١- المبحث الحادي والعشرون: تأويل حديث «يمين الله ملأى» و«إن الله لا ينام».

٢٢- المبحث الثاني والعشرون: تأويل حديث زينب «وزوجني الله من فوق سبع سماوات».

٢٣- المبحث الثالث والعشرون: تأويل حديث «ولا يصعد إلى الله إلا الطيب».

٢٤- المبحث الرابع والعشرون: تأويل حديث «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب».

٢٥- المبحث الخامس والعشرون: تأويل حديث «إن الله جميل يحب الجمال».

٢٦- المبحث السادس والعشرون: تأويل حديث «إنه - أي الدجال - أعور وإنَّ الله ليس بأعور».

٢٧- المبحث السابع والعشرون: تأويل حديث «لقد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة».

٢٨- المبحث الثامن والعشرون: تأويل حديث «إذا رأيتم الريح فلا تسبوها فإنها من نفس الرحمن».

٢٩- المبحث التاسع والعشرون: تأويل حديث «فينادي بصوت إن الله».

٣٠- المبحث الثلاثون: تأويل حديث «ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن».

٣١- المبحث الحادي والثلاثون: تأويل حديث: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منه».

٣٢- المبحث الثاني والثلاثون: تأويل حديث «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض».

٣٣- المبحث الثالث والثلاثون: تأويل حديث «سبحانك اللهم
وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدُّك ولا إله غيرك».

٣٤- المبحث الرابع والثلاثون: تأويل حديث «صلى الله عليه عشرًا».

٣٥- المبحث الخامس والثلاثون: تأويل حديث «ألا تصفون كما
تصف الملائكة عند ربها».

٣٦- المبحث السادس والثلاثون: تأويل حديث «لينتهين أقوامٌ يرفعون
أبصارهم إلى السماء في الصلاة أو لا ترجع إليهم».

٣٧- المبحث السابع والثلاثون: تأويل حديث «أن تعبد الله كأنك تراه
فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

٣٨- المبحث الثامن والثلاثون: تأويل حديث «وروحٌ منه».

٣٩- المبحث التاسع والثلاثون: تأويل حديث «يبتغي بذلك وجه الله».

٤٠- المبحث الأربعون: تأويل حديث «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة
ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم».

٤١- المبحث الحادي والأربعون: تأويل حديث «له جوارٌ إلى الله
بالتلبية».

٤٢- المبحث الثاني والأربعون: تأويل حديث «نورٌ أنى أراه».

٤٣- المبحث الثالث والأربعون: تأويل حديث «فيكشف الحجاب».

٤٤- المبحث الرابع والأربعون: تأويل حديث «فإنكم ترونه كذلك»،

وحديث «فيأتيهم الله»، وحديث «في غير صورته التي يعرفون»،

وحديث «في الصورة التي يعرفونها»، وحديث «في أدنى صورة»،

وحديث «فيكشف عن ساق»، وحديث «حتى إذا فرغ الله من القضاء

بين العباد»، وحديث «فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه، فإذا ضحك الله منه قال: ادخل الجنة».

٤٥- المبحث الخامس والأربعون: تأويل حديث «من ضحك رب العالمين».

٤٦- المبحث السادس والأربعون: تأويل حديث الشفاعة.

٤٧- المبحث السابع والأربعون: تأويل حديث «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن».

٤٨- المبحث الثامن والأربعون: تأويل حديث «فأوى إلى الله فأواه الله».

٤٩- المبحث التاسع والأربعون: تأويل حديث «اللهم أنت الصاحب في السفر».

٥٠- المبحث الخمسون: تأويل حديث «وساعد الله أشد من ساعدك».

٥١- المبحث الحادي والخمسون: تأويل حديث «لا شخص أغير من الله».

٥٢- المبحث الثاني والخمسون: تأويل حديث «تعلقت بحقو الرحمن».

٥٣- المبحث الثالث والخمسون: تأويل حديث «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله».

٥٤- المبحث الرابع والخمسون: تأويل حديث «إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصره به».

٥٥- المبحث الخامس والخمسون: تأويل حديث قدسي «مرضت فلم تعدني».

٥٦- المبحث السادس والخمسون: تأويل حديث «لله أفرح بتوبة عبده

من أحدكم، سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة».

المبحث الأول

جملة من الأحاديث المتشابهة وردت في شبهات المجسمة حولها

ليعلم أن للأحاديث دقائق وآفات لا يعرفها إلا العلماء الفقهاء تارة في نظمها وتارة في كشف معناها، قال الغزالي في الأحاديث المتشابهة^(١): «وما ذكر ﷺ كلمة منها إلا مع قرائن وإشارات يزول معها إيهام التشبيه، وقد أدركها الحاضرون المشاهدون، فإذا نقلت الألفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الإيهام، وأعظم القرائن في زوال الإيهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر».

ومن الواجب في هذا الباب أن نعلم أن مثل هذه الألفاظ التي تستشنعها النفوس إنما خرجت على سعة مجال كلام العرب ومصارف لغاتها، وأن مذهب كثير من الصحابة وأكثر الرواة من أهل النقل الاجتهاد في أداء المعنى دون مراعاة أعيان الألفاظ، وكلُّ منهم يرويه على حسب معرفته ومقدار فهمه وعادة البيان من لغته، وعلى أهل العلم أن يلزموا أحسن الظنِّ بهم، وأن يحسنوا التَّأني لمعرفة معاني ما روه، وأن ينزلوا كلَّ شيء منه منزلة مثله، فيما تقتضيه أحكام الدين ومعانيها، على أنك لا تجد بحمد الله ومنه شيئاً صحَّت به الرواية عن رسول الله ﷺ إلا وله تأويلٌ يحتمله وجه الكلام ومعنى لا يستحيل في عقلٍ أو معرفة.

(١) الغزالي، إلهام العوام، (ص ٩٨).

فيشبهه أن يكون من ذكر القدم والرجل، وترك الإضافة إنما تركها تهيئاً لها، وطلباً للسلامة من خطأ التأويل فيها، وكان أبو عبيد، وهو أحد أئمة أهل العلم، يقول: نحن نروي هذه الأحاديث ولا نريغ لها المعاني. ونحن أحرى بأن لا نتقدم فيما تأخر عنه من هو أكثر علماً وأقدم زماناً وسناً، ولكنّ الزمان الذي نحن فيه قد صار أهله حزينين: منكرٌ لما يروى من نوع هذه الأحاديث رأساً، ومكذبٌ به أصلاً، وفي ذلك تكذيب العلماء الذين رووا هذه الأحاديث وهم أئمة الدين ونقله السنن، والواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ، والطائفة الأخرى مسلمةٌ للرّواية فيها ذاهبةٌ في تحقيق الظاهر منها مذهباً يكاد يفضي بهم إلى القول بالتشبيه، ونحن نرغب عن الأمرين معاً، ولا نرضى بواحدٍ منهما مذهباً، فيحقّ علينا أن نطلب لما يرد من هذه الأحاديث إذا صحّت من طريق النقل والسند تأويلاً يخرج على معاني أصول الدين، ومذاهب العلماء، ولا نبطل الرّواية فيها أصلاً، إذا كانت طرقها مرضيةً ونقلتها عدولاً^(١).

وقد نقل الحافظ ابن حجر العسقلاني عن الحافظ ابن دقيق العيد ما يؤيد ذلك فقال^(٢): «نقول في الصفات المشكّلة إنها حق وصدق على المعنى الذي أراه الله ومن تأولها نظرنا فإن كان تأويله قريباً على مقتضى لسان العرب لم ننكر عليه وإن كان بعيداً توقفنا عنه ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه وما كان منها معناه ظاهراً مفهوماً من تخاطب العرب حملناه عليه

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٢٢). نقله عن أبي سليمان الخطابي.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٣٨٣).

لقوله: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾^(١) فإن المراد به في استعمالهم الشائع حق الله فلا يتوقف في حمله عليه، وكذا قوله: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(٢)، فإن المراد به إرادة قلب ابن آدم مصرفة بقدرة الله وما يوقعه فيه، وهذا ما قاله الغزالي. وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾^(٣) معناه خرب الله بنيانهم، وقوله: ﴿نُطِعْمُكُمْ لَوْجَهُ اللَّهِ﴾^(٤) معناه لأجل الله، وقس على ذلك.

وهو تفصيل بالغ قل من تيقظ له، وقال غيره: اتفق المحققون على أن حقيقة الله مخالفة لسائر الحقائق». فكيف إن كانت منقولة عن السلف الصالح.

وقد وردت أحاديث صحيحة الإسناد إلى رسول الله ﷺ تحتل بحسب لغة العرب معانٍ صحيحة إلا أن بعض السامعين ممن لا فقه له بالعربية أو لم يسمع قرينة هذه الأحاديث يفهم من مجرد سماعه لها ما ينافي التنزيه، وكان المطلوب أن يردها للآية المحكمة ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٥) وأن يعتقد تنزه المولى سبحانه عن تخيلات أهل التشبيه أعاذنا الله من هذيانهم وأن يحملها على ما يليق بالله سبحانه ولا يتم له ذلك إلا بمعرفة لسان العرب، ولذلك تقدّم قول مالك رضي الله عنه: «لا أوتى برجل غير

(١) سورة الزمر، آية ٥٦.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، (ج ١٦، ص ٢٠٣، ٢٠٤). أحمد بن حنبل، مسند أحمد، (ج ٢، ص ١٦٨).

(٣) سورة النحل، آية ٢٦.

(٤) سورة الإنسان، آية ٩.

(٥) سورة الشورى، آية ١١.

عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا».

وبعد هذا كله أحببت أن أشير هنا إلى بعضها من باب التأكيد على عدم التسرع بحملها على ظواهرها المتبادرة إلى ذهن ووهم الجاهل، وأن تقدم في كل مرّة تقرأ فيها آية أو حديثاً متشابهاً تقديس المولى سبحانه وتنزيهه عن مشابهة الخلق، وسيأتي تفسير بعض منها مفصلاً إن شاء الله.



المبحث الثاني تأويل حديث النزول

إن قال المجسم الوهابي أو غيره من الذين يعتقدون أن الله ذات يسكن ويتحرك دليلنا على ذلك حديث: «ينزل ربُّنا تبارك وتعالى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ وَمَنْ يَسْأَلُنِي فَأَعْطِيَهُ وَمَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(١).

قلنا: الحديث صحيح، لكن لا يجوز تفسيره بالنزول الحسي من ذات الله تعالى لأنه يلزم على ذلك بشاعة ومحال وذلك لأن الليل والنهار وأجزاءهما كالنصف والثلث يختلف باختلاف البلدان.

فإن قلتم إن الله ينزل بالنسبة لبلد واحدة كمكة فقط، فمن أين هذا التخصيص؟ ليس عندكم دليل.

وإن قلتم إنه بالنسبة لكل الدنيا فليل بلد نهار بلد آخر ونصف الليل في بلد يكون نصف النهار في بلد آخر فيلزم على معتقدكم أن يكون الله نازلاً وطالماً كل ساعة من ساعات الليل والنهار، وهذا ينافي قولكم إنه مختص بالعرش، فبطل عليكم ذلك المعتقد، ثم إن العرش أكبر العوالم بحيث إن الكرسي بالنسبة إليه كحلقة ملقاة في فلاة وإن السموات بالنسبة إلى الكرسي كحلقة ملقاة في فلاة من الأرض وعلى هذا تكون سماء الدنيا

(١) البخاري، صحيح البخاري، أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، (ج ١)، ص ٣٨٤، حديث ١٠٩٤.

بالنسبة للعرش أقل من خردلة ملقاة في فلاة، فكيف تسع الله الذي هو في معتقدكم بقدر العرش أو أوسع من العرش؟!

وإن قلتم: هو ينزل إلى السماء الدنيا وهي على حالها وهو على حاله فهذا محال.

وإن قلتم: أن الله يصير أقل من قدر خردلة حتى تسعه السماء الدنيا فهذا أيضاً محال.

وإن قلتم أن الكرسي والسموات تكون بقدر العرش أو أوسع منه، فمن أين الدليل على ذلك من القرآن أو الحديث؟

قال الإمام الحافظ الحجة أبو بكر بن فورك شيخ البيهقي رحمهما الله في كتابه «مشكل الحديث وبيانه» ما نصه: «وقد روى لنا بعض أهل النقل هذا الخبر عن النبي ﷺ بما يؤيد هذا الباب وهو بضم الياء من «ينزل» وذكر أنه ضبطه عمن سمعه من الثقات الضابطين، وإذا كان ذلك محفوظاً مضبوطاً كما قال فوجهه ظاهر. فهذه الرواية الصحيحة تفسر رواية «ينزل ربنا» الحديث لأن نزول الملائكة لما كان بأمر الله ليلغوا عنه عبر الرسول عن ذلك بوحى من الله بعبارة «ينزل ربنا..»، ولذلك نظير في القرآن قال الله تعالى في حق آدم وحواء: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (٢٢) فيه دليل على صحة رواية النسائي: «إن الله يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول فيأمر منادياً...» (٢) فكما أن الله تعالى نسب نداء الملك لآدم وحواء إلى نفسه لكونه

(١) سورة الأعراف، آية ٢٢.

(٢) النسائي، سنن النسائي، كتاب العمل والليلة، باب الوقت الذي يستحب فيه الاستغفار، (ج ٦، =

بأمره فكذلك صح إسنادُ نزول الملك إلى السماء الدنيا ليبلغ عن الله: هل من داع فيستجيب الله له، وهل من سائل فيعطى، وهل من مستغفر فيغفر له الله. وفي الآية أيضًا دليل على أن نداء الملك لبعض خلق الله بأمر الله يُسند إلى الله من غير أن يكون هناك صوت يخرج من الله، فمن هنا يؤخذ ردُّ اعتراض بعض المجسمة رواية النسائي لحديث النزول حيث إنه قال: إن هذه الرواية تستلزم حصول قول الملك: «هل من مستغفر فأغفر له وهل من داع فأستجيب له».

قال الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي في كتابه «بهجة النفوس» ردًّا على المجسمة ما نصه^(١): «وأما ما زعموا من الجسمانية وتعلقوا في ذلك بظاهر قوله عليه السلام «ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا» إلى غير ذلك من الآي والأحاديث التي جاءت في هذا المعنى فليس لهم في ذلك حجة أيضًا لأن ذلك في اللغة محتمل لأوجه عديدة كقولهم «جاء زيد» يريدون ذاته ويريدون غلامه ويريدون كتابه ويريدون خبره، والنزول مثله كقولهم «نزل الملك» يريدون ذاته ويريدون أمره ويريدون كتابه ويريدون نائبه، فإذا أرادوا أن يخصصوا الذات قالوا نفسه فيؤكدونه بالمصدر، وحينئذ ترتفع تلك الاحتمالات، ولذلك قال جل وعز في كتابه: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٢) فأكدته بالمصدر رفعًا للمجاز. فلو قال الشارع عليه السلام هنا ينزل ربنا نفسه أو ذاته أو أكده بالمصدر لكان الأمر ما ذهبوا إليه ولكن

=ص ١٢٤)، حديث ١٠٣١٦.

(١) ابن أبي جمرة، بهجة النفوس، (ص ٣٩).

(٢) سورة النساء، آية ١٦٤.

لما أن ترك اللفظ على عمومه ولم يؤكد بالمصدر دل على أنه لم يرد الذات وانما أراد نزول رحمة ومن فضل وطول على عباده وشبه هذا معروف عند الناس لأنهم يقولون تنازل الملك لفلان وهم يريدون كثرة إحسانه إليه وفضله إليه لا أنه نزل إليه بذاته وتقرب إليه بجسده فهذا مشاهد في البشر فكيف بمن ليس كمثله شيء، لقد أعظموا الفرية».

كذلك يُحمل حديث النزول على الرواية المشهورة على أن الله يأمر الملك بالنزول إلى السماء الدنيا ويبلغ عن الله بأن يقول: إن الله يقول لعباده الداعين والسائلين: من يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه إلى آخر ما ورد فيه وليس المعنى أن الملك يقول عن نفسه من يستغفرنني فأغفر له ومن يدعوني فأستجيب له ومن يسألني فأعطيه. ونظير هذا ما جاء في القرآن من قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾^(١) معناه فإذا قرأه جبريل عليك بأمرنا ومعلوم أنه ليس المعنى أن الله يقرأ القرآن على رسول الله كما يقرأ المعلم على التلميذ فهذا ينحل الإشكال الذي يخطر لبعض الناس والذي يورده ابن تيمية ومن نهج منهجه في التشبيه من وهابية وغيرهم.

وقد قال رئيس القضاة الشافعية في مصر في زمانه بدر الدين بن جماعة في «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل» ما نصه^(٢): «اعلم أن النزول الذي هو الانتقال من علو إلى سفلى لا يجوز حمل الحديث عليه لوجوه:

الأول: النزول من صفات الأجسام والمحدثات ويحتاج إلى ثلاثة

(١) سورة القيامة، آية ١٨.

(٢) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ج ١، ص ١٦٤، ١٦٥).

أجسام مُنتَقِلٍ ومُنتَقَلٍ عنه ومُنْتَقِلٍ إليه وذلك على الله تعالى محال.

الثاني: لو كان النزول لذاته حقيقة لتجددت له في كل يوم وليلة حركات عديدة تستوعب الليل كله وتنقلات كثيرة لأن ثلث الليل يتجدد على أهل الأرض مع اللحظات شيئاً فشيئاً فيلزم انتقاله إلى السماء الدنيا ليلاً ونهاراً من قوم إلى قوم وعوده إلى العرش في كل لحظة على قولهم ونزوله بها إلى السماء الدنيا ولا يقول ذلك ذولب وتحصيل.

الثالث: أن القائل بأنه فوق العرش وأنه ملاءه كيف تسعه سماء الدنيا وهي بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة فيلزم عليه أحد أمرين إما اتساع في سماء الدنيا كل ساعة حتى تسعه أو تضاول الذات المقدسة عن ذلك حتى تسعه بزعمه ونحن نقطع بانتفاء الأمرين».

إذا ثبت ذلك فقد ذهب جماعة من السلف إلى السكوت عن المراد بذلك النزول مع قطعهم بأن ما لا يليق بجلاله تعالى غير مراد وتنزيهه عن الحركة والانتقال، وقسم من العلماء قالوا المراد بالنزول نزول الملك بأمر الله لأنك تقول: قطع الأمير يد اللص ولا يكون الأمير بنفسه قد أمسك السكين وجز المكان إنما المعنى أن يد اللص قُطعت بأمر الأمير، فتقول: قطع الأمير يد اللص، وبنى الأمير بيتاً، وقد لا يكون حمل حجرًا واحدًا فيه إنما معناه بُني بأمره. كذلك «ينزل ربنا» أي ينزل الملك بأمر ربنا.

قال الإمام القرطبي في تفسيره عند قوله تعالى ﴿وَأَلْمَسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾^(١) وخص السحر بالذكر لأنه مظان القبول ووقت إجابة

(١) سورة آل عمران، آية ١٧.

الدعاء إلى أن قال قلت أصح من هذا ما روى الأئمة عن النبي ﷺ قال: «ينزل الله عز وجل إلى سماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول أنا الملك أنا الملك من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه من ذا الذي يستغفرنني فأغفر له فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر»، وفي رواية: «حتى ينفجر الفجر»^(١) وهذا لفظ مسلم.

وقد اختلف في تأويله وأولى ما قيل فيه ما جاء في كتاب النسائي مفسراً عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر منادياً فيقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى»^(٢) صححه أبو محمد عبد الحق، وهو يرفع الإشكال ويوضح كل احتمال وأن الأول من باب حذف المضاف أي ينزل ملك ربنا فيقول.

وقد روي: «يُنزَل» بضم الياء وهو يبين ما ذكرنا، وبالله توفيقنا وقد أتينا على ذكره في الكتاب «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى». قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(٣) ما نصه: «قوله: «ينزل ربنا إلى السماء الدنيا» استدل به من أثبت الجهة وقال هي جهة العلو وأنكر ذلك الجمهور لأن القول بذلك يفضي إلى التحيز، تعالى الله عن ذلك.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل، (ج ٢، ص ١٧٦)، حديث ١٨١٣.

(٢) النسائي، سنن النسائي، كتاب العمل والليلة، باب الوقت الذي يستحب فيه الاستغفار، (ج ٦، ص ١٢٤)، حديث ١٠٣١٦.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٤٧).

وقد اختلف في معنى النزول على أقوال:

فمنهم من حمّله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة تعالى الله عن قولهم.
ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جملة وهم الخوارج
والمعتزلة، وهو مكابرة. والعجب أنهم أولوا ما في القرآن من نحو ذلك
وأنكروا ما في الحديث إما جهلاً وإما عناداً.

ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمناً به على طريق الإجمال منزهاً الله
تعالى عن الكيفية والتشبيه وهم جمهور السلف. ونقله البيهقي وغيره عن
الأئمة الأربعة والسفيانيين والحماديين والأوزاعي والليث وغيرهم.

ومنهم من أوله على وجه يليق مستعمل في كلام العرب.

ومنهم من أفرط في التأويل حتى كاد أن يخرج إلى نوع من أنواع التحريف.

ومنهم من فصل بين ما يكون تأويله قريباً مستعملاً في كلام العرب وبين
ما يكون بعيداً مهجوراً، فأول في بعض وفوض في بعض، وهو منقول
عن مالك وجزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد. قال البيهقي: وأسلمها
الإيمان بلا كيف والسكوت عن المراد إلا أن يرد ذلك عن الصادق فيصار
إليه. من الدليل على ذلك اتفاقهم على أن التأويل المعين غير واجب فحيث
التفويض أسلم.

وقال الشيخ محمود خطاب السبكي^(١): «والنصوص في ذلك إثبات
التأويل وصرف النصوص عن ظاهرها على أن السلف والخلف مجمعون
على صرف حديث النزول عن ظاهره وأن الله منزّه عن النزول بذاته لأن هذا

(١) محمود خطاب السبكي، إتحاف الكائنات، (ص ١٦٣، ١٦٤).

من سمات الحوادث ومنافٍ لعموم قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١)، وقوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٢) و﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾^(٣)، ومنه تعلم بطلان ما زعمه المجسمة كابن حامد وأبي يعلى وأضرابهما من أنه تعالى على العرش بذاته وينزل منه وينتقل إلى سماء الدنيا، وأن ما في مختصر الصواعق لابن القيم من أن جماعة من أهل الحديث منهم أبو الفرج ابن الجوزي صرّحوا بأنه تعالى ينزل إلى سماء الدنيا بذاته كذبٌ وافتراءٌ عليهم، فقد تقدم لك قول ابن الجوزي أنه يستحيل على الله تعالى الحركة والنقلة والتغير، والواجب على الخلق اعتقاد التنزيه وامتناع تجويز النقلة، وأن النزول الذي هو انتقال من مكان إلى مكان لا يجوز على الله تعالى، وأنه ردّ ما ذهب إليه ابن حامد وأبو يعلى، ويبيّن أنّ من نسب ذلك إلى الإمام أحمد فقد كذب عليه.

ومنه تعلم أيضاً كذب ما نسب في «مختصر الصواعق» إلى حماد بن زيد من قوله «إن الله في مكانه يقرب من خلقه كيف يشاء». وعلى فرض ثبوته عنه فلا يصح التمسك به ولا اعتقاده لمنافاته قوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٤) وإجماع سلف الأمة وخلفها، فإن المكان يستلزم المماثلة والاحتياج وهما محالان في حق الله تعالى.

وكذا ما نسبته إلى ابن عبد البرّ من أن أهل السنة مجمعون على حمل

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) سورة الإخلاص، آية ١.

(٣) سورة الإخلاص، آية ٤.

(٤) سورة الشورى، آية ١١.

المتشابهات على الحقيقة لا على المجاز فهو كذبٌ وافتراء، فهاهي كلمتهم متفقة على أنهم مجمعون على صرف المتشابه عن ظاهره لقيام الأدلة القطعية عقلية ونقلية على استحالة ظاهرها في حق الله تعالى.

ومثله ما زعمه ابن تيمية في كتابه المسمى «شرح حديث النزول» من أن إسحاق بن راهويه وعبد الله بن طاهر وجمهور المحدثين وأحمد بن حنبل يقولون إن الله ينزل إلى سماء الدنيا ولا يخلو منه العرش، فإنه يلزم عليه إثبات المكان لله تعالى، وقد ثبت بالدليل القاطع العقلي والنقلي كون الإله ليس في مكان، وإلا لزم انقسامه وكل منقسم مركب، وكل مركب ممكن، فكيف يصح نسبة ذلك إلى قادة الأمة، سبحانه هذا بهتان عظيم.

ومنه تعلم بطلان قول ابن تيمية أيضًا في كتابه المذكور وهذا كلام سخيفٌ متناقض يدل على اضطراب عقل ابن تيمية: «والصواب المأثور عن سلف الأمة وأئمتها أنه لا يزال فوق العرش ولا يخلو العرش منه مع دنوه ونزوله إلى سماء الدنيا ولا يكون العرش فوقه»، فإنه تمسكٌ بظواهر المتشابهات التي أجمع السلف والخلف على صرفها عن ظاهرها لمنافاته للأدلة القاطعة بتزيه الله تعالى عن سمات الحوادث. ومن تمسك بتلك الظواهر فهو مخالف لما أجمع عليه سلف الأمة وخلفها من وجوب صرفها عن ظاهرها ومائلٌ إلى التشبيه والتجسيم وزائعٌ عن طريق الحق، قال تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾^(١)، نعوذ بالله من زيغ العقيدة والضلال بعد الهدى ونسأله السلامة والتوفيق لما يحبه ويرضاه.

(١) سورة آل عمران، آية ٧.

وقال أبو سليمان الخطابي ما نصه^(١): «إن الحركة والانتقال من نعوت الحدث وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً».

وقال أيضاً في شرحه على سنن أبي داود ردّاً على من وصف الله بالحركة: «والله سبحانه لا يوصف بالحركة لأن الحركة والسكون يتعاقبان في محلّ واحد وإنما يجوز أن يوصف بالحركة من يجوز أن يوصف بالسكون وكلاهما من أعراض الحدث وأوصاف المخلوقين والله عز وجل مُتعالٍ عنهما ليس كمثله شيء».

قال البيهقي أيضاً في «الأسماء والصفات»^(٢): «وأما الإتيان والمجيء فعلى قول أبي الحسن الأشعري رضي الله عنه يُحَدِّثُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ فعلاً يسميه إتياناً ومجيئاً لا بأن يتحرك أو ينتقل فإن الحركة والسكون والاستقرار من صفات الأجسام والله تعالى أحد صمد ليس كمثله شيء، وهذا كقوله عز وجل ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَنَّهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٣) ولم يُرد به إتياناً من حيث النقلة وإنما أراد إحداث الفعل الذي به خرب بنيانهم وخرّ عليهم السقف من فوقهم، فسمى ذلك الفعل إتياناً وهكذا قال في أخبار النزول أن المراد به فعل يُحدثه الله عز وجل في سماء الدنيا كل ليلة يسميه نزولاً بلا حركة ولا نقلة، تعالى الله عن صفات المخلوقين».

(١) البغوي، شرح السنة، (ج ١٥، ص ١٧٨).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٤٧٧).

(٣) سورة النحل، آية ٢٦.

ونقل البيهقي عن الأشعري أنه قال في حديث النزول^(١): «إنه ليس حركة ولا نُقْلة».

وقال القاضي البيضاوي ما نصه^(٢): «لما ثبت بالقواطع العقلية أنه منزّه عن الجسمية والتحيز امتنع عليه النزول على معنى الانتقال من موضع أعلى إلى ما هو أخفض منه، فالمراد دنو رحمته».

وقد أطال البيضاوي بذكر البراهين والأدلة الصريحة في أن الله عز وجل منزّه عن صفات الحوادث من التحول والنزول وغير ذلك، وأن ما ورد مما يوهم ذلك في الآيات والأحاديث المتشابهة يفوض معناه إلى الله عز وجل مع اعتقاد أنه يستحيل عليه أن يتصف بصفة من صفات المخلوقات، وهذا هو مذهب السلف رضوان الله عليهم. واعتقاد أن الله عز وجل ينتقل أو يتحول كما تعتقده الشرذمة المجسمة فهو اعتقاد باطل وكفرٌ صراح، نعوذ بالله تعالى من الضلال والإضلال^(٣).

وقال الكرمانى في شرحه على صحيح البخارى ما نصه^(٤): «ينزل في بعضها يتنزل، فإن قلت: هو سبحانه وتعالى منزّه عن الحركة والجهة والمكان قلت هو من المتشابهات فإما التفويض وإما التأويل بنزول ملك الرحمة. وهذا التأويل أخذه أهل السنة من رواية النسائي

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤٤٩).

(٢) محمود خطاب السبكي، إتحاف الكائنات، (ص ١٥٩).

(٣) محمود خطاب السبكي، إتحاف الكائنات، (ص ١٦٠).

(٤) الكرمانى، الكواكب الدراري في شرح صحيح البخارى، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ (١٥)﴾، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ (١٣)﴾، (ج ٢٥، ص ١٨٨).

«إن الله عز وجل يمهل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر منادياً فيقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى»^(١).

قال الشيخ محمد السفاريني^(٢) الحنبلي في كتاب «لوامع الأنوار البهية شرح الدررة المضية في عقد الفرقة المرضية» ما نصه^(٣): «قال أهل التأويل: إن العرب تنسب الفعل إلى من أمر به كما تنسبه إلى من فعله وباشره بنفسه، قالوا: والمعنى هنا إن الله تعالى يأمر ملكاً بالنزول إلى السماء الدنيا فينادي بأمره. وقال بعضهم إن قوله: ينزل راجع إلى أفعاله لا إلى ذاته المقدس، فإن النزول كما يكون في الأجساد يكون في المعاني أو راجع إلى الملك الذي ينزل بأمره ونهيه تعالى، فإن حمل النزول في الأحاديث على الجسم فتلك صفة الملك المبعوث بذلك وإن حمل على المعنوي بمعنى أنه لم يفعل ثم فعل سمي ذلك نزولاً من مرتبة إلى مرتبة فهي عربية صحيحة، والحاصل أن تأويله على وجهين: إما بأن المراد ينزل أمره أو الملك بأمره، وإما أنه استعارة بمعنى التلطف بالداعين والإجابة لهم ونحو ذلك كما يقال نزل البائع في سلعته إذا قارب المشتري بعدما باعده وأمكنه منها بعد

(١) النسائي، سنن النسائي، كتاب العمل والليلة، باب الوقت الذي يستحب فيه الاستغفار، (ج ٦، ص ١٢٤)، حديث ١٠٣١٦.

(٢) السفاريني، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين، أبو العون، عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق. ولد في سفارين (من قرى نابلس) ورحل إلى دمشق فأخذ عن علمائها. وعاد إلى نابلس فدرس وأفتى، وتوفي فيها. من كتبه: «الدراري المصنوعات في اختصار الموضوعات»، و«كشف اللثام، شرح عمدة الأحكام»، و«القول العلي لشرح أثر الامام علي»، و«لوائح الانوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية المضية في عقد أهل الفرقة المرضية». ولد سنة ١١١٤هـ، وتوفي سنة ١١٨٨هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٦، ص ١٥).

(٣) السفاريني، لوامع الأنوار البهية، (ج ١، ص ٢٤٨).

منعه، والمعنى هنا أن القرب في هذا الوقت أقرب إلى رحمة الله منه في غيره من الأوقات وأنه تعالى يُقبلُ عليهم بالتحنن والعطف أي يُلطف بهم ويرحمهم ويوفقهم للخير وليس معنى ذلك التأثر والانفعال النفساني لأن الله منزّه عن كل ما كان من صفات المخلوقين في هذا الوقت بما يُلقيه في قلوبهم من التنبيه والتذكير الباعثين لهم على الطاعة. وقد حكى ابن فورك أن بعض المشايخ ضبط رواية البخاري بضم أوله على حذف المفعول أي يُنزل ملكًا قالوا ويقويه ما روى النسائي وغيره عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما قالوا: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يُمهّل حتى يمضي شطر الليل الأول ثم يأمر مناديًا يقول هل من داع يستجاب له هل من مستغفر يغفر له هل من سائل يعطى»^(١)، قال القرطبي صححه عبد الحق، قالوا: وهذا يرفع الإشكال ويُزيل كل احتمال والسنة يُفسر بعضها بعضها وكذا الآيات، قالوا: ولا سبيل إلى حمله على صفات الذات المقدس فإن الحديث فيه التصريح بتجدد النزول واختصاصه ببعض الأوقات والساعات وصفات الرّب جل شأنه يجب اتصافها بالقدم وتنزيهها عن التجدد والحدوث، قالوا: وكل ما لم يكن فكان أو لم يثبت فثبت من أوصافه تعالى فهو من قبيل صفة الأفعال، قالوا: فالنزول والاستواء من صفات الأفعال».

قال الحافظ النووي في شرحه على مسلم عند قوله «ينزل ربنا» الحديث ما نصه: «هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء سبق إيضاحهما في كتاب الإيمان ومختصرهما أن أحدهما وهو مذهب

(١) النسائي، سنن النسائي، كتاب العمل والليلة، باب الوقت الذي يستحب فيه الاستغفار، (ج٦، ص١٢٤)، حديث ١٠٣١٦.

جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق.

والثاني مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف، وهو محكي هنا عن مالك والأوزاعي أنها تتأول على ما يليق بها بحسب مواطنها، فعلى هذا تأولوا هذا الحديث تأويلين:

أحدهما: تأويل مالك بن أنس وغيره، معناه تنزل رحمته وأمره وملائكته كما يقال: فعل السلطان كذا إذا فعله بأمره.

والثاني: أنه على الاستعارة ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللفظ.

وقال البيهقي في الأسماء والصفات^(١): «أخبرنا أبو عبد الله الحافظ حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه^(٢) حدثنا محمد بن بشر بن مطر حدثنا الهيثم بن خارجة حدثنا الوليد بن مسلم قال سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في التشبيه فقالوا أمروها كما جاءت بلا كيفية».

وقال القاضي ابن العربي في العارضة في شرحه على الترمذي: «واختلف

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٤٨٨).

(٢) أبو بكر بن بالويه، الإمام المفيد، الرئيس محمد بن أحمد بن بالويه الجلاب النيسابوري، من كبار بلده، أخذ عنه أبو علي الحافظ، وابن منده والحاكم. توفي في رجب سنة ٣٤٠هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٥، ص ٤١٩)، رقم الترجمة ٢٣٣.

الناس في هذا الحديث وأمثاله على ثلاثة أقوال:

فمنهم من رده لأنه خبر واحد ورد بما لا يجوز ظاهره على الله، وهم
المبتدعة.

ومنهم من قبله وأمره كما جاء ولم يتأوله ولا تكلم فيه مع اعتقاده أن الله
ليس كمثله شيء.

ومنهم من تأوله وفسره وبه أقول لأنه معنى قريب عربي فصيح.
أما إنه قد تعدى إليه قوم ليسوا من أهل العلم بالتفسير فتعدوا عليه
بالقول بالتكثير، قالوا: «في هذا الحديث دليل على أن الله في السماء على
العرش من فوق سبع سموات».

قلنا: هذا جهل عظيم، وإنما قال ينزل إلى السماء ولم يقل في هذا الحديث
من أين ينزل ولا كيف ينزل، فأما قوله «ينزل» فهو راجع إلى أفعاله لا إلى
ذاته، بل ذلك عبارة عن ملكه الذي ينزل بأمره ونهيه، والنزول كما يكون
في الأجسام يكون في المعاني فإن حملته في الحديث على الحسي فتلك
صفة الملك المبعوث بذلك وإن حملته على المعنوي بمعنى أنه لم يفعل ثم
فعل فيسمى ذلك نزولا عن مرتبة إلى مرتبة فهي عربية صحيحة^(١).

وذكر ذلك ابن حجر في «الفتح»^(٢) مستدلاً بكلام ابن العربي.

(١) الزرقاني، شرح الزرقاني، (ج ٢، ص ٤٩).

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، قوله باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، (ج ٣، ص ٣٠).

قال الشاعر:

«نبينا لم يثبت انتقالا
في كل ليلة من الليالي
يقول هل من سائلٍ دعاني
معناه ربي يأمر الملائكُ
من قال من فوق إلى تحت نَزَلَ
فالله قد جل عن التطورِ
وذاتُه لم يتغير في الأزَلِ
هنا النهارُ ظلمةٌ هناكَ
لو كان ربي في السماء قد سَكَنُ
لكان نازلا بلا انقطاعِ
إن جاءكم ما ليس بالمعقولِ
وأوضحتُ رواية النسائي
تأتي صراحةً على ذكر الملكُ

إلى إِلِه الخلق حين قالا
إلى السّما ينزِلُ ذو الجلالِ
أو طالبٍ عَفْوي عن العصيانِ
فينزلُوا مُبلّغين ذلكُ
قد شبه الله بخلقه وَزَلَ
يُحالُ أن يُدرَكَ بالتصوّرِ
وقل كما كان الإلهُ لم يَزَلِ
هل فكروا ما يقتضيه ذاكَ
لكان في تحرّكٍ وما سكنُ
حيثُ الظلامُ حلّ في البقاعِ
ففسرُوا المنقولَ بالمنقولِ
ينزِلُ من يَسْكُنُ في السّماءِ
ومن يُشبهه ربّنا فقد هلكُ».



المبحث الثالث تأويل حديث الرحمة

هذا الحديث وإن لم يكن في «صحيح البخاري» نورده هنا شارحين ومبينين ومثبتين أنه ليس على ظاهره كما تدعي المشبهة المجسمة فكثيراً ما يحتجون به في غير موضعه ويذكرونه تأييداً لعقيدتهم الكاسدة الفاسدة ولما له من تعلق بالمواضيع السابقة أثبتناه لنظهر أنه لا تعارض ولا تناقض بينه وبين حديث النزول وحديث الجارية على قول من صححه وأنه مؤول وليس على ظاهره عند كل علماء أهل السنة والجماعة فنقول:

أول أهل الحق قوله عليه الصلاة والسلام «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»^(١)، فمعنى هذا الحديث الذي رواه الترمذي: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»، مفسراً بالرواية الأخرى لهذا الحديث «ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء» رواه الإمام أحمد^(٢) وصححه الحاكم^(٣) بشواهده.

فهذه الرواية تُفسر الرواية الأولى لأن خير ما يُفسر به الحديث الوارد بالوارد كما قال الحافظ العراقي في ألفيته: وخير ما فسرت به بالوارد.

ثم المراد بأهل السماء الملائكة، ذكر ذلك الحافظ العراقي في أماليه

(١) الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٤، ص ١٧٣)، حديث ١٩٢٤.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند أحمد بن حنبل، (ج ١٢، ص ٣٣٣).

(٣) الحاكم، المستدرک، (ج ٤، ص ١٧٥)، حديث ٧٢٧٤.

عقِبَ هذا الحديث، ونص عبارته: واستدلَّ بقوله: «أهل السماء» على أنَّ المرادَ بقوله تعالى في الآية: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ (١٦) ﴿١﴾ الملائكة» لأنه لا يقال لله «أهل السماء». و«مَن» تصلح للمفرد وللجمع فلا حجة للمجسمة في الآية، ويقال مثل ذلك في الآية التي تليها وهي: ﴿أَمْ أَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ (١٧) ﴿٢﴾ ف«من» في هذه الآية أيضًا أهل السماء، فإن الله يسلطُ الملائكة على الكفار إذا أرادَ أن يُحِلَّ عليهم عقوبته في الدنيا كما أنهم في الآخرة هم الموكلون بتسليطِ العقوبة على الكفار لأنهم خزنة جهنم وهم يجزؤونَ عنقًا من جهنم إلى الموقفِ ليرتاعَ الكفارُ برؤيته. وتلك الرواية التي أوردها الحافظ العراقي في أماليه هكذا لفظها: «الراحمون يرحمهم الرحيمُ ارحموا أهل الأرض يرحمكم أهل السماء». وإسنادها حسن، ولا يجوز أن يقال عن الله أهل السماء فتُحمَلُ رواية «من في السماء» على أن المراد بها أهل السماء أي الملائكة، وكذلك يُحمَلُ قوله تعالى ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ (١٦) على الملائكة، ومعروفٌ في النحوِ إفرادُ ضميرِ الجمع، قال الله تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ (٢٥) ﴿٣﴾ وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ (٤٢) ﴿٤﴾، وقال تعالى ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ (٤٣) ﴿٥﴾.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «ارحموا من في الأرض» معناه بإرشادهم

(١) سورة الملك، آية ١٦.

(٢) سورة الملك، آية ١٧.

(٣) سورة الأنعام، آية ٢٥.

(٤) سورة يونس، آية ٤٢.

(٥) سورة يونس، آية ٤٣.

إلى الخير بتعليمهم أمور الدين الضرورية التي هي سبب لإنقاذهم من النار ويأطعم جائعهم وكسوة عاريهم ونحو ذلك. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «يرحمكم أهل السماء»، فأهل السماء هم الملائكة وهم يرحمون من في الأرض أي أن الله يأمرهم بأن يستغفروا للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنَّا اللَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾^(١)، وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾﴾^(٢)، ويُنزلون لهم المطر وينفحونهم بنفحات خيرٍ ويمدونهم بمدد خيرٍ وبركة، ويحفظونهم على حسب ما يأمرهم الله تعالى.

قال العلامة السندي^(٣) في حاشيته على مسند أحمد^(٤): «يَرْحَمُكُمْ» بالجزم على جواب الأمر، ويمكن الرفع على الاستئناف بمنزلة التعليل على معنى: «يرحمكم إن رحمتهم»، أهل السماء أي: سكان السماء من الملائكة الكرام، ورحمتهم بالاستغفار لهم وللدعاء، وتفسيره بالله بعيد».

(١) سورة الشورى، آية ٥.

(٢) سورة غافر، آية ٧.

(٣) السندي، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي، فقيه حنفي عالم بالحديث والتفسير والعربية. أصله من السند ومولده فيها، وتوطن بالمدينة إلى أن توفي. له: «حاشية على سنن ابن ماجه»، و«حاشية على سنن أبي داود»، و«حاشية على صحيح البخاري»، و«حاشية على مسند الإمام أحمد»، و«حاشية على صحيح مسلم»، و«حاشية على سنن النسائي»، و«حاشية على البيضاوي» وغير ذلك. توفي سنة ١١٣٨ هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٦، ص ٢٥٣).

(٤) أحمد، حاشية السندي على مسند أحمد، (ج ٤، ص ٢٩٧).

قلنا: كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا عَاتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ (٩٣) (١).

قال الإمام القرطبي في تفسيره في قول الله تعالى ﴿عَأْمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ﴾ (١٦) (٢): «وقيل: هو إشارة إلى الملائكة. وقيل: إلى جبريل وهو الملك الموكل بالعذاب. قلت: ويحتمل أن يكون المعنى: أأمنتكم خالق من في السماء أن يخسف بكم الأرض كما خسفها بقارون» (٣).

ثم قال رحمه الله كما ذكرنا سابقاً ما نصه: «والمراد بها توقيير الله وتنزيهه عن السفلى والتحت. ووصفه بالعلو والعظمة لا بالأماكن والجهات والحدود لأنها صفات الأجسام. وإنما ترفع الأيدي بالدعاء إلى السماء لأن السماء مهبط الوحي، ومنزل القطر، ومحل القدس، ومعدن المطهرين من الملائكة، وإليها ترفع أعمال العباد، وفوقها عرشه وجنته كما جعل الله الكعبة قبلة للدعاء والصلاة، ولأنه خلق الأمكنة وهو غير محتاج إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان. ولا مكان له ولا زمان. وهو الآن على ما عليه كان» (٤).

وقال الإمام الرّازيُّ: «واعلم أن المشبهة احتجوا على إثبات المكان لله تعالى بقوله: ﴿عَأْمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ﴾ (١٦)، والجواب عنه أن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين

(١) سورة مريم، آية ٩٣.

(٢) سورة الملك، آية ١٦.

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٨، ص ٢١٥).

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٨، ص ٢١٥).

لأن كونه في السماء يقتضي كون السماء محيطاً به من جميع الجوانب، فيكون أصغر من السماء، والسماء أصغر من العرش بكثير، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئاً حقيقاً بالنسبة إلى العرش، وذلك باتفاق أهل الإسلام محال، ولأنه تعالى قال: ﴿قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ ۗ﴾^(١) فلو كان الله في السماء لوجب أن يكون مالكا لنفسه وهذا محال، فعلمنا أن هذه الآية يجب صرفها عن ظاهرها إلى التأويل^(٢).

وقال أيضاً في كتابه «التفسير الكبير»^(٣): «ولو تدبر الإنسان القرآن لوجده مملوءاً من عدم جواز كونه في مكان».

ويردُّ على المجسمة بإيراد الآية: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ۗ﴾^(٤) فيقال لهم: هل تزعمون أن الله يُصعق، وكذا يُردُّ عليهم بإيراد الآية: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۗ﴾^(٥). ثمَّ لو كان الله ساكنَ السماء كما يزعمُ المجسمة لكانَ الله يزاحمُ الملائكةَ وهذا مُحال، فقد ثبتَ في الحديث الذي أخرجه الترمذي^(٦) وابن ماجه والبزار من حديث أبي ذر مرفوعاً «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وعليه ملك» الحديث، وفي الحديث

(١) سورة الأنعام، آية ١٢.

(٢) الرازي، التفسير الكبير، (م١٥، ج٣٠، ص٦١).

(٣) الرازي، التفسير الكبير، (م١٣، ج٢٥، ص١٩٤).

(٤) سورة الزمر، آية ٦٨.

(٥) سورة الأنبياء، آية ١٠٤.

(٦) الترمذي، سنن الترمذي، (ج٤، ص٢٩٩)، حديث ٢٣٢١.

الذي أخرجه الطبراني^(١) من حديث جابر مرفوعاً «ما في السموات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف إلا وفيه ملك قائم أو راعع أو ساجد» وللطبراني نحوه من حديث عائشة. وفيه دليلٌ على أنه يستحيل على الله أن يكون ساكنَ السماء وإلا لكان مساوياً للملائكة مزاحماً لهم.

فائدة: كلا اللَّفظين «أهل السماء» و«من في السماء» محفوظان من حديث سفيان بن عيينة^(٢)، عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص، مرفوعاً.

وهذا الحديث يسمّى «المسلسل بالأوليّة»، وهو حديثٌ درج المحدثون على الافتتاح به في سماعهم وإسماعهم لما فيه من تسلسل الأوليّة. وقد لهجت به السنة المحدثين (بشرطه) فافتتحوا به مجالس التحديث والأمالى،

(١) الطبراني، المعجم الكبير، (ج ٢، ص ١٨٤)، حديث ١٧٥١.

(٢) رواه جماعةٌ من أعيان أصحاب سفيان عنه بلفظ «أهل السماء»، وهم:

- ١- أحمد بن حنبل.
 - ٢- عليّ بن المدينيّ.
 - ٣- عبد الله بن المبارك.
 - ٤- مسدّد بن مسرهد.
 - ٥- عبد الله بن الزبير الحميديّ.
 - ٦- إسحاق بن إبراهيم الطالقانيّ.
 - ٧- محمود بن آدم.
- ورواه عنه جماعةٌ أيضًا بلفظ «من في السماء»، وهم:
- ١- أبو بكر بن أبي شيبة.
 - ٢- عبد الله بن الزبير الحميديّ.
 - ٣- محمّد بن يحيى بن أبي عمر العدنيّ.
 - ٤- عبد الرحمن بن بشر بن الحكم.
 - ٥- محمّد بن الوليد بن عبد الحميد القرشيّ.
 - ٦- خالد بن نزار.

وَضَمَّنُوهُ مَسْمُوعَاتِهِمْ وَإِجَازَاتِهِمْ، بَلْ صَنَّفُوا فِيهِ الْمَصْنَفَاتِ الْكَثِيرَةَ، وَنَظَّمُوا فِيهِ الْأَشْعَارَ الطَّرِيفَةَ، وَاسْتَخْرَجُوا مِنْهُ الْكَثِيرَ مِنَ الْفَوَائِدِ الْإِسْنَادِيَّةِ وَالْمَتْنِيَّةِ. وَمَعْنَى مَسْلَسِلٍ بِالْأُولِيَّةِ أَنْ يَقُولَ الرَّاوي حَدَّثَنَا فُلَانٌ وَهُوَ أَوَّلُ حَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْهُ قَالَ حَدَّثَنَا فُلَانٌ وَهُوَ أَوَّلُ حَدِيثٍ سَمِعْتَهُ مِنْهُ.. إِلَى آخِرِهِ.

وقد قال الحافظ ابن ناصر الدين الدمشقي في كتابه «مجالس في تفسير قول الله تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (١٦٤)»: «هذا الحديث له ألقابٌ بحسب الوجوه التي رويناها منها، فهو حديثٌ صحيحٌ، حسنٌ، فردٌ، مسلسلٌ من وجهين، معلٌ من وجوه، مختلفٌ في إسناده من وجوه، مرفوعٌ، موقوفٌ من وجه، منقطعٌ على قولٍ مرجوح، معنعنٌ». وقال في موضع آخر: «هذا الحديث له ألقابٌ بحسب طرقه التي رويناها منه، فهو حديثٌ صحيحٌ، وحسنٌ، وضعيف الإسناد من وجه، وفردٌ، ومعلٌ من وجوه، ومرفوعٌ، وموقوفٌ من وجه، ومسلسلٌ بالأولية: مقطوع التسلسل، وموصول التسلسل من غير انقطاع، كما رويناها، ومعنعنٌ، لقول سفيان فيه: عن عمرو بن دينار، عن أبي قابوس، عن عبد الله بن عمرو».



(١) سورة آل عمران، آية ١٦٤.

المبحث الرابع

تأويل حديث

«والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها»

إن الحديث الذي رواه مسلم^(١): «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها» يحمل أيضاً على الملائكة بدليل الرواية الثانية الصحيحة التي رواها ابن حبان^(٢) وغيره، والتي هي أشهر من هذه وهي: «لعتها الملائكة حتى تصبح».

قال شارح البخاري أحمد بن محمد الشافعي القسطلاني^(٣): «الذي نفسي بيده أي بتقديره وتدبيره».

فإن قيل: قد ورد حديث^(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يقرأ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٥)

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب النكاح، باب تحريم امتناعها من فراش زوجها، (ج ٤، ص ١٥٧)، حديث ٣٦١٣.

(٢) ابن حبان، صحيح ابن حبان، كتاب النكاح، باب معاشر الزوجين، (ج ٩، ص ٤٨٠)، حديث ٤١٧٢.

(٣) القسطلاني، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، (ج ٢، ص ٢٨٧).

(٤) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ١٧٩).

(٥) سورة النساء، آية ٥٨.

إلى قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾^(١) ويضع أصبعيه قال ابن يونس أحد رواته: وضع أبو هريرة إبهامه على أذنه والتي تليها على عينه.

فالجواب ما قال البيهقي: «قلت: والمراد بالإشارة المروية في هذا الخبر تحقيق الوصف لله عز وجل بالسمع والبصر، فأشار إلى محلي السمع والبصر من لإثبات صفة السمع والبصر لله تعالى كما يقال قبض فلان على مال فلان ويشار باليد على معنى أنه حاز ماله، وأفاد هذا الخبر أنه سميع بصير له سمع وبصر لا على معنى أنه عليم، إذ لو كان بمعنى العلم لأشار في تحقيقه إلى القلب لأنه محل العلوم منا، وليس في الخبر إثبات الجارحة، تعالى الله عن شبه المخلوقين علواً كبيراً».

وأما حديث الطبراني^(٢): «وعدني ربي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً لا حساب عليهم ولا عذاب مع كل واحد سبعين ألفاً وثلاث حثيات من حثيات ربي عز وجل»، فقد أعلاه الحافظ ابن حجر في الفتح بالاختلاف في سنده^(٣)، وكذا الحافظ البيهقي^(٤).

وأما ما ورد عن مجاهد في تفسير المقام المحمود بأنه إجلال الله للنبي معه على عرشه فليس فيه حجة قال بعض الحفاظ: أما رفع ذلك إلى النبي ﷺ فباطل، وكذا ما ورد عن عائشة، قال الحافظ ابن الجوزي^(٥): «قلت: هذا حديث مكذوب لا يصح عن رسول الله ﷺ».

(١) سورة النساء، آية ٥٨.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير، (ج ٨، ص ١٢٩، ١٣٠).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١١، ص ٣٤٦).

(٤) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٣٢٩، ٣٣٠).

(٥) ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه، حديث ٣٩.

وأما ما أخرجه ابن أبي حاتم عن سعيد بن أبي هلال أحد صغار التابعين أنه بلغه أن المقام المحمود أن رسول الله ﷺ يكون يوم القيامة بين الجبار وبين جبريل فيغبطه بذلك أهل الجمع فلا حجة فيه أيضا فإنه مرسل^(١)، وكذلك ما أخرجه الطبري عن عبد الله بن سلام أن محمداً يوم القيامة على كرسي الرب بين يدي الرب.

قلنا: الجواب يكفي لعدم إثبات صورة لله بهذه المرويات أن الصفة عند العلماء لا تثبت بقول صحابي أو تابعي إنما تثبت الصفة لله بالكتاب والأحاديث المرفوعة الصحاح، فهذه القاعدة تريح من تكلف الجواب عن بعض ما يروى عن أفراد الصحابة والتابعين.

قال الشاعر:

«اللَّهُ لَيْسَ يُشْبَهُ الْعَوَالِمَ	سُبْحَانَهُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ سَالِمٍ
الْوَجْهَ ثُمَّ الْعَيْنُ وَالْيَدَانِ	قَدْ نُسِبَتْ إِلَيْهِ فِي الْقُرْآنِ
جَمِيعُهَا مِنْ صِفَةِ الْإِنْسَانِ	الْلَفْظُ وَاحِدٌ وَمَعْنَيَانِ
فَنَزَّهَ اللَّهُ عَنِ النُّقْصَانِ	وَأَسْمَعُ مَعِيَ مَقَالَةَ الْعُدْنَانِ
يَقُولُ نَفْسِي بِيَدِ الرَّحْمَنِ	مِنْ قُوَّةِ التَّسْلِيمِ وَالْإِيمَانِ
مَعْنَى الْيَدِ التَّدْبِيرُ وَالتَّقْدِيرُ	وَمُحْكَمِ الْآيِ لَذَا يُشِيرُ
تَأْتِي بِمَعْنَى الْحَفْظِ وَالْعِنَايَةِ	وَتَقْتَضِي الْإِكْرَامَ وَالرَّعَايَةَ».

(١) ابن حجر، فتح الباري، (ج ٨، ص ٤٠٠).

المبحث الخامس

تأويل حديث

«لا يوطن الرجل المسجد للصلاة أو لذكر الله إلا تبشيش

الله به كما يتبشيش أهل الغائب إذا قدم عليهم غائبهم»^(١)

قال البيهقي^(٢) رحمه الله: «قال رسول الله ﷺ: «لا يتوضأ أحدكم فيحسن وضوءه ويسبغه ثم يأتي المسجد لا يريد إلا الصلاة فيه إلا تبشيش الله به كما يتبشيش أهل الغائب بطلعته»، وللعرب استعارات في الكلام، ألا ترى في قوله سبحانه: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(٣) بمعنى الاختبار وإن كان أصل الذوق في الفم، والعرب تقول: ناظر فلاناً وذُق ما عنده أي تعرّف واختبر، واركب الفرس وذقّه، قال الشيخ: وقد مضى في حديث أبي الدرداء: «يستبشر»، وروي ذلك أيضاً في حديث أبي ذرٍّ ومعناه يرضى أفعالهم ويقبل نيتهم فيها والله أعلم».

وقال الزبيدي^(٤): «التَّبَشِيشُ من الله تعالى الرضا والإكرام وتلقيه بالبرِّ وتقريبه إياه عن ابن الأنباري وهو مجازٌ، وبه فُسِّرَ الحديثُ «لا يوطنُ الرَّجُلُ المساجدَ للصلاة والذكر إلا تبشيش الله به كما يتبشيشُ الرَّجَالُ بغائبهم إذا قدم عليهم».

(١) ابن حبان، صحيح ابن حبان، (ج ٣، ص ٦٧). ورواه أبو داود الطيالسي بلفظ: «لا يوطن عبد المسجد الولاء والذكر إلا تبشيش الله عز وجل به إذا خرج من أهله كما يتبشيش أهل الغائب بغائبهم». أبو داود الطيالسي، مسند أبي داود الطيالسي، (ج ٢، ص ٨٩).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤٧٨).

(٣) سورة النحل، آية ١٢.

(٤) الزبيدي، تاج العروس، مادة ب ش ش، (ج ١٧، ص ٨١).

المبحث السادس تأويل حديث

«يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه»^(١)

قال البخاري^(٢) رحمه الله: «عن صفوان بن محرز، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: بينما أنا أمشي معه إذ جاءه رجل فقال: يا ابن عمر، كيف سمعت رسول الله ﷺ يذكر في النجوى؟ قال: سمعته يقول: «يدنو المؤمن من ربه حتى يضع عليه كنفه»، قال: فذكر صحيفته فيقرّره بذنوبه: هل تعرف؟ فيقول: ربّ أعرف، حتى يبلغ به ما شاء أن يبلغ، فيقول: إني سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر فينادى على رؤوس الأشهاد، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾^(٣)، قال ابن المبارك: كنفه يعني ستره». وقال ابن حجر العسقلاني في «الفتح» ما نصه^(٤): «يدنو المؤمن من ربه: أي يقرب منه قرب كرامةٍ وعلوٍ منزلةٍ. قوله «حتى يضع كنفه» بفتح الكاف والنون بعدها فاء أي جانبه. والكنف أيضًا الستر وهو المراد هنا، والأول مجاز في حق الله تعالى كما يقال فلان في كنف فلان أي في حمايته وكلاءته».

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة هود، (ج ٤، ص ١٧٢٥)، حديث ٤٤٠٨.

(٢) البخاري، خلق أفعال العباد، (ص ٧٨).

(٣) سورة هود، آية ١٨.

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٠، ص ٤٨٨).

المبحث السابع تأويل حديث «ضحك الله الليلة»

ورد في صحيح البخاري^(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فبعث إلى نسائه، فقلن ما معنا إلا الماء، فقال رسول الله ﷺ «من يضم؟» أو «من يضيف هذا؟» فقال رجل من الأنصار أنا. فانطلق به إلى امرأته فقال أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت ما عندنا إلا قوت صبياني! فقال هيئي طعامك وأصبحي سراجك ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاءً، فهيات طعامها وأصبحت سراجها ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلاً يُريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ فقال: «ضحك الله الليلة» أو «عجب من فعالكما» فأنزل الله: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقِ شَحْنَفَهُ فَاُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢)، قال ابن حجر^(٣): «ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية والمراد بهما الرضا بصنيعهما».

وقال الحافظ ابن حجر: «قال الخطابي^(٤): الضحك الذي يعترى البشر عندما يستخفهم الفرح أو الطرب غير جائز على الله تعالى، وإنما هذا مثل

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب قوله عز وجل ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ الحشر، (ج ٣، ص ١٣٨٢)، حديث ٣٥٨٧.

(٢) سورة الحشر، آية ٩.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ٧، ص ١٢٠).

(٤) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤٧٠).

ضرب لهذا الصنيع الذي يحل محل الإعجاب عند البشر فإذا رأوه أضحكهم، ومعناه: الإخبار عن رضا الله بفعل أحدهما وقبوله للآخر ومجازاتها على صنيعهما بالجنة مع اختلاف حالتهما.. وقد تأول البخاري^(١) الضحك في موضع آخر على معنى الرحمة وهو قريب وتأويله على معنى الرضا أقرب^(٢).

وقد قال القرطبي في الحديث الذي ورد^(٣) «فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله منه، فإذا ضحك الله منه قال له: ادخل الجنة» ما نصه^(٤): «الضحك من خواص البشر، وهو تعبير أو جبه سرور القلب بحصول كمال لم يكن حاصلًا قبل، فتثور من القلب حرارة ينسب لها الوجه، ويضيق عنها الفم، فينفتح، وهو التبسم، فإذا زاد ولم يضبط الإنسان نفسه قهقهه، وذلك كله على الله محال، لكن لما كان دلالة عندنا على الرضا ومظهرًا له غالبًا، عبّر عن سببه به، وقد قالوا: تضحك الأرض من بكاء السماء، أي: يظهر خيرها».



(١) البخاري، صحيح البخاري، (ج ٦، ص ٧٣).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (ج ٦، ص ٤٠).

(٣) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، (ج ١٣، ص ٣٠٣). ورواه البخاري بلفظ: «فلا يزال يدعو حتى يضحك الله منه فإذا ضحك الله منه قال له ادخل الجنة». البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ۚ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، (ج ٦، ص ٢٧٠٤)، حديث ٧٠٠٠.

(٤) القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، كتاب الإيمان، باب ما جاء في رؤية الله تعالى في الدار الآخرة، (ج ٣، ص ٤٦).

المبحث الثامن

تأويل حديث

«**وإن اقترب إليَّ شبرًا اقتربت منه ذراعًا، وإن اقترب إليَّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»

قال الحافظ أبو عيسى الترمذي في سننه^(١): «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله عزَّ وجلَّ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منهم، وإن اقترب إليَّ شبرًا اقتربت منه ذراعًا، وإن اقترب إليَّ ذراعًا اقتربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة».

قال الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في «الأسماء والصفات»^(٢) في باب ما روي في التقرب والإتيان والهرولة: «عن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من عمل حسنةً فجزاؤه عشر أمثالها وأزيد، ومن عمل سيئةً فجزاؤه مثلها أو أغفر، ومن تقرب إليَّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، ومن تقرب إليَّ ذراعًا تقربت منه باعًا، ومن أتاني يمشي أتيته هرولةً، ومن لقيني بقراب الأرض خطيئةً لم يشرك بي شيئًا، جعلت له مثلها مغفرةً» فقالوا: هذا الحديث يستبشعه الناس فقال: إنما هذا عندنا على الإجابة.

وأخرج البخاري عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ يرويه عن ربه قال:

(١) الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٥، ص ٢٣٧)، حديث ٣٦٧١.

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٢٠٢-٢٠٦).

«إذا تقرب العبد إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا وإذا تقرب مني ذراعًا تقربت منه باعًا وإذا أتاني مشيًا أتته هرولةً»^(١).

وأخرجه مسلم في «الصحيح»^(٢) من حديث وكيع^(٣) عن الأعمش وقال في أوله: «يقول الله عز وجل وكأنه سقط من روائتنا، والذي في آخر روائتنا أظنه من قول الأعمش» ثم ساق روايات أخر ثم قال: «والباع والبوع مستقيمان في اللغة جاريتان على سبيل العربية، والأصل في الحرف الواو فقلبت الواو ألفًا للفتحة».

ثم الجهمية وأصناف القدرية وأخفاف المعتزلة المجترئة على رد أخبار الرسول بالمزيّف من المعقول، لما ردّوا إلى حولهم وأحاط بهم الخذلان، واستولى عليهم بخدائعه الشيطان، ولم يعصمهم التوفيق ولا استنقذهم التحقيق، قالوا: الهرولة لا تكون إلا من الجسم الممتقل والحيوان المهلول، وهو ضربٌ من ضروب حركات الإنسان كالهرولة

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، (ج٦، ص ٢٧٤١)، حديث ٧٠٩٨.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب الحث على ذكر الله تعالى، (ص ١٠٣٣)، حديث ٢٦٧٥.

(٣) وكيع بن الجراح بن مليح، الحافظ، محدث العراق، أبو سفيان الرؤاسي، الكوفي، أحد الاعلام. ولد سنة تسع وعشرين ومائة، قاله أحمد بن حنبل. وقال خليفة وهارون بن حاتم: «ولد سنة ثمان وعشرين». واشتغل في الصغر. وسمع من: هشام بن عروة، وسليمان الأعمش، وإسماعيل بن أبي خالد، وابن عون، وابن جريج، وداود الأودي، ويونس بن أبي إسحاق، وأسود بن شيبان، وهشام بن الغاز، والأوزاعي، وغيرهم كثير. قال أبو هشام الرفاعي: «مات وكيع سنة سبع وتسعين ومائة يوم عاشوراء فدفن بفيد، يعني راجعًا من الحج». وقال أحمد ابن حنبل: «حج وكيع سنة ست وتسعين، ومات بفيد». عاش ثمانينًا وستين سنة سوى شهر أو شهرين. الذهبي، سير أعلام النبلاء، الذهبي، (ج٩، ص ١٤٠ وما بعدها)، رقم الترجمة ٤٨.

المعروفة في الحجّ، وهكذا قالوا في قوله: «تقرّبت منه ذراعًا»^(١) تشبيهُ إذ يقال ذلك في الأشخاص المتقاربة، والأجسام المتدانية الحاملة للأعراض ذوات الانبساط والانقباض، فأما القديم المتعالي عن صفة المخلوقين، وعن نعوت المخترعين، فلا يقال عليه ما ينشلم به التوحيد، ولا يسلم عليه التمجيد فأقول: إنّ قول الرسول ﷺ موافقٌ لقضايا العقول، إذ هو سيّد الموحّدين من الأوّلين والآخريين، ولكن من نبذ الدين وراءه، وحكّم هواه وآراءه، ضلّ عن سبيل المؤمنين، وباء بسخط ربّ العالمين.

تقرّب العبد من مولاه بطاعاته وإرادته وحركاته وسكناته سرًّا وعلنًا، كالذي روي عن النبي ﷺ: «ما تقرّب العبد مني بمثل ما تقرّب من أداء ما افترضته عليه، فلا يزال يتقرّب إليّ بالنوافل حتّى أكون له سمعًا وبصرًا»^(٢)، قال الحافظ البيهقي^(٣): «وهذا القول من الرسول ﷺ من لطيف التمثيل عند ذوي التّحصيل البعيد من التّشبيه، المكين من التّوحيد، وهو أن يستولي الحقّ على المتقرّب إليه بالنوافل حتّى لا يسمع شيئًا إلاّ به، ولا ينطق إلاّ عنه، نشرًا لآلائه وذكرًا لنعمائه وإخبارًا عن مننه المستغرقة للخلق، فهذا معنى قوله: يسمع به وينطق ولا يقع نظره على منظورٍ إليه إلاّ رآه بقلبه موحدًا، وبلطائف آثار حكمته، ومواقع قدرته من ذلك المرئيّ المشاهد، يشهده بعين التدبير وتحقيق التّقدير، وتصديق التّصوير.

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، (ج ٦، ص ٢٧٤١)، حديث ٧٠٩٩.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (ج ٥، ص ٢٣٨٤)، حديث ٦١٣٧.

(٣) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٣٨٤، ٣٨٥).

وفي كل شيء له شاهدٌ يدلّ على أنّه واحدٌ
فتقرّب العبد بالإحسان، وتقرّب الحقّ بالامتنان، يريد أنّه الذي أدناه، وتقرّب
العبد إليه بالتوبة والإنابة، وتقرّب البارئ إليه بالرحمة والمغفرة، وتقرّب
العبد إليه بالسؤال وتقرّبه إليه بالنوال، وتقرّب العبد إليه بالسر وتقرّبه إليه
بالبشر لا من حيث توهمته الفرقة المضلّة للأعمار والمتغاية بالإعثار،
وقد قيل في معناه: إذا تقرّب العبد إليّ بما به تعبدته، تقرّبت إليه بما له عليه
وعدته.

وقيل في معناه: إنّما هو كلام خرج على طريق القرب من القلوب دون
الحواس، مع السّلامة من العيوب على حسب ما يعرفه المشاهدون،
ويجده العابدون من أخبار دنو من يدنو منه، وقرب من يقرب إليه، فقال
على هذه السّبيل، وعلى لسان التعليم بما يقرب من التّفهيم، إنّ قرب البارئ
من خلقه بقربهم إليه بالخروج فيما أوجبه عليهم، وهكذا القول في الهرولة،
إنما يخبر عن سرعة القبول، وحقيقة الإقبال ودرجة الوصول، والوصف
الذي يرجع إلى الله سبحانه وتعالى يصرفه لسان التّوحيد وبيان التّجريد
إلى نعوته المتعالية وأسمائه الحسنی ولولا الإملال أحذره وأخشاه لقلت
في هذا ما يطول دركه ويصعب ملكه، والذي أقول في هذا الخبر وأشباهه
من أخبار الرّسول ﷺ المنقولة على الصّحة والاستقامة بالرواية الأثبات
العدول، وجوب التّسليم، ولفظ التّحكيم، والانقياد بتحقيق الطّاعة، وقطع
الرّيب عن الرّسول ﷺ وعن الصّحابة النّجباء، الذين اختارهم الله تعالى له
وزراء وأصفياء، وخلفاء، وجعلهم السّفراء بيننا وبينه ﷺ عن حقّ عداه أو
عدوّه وصدق تجاوزوه، والنّاس ضربان: مقلّدون وعلماء، فالذين يقلّدون

أئمة الدين، سبيلهم أن يرجعوا إليهم عند هذه الموارد، والذين منحوا العلم ورزقوا الفهم هم الأنوار المستضاء بهم، والأئمة المقتدى بهم، ولا أعلمهم إلا الطائفة السنية، والحمد لله رب العالمين».

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(١) ما نصه: «قال ابن بطال: وصف سبحانه نفسه بأنه يتقرب إلى عبده ووصف العبد بالتقرب إليه، ووصفه بالإتيان والهرولة كل ذلك يحتمل الحقيقة والمجاز، أي الحقيقة في صفات المخلوقين، فحملها على الحقيقة يقتضي قطع المسافات وتداني الأجسام، وذلك في حقه تعالى محال، فلما استحالت الحقيقة تعين المجاز لشهرته في كلام العرب، فيكون وصف العبد بالتقرب إليه شبرًا وذراعًا وإتيانه ومشيه معناه التقرب إليه بطاعته وأداء مفترضاته ونوافله، ويكون تقربه سبحانه من عبده وإتيانه والمشي عبارة عن إثابته على طاعته وتقربه من رحمته، ويكون قوله أتيته هرولة أي أتاه ثوابي مسرعًا، ونقل عن الطبري أنه إنما مثل القليل من الطاعة بالشبر منه، والضعف من الكرامة والثواب بالذراع فجعل ذلك دليلًا على مبلغ كرامته لمن أدام على طاعته أن ثواب عمله له على عمله الضعف، وأن الكرامة مجاوزة حده إلى ما يشبهه الله تعالى، وقال ابن التين القرب هنا نظير ما تقدم في قوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾^(٢) فإن المراد به قرب الرتبة وتوفير الكرامة، والهرولة كناية عن سرعة الرحمة إليه ورضا الله عن العبد وتضعيف الأجر، قال: والهرولة ضرب من المشي السريع وهي دون العدو، وقال صاحب المشارق المراد بما جاء في هذا

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي ﷺ وروايته عن ربه، (ج ١٣، ص ٥٢٢).

(٢) سورة النجم، آية ٩.

الحديث سرعة قبول توبة الله للعبد، أو تيسير طاعته وتقويته عليها وتمام هدايته وتوفيقه، والله أعلم بمراده».

وقال محمد بن أبي نصر فتوح بن عبد الله الحميدي في كتابه «تفسير غريب ما في الصحيحين»^(١) ما نصه: «الهرولة بين المشي والعدو، ضَرْبُهُ مثلاً للمجازاة بالسرعة المكافئة، والله تعالى لا يُشَبَّهُ بشيء من صفات المخلوقات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢)».

وقال أبو عيسى في الحديث: «هذا حديث حسن صحيح، ويروى عن الأعمش^(٣) في تفسير هذا الحديث: «مَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شَبْرًا تَقَرَّبَتْ مِنْهُ ذِرَاعًا»، يعني بالمغفرة والرحمة، وهكذا فَسَّرَ بعضُ أهل العلم هذا الحديث وقالوا: إنما معناه يقول: إذا تَقَرَّبَ إِلَيَّ العبد بطاعتي وما أَمَرْتُ أُسْرِعُ إِلَيْهِ بِمَغْفَرَتِي وَرَحْمَتِي»^(٤).

والعجيب الغريب من ابن عثيمين إمام المجسمة كيف أخذ نص الحديث على ظاهره وادّعى أن الله تعالى يأتي هرولةً والعياذ بالله تعالى، كما قال في الكتاب المسمى «مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين» ما نصه: «وأي مانع

(١) الحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين، (ص ١٤٧).

(٢) سورة الشورى، آية ١١.

(٣) الأعمش، سليمان بن مهران، الإمام، شيخ الإسلام، شيخ المقرئين والمحدثين، أبو محمد الأسدي، الكاهلي مولاهم، الكوفي الحافظ، ولد سنة ٦١ هـ، ورأى أنس بن مالك وحكى وروى عنه، قال عنه يحيى القطان: «هو علامة الإسلام». وقال وكيع بن الجراح: «كان الأعمش قريباً من سبعين سنة لم تفته التكبيرة الأولى». توفي سنة ١٤٧ هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٥، ص ٤١١-٤٥٢)، رقم الترجمة ١٠٧٦.

(٤) الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٥، ص ٢٣٨).

من أن نؤمن بأن الله تعالى يأتي هرولةً^(١)، والعياذ بالله تعالى من هذا الكفر. هذا وقد أنكر علماء المجسمة على الإمام الترمذي تأويله السابق واتهموه ببدعة الجهمية والعياذ بالله، فقال ابن القيم في كتابه المسمى «الصواعق المرسلية على الجهمية والمعطلة» ما نصه: «وأما تأويل الترمذي وغيره بالعلم، فقال شيخنا أي ابن تيمية: هو ظاهر الفساد من جنس تأويلات الجهمية»^(٢).

ولم يكتف علماء المجسمة بالإنكار على الإمام الترمذي تأويله السابق، بل شنّوا عليه ووصفوه بالبدعة المخرجة عن الإسلام والإيمان، وذلك بسبب أنه ردّ عقيدة إجلال الله لسيدنا محمد ﷺ معه على العرش يوم القيامة، فقد قال أبو بكر بن الخلال^(٣) ناقلاً عن أبي بكر الصاغانى وهو من مجسمة بغداد ما نصه^(٤): «لا أعلم أحداً من أهل العلم ممن تقدّم ولا في عصرنا هذا إلا وهو منكرٌ لما أحدث الترمذي من ردّ حديث محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد في قوله ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾^(٥)، قال: «يقعده على

(١) ابن عثيمين (المجسم)، مجموعة رسائل وفتاوى ابن عثيمين، (ج ١، ص ١٨٤).

(٢) الموصلي، المسمى مختصر الصواعق المرسلية على الجهمية والمعطلة لابن القيم، (ص ٤٨٥).

(٣) الخلال، أحمد بن محمد بن هارون، أبو بكر، مفسر عالم بالحديث واللغة، من كبار الحنابلة. من أهل بغداد. كانت حلقتة بجامع المهدي. قال ابن أبي يعلى: «له التفاسير الدائرة والكتب السائرة». وقال الذهبي: «جامع علم أحمد ومرتبته». من كتبه: «تفسير الغريب»، و«طبقات أصحاب ابن حنبل»، و«الحث على التجارة والصناعة والعمل». توفي سنة ٣١١هـ. خير الدين الزركلي، الأعلام، (ج ١، ص ٢٠٦).

(٤) أبو بكر الخلال، المسمى السنة، (ج ١، ص ٢٣٢).

(٥) سورة الإسراء، آية ٧٩.

العرش»^(١)، فهو عندنا جهميّ، يُهَجَّر ونحذر منه» والعياذ بالله تعالى.

فماذا تقول المشبهة المجسمة في قول الحاكم صاحب «المستدرک» في الثناء على الإمام الترمذي: «سمعتُ عمر بن علّك يقول: «مات البخاري فلم يخلف بخراسان مثل أبي عيسى، في العلم والحفظ والورع والزهد، بكى حتى عمي وبقي ضريراً سنين»^(٢).

وماذا تقول في ما نقله أبو الفضل البيهقي: «سمعت نصر بن محمد الشيركوهي يقول: سمعت محمد بن عيسى الترمذي يقول: «قال لي محمد ابن إسماعيل يعني الإمام البخاري: ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي».

هذا وقد روى الإمام البخاري حديثاً في صحيحه عن طريق تلميذه الإمام الترمذي^(٣).

وقال الذهبي مع ميله للتجسيم في ترجمته للإمام الترمذي^(٤): «محمد بن عيسى بن سورة، الحافظ، العَلَم، الإمام، البارِع..»، إلى أن قال: «جامعه» أي جامع الترمذي قاضٍ له بإمامته وحفظه وفقهه، ولكن يترخّص في قبول الأحاديث، ولا يشدد...».

هذا وقد روى الذهبي في سيره عن الإمام الترمذي أنه قال عن نفسه^(٥):

(١) حديث مكذوب على مجاهد رحمه الله تعالى، أورده الألباني في كتابه المسمى سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، (ج ٢، ص ٢٥٥).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٣، ص ٢٧٣).

(٣) قال أبو عيسى: «سمع مني محمد بن إسماعيل هذا الحديث» أي البخاري. الترمذي، سنن الترمذي، (ج ٥، ص ٨١)، حديث ٣٣٥٨.

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٣، ص ٢٧٠).

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٣، ص ٢٧٣).

«كنت في طريق مكة فكتبت جزأين من حديث شيخ، فوجدته فسألته وأنا أظن أن الجزأين معي، فسألته فأجابني، فإذا معي جزآن بياض، فبقي يقرأ علي من لفظه، فنظر فرأى في يدي ورقاً بياضاً، فقال: أما تستحي مني؟ فأعلمته بأمرى وقلت: أحفظه! فقال: اقرأ! فقرأته عليه، فلم يصدقني وقال: استظهرت قبل أن تجيء! فقلت: حدثني بغيره! فحدثني بأربعين حديثاً ثم قال: هات. فأعدتها عليه، ما أخطأت في حرف».

وقد وصف الإمام الترمذي كتابه «الجامع الصحيح» قائلاً^(١): «صنفتُ هذا الكتاب وعرضته على علماء الحجاز، والعراق، وخراسان، فرضوا به، ومن كان هذا الكتاب في بيته فكأنما في بيته نبي يتكلم»، فقال الذهبي معلقاً^(٢): «في «الجامع» علم نافع، وفوائده غزيرة، ورؤوس المسائل، وهو أحد أصول الإسلام، لولا ما كدّره بأحاديث واهية، بعضها موضوع، وكثير منها في الفضائل».

ثم أورد الذهبي ثناء الإمام أبي إسماعيل على «جامع الترمذي» بقوله^(٣): «جامع الترمذي أنفع من كتاب البخاري ومسلم، لأنهما لا يقف على الفائدة منهما إلا المتبحر العالم، و«الجامع» يصل إلى فائدته كل أحد».

فالترمذي إمام عالمٌ جليلٌ من أئمة أهل السنة والجماعة وذلك بشهادة العلماء والمشاهير حتى بشهادة أئمة الوهابية المعجسة.

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٣، ص ٢٧٤).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٣، ص ٢٧٤).

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٣، ص ٢٧٧).

المبحث التاسع تأويل حديث

«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»^(١)

قال الحافظ النووي في تفسير هذا الحديث ما نصه^(٢): «قال عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثرُوا الدعاء»، القرب ههنا من الله معناه: من رحمة ربه وفضله».

وقال الحافظ زين الدين عبد الرؤوف المناوي في شرح هذا الحديث ما نصه^(٣): «أقرب ما مبتدأ حذف خبره لسدّ الحال مسدّه يكون العبد أي الإنسان من ربه وهو ساجد أي أقرب ما يكون من رحمة ربه حاصل في حال كونه ساجداً، فأكثرُوا الدعاء في السجود لأنها حالة غاية التذلل وكمال القرب».

وقال أبو محمد محمود بدر الدين العيني ما نصه^(٤): «قال عليه السلام: «أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثرُوا الدعاء»^(٥)، معناه أقرب ما يكون من رحمة ربه وفضله».

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (ج ٢، ص ٤٩)، حديث ١١١١.

(٢) النووي، شرح مسلم للنووي، (ج ٤، ص ٢٠٠).

(٣) المناوي، التيسير بشرح الجامع الصغير، (ج ١، ص ٣٩١).

(٤) العيني، شرح سنن أبي داود، (ج ٤، ص ٨٢).

(٥) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، (ج ٢، ص ٤٩)، حديث ١١١١.

وقال الحافظ السيوطي ما نصه^(١): «قوله ﷺ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، قال القرطبي: هذا أقرب بالرتبة والكرامة لا بالمسافة لأنه منزّه عن المكان والمساحة والزمان. وقال البدر بن الصاحب في تذكرته: في الحديث إشارة إلى نفي الجهة عن الله تعالى وأن العبد في انخفاضه غاية الانخفاض يكون أقرب ما يكون إلى الله تعالى».

وقال القاضي أبو الفضل عياض المالكي ما نصه^(٢): «قوله ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد» معناه من رحمته وإجابته».

وقال ولي الدين أبو عبد الله محمد الخطيب العمري التبريزي ما نصه^(٣): «قوله - ﷺ -: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد»، فربما يتوهم قرب المسافة فنذب «سبحان ربي الأعلى»^(٤) دفعًا لذلك التوهم».



(١) السيوطي، شرح السيوطي لسنن النسائي، (ج ٢، ص ٢٢٦).

(٢) السبتي، مشارق الأنوار على صحاح الآثار، (ج ٢، ص ١٧٧).

(٣) التبريزي، مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (ج ٣، ص ٣٩٨).

(٤) المراد بالأعلى علو العظمة والقدر وليس علو المكان.

المبحث العاشر تأويل حديث «لا يمل الله حتى تملوا»

ورد عن عائشة أنّ النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأةٌ قال: من هذه؟ قالت: فلانة تذكر من صلاتها، قال: «مه عليكم بما تطيقون فوالله لا يملّ الله حتّى تملّوا وكان أحبّ الدين إليه ما دام عليه صاحبه». رواه البخاري^(١) ومسلم^(٢).

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» ما نصه^(٣): «قوله لا يمل الله حتى تملّوا هو بفتح الميم في الموضعين، والملال استثقال الشيء ونفور النفس عنه بعد محبته وهو محال على الله تعالى باتفاق، قال القرطبي: وجه مجازة أنه تعالى لما كان يقطع ثوابه عمّن يقطع العمل ملاًّلاً عبر عن ذلك بالملال من باب تسمية الشيء باسم سببه».

قال ابن الجوزي^(٤): «الملل للشيء: الاستثقال له، والكراهة نفور النفس عنه، وذلك لا يجوز في صفات الله عز وجل، لأنه لو جاز لدخلت عليه

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه، (ج ١، ص ٢٤)، حديث ٤٣.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب أمر من نعس في صلاته أو استعجم عليه القرآن أو الذكر بأن يرقد أو يقعد حتى يذهب عنه، (ج ٢، ص ١٩٠)، حديث ١٨٧٠.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه، (ج ١، ص ١٨٨).

(٤) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (ج ٤، ص ٢٧٧، ٢٧٨).

الحوادث، واختلفوا في معنى الكلام على أربعة أقوال:

أحدها أن المعنى لا يمل أبداً، مللتم أو لم تملوا، وجرى هذا مجرى قوله:
حتى يشيب الغراب، ويبيض القار، وأنشدوا:

صليت مني هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يملوا
المعنى لا يمل وإن ملوا، إذ لو مل عند ملالهم لم يكن له عليهم فضل.

والثاني لا يمل من الثواب ما لم تملوا من العمل، ومعنى يمل: يترك لأن
من مل شيئاً تركه، حكاهما أبو سليمان.

والثالث أن المعنى لا يقطع عنكم فضله حتى تملوا سؤاله، فسمى فعله
مللاً، وليس بملل، ولكن لتزدوج اللفظة بأختها في اللفظ وإن خالفها في
المعنى، وهذا كقوله تعالى ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ (١٩٤) (١).
وقوله ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينِ﴾ (٥٤) (٢)، وقوله ﴿وَجَزَّأُوا
سَيِّئَةَ سَيِّئَةٍ مِّثْلَهَا﴾ (٤٠) (٣)، وأنشدوا:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

والرابع أن المعنى لا يطرحكم حتى تتركوا العمل له وتزهدوا في الرغبة
إليه أي إلى طاعته فلما كان الاطراح لا يكاد يقع إلا عن ملل، وكان المجازي
عليه هو الملل حسن أن يسمى باسمه».

(١) سورة البقرة، آية ١٩٤.

(٢) سورة آل عمران، آية ٥٤.

(٣) سورة الشورى، آية ٤٠.

وقال الإمام ابن فورك في كتابه «مشكل الحديث» وبيانه^(١): «اعلم أن وصف الله تعالى بالملاية على معنى السامة والاستثقال للشىء على معنى نفور نفسه عنه محال لأن ذلك يقتضي تغييره وحلول الحوادث فيه وذلك غير جائز في وصفه ولهذا الخبر طريقان من التأويل:

أحدهما أن يكون معناه أن الله سبحانه لا يغضب عليكم ولا يقطع عنكم ثوابه حتى تتركوا العمل وتزهدوا في سؤاله والرغبة إليه، فسمى الفعلان مللاً تشبيهاً بالملل وليساً بملل على الحقيقة.

والوجه الثاني: أن يكون معناه أن الله لا يمل إذا مللتم ومثل هذا قولك في الكلام أن هذا الفرس لا يفتر حتى تفتر الخيل وليس المراد بذلك أنه يفتر إذا فترت الخيل ولو كان المراد هذا ما كان له فضل عليها لأنه يفتر معها وأي فضيلة له وإنما المراد بهذا المثل أنه لا يفتر وإن فتر الخيل وكذلك يقول القائل للرجل في كلامه الألد في خصومته: فلان لا ينقطع حتى ينقطع خصومه.

يريد بذلك أنه لا ينقطع إذا انقطع خصومه ولو أراد به أن ينقطع إذا انقطعوا لم يكن له في ذلك القول فضل على غيره ولا وجب له مدحه وقد جاء مثل ذلك في كلامهم وفي الشعر أيضاً كما قال قائلهم:

صليت مني هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يملوا.
لم يرد بأنهم يملون الشر إذا ملوه ولو أراد ذلك ما كان لهم فيه مدح لأنهم حينئذ يكونون فيه مثلهم بل أراد أنهم لا يملون الشر وإن مله خصومهم فعلى

(١) ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص ٢٧٢-٢٧٤).

هذا يكون الخبر:

إن الله عز وجل لا يوصف بالملال على الحقيقة وإن تركوا هم طاعته وقصروا فيها لأن الله عز وجل لا يوصف بالملال على الحقيقة».

قال الإمام البيهقي: «قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله^(١): الملal لا يجوز على الله سبحانه بحال، ولا يدخل في صفاته بوجه، وإنما معناه: أنه لا يترك الثواب والجزاء على العمل ما لم تتركوه، وذلك أن من مل شيئاً تركه، فكني عن الترك بالملال الذي هو سبب الترك وقد قيل: معناه إنه لا يمل إذا ملتم، كقول الشنفرى^(٢):

صليت مني هذيل بخرق لا يمل الشر حتى يملوا.

أي: لا يملّه إذا ملّوه، ولو كان المعنى إذا ملّوا ملّ، لم يكن له عليهم في ذلك مزيّة وفضل، وفيه وجه آخر أن يكون المعنى: إن الله عز وجل لا يتناهى حقّه عليكم في الطاعة، حتّى يتناهى جهدكم قبل ذلك، فلا تكلفوا ما لا تطيقونه من العمل، كني بالملال عنه لأن من تناهت قوّته في أمرٍ وعجز عن فعله ملّه وتركه، وأرادت بالدين الطاعة».

وقال القاضي ابن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤٤٨، ٤٤٦).

(٢) الشنفرى، عمرو بن مالك الأزدي، من قحطان، شاعر جاهلي، يمني، من فحول الطبقة الثانية. كان من فتاك العرب وعدائهم. وهو أحد الخلعاء الذين تبرأت منهم عشائريهم. قتله بنو سلامان. وقبست قفزاته ليلة مقتله، فكانت الواحدة منها قريباً من عشرين خطوة. وفي الأمثال: «أعدى من الشنفرى»، وهو صاحب «لامية العرب». توفي نحو سنة ٧٠ ق.هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٥، ص ٨٥).

التعطيل» ما نصه^(١): «اعلم أن الملal على الله تعالى محال وهو ثقل الشيء على النفس والسامة منه فوجب تأويله وهو أنه لا يترك الأجر والثواب حتى يتركوا العمل ولأن من مل شيئاً تركه فعبر عن الترك بالملال الذي هو سببه من باب استعمال المسبب بلفظ السبب وهو مجاز كثير كما تقدم، وقيل إن مجيئه بهذا اللفظ من باب المقابلة في الألفاظ وهو باب من أبواب الفصاحة كقوله تعالى ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾^(٢) ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾^(٣) ﴿وَجَزَأَوْا سَيِّئَةً سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾^(٤)، وقيل معناه لا يتناهى حقه عليكم في الطاعة حتى يتناهى جهدكم».

قال الحافظ القرطبي^(٥): «وقوله: «فإن الله لا يملّ حتى تملوا»: ظاهره محالٌ على الله تعالى. فإن الملal فتورٌ عن تعب، وألمٌ عن مشقة، وكل ذلك محال على الله تعالى، وإنما أطلق هنا على الله تعالى على جهة المقابلة اللفظية مجازاً؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾^(٦) والمكر من الله إيصال الضرر للماكرين على مكرهم والمكر من العبد خبثٌ وخداعٌ وهو محال على الله، و: ﴿فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَأَعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾^(٧)، وجهة مجازه: أنه تعالى لما كان يقطع ثوابه عمّن ملّ من العمل وقطّعه؛ عبّر عن

(١) بدر الدين بن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١٨٣، ١٨٤).

(٢) سورة آل عمران، آية ٥٤.

(٣) سورة التوبة، آية ٦٧.

(٤) سورة الشورى، آية ٤٠.

(٥) القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (ج ٢، ص ٤١٣-٤١٤).

(٦) سورة آل عمران، آية ٥٤.

(٧) سورة البقرة، آية ١٩٤.

ذلك بالملل؛ من باب تسمية الشيء باسم سببه».

قال الشاعر:

«عائشة تقول إن الهادي قد قام ذات ليلة ينادي
يا أيها الناس اثبتوا على العمل حتى تملوا إن ربي لا يمل
معناه ما لم تقطعوا الأعمالا لم ينقطع ثوابه تعالى
«لا يسأم الله» كمعنى ما سبق ولا يمل ربنا كمن خلق».



المبحث الحادي عشر تأويل حديث «فاستحيا الله منه»

عن أبي واقد الليثي^(١) أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه إذ أقبل ثلاثة نفرٍ فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحدٌ قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما أحدهما فرأى فرجةً في الحلقة فجلس فيها وأما الآخر فجلس خلفهم وأما الثالث فأدبر ذاهبًا فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه». رواه البخاري^(٢) ومسلم^(٣).

قال ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»^(٤) ما نصه: «قوله: فوقفا على رسول الله ﷺ أي: على مجلس رسول الله ﷺ أو على بمعنى عند».

(١) أبو واقد الليثي، صاحب النبي ﷺ، سمّاه البخاري، وغيره: الحارث بن عوف. وقال البخاري وأبو أحمد الحاكم: «شهد بدرًا». وله عدّة أحاديث. وحَدَّث أيضًا عن: أبي بكر، وعمر، وشهد الفتح، وسكن مكة. حَدَّث عنه: عطاء بن يسار، وسعيد بن المسيّب، وعروة بن الزبير، وعبيد الله بن عتبة، وُبَشر بن سعيد، وأبو مُرّة مولى عقيل. توفي سنة ٦٨ هـ. وحديثه في الكتب الستة. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٣، ص ٥١٠-٥١١)، رقم الترجمة ٣٥٥.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس ومن رأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، (ج ١، ص ٣٦)، حديث ٣٦.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب من أتى مجلسًا فوجد فرجة فجلس فيها وإلا وراءهم، (ج ٧، ص ٩)، حديث ٢١٧٦.

(٤) ابن حجر، فتح الباري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، (ج ١، ص ٢٨٧).

ثم قال^(١): «قوله: «فاستحيا» أي ترك المزاحمة كما فعل رفيقه حياء من النبي ﷺ وممن حضر، قاله القاضي عياض، وقد بين أنس في روايته سبب استحياء هذا الثاني فلفظه عند الحاكم: «ومضى الثاني قليلا ثم جاء فجلس»، فالمعنى أنه استحيا من الذهاب عن المجلس كما فعل رفيقه الثالث.

قوله: «فاستحيا الله منه» أي: رحمه ولم يعاقبه.

قوله: «فأعرض الله عنه» أي: سَخِطَ عليه، وهو محمول على من ذهب معرضًا لا لعذر، هذا إن كان مسلمًا، ويحتمل أن يكون منافقًا، واطلع النبي ﷺ على أمره، كما يحتمل أن يكون قوله ﷺ: «فأعرض الله عنه» إخبارًا أو دعاء. ووقع في حديث أنس: «فاستغنى فاستغنى الله عنه» وهذا يرشح كونه خبرًا، وإطلاق الإعراض وغيره في حق الله تعالى على سبيل المقابلة والمشاكلة، فيحمل كل لفظ منها على ما يليق بجلاله سبحانه وتعالى. وفائدة إطلاق ذلك بيان الشيء بطريق واضح، وفيه جواز الإخبار عن أهل المعاصي وأحوالهم للزجر عنها وأن ذلك لا يعد من الغيبة، وفي الحديث فضل ملازمة حلق العلم والذكر وجلوس العالم والمذكر في المسجد، وفيه الثناء على المستحي. والجلوس حيث ينتهي به المجلس. ولم أقف في شيء من طرق هذا الحديث على تسمية واحد من الثلاثة المذكورين. والله تعالى أعلم».

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب العلم، باب من قعد حيث ينتهي به المجلس، (ج ١، ص ٢٨٨، ٢٨٩).

المبحث الثاني عشر تأويل حديث «حتى يلقاها ربها»

عن زيد بن خالد الجهني^(١) أن النبي ﷺ سأله رجل عن اللقطة فقال: «اعرف وكاءها»، أو قال: «وعاءها وعفاصها ثم عرفها سنة ثم استمتع بها فإن جاء ربها فأدّها إليه»، قال: فضالة الإبل، فغضب حتى احمرّت وجنتاه أو قال: احمرّ وجهه فقال: «وما لك ولها معها سقاؤها وحذاؤها ترد الماء وترعى الشجر فذرها حتى يلقاها ربها»، قال: فضالة الغنم، قال: «لك أو لأخيك أو للذئب»^(٢).

فقوله ﷺ: «حتى يلقاها ربها» هو كما جاء في حديث آخر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «من ربّ هذا الجمل» رواه البيهقي في «دلائل النبوة»^(٣)

(١) زيد بن خالد الجهني، مختلف في كنيته: أبو زرعة، وأبو عبد الرحمن، وأبو طلحة. روى عن النبي ﷺ وعن عثمان وأبي طلحة وعائشة. روى عنه ابنه خالد وأبو حرب ومولاه أبو عمرة وآخرون. وشهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح. وحديثه في الصحيحين وغيرهما. مات سنة ٧٨هـ بالمدينة، وله خمس وثمانون. وقيل: مات سنة ٦٨هـ. وقيل: مات قبل ذلك أيام معاوية بالمدينة. العسقلاني، الإصابة، (ج ٢، ص ٦٠٣).

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما يجوز من الغضب والشدة لأمر الله، (ج ٥، ص ٥٧٦)، حديث ٥٧٦١.

(٣) البيهقي، دلائل النبوة، جماع أبواب غزوة تبوك، باب ذكر المعجزات الثلاث التي شهدهن جابر ابن عبد الله الأنصاري، (ج ٦، ص ١٥٢).

والحاكم في «المستدرک»^(١)، أي من مالکة. وقد روي هذا الحديث عند الإمام أحمد في مسنده^(٢) أيضا.

فيقال في لغة العرب «رَبُّ الجمل» و«رَبُّ البعير» و«رب الدار» و«رَبُّ البستان» لكن لا يقال «رَبُّ العائلة» ولا «رَبُّ الأسرة» وإنما يقال «كبيرُ العائلة» و«كبيرُ الأسرة».

كذلك لا يقال «أنا رَبُّ النجارين» أو «أنا رَبُّ النحويين» أو «أنا رَبُّ الشعراء» أما الذي يجوز في اللغة فهو أن يقال لمن يتقن النجارة والحدادة والنحو والشعر «فلان رَبُّ النجارة» أو «رَبُّ الحدادة» أي يتقنها، وكان طيبُ عيونٍ أردنيٌّ ماهرٌ فاعتزَّ بنفسه فصار يقول «أنا رَبُّ العيون» فكفر والعياذ بالله، ثم هو عمي بعد ذلك.



(١) الحاكم، المستدرک، كتاب الجهاد، (ج ٢، ص ١٠٩)، حديث ٢٤٨٥.

(٢) أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد، (ج ٣، ص ٢٨١)، حديث ١٧٥٤.

المبحث الثالث عشر

تأويل حديث

«فعتب الله عليه»

ورد عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي^(١) يزعم أن موسى ليس بموسى بني إسرائيل إنما هو موسى آخر فقال كذب عدو الله حدثنا أبي بن كعب عن النبي ﷺ قام موسى النبي خطيبًا في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم فقال: «أنا أعلم فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه»^(٢)، فأوحى الله إليه وهو جزء من حديث طويل.

وفيه أن الخضر قال لموسى إنك لن تستطيع معي صبرًا، وفيه أن الخضر قال لموسى: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنفرة هذا العصفور في البحر وفيه أن موسى قال للخضر: أقتلت نفسًا زكية بغير نفس قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا.

(١) نوف بن فضالة البكالي، هو ابن امرأة كعب الأخبار وقع ذكره في «الصحيحين» في حديث سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن أبي بن كعب في قصة موسى مع الخضر. وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال: «كان راوية للقصص». لم يوثقه غير ابن حبان. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٢، ص ٣٥٢). (ج ٣، ص ٣٦٧).

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سُئِلَ: أي الناس أعلم؟ فيكُلُ العِلْمَ إلى الله، (ج ١، ص ٥٦)، حديث ١٢٢. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب من فضائل الخضر عليه السلام، (ج ٧، ص ١٠٣)، حديث ٦٣١٣.

وفيه قال رسول الله محمد ﷺ: «يرحم الله موسى لوددنا لو صبر حتى يقص علينا من أمرهما» رواه البخاري^(١) ومسلم^(٢).

ليعلم أن موسى عليه السلام لم يذنب ولم يخطئ بقوله «أنا» لأنه ما كان يعرف الخضر، وفيما يظنه هو أنه هو أعلم الناس في ذلك الوقت، والخضر أعلم من موسى ببعض الأشياء، وموسى أفضل من الخضر وأعلم منه ببعض الأشياء، وقوله أنا ليس فيه شيء من الكذب بل هو صدق وحق.

«فعتب الله عليه»: والعتاب لا يشترط أن يكون على خطأ سبق، وهذا يقال له عتابٌ لطيفٌ، وليس فيه انتقاص من قدر موسى عليه السلام، ولكن الممنوع والذي لا يُقال «أنبه»، فهذا لا يليق بالأنبياء.

ويؤكد معنى ما ذكرناه ما قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري^(٣) ما نصه: «والعتبُ من الله تعالى محمولٌ على ما يليق به لا على معناه العرفي في الأدميين كفظائره».

وأما ما ورد في قصة الخضر وموسى من أنه جاء عصفور فوق علي حرف السفينة فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: «يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر».

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما يستحب للعالم إذا سُئِلَ: أي الناس أعلم؟ فيكُلُ العِلْمِ إلى الله، (ج١، ص٥٦)، حديث ١٢٢.

(٢) رواه مسلم بلفظ: «يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما». مسلم، صحيح مسلم، كتاب الفضائل باب فضائل الخضر عليه السلام، (ج٧، ص١٠٣)، حديث ٦٣١٣.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، كتاب العلم باب ما يستحب للعالم إذا سُئِلَ: أي الناس أعلم، (ج١، ص٢٦٥).

فمعناه ما نقص من علم الله شيئاً، فعلم الله أزلي أبدي وهو علم واحد لا يزيد ولا ينقص ولا يتغير ولا يتطور ولا يتبدل وهو شامل لكل شيء.

قال الحافظ ابن حجر^(١): «قوله: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله» لفظ النقص ليس على ظاهره لأن علم الله لا يدخله النقص».

ثم قال^(٢): «وقال القرطبي: من أطلق اللفظ هنا تجوز لقصده التمسك والتعظيم، إذ لا نقص في علم الله ولا نهاية لمعلوماته. وقد وقع في رواية ابن جريج بلفظ أحسن سياقاً من هذا وأبعد إشكالاً فقال: «ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره من البحر»، وهو تفسير للفظ الذي وقع هنا.

وليعلم أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أقوى الناس في الصبر، وهم أئمة في ذلك، فلا يتوهمن أحد أن موسى عليه الصلاة والسلام كان ضعيف الصبر فهذا لا يليق بمنصب النبوة ولا بعصمته عليه الصلاة والسلام والآية ليس هذا معناها بل كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري^(٣)، ما نصه: «قال إنك لن تستطيع معي صبراً كذا أطلق بالصيغة الدالة على استمرار النفي لما أطلعه الله عليه من أن موسى لا يصبر على ترك الإنكار إذا رأى ما يخالف الشرع لأن ذلك شأن عصمته».

وأما قوله «أقتلت نفساً زكية بغير نفس»، فقد قال الحافظ ابن حجر

(١) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١، ص ٣٩٠).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١، ص ٣٩٠).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ٨، ص ٢٧).

العسقلاني في فتح الباري^(١): «وإنما أطلق ذلك موسى على حسب ظاهر حال الغلام».

والغلام كان كافرًا، والخضر عليه السلام قتله بأمر من الله تعالى، وعرف ذلك موسى عليه السلام عندما قال له الخضر عليه السلام «وما فعلته عن أمري» فلم تكن معصية من الخضر عليه السلام.

وأما قول رسول الله ﷺ: «يرحم الله موسى لو ددنا لو صبر»، فليس فيه أن موسى عليه الصلاة والسلام كان عجولاً العجلة المذمومة، وليس فيه ذمٌ لموسى أنه لا يصبر، فهذا لا يليق لا بموسى ولا بأي نبي آخر، ولكنه كان يريد بذلك إنكار ما هو بحسب الظاهر منكر، ولكن بمعنى التمني أن لو انتظر ليعرف أكثر من أخبار الخضر.



(١) ابن حجر، فتح الباري، (ج ٨، ص ٢٧٣).

المبحث الرابع عشر تأويل حديث «إن الله لا يستحي من الحق»

عن أم سلمة قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت، قال النبي ﷺ: «إذا رأَت الماء» فغطت أم سلمة تعني وجهها وقالت: يا رسول الله أوتحتلم المرأة قال: «نعم تربت يمينك فبم يشبهها ولدها». رواه البخاري^(١) ومسلم^(٢).

إن الله تعالى يحب إحقاق الحق وإظهاره، قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في فتح الباري^(٣)، ما نصه: «قولها «إن الله لا يستحي من الحق»^(٤) قدمت هذا القول تمهيدا لعذرها في ذكر ما يستحيا منه والمراد بالحياء هنا معناه اللغوي إذ الحياء الشرعي خير كله.

وقد تقدم في كتاب الإيمان أن الحياء لغة: تغير وانكسار وهو مستحيل

(١) البخاري، صحيح البخاري، البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، (ج ١، ص ٦٠)، حديث ١٣٠.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، مسلم، كتاب النكاح، باب زواج زينب بنت جحش ونزول الحجاب وإثبات وليمة العرس، (ج ١، ص ١٧٧)، حديث ١٤٢٨.

(٣) ابن حجر، فتح الباري، في كتاب الغسل، باب إذا احتلمت المرأة، (ج ١، ص ٤٦٣).

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما لا يستحيا من الحق للفقهاء في الدين، (ج ٥، ص ٢٢٦٨)، حديث ٥٥٧٠.

في حق الله تعالى، فيحمل هنا على أن المراد أن الله لا يأمر بالحياء في الحق أو لا يمنع من ذكر الحق. وقد يقال إنما يحتاج إلى التأويل في الإثبات. ولا يشترط في النفي أن يكون ممكناً لكن لما كان المفهوم يقتضي أنه يستحيي من غير الحق عاد إلى جانب الإثبات فاحتيج إلى تأويله قاله ابن دقيق العيد.

وأما قوله ﷺ: «إذا رأيت الماء» ففيه إثبات أن المرأة لها مني، ومن هنا يجب التحذير مما شاع على ألسنة كثير من الأطباء الذين درسوا عند الكفار وتأثروا بالأعاجم والإفرنج ولم يتعلموا أحكام الشرع من أن الجنين يخلق من مني الرجل فقط وأن المرأة لا مني لها، بزعمهم، وهذا خلاف قول كل عالم من علماء المسلمين، وهذا رأي كاسد فاسد مخالف لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وإجماع علماء الإسلام من أن الجنين يتكون في رحم الأم من اجتماع مني الرجل والمرأة بخلق الله ومشيئته. وهؤلاء الأطباء الذين لا يباليون ولا يسألون عن أحكام الحلال والحرام، ويخالفون صريح القرآن والسنة لا يجوز الاعتماد على كلامهم ولا الالتفات إلى قولهم هذا الذي أخذوه مقلدين فيه الكفار، وعلم الدين لا يؤخذ من أمثال هؤلاء، وما خالف الدين ليس علماً، القرآن هو العلم وسنة النبي ﷺ الثابتة الصحيحة هي العلم، وإجماع الأمة هو العلم.

قال الإمام المجتهد التابعي الجليل محمد بن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم». رواه مسلم في مقدمة صحيحه^(١).

أما الدليل على فساد كلام هؤلاء الأطباء فمن القرآن الكريم قال الله

(١) مسلم، صحيح مسلم، المقدمة، باب في أن الإسناد من الدين، (ج ١، ص ١١)، حديث ٢٦.

تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾^(١)، وأما من الحديث فقد تقدم قول النبي ﷺ «إذا رأيت الماء»، وروى البخاري في صحيحه في باب مناقب الأنصار من حديث أنس أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم النبي ﷺ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء فقال: «إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي»، وفيه أن رسول الله ﷺ قال: «أما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد».

وأما الإجماع فقد قال علي بن خلف بن عبد الملك المشهور بابن بطال في «شرح صحيح البخاري»^(٢) ما نصه: «لا خلاف بين العلماء أن النساء إذا احتلمن ورأين الماء أي خرج منهن علمن به أو رأينه أن عليهن الغسل وحكمهن حكم الرجال في ذلك». انتهى كلام ابن بطال.

وقال الحافظ أبو زكريا يحيى بن شرف النووي في «شرح صحيح مسلم»^(٣) ما نصه: «اعلم أن المرأة إذا خرج منها المني وجب عليها الغسل كما يجب على الرجل بخروجه، وقد أجمع المسلمون على وجوب الغسل على الرجل والمرأة بخروج المني»، ثم قال: «فمن أين يكون الشبه» معناه أن الولد متولد من ماء الرجل وماء المرأة، فأيهما غلب كان الشبه له، وإذا كان للمرأة مني فإنزاله وخروجه منها ممكن»، ثم قال بعد كلام: «وأما مني المرأة فهو أصفر رقيق وقد يبيض لفضل قوتها، وله خاصيتان يعرف بواحدة منهما أحدهما

(١) سورة الطارق، آية ٥-٧.

(٢) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (ج ١، ص ٣٩٧).

(٣) النووي، المنهاج، (ج ٣، ص ٢٢٠).

أن رائحته كرائحة مني الرجل والثانية التلذذ بخروجه وفتور شهوتها عقب خروجه، قالوا ويجب الغسل بخروج المنى بأي صفة وحال كان والله أعلم». ومما يشهد لصحة ما قلناه أن ما يسمى بالطب الحديث والاكتشافات الجديدة أقرت بما أخبر عنه القرءان وعلمه النبي لصحابته قبل ألف وأربعمائة سنة ما جاء في كتاب «موسوعة المرأة الطبية»^(١) للدكتور سبيرو فاخوري: «كان هناك اعتقاد بأن مرحلة الرعشة غير موجودة لدى المرأة كون المرأة لا تقذف السائل الذي يقذفه الرجل عند وصوله للرعشة ولكن هذا الاعتقاد قد تغير وخرج علماء الجنس بحقائق تثبت أن المرأة تحدث لها الرعشة القصوى وأنها تقذف في قمة الرعشة».

قال أحد الشعراء:

«عائشة قال لها الأمينُ	قد تربت يداك واليمينُ
وما دعا على ابنة الصديقِ	إذا فما مراده الحقيقي
مراده لسنان شكُّ فيه	كلمةٌ تقالُ للتنبيه
فظاهر العبارة الدعاءُ	وقيل في باطنها الثناءُ
وامرأة تقول في الرحمن	«لا يستحي» وافقها العدناني
فليس كالخلائق الإلهُ	وقولها «لا يستحي» معناه
ما أمر العباد ذو الجلالِ	أن يستحوا في الحق والسؤالِ
لم تُردِ التشبيه بالخلائق	بل وصفت ربي بوصف لائق».

(١) فاخوري، موسوعة المرأة الطبية، (ص ٥٤٥).

المبحث الخامس عشر

تأويل حديث

«فارجع إلى ربك»

قال النبي ﷺ: «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام»، قال ابن حزم وأنس بن مالك: قال النبي ﷺ: «ففرض الله عز وجل على أمّتي خمسين صلاةً» فرجعت بذلك حتى مررت على موسى فقال: «ما فرض الله لك على أمّتك»، قلت: «فرض خمسين صلاةً»، قال: «فارجع إلى ربك» رواه البخاري^(١) ومسلم^(٢).

قال الحافظ النووي^(٣): «قوله ﷺ: «فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل اخترت الفطرة»، هذا اللفظ وقع مختصراً هنا، والمراد أنه ﷺ قيل له: «اختر أي الإناءين ثمت» كما جاء مبيناً بعد هذا في هذا الباب من رواية أبي هريرة فألهم ﷺ اختيار اللبن وقوله «اخترت الفطرة»، فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة ومعناه والله أعلم اخترت علامة الإسلام والاستقامة وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيباً طاهراً سائغاً للشاربين سليم العاقبة، وأما الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع من الشر في الحال والمآل، والله أعلم».

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب كيف فرضت الصلوات في الإسراء، (ج ١، ص ١٣٥)، حديث ٣٤٢.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات، (ج ١، ص ٩٩)، حديث ٩٩.

(٣) النووي، شرح النووي على مسلم، (ج ٢، ص ٢١١، ٢١٢).

وقال أيضًا^(١): «وأما قول بواب السماء يعني الملك خازن السماء: «وقد بعث إليه؟» فمراده: «وقد بعث إليه للإسراء وصعود السماوات؟» وليس مراده الاستفهام عن أصل البعثة والرسالة، فإن ذلك لا يخفى عليه إلى هذه المدة، فهذا هو الصحيح»

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»^(٢): «والمكان لا يضاف إلى الله تعالى إنما هو مكان النبي ﷺ في مقامه الأول الذي قام فيه قبل هبوطه».

قوله: «فارجع إلى ربك» أي ارجع إلى المكان الذي كنت تناجي فيه ربك والمكان عائد إلى النبي ﷺ لا إلى الله لأن الله موجود بلا مكان، وهذا باتفاق المسلمين سلفاً وخلفاً ولم يخالف في ذلك إلا من شذ من المشبهة المجسمة الذين لا يُعبأ بهم، وهم داخلون تحت حديث رسول الله ﷺ: «من شذَّ شذَّ إلى النار» رواه الحاكم^(٣).

قال الشاعر:

«في لَيْلَةِ الإِسْرَاءِ والمِعْرَاجِ كَانَ الرُّسُولُ رَبَّهُ يُنَاجِي
وَرَبُّنَا قَدْ أَعْلَمَ الأَمِينَا بِمَا تَعَبَّدَ المَكْلِفِينَا
خَمْسِينَ مِنْ فَرَائِضِ الصَّلَاةِ أَدَاؤَهَا مِنْ أَوْجِبِ الطَّاعَاتِ
ثُمَّ التَّقَى مُوسَى فَقَالَ الهَادِي مَا فَرَضَ اللهُ عَلَى العِبَادِ
قَالَ لَهُ إِذْ سَمِعَ التَّكْلِيفَا ارْجِعْ إِلَى اللهِ سَلِ التَّخْفِيفَا

(١) النووي، شرح النووي على مسلم، (ج ٢، ص ٢١٢).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٤٩٢).

(٣) الحاكم، المستدرک، (ج ١، ص ١٩٩)، حديث ٣٩١.

وَلَا يَكُونُ اللَّهُ فِي مَكَانٍ
مَعْنَاهُ عُدُّ إِلَى مَكَانٍ فِيهِ
لَا شَكٌّ فِي مَنْ خَلَقَ الْمَكَانَا
وَإِنَّ مَنْ يُؤْوِلُ الطُّلُوعَا
أَمَّا الَّذِي يَغْرَقُ فِي التَّشْبِيهِ
يَقُولُ «رُبَّنَا هُنَاكَ سَاكِنٌ»
وَتِلْكَ كَانَتْ لَيْلَةً مُبَارَكَةً
إِلَى رَسُولِ سَنٍّ أَفْضَلَ السَّنِّ
لَمْ يَكُ خَمْرًا مُسْكِرًا مَذْمُومًا
وَفِي الْحَدِيثِ خَازِنُ السَّمَآ سَأَلَ
فَلَمْ يَسَلْ عَنْ أَصْلِ بَعْثَةِ النَّبِيِّ
قَدْ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّ الْهَادِي
وَإِنَّمَا الْمَرَادُ وَالْمَقْصُودُ
لَمْ يُخْفِ عَنْهُ اللَّهُ مِثْلَ هَذَا

جَلَّ عَنِ الْأَعْضَاءِ وَالْأَرْكَانِ
نَاجِيَتْ مَنْ عَزَّ عَنِ الشَّبِيهِ
بِأَنَّهُ قَبْلَ الْمَكَانِ كَانَا
إِلَى السَّمَآ يُؤْوِلُ الرَّجُوعَا
وَلَمْ يَجِدْ حَلَاوَةَ التَّنْزِيهِ
وَرَبَّنَا جَلَّ عَنِ الْأَمَاكِنِ
قَدْ جَاءَ فِيهَا سَيِّدُ الْمَلَائِكَةِ
لِيَعْرِضَ الْخَمْرَ عَلَيْهِ وَاللَّبْنَ
بَلْ كَانَ خَمْرَ الْجَنَّةِ الْمَعْلُومَا
هَلْ بُعِثَ النَّبِيُّ سَيِّدُ الْمِلَلِ
وَلَا رِسَالَةَ الرَّسُولِ الْعَرَبِيِّ
بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى الْعِبَادِ
هَلْ حَانَ ذَا إِلَى السَّمَآ الصُّعُودُ
نَرَى خِلَافَ قَوْلِنَا شَوَاذًا.

المبحث السادس عشر

تأويل حديث

«إن ربه بينه وبين قبلته»

عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ رأى نخامةً في القبلة فشق ذلك عليه حتى رئي في وجهه فقام فحكّه بيده فقال: «إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه أو إن ربه بينه وبين القبلة فلا يزقن أحدكم قبل قبلته ولكن عن يساره أو تحت قدميه»، ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه ثم ردّ بعضه على بعضه فقال أو يفعل هكذا^(١).

قال الحافظ أبو محمد عبد الله بن أبي جمرة الأزدي الأندلسي في كتابه «بهجة النفوس»^(٢) ما نصه: «قوله عليه السلام: «ربه بينه وبين قبلته» فيه دليل على أهل التجسيم والحلول أن دعواهم باطلة وأن الحلول والتحيز في حقه تعالى مستحيل، فإنه لو كان جل جلاله كما زعموا تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بالحلول على العرش فكيف يكون هناك ويكون بين المصلي وبين قبلته؟ وكم من المصلين في الزمن الواحد في أقطار الأرض مختلفين متباينين من جهتين من جهة التباعد وتضاد الأقطار؟ فيلزم على ذلك تعداده أو تجزؤه، وهذا محال بالإجماع».

(١) البخاري، صحيح البخاري، أبواب المساجد، باب إذا بدره البزاق فليأخذ بطرف ثوبه، (ج ١، ص ١٦١)، حديث ٤٠٧.

(٢) ابن أبي جمرة، بهجة النفوس، (ج ١، ص ١٨٥).

قال القسطلاني في «إرشاد الساري»^(١): «ولأبي ذر عن الحموي «وإن ربه» بواو العطف أي إطلاع ربه على ما «بينه وبين القبلة» إذ ظاهره محال لتنزيه الرب تعالى عن المكان» وقال^(٢): «وليس المراد ظاهر ذلك إذ هو محال لتنزيه الرب تعالى عن المكان فيجب تأويله».

قال الحافظ ابن حجر ما نصه^(٣): «وإن ربه بواو العطف والمراد بالمناجاة من قبل العبد حقيقة النجوى ومن قِبَلِ الرب لازم ذلك فيكون مجازاً والمعنى إقباله عليه بالرحمة والرضوان، وأما قوله «أو إن ربه بينه وبين القبلة» وكذا في الحديث الذي بعده «فإن الله قِبَلِ وجهه»، فقال الخطابي: وقيل هو على حذف مضاف أي عظمة الله أو ثواب الله، وقال ابن عبد البر وهنا وافق ابن عبد البر المجسم أهل السنة في تأويل هذا الحديث: هو كلام خرج على التعظيم لشأن القبلة. وقد نزع به بعض المعتزلة القائلين بأن الله في كل مكان وهو جهل واضح لأن في الحديث أنه ييزق تحت قدمه وفيه نقض ما أصلوه، وفيه الرد على من زعم أنه على العرش بذاته، ومهما تؤول به هذا جاز أن يتأول به ذلك والله اعلم».

قال الفقيه القاضي بدر الدين بن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل» ما نصه^(٤): «عن ابن عمر عن النبي قال: «إن أحدكم إذا صلى فإن الله قِبَلِ وجهه»، وفي رواية أنس: «إن ربه بينه وبين القبلة»،

(١) القسطلاني، إرشاد الساري، كتاب الصلاة، باب إذا بدره البزاق فليأخذ بطرف ثوبه، (ج ٢، ص ٦٨، ٦٩).

(٢) القسطلاني، إرشاد الساري، باب إذا بدره البزاق فليأخذ بطرف ثوبه، (ج ٢، ص ٧٥).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الصلاة، باب حك البزاق باليد من المسجد، (ج ١، ص ٦٠٥، ٦٠٦).

(٤) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١٩٥، ١٩٦).

هذا الحديث دافع لمذهب الجهة فإن جهة فوق وقدام متضادان لا يجتمعان ألبتة فإن حملهما على ظاهرهما محال على الله تعالى فهما لا يجتمعان عقلاً وعادة وشرعاً وإن أول هذا دون ذلك فتحكم وإن أولهما فأهلاً بالوفاق، وتأويله عندنا بحذف مضاف تقديره: فإن قبلته التي أكرمها وأمر باستقبالها قبل وجهه فيجب احترامها لأجل من يضاف إليها. وحذف المضاف في القراءان والحديث وفي السنة الناس كثير وقيل معناه فإن ثواب الله قبل وجهه أي يأتيه الثواب والرحمة والقبول من قبل وجهه كما جاء في الحديث يجيء القراءان^(١) بين يدي صاحبه يوم القيامة أي ثواب القراءان. ويؤيده أيضاً ما جاء في الحديث إذا قام أحدكم إلى الصلاة فإن الرحمة تواجهه».

قال حجة الإسلام أبو عبد الرحمن الهرري في كتابه «الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم»^(٢) ما نصه: «مناجاة الله معناه الإقبال على الله بدعائه وتمجيده، والمعنى أن المصلي تجرد لمخاطبة ربه انقطع عن مخاطبة الناس لمخاطبة الله، فليس من الأدب مع الله أن يبصق أمام وجهه، وليس معناه أن الله هو بذاته تلقاء وجهه. وأما قوله عليه الصلاة والسلام: «فإن ربه بينه وبين قبلته»، أي رحمة ربه أمامه، أي الرحمة الخاصة التي تنزل على المصلي».

(١) قال حنبل أنه سمع أحمد بن حنبل يقول: «احتجوا عليّ يوم المناظرة فقالوا تجيء يوم القيامة سورة البقرة وتجيء سورة تبارك. قال فقلت لهم: إنما هو الثواب، قال الله جل ذكره: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ وإنما تأتي قدرته. رواه الخلال.

(٢) الهرري، الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم، (ص ١٢٦).

قال الشاعر:

«قال الرسول طيب الأخلاق
من في الصلاة ينتهي عن تفلته
أرادَ طه أنه مرحومُ
فربنا رحمته هناك
والله موجود بلا مكان
يرى بدون آلةٍ أو حدقه»
ينهى المصلين عن البصاق
فالله بينه وبين قلبته
برحمةٍ أنزلها القيومُ
إيّاك من تجسيمه إيّاك
يسمعنا لكن بلا آذانٍ
وكل قولٍ ضدَّ هذا زندقه».



المبحث السابع عشر تأويل حديث «يضحك الله إلى رجلين»

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل ثم يتوب الله على القاتل فيستشهد»^(١).

قال الحافظ ابن الجوزي في كتابه «الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب»^(٢): «وفي أفراد مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أخبر عن آخر من يدخل الجنة وضحك، فقيل: مم تضحك...؟ فقال: من ضحك رب العالمين حين قال: أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي.

قلت: اعلم أن الضحك له معان ترجع إلى معنى البيان والظهور أي لكرامة الله، وكل من أبدى عن أمر كان مستورا قيل قد ضحك. يقال: ضحكت الأرض بالنبات إذا ظهر ما فيها، وانفتحت عن زهره، كما يقال: بكت السماء.

قال الشاعر:

كُلُّ يَوْمٍ بِالْأَقْحُوَانِ جَدِيدٍ تَضْحَكُ الْأَرْضُ مِنْ بَكَاءِ السَّمَاءِ

(١) البخاري، صحيح البخاري، باب الكافر يقتل المسلم ثم يسلم، فيسد بعد ويقتل، (ج ٣، ص ١٠٤٠)، حديث ٢٦٧١.

(٢) ابن الجوزي، الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب، (ص ٨٨، ٩٠-٩٢).

وكذلك الضحك الذي يعتري البشر إنما هو انفتاح الفم عن الأسنان، وهذا يستحيل على الله تعالى فوجب حمله على إبداء الله كرمه، وإبانة فضله. ومعنى: ضحكت لضحك ربي، أبديت عن أسناني بفتح فمي، لإظهار فضله وكرمه وقول الآخر: لن نعدم من رب يضحك خيرًا، أي يكشف الكرب، فرق بينه وبين الأجسام التي لا يرجى خيرها.

قلت: وهذا تأويل جماعة من العلماء، وقال الخطابي: «معنى ضحك الجبار عز وجل المراد به الرضى وحسن المجازاة».

وقد روي في حديث موقوف «فضحك حتى بدت لهواته وأضراسه» ذكره الخلال في كتاب السنة. وقال المروزي: «قلت لأبي عبد الله: ما تقول في هذا الحديث..؟ قال: هذا بشع.

قال: ثم على تقدير الصحة يحتمل أمرين:

أحدها: أن يكون ذلك راجعًا إلى النبي ﷺ، كأنه ضحك حين أخبر بضحك الرب، حتى بدت لهواته وأضراسه، كما روي أنه ضحك حتى بدت نواجذه، وهذا هو الصحيح لو ثبت الحديث. وإنما هو مقطوع.

الثاني: أن يكون تجوزًا من كثرة الكرم وسعة الرضا، كما جوز بقوله: ومن أتاني يمشي أتيته هرولة. قال القاضي أبو يعلى «المجسم» لا يمتنع الأخذ بظاهر الأحاديث في إمرارها على ظواهرها من غير تأويل لأننا لا نثبت ضحكًا هو فتح الفم ولا أضراسًا ولهوات وجوارح وأبعاضًا.

قلت: واعجبًا قد أثبت لله صفات بأحاديث وألفاظ لا تصح.

قال أحدهم: وإذا لم يثبت ضحكًا معقولًا فقد تأول ولا يدري، واعجبًا قد

عرف أن الضحك يشار به إلى الفضل والإنعام. فالأضراس ما وجهها؟ والله لو رويت في الصحيحين وجب ردها، فكيف وما ثبتت أصلاً، وقد روى أحمد لو أن الناس اعتزلوهم يعني الأمراء فقال: اضرب على هذا وهذا الحديث في الصحيحين فكيف بحديث لا يثبت يخالف المنقول والمعقول. قلت: ومن أثبت الأضراس صفة فما عنده من الإسلام خبر».

وقال الحافظ النووي في «شرح صحيح مسلم»^(١): «قالوا مم تضحك يا رسول الله قال من ضحك رب العالمين»، قد قدمنا معنى الضحك من الله تعالى وهو الرضى والرحمة وإرادة الخير لمن يشاء رحمته من عباده والله أعلم».

قال الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري» ما نصه^(٢): «قال لا أستهزئ منك ولكني على ما أشاء قادر قال البيضاوي نسبة الضحك إلى الله تعالى مجاز بمعنى الرضا».

وقال في موضعٍ آخر: «ونسبة الضحك والتعجب إلى الله مجازية، والمراد بهما الرضا بصنيعهما»^(٣).

ونقل القاضي الفقيه ابن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل»^(٤): «اعلم أن الضحك الذي يعتري البشر عند حصول فرح القلب أو استفزاز طرب أو ظهور أمر مستور جهل سببه محال على الله تعالى

(١) النووي، المنهاج، (ج ٣، ص ٤٣).

(٢) ابن حجر، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، (ج ١١، ص ٤٥٢).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ٧، ص ١٢٠).

(٤) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١٦٩، ١٧٠).

ومعناه فينا يرجع إلى ظهور أمر مستور وكان السرور بالشيء أظهر بضحكه هذا بدايته وأما نهايته فترتب أثره عليه ولما كان الضحك فينا محالاً على الله تعالى فلا بد من تأويل الحديث.

قال البخاري: «ضحكه رحمته». وقال الخطابي: الضحك هنا الإخبار عن رضاه وحسن مجازاته لعبده وهو مجاز سائغ فالمراد به هنا نهاية الضحك فينا وهو ترتيب أجره عليه ومعناه إظهار كرامته لعبده وفضله عليه وإقباله لأن المسرور بالشيء المقبل عليه يبش عند رؤيته ويضحك فهو عبارة بالسبب عن المسبب وهو مجاز سائغ مستعمل كما تقدم، وقيل معناه أنه تعالى لو كان ممن يضحك لضحك من ذلك.

وقيل لعله من الرباعي بضم الياء وكسر الحاء أي يضحك الله ملائكتَه أو عباده، وحيث نسب إلى الرب تعالى فالمراد به المبالغة في إظهار الإقبال والرضى كقوله فإن أتاني يمشي أتيته هرولة للمبالغة في إسراع المجازاة والإقبال ومن حمل الضحك على ظاهره فمبتدع مجسم وأما رواية من روى عجب ربكما فالمراد تعظيم ذلك الأجر عنده تعالى لأن المتعجب من الشيء مستعظم له وسيأتي أبسط من هذا إن شاء الله تعالى».

وقال الحافظ ابن حجر: «قال الخطابي: الضحك الذي يعتري البشر عندما يستخفهم الفرح أو الطرب غير جائز على الله تعالى، وإنما هذا مثل ضرب لهذا الصنيع الذي يحل محل الإعجاب عند البشر، فإذا رأوه أضحكهم»^(١).
وقال الإمام الرازي: «واعلم أن حقيقة الضحك على الله تعالى محال،

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ٦، ص ٤٠).

ويدل عليه وجوه:

الأول: قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾^(١). يبين أن اللائق به أن يُضحك وَيُبكي أي يخلق الضحك والبكاء. فأما الضحك والبكاء، فلا يليقان به.

والثاني: أن الضحك سنح يحصل في جلد الوجه، مع حصول الفرح في القلب، وهو على الله تعالى محال.

والثالث: لو جاز الضحك عليه لجاز البكاء عليه^(٢).

وقال البيهقي: «فأما المتقدمون من أصحابنا فإنهم فهموا من هذه الأحاديث ما وقع الترغيب فيه من هذه الأعمال، وما وقع الخبر عنه من فضل الله سبحانه، ولم يشتغلوا بتفسير الضحك مع اعتقادهم ان الله ليس بذئ جوارح ومخارج، وأنه لا يجوز وصفه بكشر الأسنان وفغر الفم، تعالى الله عن شبه المخلوقين علواً كبيراً»^(٣).

وقال القاضي عياض المالكي^(٤): «الضحك هنا استعارة في حق الله، ولا يجوز عليه الضحك المعلوم لأنه إنما يصح من الأجسام، وممن يجوز عليه تغير الحالات، والله تعالى منزه عن ذلك، وإنما يرجع إلى الرضا بفعلهما والثواب عليه، والإحسان إليهما أو حمد فعلهما ومحبته، وتلقي رسل الله لهما بذلك لأن الضحك إنما يكون من أحدنا عند موافقة ما يراه وسروره

(١) سورة النجم، آية ٤٣.

(٢) الرازي، أساس التقديس، (ص ١٦٥، ١٦٦).

(٣) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٥٩٨).

(٤) القاضي عياض، إكمال المعلم، (ج ٦، ص ١٦٠).

به وبره لمن يلقاه، وقد يكون الضحك هنا على وجهه المعلوم، والمراد به ملائكة الله ورسله الذين يوجههم للقاءه وقبض روجه، وإدخاله الجنة، كما يقال: نادى الأمير في البلد، وقتل السلطان فلاناً: رجاله وأمره».

وقد أقره الإمام النووي في «شرح صحيح مسلم»^(١).

وقال القاضي عياض في موضعٍ آخر: «قال الإمام^(٢): الضحك من الله سبحانه محمولٌ على إظهار الرضى والقبول، إذ هو في البشر علامة على ذلك، ويقال: ضحكت الأرض إذا ظهر نباتها.

قال القاضي: الضحك في البشر أمرٌ اختصوا به، وحالة تغيرٌ أوجبها سرور القلب، فتنبسط له عروق القلب، فيجري الدم فيها، فيقبض إلى سائر عروق الجسد، فيثور لذلك حرارة ييسط لها الوجه ويضيق عنها الفم فيفتح، وهو التبسم، فإذا زاد السرور وتمادى ولم يضبط الإنسان نفسه واستخفه سروره قهقهة، والتغيرات وأوصافُ الحدث منفيةً عن الله تعالى، وجاءت الآثار الصحيحة بإضافة الضحك إليه، فحمل العلماء ذلك على الرضى بفعل عبده ومحبتة للقاءه وإظهار نعيمه وفضله عليه وإيجابها له»^(٣).

وقال ابن الجوزي في «كشف المشكل» ما نصه^(٤): «قد ذكرنا أن أكثر السلف كانوا يمتنعون من تفسير مثل هذا ويمرونه كما جاء وينبغي أن تراعى قاعدة في هذا قبل الإمرار وهي أنه لا يجوز أن يحدث لله صفة ولا تشبه

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، (ج ١٣، ص ٣٦).

(٢) أي المازري.

(٣) القاضي عياض، إكمال المعلم، (ج ١، ص ٣٦٢).

(٤) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (ج ١، ص ٩٩٦).

صفاته صفات الخلق فيكون معنى إمرار الحديث الجهل بتفسيره». ثم ساق كلام الخطابي وأقره.

وقال في «دفع شبه التشبيه»^(١) ما نصه: «اعلم أن الضحك له معانٍ ترجع إلى معنى البيان والظهور أي لكرامة الله، وكل من أبدى عن أمر كان مستورًا قيل قد ضحك. يقال: ضحكت الأرض بالنبات إذا ظهر ما فيها، وانفتق عن زهره، كما يقال: بكت السماء.

قلت: وهذا تأويل جماعة من العلماء، وقال الخطابي: معنى ضحك الجبار عز وجل، (المراد به) الرضا وحسن المجازاة».

وقال الإمام القشيري^(٢): «واعلم أن الضحك صفة من صفات فعله، وهو إظهار فضله كما يقال: ضحكت الأرض بالنبات، وضحكه من قنوتهم إظهار تحقيق فضله، الذي هو ضعف انتظارهم له».



(١) ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه، (ص ١٧٨-١٨٠)

(٢) القشيري، الرسالة القشرية، (ص ٣٥٩).

المبحث الثامن عشر تأويل حديث «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة»

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يد الله ملأى لا يغيضها نفقة سحاء الليل والنهار». وقال: «أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض فإنه لم يغيض ما في يده». وقال: «وكان عرشه على الماء وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع»^(١).

قال الحافظ الفقيه سراج الدين عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي المعروف بابن الملقن^(٢) في كتابه «التوضيح»^(٣) ما نصه: «فيه إثبات اليمين صفة «ذات» لله تعالى لا صفة فعل وليست بجارحة كما سلف قبل هذا وقوله «ملأى» ليس حلول المال فيها لأن ذلك من صفات الأجسام وإنما هو إخبار منه على أن ما يقدر عليه من النعم وأرزاق العباد لا غاية له ولا نفاذ».

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»^(٤) ما نصه: «والمراد

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، (ج ٦، ص ٢٦٩٧)، حديث ٦٩٧٦.

(٢) ابن الملقن، عمر بن علي بن أحمد الأنصاري الشافعي، سراج الدين، أبو حفص ابن النحوي، المعروف بابن الملقن. من أكابر العلماء بالحديث والفقه وتاريخ الرجال، أصله من وادي «آش» بالأندلس. له نحو ثلاثمائة مصنف، منه: «إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال» في التراجم، و«التذكرة في علوم الحديث»، و«التوضيح لشرح الجامع الصحيح». ولد ٧٢٣هـ، وتوفي ٨٠٤هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٥، ص ٥٧).

(٣) ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، كتاب التوحيد، (ج ٣٣، ص ٢٩٤).

(٤) ابن حجر، فتح الباري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، (ج ١٣، =

من قوله «ملأى أو ملآن» لازمه وهو أنه في غاية الغنى وعنده من الرزق ما لا نهاية له في علم الخلائق، قوله «لا يغيضها» بالمعجمتين بفتح أوله أي لا ينقصها».

وقال الفقيه الشافعي ملا علي القاري^(١): «وقال الطيبي^(٢): «يد الله ملأى: أي نعمته غزيرة كقوله تعالى ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾^(٣)، فإن بسط اليد مجاز عن الجود ولا قصد إلى إثبات يد ولا بسط».



= (ص ٤٠٦).

(١) القاري، مرقاة المفاتيح، كتاب الإيمان، باب الإيمان بالقدر، (ج ١، ص ٣٨٢).

(٢) الطيبي، الحسين بن محمد بن عبد الله، شرف الدين الطيبي، من علماء الحديث والتفسير والبيان. من أهل توريز، من عراق العجم. كانت له ثروة طائلة من الإرث والتجارة، فأنفقها في وجوه الخير، حتى افتقر في آخر عمره. وكان شديد الرد على المبتدعة، ملازمًا لتعليم الطلبة والإنفاق على ذوي الحاجة منهم، آيةً في استخراج الدقائق من الكتاب والسنة، متواضعًا، ضعيف البصر. من كتبه: «التبيان في المعاني والبيان»، و«الخلاصة في معرفة الحديث». توفي سنة ٧٤٣هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٢، ص ٢٥٦).

(٣) سورة المائدة، آية ٦٤.

المبحث التاسع عشر تأويل حديث «يدنو أحدكم من ربه»

عن صفوان بن محرز^(١) أنّ رجلاً سأل ابن عمر كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النَّجوى قال: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ويقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقرّره ثم يقول إني سترت عليك في الدنيا فأنا أغفرها لك اليوم»^(٢).

قال ابن بطال في «شرح صحيح البخاري»^(٣) ما نصه: «قال المهلب: أما قوله في حديث النجوى: «يدنو أحدكم من ربه» فقال ابن فورك: معناه يقرب من رحمته وكرامته ولطفه لاستحالة حمله على قرب المسافة والنهاية إذ لا يجوز ذلك على الله لأنه لا يحويه مكان، ولا يحيط به موضع، ولا تقع عليه الحدود، والعرب تقول: فلان قريب من فلان يريدون قرب المنزل وعلو الدرجة عنده».

(١) صفوان بن محرز، المازنيّ البصريّ العابد، أحد الأعلام. حدّث عن أبي موسى الأشعريّ، وعمران بن الحُصَيْن، وابن عمر وغيرهم، وروى عنه جامع بن شدّاد، وقتادة، وثابت، ومحمّد ابن واسع وآخرون. قال ابن سعد: «ثقة، له فضل وورع». وقال غيره: «كان واعظاً، قانتاً لله، قد اتخذ لنفسه خندقاً يبكي فيه». الذهبيّ، سير أعلام النبلاء، (ج ٤، ص ٤٧٥-٤٧٦)، رقم الترجمة ٦١٠.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، (ج ٥، ص ٢٢٥٤)، حديث ٥٧٢٢.

(٣) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، كتاب الأدب، (ج ٩، ص ٢٦٣).

وأما قوله: «فيضع الجبار عليه كنفه»، فقد تقدم شرحه، ولزيادة الفائدة أقول وهذا اللفظ من رواية أخرى كما نقلها الحافظ ابن بطال فإنه يبين ما أشرنا إليه في معنى الدنو أنه على تأويل قرب المنزلة والدرجة، وذلك أن لفظ الكنف إنما يستعمل في مثل هذا المعنى، ألا ترى أنه يقال: أنا في كنف فلان إذا أراد أن يعرف إسباغ فضله عليه وتوقيره عنده.

قال الحافظ ابن الجوزي ما نصه^(١): «الواجب علينا أن نعتقد أن ذات الله تعالى لا تتبعض ولا يحويها مكان ولا يوصف بالتغير ولا بالانتقال».



(١) ابن الجوزي، الباز الأشهب، (ص ٨٣-٨٦).

المبحث العشرون تأويل حديث «حتى يضع رب العزة فيها قدمه»

قال النبي ﷺ: «لا تزال جهنم ﴿وتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فتقول قط قط وعزتك ويزوى بعضها إلى بعض» رواه شعبة عن قتادة^(١). ورواه مسلم أيضاً في صحيحه^(٢).

قال الإمام ابن فورك^(٣): «اعلم أن هذا الخبر مما طلب أهل العلم قديماً وحديثاً تأويله وتخريجه بحسن طريقه وصحة سنده وقد حمل كل فريق منهم ذلك على تأويل رأوه صواباً فمن ذلك ما يحكى عن الفضل بن شميل أنه كان يقول:

إن معنى القدم ههنا هم الكفار الذي سبق في علم الله تعالى أنهم من أهل النار وحمل معنى القدم على أنه هو المتقدم لأن العرب تقول للشيء المتقدم قدم وعلى ذلك تأويل المتأولين قوله عز وجل: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٤) أي سابقة صدق».

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الإيمان والنذور، باب الحلف بعزة الله وصفاته وكلماته، (ج ٦، ص ٢٤٥٣)، حديث ٦٢٨٤.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، (ج ٨، ص ١٥٢)، حديث ٢٨٢٤.

(٣) ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص ١٢٦).

(٤) سورة يونس، آية ٢.

قال الحافظ عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب^(١): «قلت: الواجب علينا أن نعتقد أن ذات الله تعالى لا تتبعض ولا يحوبها مكان ولا توصف بالتغير ولا بالانتقال.

وقد حكى أبو عبيد الهروي عن الحسن البصري أنه قال: القدم: هم الذين قدمهم الله تعالى من شرار خلقه وأثبتهم لها، وقال الإمام ابن الأعرابي: القدم المتقدم.

وروى أبو بكر البيهقي عن النضر بن شميل أنه قال: القدم ههنا الكفار الذين سبق في علم الله أنهم من أهل النار.

وقال أبو منصور الأزهري: القدم هم الذين قدم الله بتخليدهم في النار فعلى هذا يكون في المعنى وجهين أحدهما: كل شيء قدمه».

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»^(٢) ما نصه: «وليس المراد حقيقة القدم، والعرب تستعمل ألفاظ الأعضاء في ضرب الأمثال ولا تريد أعيانها، كقولهم: «رَعِمَ أَنْفُهُ وَسُقِطَ فِي يَدِهِ»، وقيل المراد بالقدم الفرط السابق أي يضع الله فيها ما قدمه لها من أهل العذاب قال الإسماعيلي: القدم قد يكون اسم لما قدم كما يسمى ما خبط من ورق خبطا فالمعنى ما قدموا من عمل».

وفي «النهاية في غريب الحديث والأثر»^(٣) لأبي السعادات المبارك بن محمد الجزري: «والمراد بالقدم: أهل النار الذين قدمهم الله تعالى لها من

(١) ابن الجوزي، الباز الأشهب المنقض على مخالفي المذهب، (ص ٨٣، ٨٤).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب التفسير، باب قوله «وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ»، (ج ٨، ص ٤٦١).

(٣) أبو السعادات، النهاية في غريب الحديث والأثر، (ج ١، ص ٢١٣).

شَرَارَ خَلْقِهِ كَمَا أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَدَّمَهُ الَّذِينَ قَدَّمَهُمْ لِلْجَنَّةِ».

وقال الحافظ ابن الجوزي في «دفع شبه التشبيه»^(١): «الواجب علينا أن نعتقد أن ذات الله تعالى لا تتبعض ولا يحويها مكان ولا توصف بالتغير ولا بالانتقال».

قال القاضي الفقيه ابن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل»^(٢): «اعلم أن إجراء هذا الحديث ونحوه على ظاهره محال على الله لأدلة عقلية ونقلية تقتضي رده وضعفه أو تأويله لا محالة، فإذا امتنع رده للاتفاق على صحته تعين وجوب تأويله بما يليق بجلال الله تعالى وبصدق الرسول وصدق الرواة، أما لفظ القدم فقال الحسن القدم ههنا هم الذين تقدم علم الله بأنهم من أهل النار وقال النضر بن شميل هم الكفار الذين قدمهم الله وقدرهم لها من شرار خلقه وقال الأزهري القدم الذين تقدم القول عليهم بتخليدهم فيها نعوذ بالله منها فالقدم اسم لما قُدِّمَ والهدم لما هُدِمَ والقبض اسم لما قُبِضَ ومنه قوله تعالى ﴿أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾^(٣) أي ما قدموه من صالح العمل، وقيل القدم جمع قادم كغيب جمع غائب ويؤيد ما قالوه قوله في تمام الحديث وأما الجنة فينشئ الله لها خلقًا فاتفق المعنى في الدارين وهو أن كل واحدة منهما تمد بزيادة من أهلها تمتلئ بها وأما رواية رجليه فهو إما من تخييل الراوي رواه بالمعنى فأخطأ فيه وإما أن الرجل عبارة عن جمع كثير كقولهم رجل من جراد إذا كان كثيرًا

(١) ابن الجوزي، دفع شبه التشبيه، (ص ٢٥٠).

(٢) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١٦٠-١٦٢).

(٣) سورة يونس، آية ٢.

منتشرا ومعناه يضع فيها خلقا كثيرا يشبهون الجراد في كثرتهم وأما من جعل القدم والرجل صفة زائدة لا ندري ما هي فقد تقدم الكلام فيه، وأعظم من ذلك وأشد من جعلها قدمه تعالى وقال المعنى يخبرهم فيه أن آلهتكم تحترق ورجلي لا تحترق تعالى الله عما يقوله هذا المبتدع وما ابتدعه في ذات الله تعالى وكيفما قاله والله تعالى يقول: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ (٩٩) (١) فإن احتج محتج بكتاب ابن خزيمة وما أورد فيه من هذه العظائم وبئس ما صنع من إيراد هذه العظائم الضعيفة والموضوعة، قلنا لا كرامة له ولا أتباعه إذ خالفوا الأدلة العقلية والنقلية على تنزيه الله تعالى بمثل هذه الأحاديث الواهية وإيرادها في كتبهم وابن خزيمة وإن كان إماما في النقل والحديث فهو عن النظر في العقلية وعن التحقيق بمعزل فقد كان غنياً عن وضع هذه العظائم المنكرات الواهية في كتبه. واعلم أن من العلماء من جزم بضعف هذا الحديث وإن أخرجه الإمامان لأنهما ومن روياه عنه غير معصومين وذلك لما قدمته من الأدلة العقلية والنقلية، أما النقلية فقولته تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (١٣) (٢)، وقال: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ (٨٥) (٣) وهذا صريح في رد من زعم أنه قدّم الرب تعالى وتقدس عن ذلك فلا جواب عنه إلا بالرد إلى التأويل أورد ذلك الحديث.

ولفظ النضر بن شميل هو ما رواه الحافظ البيهقي عنه أنه قال: «أي من سبق في علمه أنه من أهل النار» (٤).

(١) سورة الأنبياء، آية ٩٩.

(٢) سورة السجدة، آية ١٣.

(٣) سورة ص، آية ٨٥.

(٤) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ١٩٠).

المبحث الحادي والعشرون

تأويل حديث «إن الله لا ينام»

وحديث «وحجابه النور»

روي عن مسلم أنه قال: عن أبي موسى قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات فقال: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور وفي رواية أبي بكر: النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(١).

قال الحافظ النووي^(٢): «قوله ﷺ: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور وفي رواية النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، أما قوله ﷺ: «لا ينام ولا ينبغي له أن ينام» فمعناه أنه سبحانه وتعالى لا ينام، وأنه يستحيل في حقه النوم، وأما قوله ﷺ: «يخفض القسط ويرفعه» فقال القاضي عياض: ناقلاً عن بعضهم القسط الميزان، وسُمي قسطاً لأن القسط العدل وبالميزان يقع العدل. قال: والمراد أن الله تعالى يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة ويوزن من أرزاقهم النازلة... وقيل المراد بالقسط الرزق الذي هو

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب في قوله عليه السلام: «إن الله لا ينام»، (ص ١)، ج ١١١، حديث ٤٦٣.

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، (ج ٣، ص ١٣، ١٤).

قسط كل مخلوق يخفضه فيقتره ويرفعه فيوسعه والله أعلم، وأما قوله ﷺ: «يرفع إليه^(١) عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل»، وفي الرواية الثانية: «عمل النهار بالليل وعمل الليل بالنهار»، فمعنى الأول والله أعلم يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار الذي بعده، وعمل النهار قبل عمل الليل الذي بعده، ومعنى الرواية الثانية: يرفع إليه عمل النهار في أول الليل الذي بعده، ويرفع إليه عمل الليل في أول النهار الذي بعده، فإن الملائكة الحفظة يصعدون بأعمال الليل بعد انقضائه في أول النهار، ويصعدون بأعمال النهار بعد انقضائه في أول الليل، والله أعلم. وأما قوله ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»، فالسُّبُحات بضم السين والباء وضم التاء في آخره، وهي جمع سبحة. قال صاحب العين والهروى وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين: معنى «سبحات وجهه»، نوره وجلاله وبهاؤه الله منزّه عن أن يكون نورًا بمعنى الضوء أو أن يتصل به نورٌ حسي أو أن يشع منه أو أن يتوقد أو أن ينبث منه شيء من النور الحسي لأن الله ليس كمثله شيء، وجلاله وبهاؤه هو ما يدل على عظيم قدرة الله وتعظيمه وتقديسه وليس بمعنى الهيئة أو الشكل أو الكيفية أي صفةً حادثةً لأن الخالق لا يشبه المخلوق وأما الحجاب فأصله في اللغة المنع والستر، وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة، والله تعالى منزّه عن الجسم والحد، والمراد هنا: المانع من رؤيته، وسمى ذلك المانع نورًا أو نارًا لأنهما يمنعان من الإدراك في العادة لشعاعهما، والمراد بالوجه: الذات، والمراد بما انتهى إليه بصره من خلقه: جميع المخلوقات

(١) أي إلى محلّ كرامته، وأما الله فموجودٌ بلا مكان. وقيل هو عبارة عن قبول العمل الصالح.

لأن بصره سبحانه وتعالى محيط بجميع الكائنات، ولفظة من لبيان الجنس لا للتبويض، والتقدير لو أزال المانع من رؤيته وهو الحجاب المسمى نورًا أو نارًا وتجلي لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته والله أعلم».

وقال الحافظ أبو بكر بن فورك^(١): «اعلم أن كل ما ذكر فيه الحجاب من أمثال هذا الخبر فإنما يرجع معناه إلى الخلق لأنهم هم المحجوبون عنه بحجاب يخلقه فيهم لا يجوز أن يكون الله عزَّ وجلَّ محتجبًا ولا محجوبًا لاستحالة كونه جوهرًا أو جسمًا محدودًا لأن ما يستره الحجاب أكبر منه، ويكون متناهيًا محاذيًا جائزًا عليه المماساة والمفارقة، وما كان كذلك كانت علامات الحدث منه قائمة، وذلك أن الموحدین إنما توصلوا إلى العلم بحدث الأجسام من حيث وجدوها متناهية محدودة محلًّا للحوادث فكان تعاقبها عليها دليلًا على حدثها».

قال سراج الدين ابن الملقن الشافعي في كتابه «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»^(٢): «وقوله: «ملأى» أي: عطاؤه واسع ومنته كامله، تقول العرب: لي عند فلان يد بيضاء أي: منته كامله، وقوله: «لا يغيضها» أي: لا ينقصها».

وقال الحافظ الهرري في كتابه المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد ابن تيمية^(٣): «وإن قال الجهوي: فقد ورد ذكر الحجاب في عدة أحاديث

(١) ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص ٢١٣، ٢١٤).

(٢) ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، كتاب التوحيد والرد على الجهمية، باب قول الله تعالى ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ۗ﴾، (ج ٣٣، ص ٢٧٢).

(٣) الهرري، المقالات السنية في كشف ضلالات أحمد بن تيمية، (ج ١، ص ١٤٢، ١٤٣).

صحيحة كحديث مسلم^(١) من طريق أبي موسى الأشعري: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحَاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

فالجواب: أن الحجاب يرجع إلى الخلق لأنهم هم المحجوبون، وأصل الحجاب السُّتر الحائل بين الرائي والمرئي، والمراد به فيها المنع من الرؤية، ويستحيل أن يكون الله نورًا حسيًّا، أو يتصل بذاته نور حسي لأن النور الحسي مخلوقٌ بدلالة قول الله تعالى ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ۗ﴾^(٢)، فأخبرنا أن الظلمة والنور كلاهما مجعول لله أي مخلوق، فإذا عرف هذا فما ورد من تسمية الله تعالى بالنور في حديث الأسماء فمعناه: المنير، أي جاعل النور في السموات والأرض، وكذلك قول الله تعالى ﴿اللَّهُ نُورٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ﴾^(٣). فالحمد لله أن بصرنا معاشر أهل السنة والجماعة لهذا التنزيه الموافق لما كان عليه الصحابة، فمن أدل دليل على موافقتنا للصحابة في عدم اعتقادنا لما توهمه ظواهر بعض النصوص ما جاء عن ابن عباس بإسناد صحيح موقوفًا عليه وهو مرفوع حكمًا: «تفكروا في كل شيء ولا تفكروا في ذات الله»^(٤)، فإنه لو كان فهمه لتلك النصوص على حسب الظواهر لم يكن للنهي عن التفكير في الذات معنى، ولو كان الصواب ما تفهمه الوهابية من تلك النصوص لم يكن لقول السلف: «أمروها كما جاءت بلا كيف» معنى، ولم يكن لانزعاج مالك حين سئل عن الاستواء حتى أخذته الرخصاء وإطراقه معنى».

(١) مسلم، صحيح مسلم، مسلم، كتاب الإيمان، باب قول الرسول: «إن الله لا ينام»، (ج ١، ص ١١٦).

(٢) سورة الأنعام، آية ١.

(٣) سورة النور، آية ٣٥.

(٤) السيوطي، جامع الأحاديث، (ج ١١، ص ٣٢٦)، حديث ١٠٩٠٢.

قال الشاعر:

«نَحْنُ الَّذِينَ اعْتَنَقُوا الْإِيمَانَ
هُوَ الَّذِي أَفْهَمَنَا كِتَابَهُ
نَفَهُمْ مَا جَاءَ مِنَ الْمُنْقُولِ
مَنْ لَمْ يَنْلِ عِلْمًا وَجَهْلٌ شَابَهُ
إِنْ كَانَ مَنْ لَمْ يَتَعَلَّمِ الرَّبَا
كَيْفَ بِمَنْ لَمْ يَعْرِفِ الْقَوَاعِدُ
كَلَامُ طَهٍ وَاضِحُ الْمَعَانِي
لَكِنْ عَلَيْنَا دَخَلَ التَّحْرِيفُ
أَضْعَفْنَا جِيلًا وَرَاءَ جِيلٍ
سَلَفْنَا لَمْ يُكْثِرُوا التَّأْوِيلَا
لَمْ يَكُنِ التَّأْوِيلُ عَادَةً السَّلَفِ
تُصَانُ بِالمَعْرِفَةِ الْعَقَائِدُ
فَإِنْ يَكُنْ مَعْنَى مِنَ الْمَعَانِي
أَخْرَجَهُ عَنْ ظَاهِرِهِ لُزُومًا
وَهَاكَ مَا جَاءَ عَنِ الْبَشِيرِ
يَقُولُ فِي مَنْ خَلَقَ الْأَنَامَا
مَعْنَاهُ أَنَّ النَّوْمَ مُسْتَحِيلٌ
وَجَاءَ عَنْهُ تُرْفَعُ الْأَعْمَالُ

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى مَا كَانَا
مَا كَانَ مُحْكَمًا وَمَا تَشَابَهُ
عَلَى مُرَادِ اللَّهِ وَالرَّسُولِ
فَلْيَتَّعِدْ عَنْ كُلِّ مَا تَشَابَهُ
سَيَأْكُلُ الرَّبَا أَشَاءَ أَمْ أَبِي
وَخَاصٌّ فِي مُخْتَلِفِ الْعَقَائِدِ
لِكُلِّ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ
وَفَهْمُنَا لِللُّغَةِ الضَّعِيفُ
صِرْنَا بِحَاجَةٍ إِلَى التَّأْوِيلِ
بَلْ جَاءَ عَنْهُمْ: أَوْلُوا قَلِيلًا
لَكِنْ لِدْفَعِ الْوَهْمِ أَوَّلِ الْخَلْفِ
هَذَا وَإِلَّا فَالْقَرِينُ صَائِدُ
مُخَالِفًا لِمُحْكَمِ الْقُرْآنِ
وَسَلَّ تَجِدُ تَأْوِيلَهُ الْمَعْلُومَا
وَاحْتِاجَ لِلتَّأْوِيلِ وَالتَّفْسِيرِ
لَا يَنْبَغِي لَهُ بِأَنْ يَنَامَا
فِي حَقِّهِ لِأَنَّهُ تَعْطِيلُ
إِلَى الْإِلَهِ مَنْ لَهُ الْإِجْلَالُ

أَي أَنَّهَا قَدْ رُفِعَتْ إِلَى مَحَلِّ
 وَقَالَ فِي إِلَهِنَا الْمُخْتَارِ
 يَعْنِي حِجَابٌ مَانِعٌ مِنْ أَنْ نَرَى
 وَلَيْسَ مَعْنَاهُ هُوَ الْمُحْجُوبُ
 ثُمَّ تَحَدَّثَ النَّبِيُّ الْغَالِي
 وَالسُّبُحَاتُ هُنَا دَلَالَةٌ
 وَالْوَجْهَ ذَاتُ اللَّهِ لَيْسَ الْجَارِحَةَ
 لِتُبْعِدَ الْوَهْمَ عَنِ الْحَدِيثِ
 نُورُ الْحِجَابِ لَمْ يَزَلْ طَهَّ يَصِفُ
 «يَحْرُقُ مَا أَنْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ
 إِنَّ الَّذِي أَرَادَهُ الرَّسُولُ
 وَإِنْ تَجِدُ فِي سُورِ الْقُرْآنِ
 مَا يُوهِمُ التَّجْسِيمَ وَالتَّشْبِيهَا
 جَلَّ إِلَهُهُ لَيْسَ كَالْإِنْسَانِ
 مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ خَالِقَ الْوَرَى
 وَإِنْ تُرِدُ نَصِيحَتِي تَنْبَهْ

كَرَامَةِ اللَّهِ وَلَيْسَ حَيْثُ حَلَّ
 حِجَابُهُ النُّورُ وَقِيلَ النَّارُ
 فَنَحْنُ مُحْجُوبُونَ عَنْ رَبِّ الْوَرَى
 إِذِ الْمَوْدَى أَنَّهُ مَغْلُوبٌ
 عَنْ سُبُحَاتِ وَجْهِ ذِي الْجَلَالِ
 عَلَى عَظِيمِ الْقَدْرِ وَالْجَلَالَةِ
 فَكَلَّمَا ذَكَرْتَ ذَا كُنْ شَارِحَهُ
 عَهْدًا بِدِينِ اللَّهِ وَالْحَدِيثِ
 يَقُولُ لَوْ ذَاكَ الْحِجَابُ يَنْكَشِفُ
 مِنْ خَلْقِهِ» وَشَرَحَهُ مُخْتَصَرُهُ
 بِأَنَّ كُلَّ كَائِنٍ مَشْمُولٌ
 أَوْ مَا أَتَى فِي سُنَّةِ الْعَدْنَانِي
 فَلَا تُشَبَّهُ وَالزَّمِ التَّنْزِيهَا
 أَوَّلُ إِذَا «أَصَابِعُ الرَّحْمَنِ»
 عَلَى قُلُوبِ الْعَالَمِينَ سَيَطْرَأُ
 فَمَنْ يُسِيءُ فَهَمَّ الْمَرَادِ شَبَّهُ.



المبحث الثاني والعشرون تأويل حديث زينب «وزوجني الله من فوق سبع سموات»

عن أنسٍ قال: «جاء زيد بن حارثة يشكو فجعل النبي ﷺ يقول: «اتق الله وأمسك عليك زوجك»، قال أنس: لو كان رسول الله ﷺ كاتمًا شيئًا لكم هذه قال: فكانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: «زوّجكنّ أهاليكنّ وزوّجني الله تعالى من فوق سبع سموات»^(١).

فمعنى هذا الحديث أن زينب تزوجها النبي ﷺ بالوحي من غير وليّ وشاهدين، وليس معناه أن الله تعالى ساكن في مكان فوق السموات السبع، لا ليس هذا معناه، وقد تمسك بظاهر هذا الحديث بعض فرق الضلال كالمجسمة والمشبهة وخالفوا الإجماع وشبهوا الله بخلقه وجعلوه محتاجًا للمكان والجهة والعياذ بالله.

فمن أصول عقائد المؤمنين التي دلت عليها الأدلة والبراهين القاطعة من القرءان والحديث والعقل والإجماع تنزيه الله سبحانه وتعالى عن التحييز في مكان أو الانتشار في الأماكن، فربنا سبحانه وتعالى هو خالق المكان، كان قبل الأماكن كلها من غير احتياج إليها ثم خلق الأماكن وبعد خلقها ما زال كما كان موجودًا بلا مكان لأنه سبحانه يُعَيَّر ولا يَتَغَيَّر كما اشتهر ذلك

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب «وكان عرشه على الماء»، (ج ٦، ص ٢٦٩٩)، حديث ٦٩٨٤.

بين عوام المسلمين وخواصهم إذ لو جاز عليه التغير لاحتاج إلى من يغيره
والمحتاج إلى غيره لا يكون إلهاً.

ثم المكان هو الفراغ الذي يشغله الجسم، وإن شئت قلت هو ما يأخذه
الحجم من الفراغ، فلو كان الله في مكان لكان جسمًا له طولٌ وعرضٌ وعمقٌ
كما أن الشمس لها طولٌ وعرضٌ وعمقٌ وحجمٌ وشكلٌ ومن كان كذلك كان
بلا شك مخلوقًا محتاجًا إلى من خصّه بذلك الطول وذلك العرض وذلك
العمق، والاحتياج ينافي الألوهية، فوجب عقلاً تنزيه الله تبارك وتعالى عن
المكان. هذا الدليل من العقل.

أما من القرءان فيدل على تنزيه الله عن المكان آيات منها قوله تعالى
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(١) لأنه لو كان الله له مكان لكان له أشباه كثيرة
وأمثال لا تحصى وهذا ضد هذه الآية ومنافٍ لها، فهذه الآية المحكمة كافية
لتنزيه الله عن المكان والحيز والجهة بل وعن سائر أوصاف المخلوقين.

وأما الدليل من الحديث على تنزيه الله عن المكان فمنه ما رواه البخاري
والبيهقي وغيرهما بالإسناد الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «كان الله ولم
يكن شيء غيره»^(٢). ومعناه أن الله لم يزل موجودًا في الأزل ليس معه غيره
لا ماءً ولا هواءً ولا أرض ولا سماء ولا كرسي ولا عرش ولا إنس ولا جن
ولا ملائكة ولا زمان ولا مكان ولا جهات، فهو تعالى موجود قبل المكان
بلا مكان لأن المكان هو غير الله بلا شك والحديث يدل على أن الله كان

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدُؤُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾^(٧٧)، (ج ٣، ص ١١٦٤)، حديث ٣٠١٩.

ولم يكن شيء غيرُه موجودًا، إذًا لم يكن المكان موجودًا وإنما هو مخلوقٌ خلقه اللهُ فليس اللهُ تعالى بحاجة إليه ومن هنا رَوَوْا عن سيدنا علي رضي اللهُ عنه أنه قال: كان اللهُ ولا مكان وهو الآن على ما عليه كان. رواه أبو منصور البغدادي في الفرق بين الفرق. أي موجود بلا مكان وهذا مفهوم بوضوح من الحديث السابق.

وقال الحافظ البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات»: استدل بعض أصحابنا في نفي المكان عن الله بقول النبي ﷺ: «أنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(١)، ثم قال البيهقي: وإذا لم يكن فوقه شيء ولا دونه شيء لم يكن في مكان. وهو أمرٌ شديد الوضوح ظاهرٌ كالشمس.

فتنزيه اللهُ عن المكان يدلُّ عليه القراءان والسنة النبوية كما ذكرنا وهو من أصول عقائد المسلمين بل هو مما أجمع عليه علماء أهل السنة والجماعة سلفهم وخلفهم وقد نقل الإجماع على ذلك كثير من العلماء كأبي منصور البغدادي وإمام الحرمين الجويني والرازي وغيرهم، ونصَّ عبارة الإمام الفقيه الأصولي المؤرخ أبي منصور البغدادي في كتابه الفرق بين الفرق: «وأجمعوا أي أهل السنة أنه لا يحويه مكان ولا يجري عليه زمان».

ففهْمُ هذه المسئلة جيدًا مع التمكن من أدلتها تمكَّنًا تامًا من الأمور المهمة فاحرص على التمكن في فهمها وحفظها وبيانها وتعليمها فدينُ اللهُ غالٍ غالٍ جدًّا والشذوذُ في الاعتقاد مُهلكٌ.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، (ص ١٠٤٤)، حديث ٢٧١٣.

المبحث الثالث والعشرون

تأويل حديث

«ولا يصعد إلى الله إلا الطيب»

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «من تصدَّق بعدلِ تمرَةٍ من كسبِ طيبٍ ولا يصعد إلى الله إلا الطيب فإنَّ الله يتقبَّلها بيمينه ثمَّ يرَبِّيها لصاحبها كما يرَبِّي أحدكم فلوَّه حتى تكون مثل الجبل»، ورواه ورقاء عن عبد الله بن دينارٍ عن سعيد بن يسارٍ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «ولا يصعد إلى الله إلا الطيب»^(١).

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(٢) ما نصه: «قال الخطابي: ذكر اليمين في هذا الحديث معناه حسن القبول».

وقال^(٣): «قال القرطبي: وإنما لا يقبل الله الصدقة بالحرام لأنه غير مملوك للمتصدق».

وقال أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الميورقي الحميدي في «تفسير غريب ما في الصحيحين»^(٤) ما نصه: «فتربو في كف الرحمن أي تنمو وتزيد، وكل شيء زاد وارتفع، فقد ربا يربو فهو راب، وأصل المحققين في كل ما كان

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، (ج ٦، ص ٢٧٠٢)، حديث ٦٩٩٣.

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٤٢٨).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الزكاة، باب لا تقبل صدقة من غلول، (ج ٣، ص ٣٢٨).

(٤) الحميدي، تفسير غريب ما في الصحيحين، (ص ١٧٣).

من هذا الباب، أن لا تشبيه ولا كيفية، لقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (١١) ﴿١﴾.

وقال المازري: «قد ذكرنا استحالة الجارحة على الله سبحانه وتعالى، وإن هذا الحديث إنما عبر به على ما اعتادوا في خطابهم ليفهموا، فكنى هنا عن قبول الصدقة بأخذها في الكف، وعن تضعيف أجرها بالتربية، فقال القاضي: لما كان الشيء الذي يُرْتَضَى وَيُعَزَّزُ يُتَلَقَّى باليمين وَيُؤْخَذُ بِهَا اسْتُعْمَلَ في مثل هذا، واستعير للقبول والرضا، كما قال الشاعر:

إِذَا مَا رَايَةً رُفِعَتْ لِمَجْدٍ تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ».

قال: «وقيل عبر باليمين هنا عن جهة القبول والرضا، إذ الشمال بضده في هذا». قال: «وقيل: المراد بكف الرحمن هنا ويمينه كف الذي تُدْفَعُ إليه الصدقة، وإضافتها إلى الله تعالى إضافة مِلْكٍ واختصاصٍ لوضع هذه الصدقة فيها لله عز وجل» (٢).

وفيه أيضاً قال ابن عرفة: «يقال أناه عن يمينه إذا جاءه من الجهة المحمودة، والعرب تنسب الفعل المحمود والإحسان إلى اليمين، وضده إلى اليسار. قالوا: واليمين مأخوذٌ من اليَمْنِ. وأما قوله ﷺ: «وكلتا يديه يمين» (٣)، فتنبية على أنه ليس المراد باليمين جارحة، فإنها مستحيلة في حق الله تعالى» (٤).

وقال التفتازاني في تأويل الكف ما نصه: «قال علماؤنا رحمة الله عليهم

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، (ج ٧، ص ٩٨).

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٠، ص ٢٠١).

(٤) النووي، شرح صحيح مسلم، (ج ١٢، ص ٢١١-٢١٢).

في تأويل هذه الأحاديث: إن هذا كناية عن القبول والجزاء عليها.. وخص اليمين والكف بالذكر، إذ كل قابلٍ لشيءٍ إنما يأخذه بكفه وبيمينه أو يوضع له فيه فخرج على ما يعرفونه، والله جل وعز منزّه عن الجارحة. وقد جاءت اليمين في كلام العرب بغير معنى الجارحة كما قال الشاعر:

إذا ما رأيتُ رُفِعَتْ لمجدٍ تلقّاها عرابةٌ باليمينِ.

أي هو مؤهل للمجد والشرف، ولم يرد بها يمين الجارحة، لأن المجد معنى فاليمين التي تتلقى به رايته معنى، وكذلك اليمين في حق الله تعالى. وقد قيل: إن معنى «تربو في كف الرحمن»^(١) عبارة عن كفة الميزان التي توزن فيها الأعمال، فيكون من باب حذف المضاف، كأنه قال: فتربو في كفة ميزان الرحمن»^(٢).

قال الإمام ابن فورك في كتابه «مشكل الحديث وبيانه»^(٣): «اعلم أن معنى الكف ههنا معنى الملك والسلطان كما قال الأخطل:

أعاذل إن النفس في كف مالك إذا ما دعا يوماً أجابت بها الرسلا
ومعنى الخبر على هذا التأويل إن الله عز وجل يجازي المتصدق بما بيناه من الجزاء أضعافاً مضاعفة وفائدته الترغيب في الصدقة وأنها يجب أن يقصد بها الطيب من المال ويخص بالإنفاق ويعلم أن ذلك يجري بعلم الله وقدرته وإرادته ومشيتته أي قد علموا أن الله عز وجل هو المطلع الشاهد

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، (ج ٢، ص ٨٦)، حديث ٦٥٦.

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ٨، ص ٢٥١).

(٣) ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص ٢٣٥-٢٣٨).

وللصدقات قابل لأنها تقع في ملكه وسلطانه على حسب علمه ومشيتته وقد روي أن عمر بن الخطاب كان كثيرا ما ينشد هذين البيتين:

هون عليك فإن الأمور بكف الإله مقاديرها
فليس بآتيك منهيها ولا قاصر عنك مأمورها

ومعنى قوله بكف الإله أي في سلطانه وملكه وقدرته وهذا أيضا جائز في كلام الناس في معاملاتهم وتعارفهم لأنهم يقولون ما فلان إلا في كفي يريدون بذلك أنه ممن يجري عليه أمر ملكه ففي ذلك دليل لنا على خلاف قول القدرية لأن الصدقة فعل المصدق وقد أخبر أنها في كف الله على معنى أنها في ملكه وتحت قدرته وهذا يوجب أن يكون مقدور الله مخلوقا له. وقد تؤول هذا الخبر على وجوه آخر.

ف قيل إن الكف المراد به ههنا الأثر والنعمة فإذا كان كذلك كان معنى الخبر محمولاً على أحد وجهين:

أحدهما أن يكون المراد بالأصابع ههنا الملك والقدرة ويكون فائدته أن قلوبهم في قبضته جارية قدرته عليها وذلك أن الله تعالى خلق القلوب محلا للخواطر والإرادات والعزوم والنيات وهي مقدمات الأفعال وفواتح الحوادث ثم جعل سائر الجوارح تابعة لها من الحركات والسكنات حتى تقع حركاتها بحسب إرادات القلوب لها إذا كانت اختيارية كسبية.

ثم أخبر أن القلوب جارية على حسب إرادة الله تعالى إذ كانت تحت سلطانه وقدرته ليستفاد بذلك أن من كانت فواتح الأمور جارية تحت قدرته فكذلك غاياتها ونهاياتها وهذا أيضا يدل على صحة ما نقول أن أفعال

الحيوان مقدره لله تعالى مخلوقة له وأنها لا تحدث إلا على حسب سابق إرادة الله ومشئته فيها فدل ﷺ بذكر القلب وكونه تحت القدرة جاريًا على المراد على أن ما عداه أولى به لأنه هو الذي تصدر أفعال الجوارح عن قلبه وإرادته.

أحدهما أن يكون معناه أن ذلك يقع منكم بنعمة من الله عز وجل في توفيقه إياكم لفعالها ويكون معنى قوله في كف الرحمن أي به يقع وبحسن إنعامه وألطافه يكون ويحدث ثم إنه يجازي من فضله من شاء بما شاء ومنه قول ذي الأصبغ من معنى الكف الذي يراد به النعمة.

زمان به لله كف كريمة علينا ونعماء لهن بشير
أراد بذلك نعم ظاهرة لله فيه».

وأما قوله ﷺ: «وَلَا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ» فليس معناه نسبة المكان والحيز إلى الله بل هو بمعنى الحديث الذي رواه مسلم قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً» فيكون المعنى ما يقبله الله من الأعمال الصالحة وليس بمعنى نسبة الحيز والجهة إلى الله تعالى الله وتنزهه عن ذلك علوًا كبيرًا ولأن الله تعالى هو الذي خلق الجهات والأماكن، والمكان هو الفراغ الذي يشغله الجسم والله ليس جسمًا فلا يملأ فراغًا فلا مكان له والله تعالى ليس متحيزًا في العرش ولا في السماء بل هو سبحانه كان قبل السماء وقبل العرش بلا مكان وهو الآن على ما عليه كان.



المبحث الرابع والعشرون

تأويل حديث

«فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»

عن ابن عباسٍ أنّ معاذًا قال: بعثني رسول الله ﷺ قال: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تَتَّخِذُ مِنْ أَغْنِيائِهِمْ فتردّ في فقرائهم فإن هم أطاعوا لذلك فأيتك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»^(١).

قال الحافظ النووي^(٢): «أي انها مسموعة لا ترد».

قال الحافظ ابن حجر^(٣): «وقد ورد ذكر الحجاب في عدة أحاديث صحيحة والله سبحانه وتعالى منزّه عما يحجبه إذ الحجاب انما يحيط بمقدر محسوس ولكن المراد بحجابه منعه أبصار خلقه وبصائرهم بما شاء متى شاء كيف شاء وإذا شاء كشف ذلك عنهم».

قال شارح البخاري ابن بطال^(٤): «قد فسر ذلك عمر في حديث الحمى فقال: «اتق دعوة المظلوم فإنها مجابة».

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، (ج ١، ص ٣٧)، حديث ١٣٠.

(٢) النووي، المنهاج، (ج ١، ص ١٩٧).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، ابن حجر، (ج ١٣، ص ٤٤٠).

(٤) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (ج ٦، ص ٥٧٧، ٥٧٨).

وقد روي ذلك عن النبي ﷺ، روى ابن أبي شيبة قال: حدثنا الفضل بن دكين قال: حدثنا أبو معشر، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «دعوة المظلوم مجابة وإن كان فاجرًا، ففجوره على نفسه»^(١). وقال عون بن عبد الله: «أربع دعوات لا ترد، ولا يحجب عن الله: دعوة والد راض، وإمام مقسط، ودعوة مظلوم، ودعوة رجل دعا لأخيه بظهر الغيب».

قال شارح البخاري محمود العيني^(٢): «ليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب ومعنى عدم الحجاب أنها مجابة وقد جاء في حديث آخر مفسرًا دعوة المظلوم مجابة وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه رواه ابن أبي شيبة عن أبي هريرة مرفوعًا».

قال شارح البخاري القسطلاني: «ليس بينها وبين الله حجاب كناية عن الاستجابة وعدم الرد كما صرح به في حديث أبي هريرة عند الترمذي مرفوعًا بلفظ ثلاثة لا تردّ دعوتهم الصائم حين يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام وتفتح لها أبواب السماء ويقول الرب وعزّتي لأنصرتك ولو بعد حين».



(١) الطبراني، المعجم الأوسط، (ج ٢، ص ٤٠).
(٢) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (ج ١٢، ص ٤١٢).

المبحث الخامس والعشرون

تأويل حديث

«إن الله جميل يحب الجمال»

قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله جميل يحب الجمال»^(١)، فقد قال فيه الحافظ النووي^(٢):
«وقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إن الله جميل يحب الجمال» اختلفوا في معناه فقيل إن معناه أن
كل أمره سبحانه وتعالى حسن جميل وله الأسماء الحسنی».

ثم قال^(٣): «وقيل جميل بمعنى مجمل ككريم وسميع بمعنى مكرم
ومسمع وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه الله معناه جليل».

ثم قال^(٤): «وقيل معناه جميل الأفعال بكم باللطف والنظر^(٥) إليكم
يكلفكم السير من العمل ويعين عليه ويثيب عليه الجزيل ويشكر عليه»،
وكذلك قاله السيوطي^(٦).

ومعنى إن الله جميلٌ فليس معناه جميل الشكل وإنما معناه جميل الصفات
أي صفاته كاملة أزلية أبدية لا تزيد ولا تنقص ولا تتغير، أو محسنٌ أي يُحسن
لعباده ويتكرم عليهم بنعمه، فهو جميلٌ بمعنى مُجْمِلٌ أي مُحْسِنٌ، وأما قوله

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيان، (ج ١، ص ٦٦).

(٢) النووي، المنهاج، (ج ٢، ص ٩٠).

(٣) النووي، المنهاج، (ج ٢، ص ٩٠).

(٤) النووي، المنهاج، (ج ٢، ص ٩٠).

(٥) والمراد بالنظر هنا الإكرام والرحمة؛ والله تعالى يرى المخلوقات كلها من غير حذقة ولا آلة
أخرى، وصفاته ليست كصفات المخلوقات.

(٦) السيوطي، الديباج في شرح مسلم بن الحجاج، (ج ١، ص ١٦٦).

يحب الجمال أي أن الله تعالى يحب من عبده المؤمن الطهارة والتواضع وحسن الخلق، وأما حديث الترمذي: «إِنَّ اللَّهَ نُظِيفَ يَحِبُّ النَّظَافَةَ» فمعناه منزّه عن السوء والنقص، وقوله «يحب النظافة» أي يحب لعباده نظافة الخلق والعمل والثوب والبدن، وليحذر مما يقوله بعض السفهاء إذا رأوا امرأة شبه عارية ينظرون إلى عورتها ويقولون إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يَحِبُّ الْجَمَالَ فإيراد هذا الحديث بهذا الموضع مستحسنين لهذه المعصية هو كفرٌ، وكذلك الذي يظن منه أن الله يحب جميل الصورة والهيئة ولو كان كافرًا فإنه يكفر.

قال الشاعر:

«وَأَوْلُوا وَصَفَ الْإِلَهَ بِالْجَمِيلِ	فالشكلُ في حقِّ الإلهِ مُسْتَحِيلُ
قَالُوا صَفَاتُ رَبِّنا الْمَرادُ	لا تَنْقُصُ الصِّفَاتُ أو تُزادُ
قِيلَ مُجْمَلٌ هو الْجَمِيلُ	قالَ القُشَيْرِيُّ هوَ الْجَلِيلُ
نَبِيُّنا في حَقِّهِ تَعَالَى	قالَ يُحِبُّ رَبُّنا الْجَمالاً
مَعنى الْحَدِيثِ أَيُّ يُحِبُّ اللهُ	تَواضَعَ العَبْدُ كما أَوْصاهُ
يُحِبُّ مِنْ عِبادِهِ الطَّهارةُ	هَذَا هوَ الْمَرادُ بِالْعِبارةِ».



المبحث السادس والعشرون

تأويل حديث

«إنه أعور أي الدجال وإن الله ليس بأعور»

قال رسول الله ﷺ: «إنه أعور وإن الله ليس بأعور»^(١)، فقد نقل الحافظ ابن الجوزي قول ابن عقيل ونصه^(٢): «يحسب بعض الجهلة أنه لما نفى العور عن الله عز وجل أثبت من دليل الخطاب أنه ذو عينين وهذا بعيد من الفهم، إنما نفى العور من حيث نفى النقائص كأنه قال ربكم ليس بذي جوارح تتسلط عليه النقائص، وهذا مثل نفى الولد عنه لأنه يستحيل عليه التجزؤ، ولو كانت الإشارة إلى صورة كاملة لم يكن في ذلك دليل على الألوهية ولا القدم فإن الكامل في الصورة كثير»، فلا حول ولا قوة إلا بالله.



(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب ذكر الدجال، (ص ١٢٩٢)، حديث ٦٧٠٨.

(٢) ابن الجوزي، الباز الأشهب، (ص ١٣٤).

المبحث السابع والعشرون

تأويل حديث

«لقد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة»

روى البخاري قصة الرجل الذي آثر ضيف رسول الله ﷺ على نفسه وزوجه وأولاده فباتوا طاويين فنزل قول الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾^(١) فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة»^(٢)، قال الحافظ ابن الجوزي^(٣): «قال العلماء: العجب إنما يكون من شيء يدهم الإنسان مما لا يعلمه فيستعظمه وهذا لا يليق بالخالق سبحانه لكن معناه عظم قدر ذلك الشيء عند الله لأن المتعجب من شيء يعظم قدره عنده» ثم نقل عن شيخه ابن عقيل قوله: العجب في الأصل استغراب الشيء وذلك يكون من علم ما لم يعلم، وإلا فكل شيء أنس به لا يتصور العجب منه، فإن الإنسان إذا رأى حجر المغناطيس يجذب الحديد ولم يكن رآه قبل ذلك عجب، والبارئ سبحانه لا يعزب عن علمه شيء، إلى أن قال: وكذلك الضحك لا يصدر إلا عن راضٍ ومن ذلك قوله ﷺ «لله أفرح بتوبة عبده»^(٤) أي رضي، ومنه قوله تعالى:

(١) سورة الحشر، آية ٩.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله عز وجل ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (ص ٦٨٩)، حديث ٣٧٩٨.

(٣) ابن الجوزي، الباز الأشهب، (ص ٩٨).

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب التوبة، (ص ١١٥٥)، حديث ٦٣٠٨.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(١) أي راضون»^(٢).

قال الحافظ: «ولا يجوز أن يعتقد في الله تعالى التأثير الذي يوجد في المخلوقين، فإن صفات الحق قديمة فلا تحدث له صفة». والتعجب انفعال يحدث في النفس عند الشعور بأمر خفي سببه وخرج عن نظائره ولهذا يقال إذا ظهر السبب بطل العجب فلا يطلق على الله أنه متعجب لأنه لا يخفى عليه شيء.

وكذا من الأحاديث الشريفة التي وردت بها نسبة العجب إلى الله تعالى ما أخرجه البخاري رحمه الله: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في السلاسل»^(٣).

قال أبو سليمان قوله: «عجب الله» إطلاق العجب لا يجوز على الله سبحانه ولا يليق بصفاته وإنما معناه الرضا، وحقيقته أن ذلك الصنيع منهم حل من الرضا عند الله والقبول له ومضاعفة الثواب عليه محل العجب عندكم في الشيء التافه إذا رفع فوق قدره وأعطي به الأضعاف من قيمته، وقد يكون أيضاً معنى ذلك أن يُعَجَّبَ اللهُ ملائكته ويضحكهم، وذلك أن الإيثار على النفس أمر نادر في العادات مستغرب في الطباع، وهذا يخرج على سعة المجاز ولا يمتنع ذلك على مذهب الاستعارة في الكلام ونظائره في كلام العرب كثيرة»^(٤).

(١) سورة المؤمنون، آية ٥٣.

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، باب ما جاء في الضحك، (ص ٤٧٧).

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب الأسارى في السلاسل، (ج ٣، ص ١٠٩٦)، حديث ٢٨٤٨.

(٤) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٤٠٣، ٤٠٤).

وقال ابن فورك^(١): «معنى ذلك أن أصل التعجب إذا استعمل في أحدنا فالمراد أن يدهمه أمر يستعظمه مما لم يعلمه، وذلك مما لا يليق بالله سبحانه، وإذا قيل في صفة الله تعالى: عجب أو يتعجب فالمراد به أحد شيئين: إما أن يكون المراد به أنه مما عظم قدر ذلك وكبر لأن المتعجب معظّم لما يتعجب منه، ولكن الله سبحانه لما كان عالمًا بما كان ويكون، لم يلقَ به أحد الوجهين الذي يقتضي استدراك علم ما لم يكن له عالمًا، فبقي أمر التعظيم له والتكبير في القلوب عند أهله، إذ يراد بذلك الرضا والقبول لأجل أن من أعجبه الشيء فقد رضيه وقبله، ولا يصح أن يعجب مما يسخطه ويكرهه، فلما أراد النبي ﷺ تعظيم أقدار هذه الأفعال في القلوب أخبر عنها باللفظ الذي يقتضي التعظيم حثًا على فعلها وترغيبًا في المبادرة إليها».

وقال ابن الجوزي: «قال ابن عقيل: العجب في الأصل استغراب الشيء، والاستغراب حقيقة علم ما لم يعلم، وإلا فكل شيء أنس به لا يتصور العجب منه، كما لو رأى إنسان حجر المغناطيس يجذب الحديد ولم يكن رآه قبلها فإنه يعجب، أو رأى النعام تزدرد^(٢) الجمر».

وإذا كان البارئ سبحانه لا يعزب عن علمه شيء ولا يصدر شيء إلا عن فعله وخلقه فأين العجب منه؟ فلم يبق للحديث معنى إلا أن يكون فعل في حق هذا من الثواب والجزاء فعل من أعجبه فعله، وكذلك قوله «ضحك الله» وقد مرّ لأن الضحك لا يصدر إلا عن راضٍ غير ساخط، فيكون المعنى: يصدر عنه فعل الراضي الضاحك وإثابته^(٣).

(١) ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص ٧١).

(٢) أي تبتلع.

(٣) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (ج ١، ص ٩٧٩).

المبحث الثامن والعشرون

تأويل حديث

«لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن»

روى النسائي عن أبي بن كعب قال: «لا تسبوا الريح فإنها من نفس الرحمن قوله تعالى ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكن قولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به»^(١)، قال الحافظ ابن الجوزي^(٢): «النفس بمعنى التنفيس عن المكروب ومثله ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن» يعني تنفيسه عن المكروب بنصرة أهل المدينة إياي والمدينة من جانب اليمن، وهذا شيء لا يختلف فيه المسلمون^(٣).

وقال ابن حامد يريد المجسم رأيت بعض أصحابنا يشتون الله وصفًا في ذاته أنه يتنفس قال: وقالوا الريح الهابة مثل الرياح العاصفة والعقيم والجنوب والشمال والصبأ والدبور مخلوقة، إلا ريحًا من صفاته هي ذات نسيم حياتي، وهي من نفس الرحمن.

قلت: على من يعتقد هذا اللعنة لأنه يثبت جسدًا مخلوقًا وما هؤلاء بمسلمين».

(١) الحاكم، المستدرک، (ج ٢، ص ٢٩٨)، حديث ٣٠٧٥.

(٢) ابن الجوزي، الباز الأشهب، (ص ١٤٠).

(٣) قال البيهقي عقبه: «قلت قوله إني لأجد نفس الرحمن من ههنا إن كان محفوظًا فإنما أراد إني أجد الفرج من قبل اليمن كما قال النبي ﷺ: من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة». البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤٦٣).

المبحث التاسع والعشرون

تأويل حديث

« فينادي بصوت إن الله »

ورد أن الله عز وجل يقول يوم القيامة: «يا آدم فيقول: لبيك وسعديك، فينادي بصوت إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثا إلى النار»^(١)، قال الحافظ ابن الجوزي^(٢): «انفرد بلفظ الصوت حفص بن غياث^(٣) وخالفه وكيع وجريير وغيرهما من أصحاب الأعمش فلم يذكروا الصوت، وسئل أحمد عن حفص قال: كان يخلط في حديثه».

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»^(٤): «وقع «فينادي» مضبوطاً بكسر الدال، وفي رواية أبي ذر بفتحها على البناء للمجهول، ولا محذور في رواية

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قوله عز وجل: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، (ص ١١٨٩)، حديث ٦٥٣٠. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لأدم أخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، (ص ٣٧٩)، حديث ١٠٥.

(٢) ابن الجوزي، الباز الأشهب، (ص ١٢٧).

(٣) حفص بن غياث بن طلق بن عمر المعروف بالنخعي القاضي الكوفي، قال الذهبي في الميزان: أحد الثقات. روى عنه أحمد ويحيى بن معين وعلي بن المدني ويحيى بن القطان، روى عن الأعمش وابن جريج ويحيى بن سعيد الأنصاري، قال ابن المديني: سمعت يحيى بن سعيد القطان يقول: أوثق أصحاب الأعمش حفص بن غياث. وقال أحمد بن عبد الله: ثقة مأمون فقيه، وكان وكيع إذا سئل يقول اذهبوا إلى قاضينا فاسألوه وكان شيخاً عفيفاً مسلماً. مات سنة ست وتسعين ومائة. روى له الجماعة كذا قال عبد الغني في الكمال، وقال الذهبي في الميزان: مات سنة أربع وتسعين ومائة على الصحيح وولد سنة سبع عشرة ومائة وتولى القضاء سنة سبع وسبعين وله ستون سنة. ابن أبي الوفاء، الجواهر المضية في طبقات الحنفية، (ص ٢٢١ - ٢٢٣)، رقم الترجمة ٥٥٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٤٦٠).

الجمهور فإن قرينة قوله: «إن الله يأمرك^(١)» تدل ظاهراً على أن المنادي ملك يأمره الله بأن ينادي بذلك»، والحديث مخرج في الصحيحين. وقد تقدم بيانه وأقوال العلماء فيه، فتأمل.



(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب قوله عز وجل ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾، (ص ١١٨٩)، حديث ٦٥٣٠. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله: يقول الله لأدم أخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، (ص ٣٧٩)، حديث ١٠٥.

المبحث الثلاثون

تاويل حديث:

«ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»

روى مسلم أن النبي ﷺ قال: «ما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(١).

قال الحافظ ابن حجر في «الفتح»^(٢): «قال عياض كانت العرب تستعمل الاستعارة كثيرا وهو أرفع أدوات بديع فصاحتها وإيجازها، ومنه قوله تعالى: ﴿جَنَاحَ الدُّلِّ﴾^(٣) فمخاطبة النبي ﷺ برداء الكبرياء على وجهه ونحو ذلك من هذا المعنى، ومن لم يفهم ذلك تاه فمن أجرى الكلام على ظاهره أفضى به الأمر إلى التجسيم، ومن لم يتضح له وعلم أن الله تعالى منزّه عن الذي يقتضيه ظاهرها إما أن يكذب نقلتها وإما أن يؤولها كأن يقول استعار لعظم سلطان الله وكبريائه وعظمته وهيبته وجلاله المانع إدراك أبصار البشر مع ضعفها لذلك رداء الكبرياء، فإذا شاء تقوية أبصارهم وقلوبهم كشف عنهم حجاب هيبته وموانع عظمته».

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾^(١) إلى ربّها نَاضِرَةٌ^(٢)، (ج ٦، ص ٢٧١٠)، حديث ٤٥٩٧. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، (ص ٨٧)، حديث ٢٩٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٤٣٢).

(٣) سورة الإسراء، آية ٢٤.

وقال ابن بطال فيما نقله عنه الحافظ ابن حجر في «الفتح»^(١) ما نصه:
«فيكون تأويل الرداء الآفة الموجودة لأبصارهم المانعة لهم من رؤيته».

واعلم أن الكلام في الآية هو أن أصحابنا رحمهم الله قالوا: إنه يجوز أن يقال: إنه تعالى محتجب عن الخلق، ولا يجوز أن يقال إنه محجوب عنهم، لأن لفظة الاحتجاب مشعرة بالقوة والقدرة، والحجب مشعر بالعجز والذلة، فيقال احتجب السلطان عن عبيده، ويقال فلان حجب عن الدخول على السلطان، وحقيقة الحجاب بالنسبة إلى الله تعالى محال، لأنه عبارة عن الجسم المتوسط بين جسمين آخرين، بل هو محمول عندنا على أن لا يخلق الله تعالى في العين رؤية متعلقة بها^(٢).

قال الشاعر:

«في الشَّرْعِ لَوْ سَمِعْتَ مَا تَعَارَضُ	مَعَ مُحْكَمِ الآيَاتِ أَوْ تَنَاقَضُ
فَكَذَّبِ الرَّوَاةَ لِلدَّلِيلِ	هَذَا وَإِلَّا الْجَأَ إِلَى التَّأْوِيلِ
خُذْ هَذِهِ الْقَاعِدَةَ الْجَلِيلَةَ	وَاحْذَرْ فَلِلشَّيْطَانِ أَلْفُ حِيلَةٍ
قَدْ قَالَ فِي أَهْلِ الْجِنَانِ	طَهَ بِأَنَّهُمْ غَدًا يَرُونَ اللَّهَ
لَوْلَا رِذَاءُ الْكِبْرِيَاءِ كَانُوا	رَأَوْا وَهُمْ مَأْوَاهُمُ الْجِنَانُ
فَقَالَ فِي الرِّدَاءِ أَهْلُ السَّنَةِ	يَكْشِفُهُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ
مَعْنَى الرِّدَاءِ الْمَانِعِ الْحِجَابُ	بِمَنْنِهِ يَرْفَعُهُ التَّوَابُ
وَلَفْظَةُ الرِّدَاءِ مُسْتَعَارَةٌ	فِيهَا إِلَى جَلَالِهِ إِشَارَةٌ

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج ١٣، ص ٤٣٣.

(٢) الرازي، أساس التقديس، ص ٨٠.

والاستعاراتُ أحبُّها العربُ كثيرةٌ في شعرهم وفي الأدبِ
ونسبُهُ الوجهُ إلى اللهِ الأحدُ جاءت بِمعنى الذاتِ هذا المعتمدُ.



المبحث الحادي والثلاثون

تاويل حديث:

«يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي، إذا ذكرني في نفسه
ذكرته في نفسي وإن ذكرني في ملاً ذكرته في ملاً خير منه»

قال الفخر الرازي في «أساس التقديس»^(١) ما نصه: «في لفظ النفس
احتجوا على إطلاق هذا اللفظ بالقرءان والأخبار.

أما القرءان فقوله تعالى في حق موسى عليه السلام: ﴿وَأَصْطَفَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(٢) وقال حاكيا عن عيسى عليه السلام: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ
مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(٣) وقال في صفة أهل الثواب ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَي نَفْسِهِ
الرَّحْمَةَ﴾^(٤) وقال في تخويف العصاة ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٥)
وأما الأخبار فكثيرة:

الخبر الأوّل: ما روى أبو صالح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:
«يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي، إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي
وإن ذكرني في ملاً ذكرته في ملاً خير منه»^(٦) واللفظ للبخاري.

(١) الرازي، أساس التقديس، (ص ٧٥).

(٢) سورة طه، آية ٤١.

(٣) سورة المائدة، آية ١١٦.

(٤) سورة الأنعام، آية ٥٤.

(٥) سورة آل عمران، آية ٢٨.

(٦) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٦)،
(ص ١٣٣٨)، حديث ٧٤٠٥. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على =

الخبر الثاني: قوله عليه السلام: «سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»^(١).

الخبر الثالث: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لما قضى الله الخلق كتب في كتابه على نفسه أن رحمتي سبقت غضبي»^(٢).

«واعلم أن النفس جاء في اللغة على وجوه». ثم عدد بعض المعاني إلى أن قال: «وخامسها: ذات الشيء وعينه وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٣) ﴿فَأَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾^(٤) ﴿وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾^(٥).

إذا عرفت هذا فنقول لفظ النفس في حق الله تعالى ليس إلا الذات والحقيقة فقوله ﴿وَأَصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾^(٦) كالتأكيد الدال على مزيد المبالغة، فإن الإنسان إذا قال جعلت هذه الدار لنفسي وعمرتها لنفسي فهم منه المبالغة، وقوله تعالى: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾^(٧) المراد تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، وكذا القول في بقية الآيات.

= ذكر الله، (ص ١٠٣٣)، حديث ٢٦٧٥.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب التسيح أول النهار وعند النوم، (ص ١٠٤٧)، حديث ٢٧٢٦.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَيَحْدِرْكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٣٨)، (ص ١٣٣٨)، حديث ٧٤٠٤.

(٣) سورة البقرة، آية ٩.

(٤) سورة البقرة، آية ٥٤.

(٥) سورة هود، آية ١٠١.

(٦) سورة طه، آية ٤١.

(٧) سورة المائدة، آية ١١٦.

وأما قوله عليه السلام حكاية عن رب العزة: «إِن ذكرنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي» فالمراد إن ذكرنِي بِحَيْث لَا يَطَّلَعُ غَيْرُهُ عَلَى ذَلِكَ ذَكَرْتَهُ بِإِنْعَامِي وَإِحْسَانِي مِنْ غَيْرِ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ عِبِيدِي، لِأَنَّ الذِّكْرَ فِي النِّفْسِ عِبَارَةٌ عَنِ الْكَلَامِ الْخَفِيِّ وَالذِّكْرَ الْكَامِنَ فِي النِّفْسِ، وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مُحَالٌ.

وأما قوله: «سَبَّحَانَ اللَّهَ زِنَةَ عَرْشِهِ وَرِضَاءَ نَفْسِهِ» فالمراد مَا يَرْضِيهِ اللَّهُ تَعَالَى لِنَفْسِهِ وَلِذَاتِهِ أَي تَسْبِيحًا يَلِيقُ بِهِ.

وأما قوله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ هُوَ يَكْتُبُ عَلَى نَفْسِهِ»^(١) فالمراد بِهِ كَتَبَ كِتَابًا وَأَوْجَبَ الْعَمَلَ بِهِ. وَالْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ عَلَى نَفْسِهِ التَّأَكِيدَ وَالْمُبَالَغَةَ فِي الْوَجُوبِ وَاللِّزُومِ، فَثَبَتَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالنِّفْسِ فِي هَذِهِ الْمَوَاضِعِ هُوَ الذَّاتُ، وَأَنَّ الْغَرَضَ مِنْ ذِكْرِ هَذَا اللَّفْظِ الْمُبَالَغَةُ وَالتَّأَكِيدُ، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»^(٢): «قوله: «إِن ذكرنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي»^(٣) أَي إِن ذكرنِي بِالتَّنْزِيهِ وَالتَّقْدِيسِ سِرًّا ذَكَرْتَهُ بِالثَّوَابِ وَالرَّحْمَةِ سِرًّا. وَقَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾^(٤) وَمَعْنَاهُ اذْكُرُونِي بِالتَّعْظِيمِ أَذْكُرْكُمْ

(١) البخاري، صحيح البخاري. كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَدِّثُكُمْ أَنَّ اللَّهَ نَفْسُهُ﴾، (ص ١٣٣٨)، حديث ٧٤٠٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٣٨٦).

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَيُحَدِّثُكُمْ أَنَّ اللَّهَ نَفْسُهُ﴾، (ج ٦، ص ٢٦٩٤)، حديث ٦٩٧٠.

(٤) سورة البقرة، آية ١٥٢.

بالإنعام، وقال تعالى: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ۗ﴾^(١) أي أكبر العبادات^(٢) فمن ذكره وهو خائف آمنه أو مستوحش آنسه، قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۗ﴾^(٣). قوله: وإن ذكرني في ملاء بفتح الميم واللام مهموز أي جماعة ذكرته في ملاء خير منهم، قال بعض أهل العلم يستفاد منه أن الذكر الخفي أفضل من الذكر الجهرى، والتقدير إن ذكرني في نفسه ذكرته بثواب لا أطلع عليه أحدا وإن ذكرني جهرا ذكرته بثواب أطلع عليه الملاء الأعلى.



(١) سورة العنكبوت، آية ٤٥.

(٢) وهي الصلاة التي فرضها الله، وهي مشتملة على ذكر الله.

(٣) سورة الرعد، آية ٢٨.

المبحث الثاني والثلاثون

تأويل حديث

«اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض»

قال الفخر الرازي في «أساس التقديس»^(١): «قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾»^(٢) وروى ابن خزيمة في كتابه عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن فلك الحمد أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن»^(٣).

وعن مالك بن أنس عن أبي الزبير عن طاوس عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يقول إذا قام إلى الصلاة من جوف الليل: «اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض ولك الحمد أنت قيام السماوات والأرض ولك الحمد أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن أنت الحق ووعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليت توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدمت وأخرت وأسررت وأعلنت أنت إلهي لا إله إلا أنت»^(٤).

(١) الرازي، أساس التقديس، (ص ٧٩).

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، جماع أبواب صلاة التطوع بالليل، باب التحميد والثناء على الله والدعاء عند افتتاح صلاة الليل، (ج ٢، ص ١٨٤)، حديث ١١٥١.

(٤) مسلم، صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، (ج ٢، ص ١٨٤)، حديث ١٨٤٤.

اعلم أنه لا يصح القول بأنه تعالى هو هذا النور المحسوس بالبصر،
ويدل عليه وجوه» ثم ساق وجوهاً منها:

لو كان كونه تعالى نور السماوات والأرض بمعنى الضوء المحسوس
لوجب أن لا يكون في شيء من السماوات والأرض ظلمة ألبتة، لأنه تعالى
دائم لا يزال ولا يزول.

لو كان تعالى نورًا بمعنى الضوء مغنيًا عن ضوء الشمس والقمر والنار،
والحسّ دالّ على خلاف ذلك، أنه تعالى أزال هذه الشبهة بقوله تعالى:
﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾^(١) أضاف النور إلى نفسه، ولو كان تعالى نفس النور وذاته
لامتنعت هذه الإضافة لأن إضافة الشيء إلى نفسه ممتنعة، وكذلك قوله
تعالى: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾^(٢).

قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٣) فتيين بهذا أنه تعالى خالق
الأنوار» هـ.

قال ابن بطال^(٤): «وأما قوله: «أنت نور السماوات والأرض» وقول الله
تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥)، فواجب صرفه عن ظاهره لقيام
الدليل على أنه لا يجوز أن يوصف بأنه نور [بمعنى الضوء]، والمعنى: أنت
منور السماوات والأرض بأن خلقتهما دلالة لعبادك على وجودك وربوبيتك
بما فيهما من دلائل الحدث المفتقرة إلى محدث فكأنه نور السماوات

(١) سورة النور، آية ٣٥.

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) سورة الأنعام، آية ١.

(٤) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (ج ١٠، ص ٤١٥).

(٥) سورة النور، آية ٣٥.

والأرض بالدلائل عليه منهما وجعل في قلوب الخلائق نورًا يهتدون به إليه، وقال ابن عباس: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣٥) أي هاديهن، وعنه أيضًا مدبرهما، ومدبر ما فيهما».

قال البطليوسي في «الإنصاف في التنبيه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين في آرائهم ومذاهبهم» ما نصه^(١): «ومما غلظت فيه المجسمة أيضا قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٢) فتوهموا أن ربهم نور، تعالى الله عن قول الجاهلين وإنما المعنى الله هادي أهل السماوات والأرض، والعرب تسمى كل ما جلى الشبهات وأزال الالتباس وأوضح الحق نورًا.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (١٧٤) (٣) يعني القرءان. وعلى هذا المعنى سمي نبيه ﷺ سراجًا منيرًا. وقال العباس بن عبد المطلب يمدحه: [المنسرح]

وأنت لما ظهرت أشرقت الأرض وضاءت بنورك الأفق
وعلى هذا مجرى كلام العرب.

قال امرؤ القيس^(٤): [الوافر]

(١) البطليوسي، الإنصاف، (ص ٨٧-٩١).

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) سورة النساء، آية ١٧٤.

(٤) امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي، من بني آكل المرار، أشهر شعراء العرب على الإطلاق. يمانى الأصل. مولده بنجد، أو بمخلاف السكاسك باليمن. أشتهر بلقبه، واختلف المؤرخون في اسمه، فقيل: حندج وقيل: مليكة وقيل: عدي. وكان أبوه ملك أسد وخطفان. وأمه أخت المهلهل الشاعر، فلقنه المهلهل الشعر، فقاله وهو غلام، وجعل يشب ويلهو =

أقرّ حشى امرئ القيس بن حجر بن تميم مصابيح الظلام
وقال النابغة الذبياني: [البسيط]

لا يُبعد الله جيرانًا تركتهم مثل المصابيح تجلو ليلة الظلم
وقال عبيد بن العرندس الكلابي الجاهلي: [البسيط]

من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري
وقال النبي ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»^(١) ولو منحت
المجسمة طرفاً من التوفيق وتأمّلت الآية بعين التحقيق لوجدت فيها ما يبطل
دعواهم دون تكلف تأويل، ومن غير طلب دليل لأنه قال تعالى بعقب الآية:
﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢) فأخبرنا أن ما
ذكره في الآية العزيزة من النور والمشكاة والمصباح والزجاجة والزيتونة
والشجرة أمثال مضروبة يعقلها عن الله تعالى من وفق لفهمها وكشفت له
الحجب عن مكنون سرها وعلمها كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا
لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٣).

= ويعاشر صعاليك العرب، فبلغ ذلك أباه، فنهاه عن سيرته فلم ينته. فأبعده إلى (دمون)
بحضرموت، موطن آبائه وعشيرته، وهو في نحو العشرين من عمره. فأقام زهاء خمس سنين،
ثم جعل ينتقل مع أصحابه في أحياء العرب، يشرب ويطرب ويغزو ويلهو، إلى أن ثار بنو أسد
على أبيه وقتلوه، فبلغ ذلك امرأ القيس وهو جالس للشراب فقال: رحم الله أبي! ضيعني صغيراً
وحملني دمه كبيراً، ونهض من غده فلم يزل حتى ثار لأبيه من بني أسد، وقال في ذلك شعراً
كثيراً. الزركلي، الأعلام، (ج ٢، ص ١١).

(١) الجرجاني، الكامل، (ج ٢، ص ٣٧٦، ٣٧٧). وفي سنده حمزة النصيبي قال ابن عدي: يضع
الحديث.

(٢) سورة النور، آية ٣٥.

(٣) سورة العنكبوت، آية ٤٣.

فإن قلت: كيف وقع هذا التمثيل وما المراد به؟ فالجواب أنه شبه صدر المؤمن بالمشكاة، وقلبه بالزجاجة، ونور الهدى الذي يضعه في قلبه بالمصباح، وشبهه مادة الهدى المنبعثة من قبل الرسول ﷺ التي تزيد في بصائر المؤمنين، وتحفظ نور الإيمان عليهم، وتمنعه من أن يغلب عليه الشك فيطمسه بمادة الزيت التي تمد المصباح لئلا يطفأ نوره، وشبه النبي ﷺ بالزيتونة، إذ كان الهدى إنما ينبعث من قلبه كانبعاث الزيت من الزيتونة. وجعل الزيتونة لا شرقية ولا غربية لأن ظهوره ومبعثه إنما كان بمكة، ومكة متوسطة بين المشرق والمغرب. فهذا كلام كما ترى قد خرج على أحسن مخارج الكلام، وتشبيه جاء على أبداع وجوه التشبيه.

قال الإمام الخطابي رضي الله عنه: «ولا يجوز أن يتوهم أن الله سبحانه وتعالى نور من الأنوار فإن النور تضاده الظلمة وتعاقبه فتزيله وتعالى الله أن يكون له ضد أو ند» نقله عنه الحافظ البيهقي في «الأسماء والصفات»^(١). وفي «صحيح مسلم»^(٢) عن أبي ذر رضي الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك قال: «نور أنى أراه» والمعنى غلبنى نور أو غشيني نور كيف أراه، فأنى استفهام على جهة الاستبعاد لغلبة النور على بصره كنور الشمس فإنه يغشى البصر ويحيره إذا نظر إليه، ولا يعارضه الرواية الأخرى رأيت نورا فإنه عند وقوع بصره على النور رآه ثم غلبه عليه بعد فضعف عنه بصره كالرائي عين الشمس عند كثرة شعاعها.

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، باب جماع أبواب ذكر الأسماء التي تتبع إثبات التدبير له دون سواه، (ص ٨١).

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام «نور أنى أراه»، وفي قوله «رأيت نورًا»، (ج ١، ص ١١١)، حديث ٤٦١.

وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» ما نصه^(١): «قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَءَ بِالتَّيِّبِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(٦٩) وَوُقِيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾^(٧٠)»، قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾^(٦٩) إشراقها إضاءةً لها، يقال: أشرقت الشمس إذا أضاءت وشرقت إذا طلعت.

ومعنى ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ بعدل ربها، قاله الحسن وغيره، وقال الضحاك: بحكم ربها، والمعنى واحد أي أنارت وأضاءت بعدل الله وقضائه بالحق بين عباده. والظلم ظلمات والعدل نور.

وقيل: إن الله يخلق نوراً يوم القيامة يلبسه وجه الأرض فتشرق الأرض به، وقال ابن عباس: النور المذكور ههنا ليس من نور الشمس والقمر، بل هو نور يخلقه الله فيضيء به الأرض، وروى أن الأرض يومئذ من فضة تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء، والمعنى^(٣) أنها أشرقت بنور خلقه الله تعالى، فأضاف النور إليه على حد إضافة الملك إلى المالك. وقيل: إنه اليوم الذي يقضى فيه بين خلقه، لأنه نهار لا ليل معه. وقرأ ابن عباس وعبيد بن عمير ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ﴾ على ما لم يسم فاعله وهي قراءة على التفسير، وقد ضل قوم ههنا فتوهموا أن الله عز وجل من جنس النور والضياء المحسوس، وهو متعال عن مشابهة المحسوسات، بل هو منور السماوات والأرض، فمنه كل نور خلقاً وإنشاءً.

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (ج ١٥، ص ٢٨٢).

(٢) سورة الزمر، (ص ٦٩، ٧٠).

(٣) أي هذا تفسير قوله تشرق بنور الله تعالى حين يأتي لفصل القضاء.

قال الشاعر:

«عن ربه قال النبي المرضي
النورُ ههنا بمعنى الهادي
أي قد هَدَى أهلَ السما الملائكا
والله واجب الوجود في القدم
إذا النبيُّ استغفرَ الرحمن
مُعَلِّمًا أُمَّتَهُ التسليما
أما النبي ذنبه مغفورُ
نورُ السماوات ونورُ الأرض
والقولُ بالضوء من الإلحادِ
وبعض أهل الأرضِ هُم كذلكا
أما المكانُ جاء من بعد العَدَم
مراده أن يظهر الإذعاننا
صَلَّوا عليه سلِّموا تسليما
وعند أهل العلمِ ذا مشهورُ».



المبحث الثالث والثلاثون

تأويل حديث

«سبحانك اللهم وبحمدك تبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله

غيرك»

ليعلم أن قول عمر رضي الله عنه «تعالى جدك» فيه تمجيد لله وتقديس لذاته وليس اللفظ بمعنى الجد الذي هو والد الأب، عز الله وتعالى عن أن يكون له ولد أو والد. إنما المراد عظمة الله وجلاله ولا يكون موحدًا من فهم المعنى على ظاهر اللفظ.

أما ما روي من أن الصحابة كانوا يفتتحون الفاتحة بالحمد وليس بالبسملة^(١)، فالرد عليها من رواية البخاري في صحيحه^(٢) في كتاب فضائل القراءان، باب مدّ القراءة: حدّثنا عمرو بن عاصم حدّثنا همّام عن قتادة قال سئل أنس كيف كانت قراءة النبي ﷺ فقال كانت مدًّا ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿١﴾ يمدُّ بِبِسْمِ اللَّهِ وَيُمدُّ بِالرَّحْمَنِ وَيُمدُّ بِالرَّحِيمِ». وقال الحافظ أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح الشهرزوري^(٣) في كتابه «مقدمة

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: لا يُجهرُ بالبسملة، (ج ٢، ص ١٢)، حديث ٩١٨.

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القراءان، باب مدّ القراءة، (ج ٤، ص ١٩٢٥)، حديث ٤٧٥٩.

(٣) ابن الصلاح، الإمام، الحافظ، العلامة، شيخ الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو عثمان ابن المفتي صلاح الدين عبد الرحمن بن عثمان بن موسى الكردي، الشهرزوري، الموصلي، الشافعي، صاحب «علوم الحديث». مولده سنة ٥٧٧هـ، تفقه على والده بشهرزور. وسمع من عبيد الله ابن السمين، ونضر بن سلامة الهيتي، ومحمود بن علي الموصلي، وأبي المظفر بن البرني، =

ابن الصلاح في علوم الحديث»^(١): ومثال العلة في المتن: ما انفرد مسلم بإخراجه في حديث أنس، من اللفظ المصرح بنفي قراءة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢)، فعلل قوم رواية اللفظ المذكور لما رأوا الأكثرين إنما قالوا فيه: فكانوا يستفتحون القراءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، من غير تعرض لذكر البسملة، وهو الذي اتفق البخاري ومسلم على إخراجه في الصحيح ورأوا أن من رواه باللفظ المذكور رواه بالمعنى الذي وقع له. ففهم من قوله: كانوا «يستفتحون بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾» أنهم كانوا لا ييسملون، فرواه على ما فهم وأخطأ لأن معناه أن السورة التي كانوا يفتتحون بها من السور هي الفاتحة وليس فيه تعرض لذكر التسمية. وانضم إلى ذلك أمور منها: أنه ثبت عن أنس: أنه سئل عن الافتتاح بالتسمية فذكر أنه لا يحفظ فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ والله أعلم.

ومثله قال الحافظ النووي في كتابه «إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق»^(٤).

= وعبد المحسن بن الطوسي وطائفة. وحدث عنه: الإمام شمس الدين بن نوح المقدسي، والإمام كمال الدين سَلَّار، وفخر الدين عمر الكرجي، والقاضي شهاب الدين بن الخويي، ومحمد بن أبي الذكّر، وآخرون، ذكره المحدث عمر بن الحاجب في «معجمه» فقال: «إمام ورع، وافر العقل، حسن السميت، متبحر في الأصول والفروع، بالغ في الطلب حتى صار يضرب به المثل». توفي سنة ٦٤٣هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٤، ص ١٧٧-١٨٠)، رقم الترجمة ٥٩٣٥.

(١) ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح، معرفة أنواع علم الحديث، (ص ١٩١).

(٢) سورة الفاتحة، آية ١.

(٣) سورة الفاتحة، آية ٢.

(٤) النووي، إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق، (ص ١٠٢، ١٠٣).

وقال الحافظ زين الدين العراقي^(١) في كتابه «التقييد والإيضاح لما أُطلق وأُغلق من مقدمة ابن الصلاح» ما نصه: «وربما يعترض معترض على المصنف بأنك قدمت أن ما أخرجه أحد الشيخين البخاري أو مسلم مقطوع بصحته فكيف يضعف هذا وهو فيما أودعه مسلم كتابه، وأيضاً فلم تعين من أعله حتى ينظر محله من العلم وما حكيته عن قوم لم تسمهم أنهم أعلوه معارض بقول أبي الفرج ابن الجوزي في التحقيق عقب حديث أنس هذا أن الأئمة اتفقوا على صحته، والجواب عن ذلك أن المصنف لما قدم أن ما أخرجه أحد الشيخين مقطوع بصحته قال سوى أحرف يسيرة تكلم عليها بعض أهل النقد من الحفاظ كالدارقطني وغيره. فقد استثنى أحرفاً يسيرة وهذا منها، وقد أعله جماعة من الحفاظ الشافعي والدارقطني وابن عبد البر، ولنذكر كلامهم في ذلك ليتضح ما أعلوه به، فأما كلام الشافعي رحمه الله فقد ذكره عنه البيهقي في كتاب «معرفة السنن والآثار» وأنه قاله في سنن حرمله جواباً لسؤال أورده وصورة السؤال.

فإن قال قائل: قد روى مالك عن حميد عن أنس قال: «صليت وراء أبي بكر وعمر وعثمان فكلهم كان لا يقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»^(٢).

قال: قال الشافعي: «قل له: خالفه سفيان بن عيينة والفزاري والثقفي وعدد لقيتهم سبعة أو ثمانية هم مؤمنون متفقين مخالفين له»، قال: «والعدد الكثير أولى بالحفظ من واحد». ثم رجح روايتهم بما رواه عن سفيان عن أيوب عن قتادة عن أنس قال: «كان النبي ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان يفتتحون القراءة

(١) العراقي، التقييد والإيضاح لما أُطلق وأُغلق من مقدمة ابن الصلاح، (ص ٩٨-١٠٢).

(٢) سورة الفاتحة، آية ١.

بالحمد لله رب العالمين»، قال الشافعي: «يعني يبدؤون بقراءة أم القراءان قبل ما يقرأ بعدها ولا يعنى أنهم يتركون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)».

وحكى الترمذي في جامعه عن الشافعي قال: «إنما معنى هذا الحديث أن النبي ﷺ وأبا بكر وعمر وعثمان كانوا يفتتحون القراءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)، معناه أنهم كانوا يبدؤون بقراءة فاتحة الكتاب قبل السورة، وليس معناه أنهم كانوا لا يقرؤون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)» (٢).

وما أوله به الشافعي مصرح به في رواية الدارقطني: «فكانوا يستفتحون بأمر القراءان فيما يجهر به». قال الدارقطني: «هذا صحيح». وقال الدارقطني أيضاً: «إن المحفوظ عن قتادة وغيره عن أنس أنهم كانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ليس فيه تعرض لنفي البسملة، وكذا قال البيهقي إن أكثر أصحاب قتادة رووه عن قتادة كذلك قال وهكذا رواه إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة وثابت البناني عن أنس».

وأما تضعيف ابن عبد البر له بالاضطراب فإنه قال في كتاب «الاستذكار»: «اختلف عليهم في لفظه اختلافاً كثيراً مضطرباً متدافعاً، منهم من يقول «صليت خلف رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر»، ومنهم من يذكر عثمان، ومنهم من لا يذكر فكانوا لا يقرؤون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)، ومنهم من قال «فكانوا لا يجهرون بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)»، وقال كثير منهم «كانوا يفتتحون القراءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)»، وقال بعضهم «فكانوا يجهرون بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)»، وقال بعضهم: «كانوا

(١) سورة الفاتحة، آية ٢.

(٢) سورة الفاتحة، آية ١.

يقرؤون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١)، قال: «وهذا اضطراب لا تقوم معه حجة لأحد من الفقهاء الذين يقرؤون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(١)، والذين لا يقرأونها». وقال ابن عبد البر أيضًا في كتاب «الإنصاف» في البسملة بعد أن رواه من رواية أيوب وشعبة وهشام الدستوائي^(١) وشيبان بن عبد الرحمن^(٢) وسعيد بن أبي عروبة^(٣) وأبي عوانة فهؤلاء حفاظ أصحاب قتادة ليس في روايتهم لهذا الحديث ما يوجب سقوط ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٤) من أول فاتحة الكتاب.

فهذا كلام أئمة الحديث في تعليل هذا الحديث، فكيف يقول ابن الجوزي إن الأئمة اتفقوا على صحته؟ أفلا يقدر كلام هؤلاء في الاتفاق الذي نقله.

(١) هشام الدستوائي، هو الحافظ، الحجة، الإمام، الصادق، أبو بكر، هشام بن أبي عبد الله سنبر البصري الربيعي، مولاهم. صاحب الثياب الدستوائية، كان يتجر في القماش الذي يجلب من دستوا. ولذا قيل له: «صاحب الدستوائي». ودستوا بليدة من أعمال الأهواز. حدث عن: يحيى ابن أبي كثير، وقاتدة، والقاسم بن أبي بزة، وحماد الفقيه، وشعيب بن الحبحاب، والقاسم بن عوف. حدث عنه: ابنه معاذ وعبد الله، وشعبة، وابن المبارك، ويزيد بن زريع، وعبد الوارث، وابن علي، ويحيى القطان، ووكيع، وغندر، ومحمد بن أبي عدي، وبشر بن المفضل، وإسحاق الأزرق، وخالد بن الحارث، وخلق كثير. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٧، ص ١٤٩، ١٥٠)، رقم الترجمة ٥١.

(٢) شيبان التميمي، شيبان بن عبد الرحمن التميمي بالولاء، أبو معاوية، مؤدب، من رجال الحديث والعربية. ولد بالبصرة، وسكن الكوفة، وتوفي في بغداد. له كتاب في الحديث. توفي سنة ١٦٤ هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ١٨٠).

(٣) ابن أبي عروبة، سعيد بن أبي عروبة مهران، العدوي بالولاء، البصري، أبو النصر، حافظ للحديث، لم يكن في زمانه أحفظ منه. قال الذهبي: «إمام أهل البصرة في زمانه». ورمي بالقدر. اختلط في آخر عمره، ومات في عشر الثمانين. له مصنفات. توفي سنة ١٥٦ هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ٩٨).

(٤) سورة الفاتحة، آية ١.

وقد رأيت أن أبين علل الرواية التي فيها نفي البسملة من حيث صيغة الإسناد، فأقول: قد ذكر ترك البسملة في حديث أنس من ثلاثة طرق: وهي رواية حميد عن أنس، ورواية قتادة عن أنس، ورواية إسحاق بن عبد الله ابن أبي طلحة عن أنس. فأما رواية حميد، فقد تقدم أن مالكاً رواها في «الموطأ» عنه، وأن الشافعي رضي الله عنه تكلم فيها لمخالفة سبعة أو ثمانية من شيوخه في ذلك. وأيضاً فقد ذكر ابن عبد البر في كتاب «الإنصاف» ما يقتضى انقطاعه بين حميد وأنس فقال: «ويقولون إن أكثر رواية حميد عن أنس أنه سمعها من قتادة عن أنس وقد ورد التصريح بذكر قتادة بينهما فيما رواه ابن أبي عدي عن حميد عن قتادة عن أنس فألت رواية حميد إلى رواية قتادة».

وأما رواية مسلم في صحيحه من رواية الوليد بن مسلم: «حدثنا الأوزاعي عن قتادة أنه كتب إليه يخبره عن أنس بن مالك أنه حدثه قال: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر فكانوا يستفتحون بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(١) لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٢) في أول القراءة ولا في آخرها فقد بين الأوزاعي في روايته أنه لم يسمعه من قتادة وإنما كتب إليه به، والخلاف في صحة الرواية بالكتابة معروف وعلى تقدير صحتها فأصحاب قتادة الذين سمعوه منهم أيوب وأبو عوانة وغيرهما لم يتعرضوا لنفي البسملة كما تقدم. وأيضاً ففي طريق مسلم الوليد بن مسلم وهو مدلس وإن كان قد صرح بسماعه من الأوزاعي فإنه يدلس تدليس التسوية أى يسقط

(١) سورة الفاتحة، آية ٢.

(٢) سورة الفاتحة، آية ١.

شيخ شيخه الضعيف كما تقدم نقله عنه نعم لمسلم من رواية شعبة عن قتادة عن أنس فلم أسمع أحداً منهم يقرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ولا يلزم من نفي السماع عدم الوقوع بخلاف الرواية المتقدمة.

وأما رواية إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة فهي عند مسلم أيضاً ولم يستق لفظها وإنما ذكرها بعد رواية الأوزاعي عن قتادة عن أنس فقال حدثنا محمد بن مهران^(١) حدثنا الوليد بن مسلم عن الأوزاعي أخبرني إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنس بن مالك يذكر ذلك فاقتضى إيراد مسلم لهذه الرواية أن لفظها مثل الرواية التي قبلها وليس كذلك فقد رواها ابن عبد البر في كتاب «الإنصاف» من رواية محمد بن كثير، قال: حدثنا الأوزاعي فذكرها بلفظ كانوا يفتتحون القراءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) ليس فيها تعرض لنفي البسمة موافقا لرواية الأكثرين وهذا موافق لما قدمنا نقله عن البيهقي من أن رواية إسحاق بن عبد الله عن أنس لهذا الحديث كرواية أكثر أصحاب قتادة أنه ليس فيها تعرض لنفي البسمة فقد اتفق ابن عبد البر والبيهقي على مخالفة رواية إسحاق للرواية التي فيها نفي البسمة، وعلى هذا فما فعله مسلم رحمه الله هنا ليس بجيد لأنه أحال بحديث على

(١) محمد بن مهران الجمال، الحافظ، الثقة، الجوال، النقال، أبو جعفر الرازي. حدث عن فضيل بن عياض، ومرحوم بن عبد العزيز، وعبد العزيز بن محمد الدراوردي، وسفيان بن عيينة، وحاتم بن إسماعيل، وجريز بن عبد الحميد، وعتاب بن بشير، وخلق كثير من نظرائهم ودونهم، وعنه البخاري، ومسلم، وأبو داود، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وأحمد بن عليّ الأبار، وموسى بن هارون، وآخرون. قال ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن أبي جعفر الجمال، وإبراهيم ابن موسى، فقال: كان أبو جعفر أوسع حديثاً، وكان إبراهيم أثنق، وأبو جعفر صدوق». مات في أول سنة ٢٣٩هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٨، ص ٨٩، ٩٠)، رقم الترجمة ١٩٨٨.

(٢) سورة الفاتحة، آية ٢.

آخر وهو مخالف له بلفظ فذكر ذلك ولم يقل نحو ذلك ولا غيره، فإن كانت الرواية التي وقعت لمسلم لفظها كالتي قبلها التي أحال عليها فترجح رواية ابن عبد البر عليها لأن رواية مسلم من طريق الوليد بن مسلم عن الأوزاعي معنعناً، ورواية ابن عبد البر من طريق محمد بن كثير حدثنا الأوزاعي وصرح بلفظ الرواية، فهي أولى بالصحة ممن اتهم اللفظ وفي طريقه مدلس عنعنة والله أعلم.

وقوله: «وانضم إلى ذلك أمور منها أنه ثبت عن أنس أنه سئل عن الافتتاح بالتسمية فذكر أنه لا يحفظ فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ»، فقد اعترض ابن عبد البر في «الإنصاف» على هذا الحديث بأن قال: من حفظه عنه حجة على من سأله في حال نسيانه، واعترض ابن الجوزي في التحقيق على هذا الحديث بأنه ليس في الصحاح فلا يعارض ما في الصحاح.

والجواب عن الأول ما أجاب به أبو شامة^(١) في تصنيفه في البسملة بأنهما مسألان، فسؤال قتادة عن الاستفتاح بأي سورة، وفي «صحيح مسلم» أن قتادة قال نحن سألناه عنه قال أبو شامة وسؤال أبي مسلمة لأنس، وهو هذا السؤال الأخير عن البسملة وتركها.

ولو تمسكنا بما اعترض به ابن عبد البر من أن من حفظه عنه حجة على من سأله في حالة نسيانه لقلنا قد حفظ عنه قتادة وصفه لقراءة رسول الله ﷺ

(١) أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي الدمشقي، أبو القاسم، شهاب الدين، أبو شامة، مؤرخ، محدث، باحث. أصله من القدس، ومولده في دمشق، وبها منشأه ووفاته. ولي بها مشيخة دار الحديث الأشرفية، ودخل عليه اثنان في صورة مستفتيين فضرباه، فمرض ومات. له: «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين»، و«ذيل الروضتين». ولد سنة ٥٩٩هـ، وتوفي سنة ٦٦٥هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ٢٩٩).

البسمة كما رواه البخاري في صحيحه من طريقين عن قتادة عن أنس، قال سئل أنس بن مالك كيف كانت قراءة رسول الله ﷺ قال كانت مدًا ثم قرأ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١) يمد ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ ويمد ﴿الرَّحْمَنِ﴾ يمد ﴿الرَّحِيمِ﴾ وهذا إسناد لا شك في صحته.

وقال الدارقطني بعد تخريجه: «هذا حديث صحيح، وكلهم ثقات». وقال الحازمي: «هذا حديث صحيح لا يعرف له علة، وفيه دلالة على الجهر مطلقًا وإن لم يقيد بحالة الصلاة فيتناول الصلاة وغير الصلاة، قال أبو شامة وتقرير هذا أن يقال: لو كانت قراءة رسول الله ﷺ تختلف في الصلاة وخارج الصلاة لقال أنس لمن سأله عن أي قراءته تسأل عن التي في الصلاة أم التي خارج الصلاة، فلما أجاب مطلقًا علم أن الحال لم يختلف في ذلك، وحيث أجاب بالبسمة دون غيرها من آيات القرآن دل على أن النبي ﷺ كان يجهر بالبسمة في قراءته، ولولا ذلك كان أنس أجاب ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أو غيرها من الآيات، قال: وهذا واضح.

قال: ولنا أن نقول الظاهر أن السؤال لم يكن إلا عن قراءته في الصلاة، فإن الراوي قتادة وهو راوي حديث أنس ذلك وقال فيه نحن سألناه عنه.

ولم تختلف على قتادة في حديث البخاري هذا بخلاف حديث مسلم فاختلف فيه عليه كما بيناه وما لم يختلف فيه أولى عند الترجيح بحصول الضبط فيه والله أعلم.

والجواب عن الثاني وهو قول ابن الجوزي ليس في الصحاح أنه إن كان

(١) سورة الفاتحة، آية ١.

المراد أنه ليس في واحد من الصحيحين فهو كما ذكر ليس في واحد منهما، ولكن لا يلزم من كونه ليس في واحد من الصحيحين أن لا يكون صحيحًا لأنهما لم يستوعبا إخراج الصحيح في كتابيهما، وإن أراد ليس في كتاب التزم مخرجه الصحة فليس بجيد فقد أخرجه ابن خزيمة في صحيحه من رواية أبي مسلمة سعيد بن يزيد قال سألت أنس بن مالك: أكان رسول الله ﷺ يستفتح بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) أو بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (١)، فقال: إنك لتسألني عن شيء ما أحفظه وما سألني عنه أحد قبلك.

وقال الدارقطني بعد تخريجه: «هذا إسناد صحيح»، قال البيهقي في «المعرفة»: في هذا دلالة على أن مقصود أنس ما ذكره الشافعي.

وإن أراد ابن الجوزي بقوله «إنه ليس في الصحاح» أي ليس في أحد الصحيحين فلا يكون فيه قوة المعارضة لما في أحد الصحيحين وإن كان أيضًا صحيحًا في نفسه لأنه يرجح عند التعارض بالأصح منهما فيقدم ما في الصحيحين.

والجواب عن هذا إن كان أراد من وجهين:

أحدهما: أن هذا إذا اتضحت المعارضة ولم يمكن الجمع فأما مع إمكان الجمع فلا يهمل واحد من الحديثين الصحيحين وقد تقدم حمل من حملة من الحفاظ على أن المراد بحديث الصحيحين الابتداء بالفتحة لا نفي البسمة وبه يصح الجمع.

والوجه الثاني: أنه إنما يرجح بما في أحد الصحيحين على ما في غيرهما

(١) سورة الفاتحة، آية ٢.

من الصحيح حيث كان ذلك الصحيح مما لم يضعفه الأئمة، فأما ما ضعفوه كهذا الحديث فلا يقدم على غيره لخطأ وقع من بعض والله أعلم.

قوله حكاية عن بعضهم ومن أقسام الصحيح ما هو صحيح معلول.

أبهم المصنف قائل ذلك وهو الحافظ أبو يعلى الخليلي^(١) فقال في كتاب الإرشاد: إن الأحاديث على أقسام كثيرة صحيح متفق عليه وصحيح معلول وصحيح مختلف فيه إلى آخر كلامه». انتهى كلام الحافظ زين الدين العراقي من كتابه «التقييد والإيضاح».

ومثله قال الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه «تدريب الراوي»^(٢) وقال في رسائله في «نجاة والدي النبي ﷺ» في الرسالة الثانية^(٣) «التعظيم والمنّة في أن أبوي النبي ﷺ في الجنة»: وقد وقع في الصحيحين أحاديث كثيرة في هذا النمط، وهم فيها الرواة في بعض الألفاظ وبينها النقاد، منها: حديث مسلم في نفي قراءة البسملة، وقد أعلّهُ الشافعي بذلك وقال: إن الثابت من طريق آخر نفي سماعها، ففهم منه الراوي نفي قراءتها، فرواه بالمعنى على ما فهمه، فأخطأ، في أشياء أخر مُثَبِّتة في كُتُبِ الحديث».

ومثل الحافظ العراقي قال محمد عبد الحي اللكنوي^(٤) الهندي في كتابه

(١) الخليلي، خليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الخليل القزويني، أبو يعلى الخليلي، قاضٍ، من حفاظ الحديث، العارفين برجاله. له: «الإرشاد في علماء البلاد» ذكر فيه المحدثين وغيرهم من العلماء على ترتيب البلاد إلى زمانه. توفي سنة ٤٤٦ هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٢، ص ٣١٩).

(٢) السيوطي، تدريب الراوي، (ج ١، ص ٢٩١-٢٩٥).

(٣) السيوطي، التعظيم والمنّة في أن أبوي النبي ﷺ في الجنة، (ص ١٠١).

(٤) محمد عبد الحي بن محمد عبد الحليم الأنصاري اللكنوي الهندي، أبو الحسنات، عالم =

«ظفر الأمانى»^(١).

وقال الحافظ محمد بن عبد الرحمن السخاوي في كتاب «الغاية في شرح الهداية» في علم الرواية للحافظ محمد ابن الجزري^(٢): ثم العلة إما في الإسناد وهو الأكثر، كوصل مرسل أو منقطع، ورفع موقوف، وإما في المتن فكالحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من جهة الأوزاعي عن قتادة أنه كتب إليه يخبره عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه حدثه، أنه قال: صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، لا يذكرون ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٣)، في أول القراءة ولا في آخرها.

فقد أعل الشافعي رحمه الله تعالى وغيره هذه الزيادة التي فيها عدم البسمة، بأن سبعة أو ثمانية اتفقوا على الاستفتاح بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) خاصة دون نفي البسمة، والمعنى أنهم يبدأون بقراءة أم القراءان قبل ما يقرأ بعدها. ولا يعني أنهم يتركون البسمة، وحينئذ فكان بعض رواته فهم من الاستفتاح بالحمد نفي البسمة فصريح بما فهمه وهو منخطئ في ذلك.

ويتأيد بما صح عن أنس رضي الله تعالى عنه أنه سئل: أكان رسول الله ﷺ يستفتح بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) أو بـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾^(٣)؟

= بالحديث والتراجم، من فقهاء الحنفية. من كتبه: «الآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة»، و«الفوائد البهية في تراجم الحنفية»، و«التعليقات السننية على الفوائد البهية»، و«الإفادة الخطيرة». ولد سنة ١٢٦٤هـ، وتوفي سنة ١٣٠٤هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٦، ص ١٨٧).

(١) اللكنوي، ظفر الأمانى، (ص ٣٦٥ - ٣٧٠).

(٢) السخاوي، الغاية في شرح الهداية، (ج ١، ص ٣١٢، ٣١٣).

(٣) سورة الفاتحة، آية ١.

فقال للسائل: إنك لتسألني عن شيء ما أحفظه ولا سألني عنه أحد قبلك. وأهم من هذا في تعليل حديث الأوزاعي أن قتادة ولد أكمه، وكاتبه لا يعرف».

وقال في كتابه «فتح المغيـث شرح ألفية الحديث»^(١):

«وسمَّ ما بعلة مشمولٌ مُعللاً ولا تقل معلولٌ

وهي عبارة عن أسبابٍ طرث فيها غموضٌ وخفاءٌ أثرت»

إلى أن قال:

«وعلةُ المتن كنفِي البسمله إذ ظنَّ راوٍ نفيها فنقله

وصحَّ أن أنسا يقول: لا أحفظُ شيئاً فيه حين سئلاً».



(١) السخاوي، فتح المغيـث شرح ألفية الحديث، (ج ١، ص ٢٤٣).

المبحث الرابع والثلاثون

تأويل حديث

«صلى الله عليه عشرًا»

عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليّ واحدةً صلى الله عليه عشرًا»^(١).

قوله ﷺ: «صلى الله عليه عشرًا» أي أن الحسنة الواحدة تضاعف إلى عشر أمثالها فمن صلى على النبي ﷺ مرة واحدة له عشر حسنات، وليس معناه كما قال بعض الملاحدة من مدعي الإسلام إن الله تعالى يصلي مثلنا بقيام وركوع وسجود أو أنه يقف إمامًا والملائكة وراءه فهذا تشبيه لله بخلقه وهو كفرٌ وخروج من الإسلام، وأما معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۗ﴾^(٢)، أي إن الله يزيد نبيه شرفًا وتعظيمًا والملائكة يطلبون من الله ويدعونه أن يزيد محمدًا شرفًا وتعظيمًا، وقول الله عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۗ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۗ﴾^(٣)، أي هو الذي ينزل الرحمة الخاصة على أتقياء أمة محمد.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الصلاة على النبي بعد التشهد، (ج ٢، ص ١٧)، حديث ٩٣٩.

(٢) سورة الأحزاب، آية ٥٦.

(٣) سورة الأحزاب، آية ٤٣.

قال الحافظ النووي^(١): «قال القاضي معناه رحمته وتضعيف أجره كقوله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾^(٢) قال وقد يكون الصلاة على وجهها وظاهرها تشريفا له بين الملائكة كما في الحديث وإن ذكرني في ملاء ذكرته في ملاء خير منهم».

قال الحافظ ابن حجر^(٣): «واستدل به على فضيلة الصلاة على النبي ﷺ من جهة ورود الأمر بها واعتناء الصحابة بالسؤال عن کیفیتها وقد ورد في التصريح بفضلها أحاديث قوية لم يخرج البخاري منها شيئا، منها ما أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رفعه: من صلى عليّ واحدا صلى الله عليه عشرا وله شاهد عن أنس عند أحمد والنسائي وصححه ابن حبان وعن أبي بردة ابن نيار وأبي طلحة كلاهما عند النسائي ورواهما ثقات ولفظ أبي بردة: من صلى علي من أمتي صلاة مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات وكتب له بها عشر حسنات ومحا عنه عشر سيئات ولفظ أبي طلحة عنده نحوه وصححه ابن حبان».

قال الشاعر:

«صلوا على طه تناولوا البشرى صلى بها الله عليكم عشرا
أي ضاعف الثواب رب العالمين لعشر أضعاف لوجه الأمين
صلاة ربنا على التهامي فيها من التشریف والإكرام

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، (ص ٤، ج ١٢٨).

(٢) سورة الأنعام، آية ١٦٠.

(٣) ابن حجر السقلائي، فتح الباري، (ج ١١، ص ١٧١، ١٧٢).

ولا سجود أو ركوع فيها فإن ذا يخالف التنزيها
أخبرنا نبينا المصدوق الله ليس مثله مخلوق
إذ قال لا فكرة في الرحمن فصلّ تعني شرف العدناني.



المبحث الخامس والثلاثون

تأويل حديث

«أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةَ عِنْد رَبِّهَا»

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ رَافِعِي أَيْدِيكُمْ كَأَنَّهَا أَذْنَابُ خَيْلٍ شُئِمَسِ اسْكُنُوا فِي الصَّلَاةِ»، قَالَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَرَأْنَا حَلَقًا فَقَالَ: «مَا لِي أَرَاكُمْ عَزِينَ»، قَالَ ثُمَّ خَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَلَا تَصْفُونَ كَمَا تَصِفُ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهَا»، فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ تَصِفُ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهَا قَالَ: «يَتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُولَى وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»^(١).

قوله ﷺ: «تَصِفُ الْمَلَائِكَةَ عِنْدَ رَبِّهَا» أي في المكان المشرف عند الله تعالى وهو السماء لأن السماء قبلة الدعاء ومهبط البركات والرحمات ومسكن الملائكة لذلك هي مكان مشرف عند الله وليس معنى «عند ربها» أن الملائكة والله تعالى في مكان لأن الله تعالى موجود بلا جهة ولا مكان كما نقل الإجماع على ذلك الإمام أبو منصور البغدادي فالله هو الذي خلق المكان والزمان فلا يتقيد بالمكان ولا يجري عليه زمان ولأن المكان حادث مخلوق والله أزلي أبدي وهو خالق المكان أي كان موجودًا قبله بلا مكان والموجود في المكان يحتاج إلى المكان والمحتاج إلى غيره عاجزٌ ضعيفٌ مغلوبٌ مقهور ولا يكون إلهاً والملائكة كلهم يصلون لا يوجد ملك لا يصل حتى حملة العرش يصلون.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة، (ج ٢، ص ٢٩)، حديث ٩٦٦.

قال الشاعر:

«إن السماء مسكن الملائكة
ونرفع الأُكُف في الدعاء
ففي الدُّعا قبلتنا السَّماء
وإن طه وصف الملائك
لم يعن أن ربنا الرحمن
نقول كرم السَّماء اللهُ
وقول «عند ربها» أي في السَّما
ومهبط الذخائر المباركة
ليس لأن الله في السماء
وفي الصَّلَاة الكعبةُ الغراء
تَصُفُّ عند ربها هنالك
قد سكن السَّما أو المكان
لم يتخذها مسكناً حاشاه
من قال ربي في السَّما^(١) قد جسَّما».



المبحث السادس والثلاثون

تأويل حديث

«لِيُنْتَهَيْنَ أَقْوَامٌ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ

أَوْ لَا تَرْجِعَ إِلَيْهِمْ»

لِيُعْلَمَ أَنَّ الْمُعْتَمَدَ وَالصَّحِيحَ هُوَ الْقَوْلُ بِكَرَاهِيَةِ ذَلِكَ كَمَا نَقَلَ الْحَافِظُ ابْنَ بَطَّالٍ الْإِجْمَاعَ عَلَيْهِ حَيْثُ قَالَ فِي شَرْحِهِ عَلَى الْبُخَارِيِّ^(١): «الْعُلَمَاءُ مُجْمَعُونَ عَلَى الْقَوْلِ بِهَذَا الْحَدِيثِ، وَعَلَى كَرَاهِيَةِ النَّظَرِ إِلَى السَّمَاءِ فِي الصَّلَاةِ».

وَنَقَلَ هَذَا الْإِجْمَاعَ الْحَافِظُ الْمَنَاوِيُّ حَيْثُ قَالَ^(٢): «وَحَمَلُوهُ عَلَى الْكَرَاهَةِ دُونَ الْحَرَمَةِ لِلْإِجْمَاعِ عَلَى عَدَمِهَا، وَأَمَّا الرَّفْعُ إِلَى السَّمَاءِ فِي غَيْرِ الصَّلَاةِ فِي نَحْوِ الدُّعَاءِ فَلَأَنَّ السَّمَاءَ قِبْلَةُ الدُّعَاءِ لِلدَّاعِينَ وَالْكَعْبَةَ قِبْلَةَ الْمُصَلِّينَ».

وَنَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُصَلِّيَّ أَنْ يَرْفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَسْكُنُ السَّمَاءَ خِلَافًا لِلْمَشْبَهَةِ، وَلَوْ كَانَ اللَّهُ مُتَحَيِّزًا فِي جِهَةِ الْعُلُوِّ كَمَا تَظُنُّ الْمَشْبَهَةُ مَا نَهَانَا عَنْ رَفْعِ أَبْصَارِنَا فِي الصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ، وَبِأَنَّهُ ﷺ كَانَ يَرْفَعُ إِصْبَعَهُ الْمَسْبُوحَةَ عِنْدَ قَوْلِ «إِلَّا اللَّهُ» فِي التَّحِيَّاتِ وَيَحْنِيهَا قَلِيلًا، فَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ الْمَشْبَهَةُ مَا كَانَ يَحْنِيهَا بَلْ يَرْفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَكُلُّ هَذَا ثَابِتٌ حَدِيثًا عِنْدَ الْمُحَدِّثِينَ. فَمَاذَا تَفْعَلُ الْمَشْبَهَةُ!؟

فَقَدْ رَوَى أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَغَيْرُهُمَا عَنْ مَالِكِ بْنِ نَمِيرِ الْخَزَاعِيِّ عَنْ أَبِيهِ

(١) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، (ج ٢، ص ٣٦٤).

(٢) المناوي، فيض القدير شرح شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير، حرف اللام، (ج ٥، ص ٥٠٧).

قال: «رأيت النبي ﷺ واضعاً ذراعه اليمنى على فخذة اليمنى، رافعاً إصبعه السبابة قد حناها شيئاً».

قال المناوي في «فيض القدير شرح الجامع الصغير»^(١): «وقال البيضاوي: أو لتخطفن عطف على لينتهين ردد بين الانتهاء عن الرفع وما هو كاللازم لنقيضه والمعنى والله لتتتهن عن الرفع أو لتسلبن أبصاركم لأن ذلك يوهم نسبة العلو المكاني إلى الله سبحانه وتعالى».

قال أحد الشعراء:

«قل للمصلين لكي ينتفعوا إلى السما أبصارهم لا يرفعوا
يا رافعين هدد المختار إن تفعلوا قد تذهب الأبصار
فإنما رفع المصلي للبصر يوهم أن الله في السما انحصر
وفي حديث المصطفى دليل بأن ربي ماله مثل
لو كان ربي ساكن السماء كان شبيه سائر الأشياء
لقلت السنة والأخبار إلى السماء ترفع الأبصار
لو كان فيها شابه الملائك والله لا يشبه ما في بالك».



(١) المناوي، فيض القدير شرح الجامع الصغير، حرف اللام، (ج ٥، ص ٥٠٧).

المبحث السابع والثلاثون

تأويل حديث

«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»

عن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه قال بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحدٌ حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ووضع كفيه على فخذيه وقال: «يا محمد أخبرني عن الإسلام»، فقال رسول الله ﷺ: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»، قال: «صدقت»، قال: «فعبنا له يسأله ويصدّقه»، قال: «فأخبرني عن الإيمان»، قال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»، قال: «صدقت»، قال: «فأخبرني عن الإحسان»، قال: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: «فأخبرني عن الساعة»، قال: «ما المسئول عنها بأعلم من السائل»، قال: «فأخبرني عن أمارتها»، قال: «أن تلد الأمة ربّتها وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»، قال: «ثم انطلق فلبثت ملياً»، ثم قال لي: «يا عمر أتدري من السائل»، قلت «الله ورسوله أعلم»، قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم»^(١).

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، (ج ١، ص ٢٨)، حديث ١٠٢.

قوله ﷺ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» فيه ذكرٌ لمقام الإحسان وهذا أعلى مقام في الإسلام، هو مقام الخشوع والخشوع والتدبر والتأمل والخوف من الله، فلو كُنَّا نراه سبحانه في الدنيا لما تجرأنا على معصيته، ولما كنا لا نراه تجرأنا على معصيته، وهذا معناه أن الإنسان لا يرى الله في الدنيا، أما في الآخرة فإن المؤمن يرى الله تعالى بلا كيف ولا مكان ولا جهة ولا اتصال شعاع بين الرائي وبينه سبحانه وتعالى، ويكون المؤمنون في الجنة، والله موجود بلا مكان، فلا يكون حالاً معهم في الجنة، ولا يكون مخالطاً لهم، ولا حالاً في قلوبهم، ولا يرونه في جهة فوق أو تحت أو أمام أو خلف أو يمين أو شمال، بل يرونه كما عرفوه في الدنيا أنه ليس كمثل شيء بلا جهة ولا مقابلة.

قال الحافظ النووي ما نصه^(١): «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك هذا من جوامع الكلم التي أوتيتها ﷺ لأننا لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه أي لو كان يراه بلا جهة ولا كيف سبحانه وتعالى لم يترك شيئاً مما يقدر عليه من الخشوع والخشوع وحسن السمات واجتماعه بظاهره وباطنه على الاعتناء بتتميمها على أحسن وجوهها إلا أتى به فقال ﷺ: «اعبد الله في جميع أحوالك كعبادتك في حال العيان»، فإن التتميم المذكور في حال العيان إنما كان لعلم العبد باطلاع الله سبحانه وتعالى عليه، فلا يقدم العبد على تقصير في هذا الحال للاطلاع عليه وهذا المعنى موجود مع عدم رؤية العبد، فينبغي أن يُعمل بمقتضاه، فمقصود الكلام الحث على الإخلاص في العبادة ومراقبة العبد ربّه تبارك وتعالى في

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، (ج ١، ص ١٥٧-١٥٨).

إتمام الخشوع والخضوع وغير ذلك، وقد ندب أهل الحقائق إلى مجالسة الصالحين ليكون ذلك مانعًا من تلبسه بشيء من النقائص احترامًا لهم واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال الله تعالى مطلقًا عليه في سره وعلايته، قال القاضي عياض: «وهذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهرة والباطنة من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال حتى إن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه».

وقوله ﷺ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةُ رَبَّتَهَا»: فقد قال الإمام النووي ما نصه^(١): «أن تلد الأمة ربتها»، وفي الرواية الأخرى «ربها»، على التذكير وفي الأخرى «بعلمها»، وقال: يعني السراري ومعنى «ربها» و«ربتها» سيدها ومالكها وسيدتها ومالكها. قال الأكثرون من العلماء: هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها لأن مال الإنسان صائر إلى ولده، وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين إما بتصريح أبيه له بالأذن وإما بما يعلمه بقريته الحال أو عرف الاستعمال، وقيل معناه أن الإماء يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته وهذا قول إبراهيم الحربي، وقيل معناه أن تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد في آخر الزمان فيكثر ترددها في أيدي المشتريين حتى يشتريها ابنها ولا يدري، ويحتمل على هذا القول أن لا يختص هذا بأمهات الأولاد فإنه متصور في غيرهن فإن الأمة تلد ولدًا حرًا من غير سيدها بشبهة أو ولدًا رقيقًا بنكاح أو زنا ثم تباع الأمة في الصورتين بيعًا صحيحًا وتدور في الأيدي

(١) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، (ج ١، ص ١٥٨-١٥٩).

حتى يشتريها ولدها وهذا أكثر وأعمّ من تقديره في أمهات الأولاد، وقيل في معناه غير ما ذكرناه ولكنها أقوال ضعيفة جداً أو فاسدة فتركتها وأما بعلها فالصحيح في معناه أن البعل هو المالك أو السيد فيكون بمعنى ربها على ما ذكرناه، قال أهل اللغة: بعل الشيء ربه ومالكه».

وقال شارح «صحيح مسلم» الحافظ القرطبي ما نصه^(١): «أن المراد به: أن يستولي المسلمون على بلاد الكفر، فيكثر التسري، فيكون ولد الأمة من سيدها بمنزلة سيدها لشرفه بأبيه، وعلى هذا: فالذي يكون من شروط الساعة: استيلاء المسلمين على المشركين، وكثرة الفتوح والتسري. ويحدث أن يبيع السادة أمهات أولادهم، ويكثر ذلك، فتداول الأملاك المستولدة، فربما يشتريها ولدها أو ابنتها ولا يشعر بذلك، فيصير ولدها ربها، وعلى هذا: فالذي يكون من الأشراف: غلبة الجهل بتحريم بيع أمهات الأولاد، والاستهانة بالأحكام الشرعية».

قال الشاعر:

رآه بالفؤاد سيد الوورى	«بالعين في الدنيا إلهي لا يرى
نبينا معلماً وسائلا	جبريل ذات مرة أتى إلى
أجابهُ نبينا العذناني	قال فأخبرني عن الإحسان
إن لم تر الله يراك الله	أن تعبد الله كمن يراه
الله ثم خف من المعاقبه	معنى الحديث استحضِر المراقبه
بل كان أدّى كل ما أوصاه	فلو رآه المرء ما عصاه

(١) القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، (ج ١، ص ٦٣).

يَرَاهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ فِي الْآخِرَةِ وَجُوهُهُمْ نَاضِرَةٌ وَنَاطِرَةٌ
يَرُونَهُ جَلَّ عَنِ الْأَمْثَالِ فِي الذَّاتِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ
يَكُونُ أَهْلُ الْحَقِّ فِي الْجِنَانِ وَلَا يَكُونُ اللَّهُ فِي مَكَانٍ.



المبحث الثامن والثلاثون

تأويل حديث

«وروح منه»

قال رسول الله ﷺ: «من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله وأنَّ عيسى عبد الله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروحٌ منه وأنَّ الجنة حقٌ وأنَّ النار حقٌ أدخله الله من أيِّ أبواب الجنة الثمانية شاء»^(١).

قال الحافظ النووي: «وقال ابنُ عرفة: أي ليس من أب، إنما نفخ في أمه الروح، وقال غيره: وروح منه أي مخلوقة من عنده (خلقاً وتكويناً) وعلى هذا يكون إضافتها إليه إضافة تشريف كناية الله وبيت الله (أي البيت المشرف عند الله الذي بُني لعبادته وتوحيده)»^(٢).

وقال الفقيه العيني^(٣): «وروح منه أي عبد من عباد الله وخلق من خلقه... ورسول من رسله وأضيف الروح إليه على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله».

وقال الإمام الهجري في كتابه «الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم»: «وقوله ﷺ «وروح منه» معناه أن روح المسيح روح صادرة من

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحُرِّمَ على النار، (ج ١، ص ٤٢)، حديث ١٤٩.

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، (ج ١، ص ٢٢٧).

(٣) العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، (ج ١٦، ص ٣٨).

الله تعالى خلقًا وتكوينًا، أي روحه روح مشرف كريم على الله وإلا فجميع الأرواح صادرة من الله تعالى تكوينًا، لا فرق في ذلك بين روح وروح، وكلمة «روح منه» ليس معناها أن المسيح عيسى جزء من الله، إنما معناها روح وجدت بإيجاد الله أي الله أوجدها من العدم ليس معناها أنه جزء من الله كما ادعى بعض ملوك النصارى».

قال الشاعر:

«إِنَّ الْبِنَا لَا يُشْبَهُ الْبِنَاءَ	وَرَبُّنَا لَا يُشْبَهُ الْأَشْيَاءَ
جَلَّ عَنِ الْأَرْكَانِ وَالْأَعْضَاءِ	وَالْكُلِّ وَالْأَبْعَاضِ وَالْأَجْزَاءِ
أَوْصَافُهُ أَوْصَحَهَا الْقُرَّاءُ	مَا مِثْلُهُ الْجِنُّ وَلَا الْإِنْسَانُ
عَيْسَى قَرَأْنَا فِي الْحَدِيثِ عَنْهُ	كَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَ مِنْهُ
وَاسْمُ الْمَسِيحِ عِنْدَمَا أُضِيفَا	إِلَى اسْمِ رَبِّنَا عَنَى التَّشْرِيفَا
وَمِثْلُ هَذَا جَاءَنَا بِهِ الْخَبْرُ	رَفَعًا وَتَشْرِيفًا لِأَوَّلِ الْبَشَرِ
مَا هَذِهِ إِضَافَةُ الْجَزْئِيَّةِ	رَبِّي مُنْزَرَةً عَنِ الْجِسْمِيَّةِ
مَنْ قَالَ بِالْجِسْمِ اعْتِقَادُهُ فَسَدُ	لَا رُوحَ لِلَّهِ وَمَا لَهُ جَسَدٌ».



المبحث التاسع والثلاثون

تأويل حديث

«يبتغي بذلك وجه الله»

قال رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري: «إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله»^(١). معناه أن الله تعالى حَرَّمَ على النَّارِ أي الدوامَ فيها إلى الأبدِ من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجهَ الله، أي إن قال ذلك معتقداً في قلبه، لا منافقاً ليرضيَ المسلمِينَ وهو في قلبه غيرُ راضٍ بالإسلام، إمَّا بشكِّه في الوحدانيَّةِ أو بتكذيبه في قلبه محمّداً ﷺ. ومعنى «يبتغي بذلك وجهَ الله» أي يبتغي القُربَ إلى الله تبارك وتعالى، ليس لمראה الناس بدون اعتقاد. والوجه في لغة العرب يأتي بمعانٍ عديدة منها القصد كما قال الشاعر: [البسيط]

أستغفرُ الله ذنبًا لستُ مُحْصِيهٗ رَبِّ العبادِ إليه الوَجْهٗ والعملُ
وقد تقدم بيان ذلك، فتأمل.

قال أحد الشعراء:

«إيماننا بالله ذي الجلالِ شَرَطُ قَبُولِ صَالِحِ الأَعْمَالِ
أَعْمَالُنَا أَفْضَلُهَا الإِيْمَانُ مِنْ دُونِهِ لَا يُقْبَلُ الإِحْسَانُ
لَا تُقْبَلُ الصَّلَاةُ وَالصَّيَامُ إِلا إِذَا يَسْبِقُهَا الإِسْلَامُ

(١) المتقي الهندي، كنز العمل، (ج ١، ص ٦١٦)، حديث ١٧٦٢.

والحجُّ والفرائضُ المفروضةُ
 مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
 فَإِنَّهُ مُحَرَّمٌ عَلَى سَقَرٍ
 مَعْنَاهُ لَيْسَ خَالِدًا فِي النَّارِ
 وَقِيلَ فِي تَأْوِيلِ وَجْهِ اللَّهِ
 وَاعْلَمْ بِأَنَّ زِبْدَةَ الْمَوْضُوعِ
 فَهَالِكٌ إِنْ ضِيَعَ الْأَصُولَا
 إِنْ صَدَرَتْ مِنْ كَافِرٍ مَرْفُوضَةٌ
 وَكَانَ وَجْهُ اللَّهِ مُبْتَغَاهُ
 هَذَا حَدِيثُ الْمُصْطَفَى وَمَا أَقْرَأَ
 مَا لَمْ يَكُنْ مَاتَ مِنَ الْكُفَّارِ
 يَعْنِي تَقَرُّبًا إِلَى الْإِلَهِ
 إِنَّ مُحَافِظًا عَلَى الْفُرُوعِ
 لَمْ يَكُ مَا يَعْمَلُهُ مَقْبُولًا.



المبحث الأربعون

تأويل حديث

«ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا

يزكّيهم ولهم عذاب أليم»

عن أبي ذرٍّ عن النَّبِيِّ ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم»، قال فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار قال أبو ذرٍّ خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟ قال: «المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»^(١).

وفي حديث آخر: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم»، قال أبو معاوية: «ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم، شيخ زانٍ وملكٌ كذابٌ وعائلٌ مستكبرٌ».

وفي حديث آخر: عن أبي هريرة وهذا حديث أبي بكرٍ قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم رجلٌ على فضل ماءٍ بالفلاة يمنع من ابن السبيل ورجلٌ بايع رجلاً بسلعةٍ بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدّقه وهو على غير ذلك ورجلٌ بايع إماماً لا يبايعه إلاّ لندنيا فإن أعطاه منها وفى وإن لم يعطه منها لم يف».

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمنّ بالعطيّة وتنفيق السلعة بالحلف وبيان الثلاثة الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم، (ج ١، ص ٧١)، حديث ٣٠٦.

قال الحافظ النووي في «شرح صحيح مسلم» ما نصه^(١): «قوله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم قال فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب»، وفي رواية: «المنان الذي لا يُعطي شيئاً إلا منّة والمسبل إزاره»، وفي رواية: «شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر»، وفي رواية: «رجل على فضل ماء بالفلاة يمنعه من ابن السبيل ورجل بايع رجلاً بسبعة بعد العصر فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا فصدقه وهو على غير ذلك ورجل بايع إماماً لا يبايعه إلا لندى فإن أعطاه منها وفى وإن لم يعطه منها لم يف»، أما ألفاظ أسماء الباب ففيه علي بن مُدْرِك بضم الميم وإسكان الدال المهملة وكسر الراء، وفيه خَرَشَة بخاء معجمة ثم راء مفتوحين ثم شين معجمة، وفيه أبو زرعة وهو ابن عمرو بن جرير، وتقدّم مرات الخلاف في اسمه وأن الأشهر فيه هرم، وفيه أبو حازم عن أبي هريرة هو أبو حازم سلمان الأغر مولى عزة، وفيه أبو صالح وهو ذكوان تقدم، وفيه سعيد بن عمرو الأشعثي هو بالشين المعجمة والعين المهملة والثاء المثناة، منسوب إلى جده الأشعث بن قيس الكندي، فإنه سعيد بن عمرو بن سهل بن إسحاق ابن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي، وفيه عشر هو بفتح العين وبعدها باء موحدة ساكنة ثم ثاء مثناة، وأما ألفاظ اللغة ونحوها فقوله ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم» هو على لفظ الآية الكريمة، قيل معنى «لا يكلمهم» أي لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات وبإظهار الرضى، بل بكلام أهل السخط والغضب، وقيل المراد الإعراض عنهم، وقال جمهور

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، كتاب الإيمان، (ج ٩، ص ٣١٦-٣١٨).

المفسرين: «لا يكلمهم كلامًا ينفعهم ويسرهم»، وقيل لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية، ومعنى «لا ينظر إليهم» أي يُعرض عنهم^(١)، ونظره سبحانه وتعالى لعباده رحمته ولطفه بهم، ومعنى «لا يزيكهم» لا يطهرهم من دنس ذنوبهم، وقال الزجاج وغيره: معناه لا يثني عليهم، ومعنى «عذاب أليم» مؤلم، قال الواحدي: هو العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم وجعه، قال: والعذاب كل ما يعيي الإنسان ويشق عليه، قال: وأصل العذاب في كلام العرب من العذب وهو المنع، يقال عذبتُه عذبًا إذا منعتَه، وعذب عذوبًا أي امتنع، وسُمِّي الماء عذبًا لأنه يمنع العطش، فسُمِّي العذاب عذابًا لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله، والله أعلم.

وأما قوله ﷺ: «المسبل إزاره» فمعناه المرخي له الجارُّ طرفه خيلاء، كما جاء مفسرًا في الحديث الآخر «لا ينظر الله إلى من يجرتوبه خيلاء» والخيلاء الكبر، وهذا التقييد بالجر خيلاء يخصص عموم المسبل إزاره، ويدل على أن المراد بالوعيد من جره خيلاء، وقد رخص النبي ﷺ في ذلك لأبي بكر الصديق رضي الله عنه وقال: «لست منهم» إذ كان جره لغير الخيلاء، وقال الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري وغيره: وذكر إسبال الإزار وحده لأنه كان عامة لباسهم وحكم غيره من القميص وغيره حكمه، قلت: وقد جاء ذلك مبيّنًا منصوصًا عليه من كلام رسول الله ﷺ من رواية سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «الإسبال في الإزار والقميص والعمامة من جر شيئًا خيلاء لم ينظر الله تعالى إليه يوم القيامة» رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد حسن والله أعلم، وأما قوله ﷺ:

(١) أي لا يكرمهم، وحقيقة الإعراض مستحيلة على الله.

«المنفق سلعته بالحلف الفاجر» فهو بمعنى الرواية الأخرى «بالحلف الكاذب» ويقال الحلف بكسر اللام وإسكانها، وممن ذكر الإسكان ابن السكيت^(١) في أول إصلاح المنطق، وأما الفلاة بفتح الفاء فهي المفازة والقفر التي لا أنيس بها، وأما تخصيصه صلى الله عليه وسلم في الرواية الأخرى: «الشيخ الزاني والملك الكذاب والعائل المستكبر» بالوعيد المذكور، فقال القاضي عياض: سببه أن كل واحد منهم التزم المعصية المذكورة مع بُعدها منه وعدم ضرورته إليها وضعف دواعيها عنده وان كان لا يعذر أحد بذنب لكن لما لم يكن إلى هذه المعاصي من دافع مزعج، بين أن إقدامهم عليها فيه تضييع لحق الله تعالى، فإن الشيخ (الكبير في السن) لكمال عقله وتمام معرفته بطول ما مر عليه من الزمان وضعف أسباب الجماع والشهوة للنساء واختلال دواعيه لذلك عنده ما يريحه من دواعي الحلال في هذا ويخلى سره منه، فكيف بالزنى الحرام! وإنما دواعي ذلك الشباب والحرارة الغريزية وقلة المعرفة وغلبة الشهوة لضعف العقل وصغر السن، وكذلك الإمام لا يخشى من أحد من رعيته، ولا يحتاج إلى مداهنته ومصانعته، فإن الإنسان إنما يداهن ويصانع بالكذب وشبهه من يحذره ويخشى أذاه ومعاتبته أو يطلب عنده بذلك منزلة أو منفعة، وهو غني عن الكذب مطلقاً، وكذلك العائل الفقير قد عدم المال، وإنما سبب الفخر والخيلاء والتكبر والارتفاع على القراء الثروة في الدنيا لكونه ظاهراً فيها وحاجات أهلها إليه، فإذا لم يكن

(١) ابن السكيت، شيخ العربية، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق بن السكيت البغدادي، النحوي، المؤدب، مؤلف كتاب «إصلاح المنطق» (دين، خير، حجة في العربية، وله من التصانيف نحو من عشرين كتاباً. توفي سنة ٢٤٤ هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٢، ص ١٦)، رقم الترجمة ٢.

عنده أسبابها فلماذا يستكبر ويحتقر غيره، فلم يبق فعله وفعل الشيخ الزاني والإمام الكاذب إلا لضرب (تقصير منه في حق الله تعالى) والله أعلم، وأما الثلاثة في الرواية الأخيرة فمنهم «رجل منع فضل الماء من ابن السبيل المحتاج» ولا شك في غلظ تحريم ما فعل وشدة قبحه، فإذا كان من يمنع فضل الماء الماشية عاصياً، فكيف بمن يمنعه الآدمي المحترم! فإنّ الكلام فيه، فلو كان ابن السبيل غير محترم كالحربي والمرتد لم يجب بذل الماء له، وأما الحالف كاذباً بعد العصر فمستحق هذا الوعيد، وخصّ ما بعد العصر لشرفه بسبب اجتماع ملائكة الليل والنهار وغير ذلك، وأما مباح الإمام على الوجه المذكور فمستحق هذا الوعيد لغشه المسلمين وإمامهم وتسببه إلى الفتن بينهم بنكته بيعته، لا سيما إن كان ممن يُقتدى به والله أعلم. ووقع في معظم الأصول في الرواية الثانية عن أبي هريرة «ثلاث لا يكلمهم الله» بحذف الهاء وكذا وقع في بعض الأصول في الرواية الثانية عن أبي ذر وهو صحيح على معنى ثلاث أنفس وجاء الضمير في يكلمهم مذكراً على المعنى والله سبحانه وتعالى أعلم».

وقال الحافظ ابن بطلال في «شرح صحيح البخاري» ما نصه^(١): «وقوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله» يعني: وقتاً دون وقت لمن أنفذ الله عليه الوعيد، وليس على الاستمرار والخلود. هذا مذهب أهل السنة، وفيه أنه قد يستحق النوع من العذاب على ذنوب مختلفة، فالمانع لفضل الماء أصغر معصية من المباح الناكث، والحالف الآثم، والله أعلم».

وقال بدر الدين العيني في كتابه «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» ما

(١) ابن بطلال، شرح صحيح البخاري، (ج ٨، ص ٦٦).

نصه^(١): «معنى «لا يكلمهم الله»: أي بكلامٍ يحبونه».

وقال الحافظ السيوطي في كتابه «الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج» ما نصه^(٢): «لا يكلمهم الله: قيل: المراد الإعراض عنهم، وقيل: لا يكلمهم كلام رضا بل كلام غضب وسخط. ولا ينظر إليهم: أي يُعرض عنهم، ونظره إلى عباده رحمته ولطفه بهم».

معناه لا يكرمهم كما يكرم الأتقياء، وليس معناه أنهم لا يسمعون كلامه، لأنه ﷺ قال فيما رواه البخاري نفسه في «الصحيح»^(٣) في كتاب تفسير القرآن: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَسَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَيْسَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ».

فهؤلاء الثلاثة لا يحصل لهم الفرح والسرور كما يحصل لللقي عند سماع كلام الله الذي ليس ككلام المخلوقين، فهو ليس من جنس الحروف والأصوات وليس لغة وليس مبتدأ ولا مختتماً، وهو كلام أزلي أبدي.

قال الشاعر:

«إِنَّ ثَلَاثَةً مِنَ الْأَصْنَافِ سَمَّاهُمْ الْهَادِي مَعَ الْأَوْصَافِ
وَقَالَ لَا يُكَلِّمُ الْإِلَهُ جَمِيعَهُمْ إِذْ فَاتَهُمْ رِضَاهُ
لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ لِشُؤْمِ مَا أَتَوْا
وَجَاءَ عَنْ نَبِينَا الْمَعْلَمِ بِأَنَّ رَبَّنَا غَدًا يُكَلِّمُ

(١) العيني، القاري، (ج ٢٨، ص ٤٧٤).

(٢) السيوطي، الديباج، (ج ٢، ص ٤٣).

(٣) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب من نوقش الحساب، (ج ٥، ص ٢٣٩٥)، حديث ٦١٧٤.

جَمِيعَ خَلْقِهِ فَكَيْفَ نَجْمَعُ بَيْنَ الْحَدِيثَيْنِ الَّذِينَ نَسْمَعُ
 نَقُولُ إِنَّ رَبَّنَا السَّمِيعَا يَوْمَ غَدٍ يُكَلِّمُ الْجَمِيعَا
 كَلَامُهُ لِمَنْ أَتَى الشُّرُورَا لَيْسَ كَلَامًا يُورِثُ الشُّرُورَا
 فَإِنَّهُ مُسْمِعُهُمْ كَلَامَهُ وَسَوْفَ يَشْعُرُونَ بِالنَّدَامَةِ
 لَا يَنْظُرُ اللَّهُ لَهُمْ أَيُّ يُعْرِضُ عَنْهُمْ غَدًا أَعْمَالُهُمْ إِذْ تُعْرَضُ
 «يُعْرِضُ» أَيُّ لَيْسَ لَهُمْ إِكْرَامُ مِنْ رَبَّنَا إِذْ بِالذُّنُوبِ قَامُوا
 إِنْ أَطْلَقُوا فِي حَقِّ رَبِّنَا النَّظَرَ مَعْنَاهُ رَحْمَةٌ وَلُطْفٌ بِالْبَشَرِ
 «وَلَا يُزَكِّيهِمْ» بِهَا الْبَشِيرُ إِلَى عَظِيمِ ذَنْبِهِمْ يُشِيرُ
 أَيُّ لَا يُطَهَّرُونَ بِالْخَلَاصِ مِنْ دَنَسِ الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي.



المبحث الحادي والأربعون

تأويل حديث

«له جوار إلى الله بالتلبية»

عن ابن عباسٍ أن رسول الله ﷺ مرَّ بوادي الأزرق فقال: «أي وادٍ هذا». فقالوا: هذا وادي الأزرق. قال: «كأنِّي أنظر إلى موسى هابطاً من الثنية وله جوارٌ إلى الله بالتلبية». ثم أتى على ثنية هرشي. فقال: «أي ثنية هذه»، قالوا: ثنية هرشي، قال: «كأنِّي أنظر إلى يونس بن مَتَّى على ناقه حمراء جعدة عليه جبةٌ من صوفٍ خطام ناقته خلبةٌ وهو يلبي»^(١).

إن كلمة «جوار» ليست بمعنى الجوار، فمعنى جوار أي رفع الصوت بالدعاء مع التضرع واستغاثة^(٢).

قال الشاعر:

«يَقُولُ طَهَ صَفْوَةَ الْإِلَهِ فِي وَصْفِهِ مُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ
مُوسَى إِلَى اللَّهِ لَهُ جُورٌ لَيْسَ الْجُورُ هُنَا الْجَوَارُ
مَنْ جَاوَرَ الْأَشْيَاءَ كَالْأَشْيَاءِ يَحْتَاجُ لِلْمُنْشِئِ وَالْإِنْشَاءِ
وَرَبَّنَا لَيْسَ لَهُ أَمْثَالُ وَجُودٌ مَا يُشْبِهُهُ مُحَالُ
وَإِنَّمَا مَعْنَى الْجُورِ فِي الْحَدِيثِ تَضَرُّعُ الدَّاعِي بِصَوْتِ الْمُسْتَعِيثِ».

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله إلى السماوات وفرض الصلوات، (ج ١، ص ١٠٥)، حديث ٤٣٨.

(٢) المصنف، إتحاف المسلم بإيضاح متشابهات صحيح مسلم، (ج ١، ص ٢٩٢).

وقال ابن منظور^(١): «جَارَ جَآرٌ يَجَآرُ جَآرًا وَجُؤَارًا رَفَعَ صَوْتَهُ مَعَ تَضَرُّعٍ وَاسْتِغَاثَةٍ، وَفِي التَّنْزِيلِ إِذَا هُمْ يَجَآرُونَ، وَقَالَ ثَعْلَبٌ^(٢): هُوَ رَفَعَ الصَّوْتِ إِلَيْهِ بِالِدَعَاءِ، وَجَارَ الرَّجُلُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا تَضَرَّعَ بِالِدَعَاءِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَى لَهُ جُؤَارٌ إِلَى رَبِّهِ بِالتَّلْبِيَةِ»، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ الْآخَرُ: «لَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَآرُونَ إِلَى اللَّهِ».



(١) ابن منظور، لسان العرب، (ج ٤، ص ١١٢).

(٢) ثعلب، أبو العباس أحمد بن يحيى بن يزيد الشيباني مولاهم، البغدادي، العلامة، المحدث، إمام النحو، صاحب «الفصيح والتصانيف». ولد سنة ٢٠٠ هـ. وكان يقول: لما بلغت خمسا وعشرين سنة، ما بقي عليّ مسألة لـ«الفرّاء»، وسمعت من القواريريّ مائة ألف حديث. سمع من علماء كبار كابن الأعرابي، وسلمة بن عاصم، وروى عنه نَفْطَوِيَه، والأخفش الصغير وغيرهما، قال الخطيب: ثقة حجة، دين صالح، مشهور بالحفظ، وقال المبرّد: أعلم الكوفيين ثعلب، فذكر له الفرّاء، فقال: لا يَعُشُّرُهُ، ومن كتبه: «اختلاف النحويّين» و«القراءات» و«معاني القرآن». مات في جمادى الأولى، سنة ٢٩١ هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٤، ص ٥-٧)، رقم الترجمة ١.

المبحث الثاني والأربعون

تأويل حديث

«نور أنى أراه»^(١)

عن أبي ذرٍّ قال سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ قال: «نور أنى أراه».

وفي حديث آخر: فقال ﷺ: «رأيت نورًا»^(٢).

ومعنى قوله ﷺ «نور أنى أراه»^(٣) أي نور من الأنوار المخلوقة حال دون أن أرى الله ببصري. وليس في قوله عليه السلام «نور أنى أراه» وقوله «رأيت نورًا» نفي للرؤية بالفؤاد، بل هذان الحديثان فيهما نفي الرؤية البصرية. والرؤية بالفؤاد هنا لا تعني العلم، بل معناها أن النبي ﷺ مكّنه الله من رؤيته بقلبه وهذا تخصيص من الله تعالى.

ولا يجوز أن يُتوهم من قوله ﷺ «نور» أن الله نور أي ضوء، فإن النور والظلمة مخلوقان، قال الله تعالى في سورة الأنعام ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾^(٤) أي خلقهما.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام «نور أنى أراه»، وفي قوله «رأيت نورًا»، (ج ١، ص ١١١)، حديث ٤٦١.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، باب قوله ﷺ: «نور أنى أراه»، وفي قوله: «رأيت نورًا»، (ج ١، ص ١١١)، حديث ٤٦٢.

(٣) هذه من جملة الأحاديث التي انتقدها الإمام أحمد بن حنبل إمام السنة رضي الله عنه، كما نقل ذلك الحافظ الزبيدي عن الحافظ العراقي عن الإمام أحمد. الزبيدي، إتحاف السادة المتقين، (ج ٩، ص ٥٨٠).

(٤) سورة الأنعام، آية ١.

فلا يُتوهم أنه تعالى جسم نوراني ينبث منه أشعة نورانية كالشمس ولا يجوز أن يُتوهم ذلك أيضاً من قوله تعالى ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾^(١) لأن معناه بحكم ربها، لأنه لا حكم لأحد يوم القيامة إلا الله، وفي تفسير آخر: نور مخلوق لله تشرق الأرض به يوم القيامة. وكذلك ما ورد عن أبي المعلق الأنصاري^(٢) رضي الله عنه أن ملكاً علمه ما يقوله المكروب ونحوه بعد أربع ركعات «يا ودود يا ذا العرش المجيد يا فعلاً لما يريد، أسألك بعزتك التي لا تُرام وملكك الذي لا يُضام وبنورك الذي ملأ أركان عرشك» إلخ لا يجوز أن يُتوهم منه أن الله نوراً متصلاً بذاته ينتشر حتى يملأ جوانب العرش، بل المعنى أن هناك نوراً عظيماً خلقه الله يعم أركان العرش أضيف إلى الله تشریفاً لهذا النور كإضافة البيت إلى الله في قوله ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي﴾^(٣).

قال الشاعر:

«إِنَّ أَبَا ذَرٍّ رَوَى عَنْ طه
قَالَ رَسُولُنَا: رَأَيْتُ نُورًا
أَيَّ حَالٍ ضَوْءٌ دُونَ أَنْ يَرَاهُ
رُؤْيَتْهُ بِعَيْنِهِ مَنْفِيَّةُ
إِنْ أُطْلِقَ النُّورُ عَلَى الْجَلِيلِ
فَأَوَّلِ النُّورِ بِمَعْنَى الْهَادِي
نَصَّ عَلَيْهِ الْعَلَمُ النَّبْرَاسُ
قَالَ لَطَهَ هَلْ رَأَيْتَ اللَّهَ
وَلَمْ يُعَارِضْ مَا أَتَى فِي الشُّورَى
فَمَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تَرَى عَيْنَاهُ
صَحَّتْ بِقَلْبِهِ بِلا كَيْفِيَّةِ
لَا بُدَّ عِنْدَهَا مِنَ التَّأْوِيلِ
مَنْ قَالَ ضَوْءٌ زَادَ فِي الْإِلْحَادِ
أَبُوهُ عَمُّ الْمِصْطَفَى الْعَبَّاسُ».

(١) سورة الزمر، آية ٦٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (ج ٤، ص ١٨٢).

(٣) سورة البقرة، آية ١٢٥.

المبحث الثالث والأربعون

تأويل حديث

«فِيكَشَفِ الْحِجَابِ»

قال رسول الله ﷺ عن رؤية أهل الجنة لله تعالى: «فِيكَشَفِ الْحِجَابِ فَمَا أَعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»^(١). فالمحجوبون هم أهل الجنة إذ لا يليق بجلاله أن يحجبه حجاب والمؤمنون يرونه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته ولا يكون الله في مكان.

قال شارح مسلم محمد بن خليفة الوشتاني الأبي^(٢): «قوله: «فِيكَشَفِ الْحِجَابِ» أي يزيل الموانع التي تمنع رؤيته سبحانه وتسميتها حجاباً استعارة والمحجوب بها الخلق كما تقدم، وقد تقدم معنى رفع الحجاب بتوسع قريباً فانظره فإنه مفيد جداً. قوله: فَمَا أَعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ، رؤيته سبحانه في الآخرة جائزة عقلاً وأجمع على وقوعها أهل السنة للآي ومتواتر الأحاديث».

قال الشاعر:

«بَعْدَ دُخُولِ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةِ سَوْفَ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ ذَا الْمِنَّةِ
وَفِي الْحَدِيثِ يُكَشَفُ الْحِجَابُ يَرَوْنَ رَبَّهُمْ وَلَنْ يَرْتَابُوا

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، (ج ١، ص ١١٢)، حديث ٤٦٧.

(٢) الوشتاني الأبي، إكمال إكمال المعلم، (ج ١، ص ٥٥٤).

الْخَلْقُ هُمْ مَنْ حُجِبُوا بِالْمَانِعِ وَلَيْسَ يُحَجَبُ إِلَّا إِلَهُ الصَّانِعِ
لَا يَجِدُونَ إِذْ يَرَوْنَ الرَّبَّ شَيْئًا إِلَى نَفْسِهِمْ أَحَبًّا.



المبحث الرابع والأربعون

تأويل حديث «فإنكم ترونه كذلك».

تأويل حديث «فيأتيهم الله».

تأويل حديث «في غير صورته التي يعرفون».

تأويل حديث «في الصورة التي يعرفونها».

تأويل حديث «في أدنى صورة».

تأويل حديث «فيكشف عن ساق».

تأويل حديث «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد».

تأويل حديث «فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك

وتعالى منه».

تأويل حديث «فإذا ضحك الله منه قال: ادخل الجنة».

عن عطاء بن يزيد الليثي أن أبا هريرة أخبره أن ناسًا قالوا لرسول الله ﷺ يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة فقال رسول الله ﷺ: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر»، قالوا لا يا رسول الله قال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحابٌ»، قالوا لا يا رسول الله قال: «فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئاً فليتبّعهُ فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس ويتبع من كان يعبد القمر القمر ويتبع من كان يعبد الطواغيت الطواغيت وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تبارك وتعالى في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه ويضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز ولا يتكلم يومئذٍ إلا الرسل

ودعوى الرّسل يومئذٍ اللهمّ سلّم سلّم وفي جهنّم كلاب مثل شوك السّعدان هل رأيتم السّعدان»، قالوا: نعم يا رسول الله، قال: «فإنّها مثل شوك السّعدان غير أنّه لا يعلم ما قدر عظمها إلّا الله تخطف النّاس بأعمالهم فمنهم المؤمن بقي بعمله ومنهم المجازى حتّى ينجى حتّى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النّار أمر الملائكة أن يخرجوا من النّار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممّن أراد الله تعالى أن يرحمه ممّن يقول لا إله إلّا الله فيعرفونهم في النّار يعرفونهم بأثر السّجود تأكل النّار من ابن آدم إلّا أثر السّجود حرّم الله على النّار أن تأكل أثر السّجود فيخرجون من النّار وقد امتحشوا فيصبّ عليهم ماء الحياة فينبتون منه كما تنبت الحبة في حميل السّيل ثم يفرغ الله تعالى من القضاء بين العباد ويبقى رجلٌ مقبلٌ بوجهه على النّار وهو آخر أهل الجنّة دخولا الجنّة فيقول أي ربّ اصرف وجهي عن النّار فإنّه قد قشبنى ريحها وأحرقني ذكاؤها فيدعو الله ما شاء الله أن يدعوه ثمّ يقول الله تبارك وتعالى هل عسيت إن فعلت ذلك بك أن تسأل غيره فيقول لا أسألك غيره ويعطي ربّه من عهودٍ ومواثيق ما شاء الله فيصرف الله وجهه عن النّار فإذا أقبل على الجنّة ورآها سكت ما شاء الله أن يسكت ثمّ يقول أي ربّ قدّمني إلى باب الجنّة فيقول الله له أليس قد أعطيت عهودك ومواثيقك لا تسألني غير الذي أعطيتك ويلك يا ابن آدم ما أغدرك^(١) فيقول أي ربّ ويدعو الله حتّى يقول له فهل عسيت إن أعطيتك ذلك أن تسأل غيره فيقول لا وعزّتك فيعطي ربّه ما شاء الله من عهودٍ ومواثيق فيقدّمه إلى باب الجنّة فإذا

(١) قال ابن سيده: الغدر ضد الوفاء بالعهد، وقال غيره: الغدر ترك الوفاء. ابن منظور، لسان العرب، (ج ٥، ص ٨).

قام على باب الجنة انفهقت له الجنة فرأى ما فيها من الخير والسرور فيسكت ما شاء الله أن يسكت ثم يقول أي رب أدخلني الجنة فيقول الله تبارك وتعالى له أليس قد أعطيت عهدك وموآثيقك أن لا تسأل غير ما أعطيت ويحك يا ابن آدم ما أغدرك فيقول أي رب لا أكون أشقى خلقك فلا يزال يدعو الله حتى يضحك الله تبارك وتعالى منه فإذا ضحك الله منه، قال ادخل الجنة فإذا دخلها قال الله له تمته فيسأل ربه ويتمنى حتى إن الله ليزكره من كذا وكذا حتى إذا انقطعت به الأمانى قال الله تعالى ذلك لك ومثله معه»، قال عطاء بن يزيد وأبو سعيد الخدري مع أبي هريرة لا يردّ عليه من حديثه شيئاً حتى إذا حدث أبو هريرة أن الله قال لذلك الرجل ومثله معه قال أبو سعيد وعشرة أمثاله معه يا أبا هريرة قال أبو هريرة ما حفظت إلا قوله ذلك لك ومثله معه قال أبو سعيد أشهد أنني حفظت من رسول الله ﷺ قوله: «ذلك لك وعشرة أمثاله»، قال أبو هريرة وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولا الجنة^(١).

وفي حديث آخر: عن أبي سعيد الخدري أن ناساً في زمن رسول الله ﷺ قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة، قال رسول الله ﷺ: «نعم»، قال: «هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحواً ليس معها سحبٌ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحواً ليس فيها سحبٌ قالوا لا يا رسول الله قال ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما إذا كان يوم القيامة أذن مؤذنٌ ليتبع كل أمّة ما كانت تعبد فلا يبقى أحدٌ كان يعبد غير الله سبحانه من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون في النار حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من برٍّ وفاجرٍ وغبر أهل الكتاب

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (ج ١، ص ١١٢)، حديث ٤٦٩.

فيدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا نعبد عزير ابن الله فيقال
 كذبتهم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولدٍ فماذا تبغون قالوا عطشنا يا ربنا فاسقنا
 فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار كأنها سرابٌ يحطم بعضها بعضاً
 فيتساقطون في النار ثم يدعى النصارى فيقال لهم ما كنتم تعبدون قالوا كنا
 نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم كذبتهم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولدٍ فيقال
 لهم ماذا تبغون فيقولون عطشنا يا ربنا فاسقنا قال فيشار إليهم ألا تردون
 فيحشرون إلى جهنم كأنها سرابٌ يحطم بعضها بعضاً فيتساقطون في النار
 حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من برٍّ وفاجرٍ أتاهم رب العالمين
 سبحانه وتعالى في أدنى صورةٍ من التي رأوه فيها قال فما تنتظرون تتبع كل
 أمةٍ ما كانت تعبد قالوا يا ربنا فارقنا الناس في الدنيا أفقر ما كنا إليهم ولم
 نصاحبهم فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك لا نشرك بالله شيئاً مرتين
 أو ثلاثاً حتى إن بعضهم ليكاد أن ينقلب فيقول هل بينكم وبينه آيةٌ فتعرفونه
 بها فيقولون نعم فيكشف عن ساقٍ فلا يبقى من كان يسجد لله من تلقاء نفسه
 إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد اتقاءً ورياءً إلا جعل الله ظهره
 طبقةً واحدةً كلما أراد أن يسجد خرّ على قفاه ثم يرفعون رءوسهم وقد تحوّل
 في صورته التي رأوه فيها أول مرةٍ فقال أنا ربكم فيقولون أنت ربنا ثم يضرب
 الجسر على جهنم وتحلّ الشفاعة ويقولون اللهم سلّم سلّم، قيل: يا رسول
 الله وما الجسر، قال: «دحضٌ مزلةٌ فيه خطاطيف وكلايب وحسكٌ تكون
 بنجدٍ فيها شويكةٌ يقال لها السعدان فيمرّ المؤمنون كطرف العين وكالبرق
 والريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلمٌ ومخدوشٌ مرسلٌ
 ومكدوشٌ في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فوالذي نفسي

بيده ما منكم من أحدٍ بأشدَّ مناشدةً لله في استقصاء الحقِّ من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين في النار يقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحججون فيقال لهم أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم على النار فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى ركبتيه ثم يقولون ربنا ما بقي فيها أحدٌ ممن أمرتنا به فيقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينارٍ من خيرٍ فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها أحدًا ممن أمرتنا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينارٍ من خيرٍ فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدًا ثم يقول ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرةٍ من خيرٍ فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا ثم يقولون ربنا لم نذر فيها خيرًا»، وكان أبو سعيد الخدري يقول: إن لم تصدقوني بهذا الحديث فافرقوا إن شئتم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (١) فيقول الله عز وجل شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضةً من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط قد عادوا حممًا فيلقبهم في نهرٍ في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كما تخرج الحبة في حميل السيل ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ما يكون إلى الشمس أصيفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض»، فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية، قال: «فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عملٍ عملوه ولا خيرٍ قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم

(١) سورة النساء، آية ٤٠.

فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحداً من العالمين فيقول لكم عندي أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا فيقول رضاي فلا أسخط عليكم بعده أبداً^(١).

ليعلم أن قوله ﷺ: «ترون ربكم كما ترون القمر» لم يقصد ﷺ به إلا تحقيق رؤية العيان أي كما ترون القمر لا تشكون هل هذا القمر أم لا كذلك ترون الله لا تشكون هل الذي رأيتموه هو الله. هو شبه الرؤية بالرؤية ولم يشبه المرئي بالمرئي لأن الله ليس كمثله شيء.

أما وصفه ﷺ لله تعالى بالإتيان بقوله: «يأتيهم الله» فليس على معنى الإتيان المعهود الذي هو انتقال وحركة والمراد أن الله أظهر لعباده الشدة ثم أظهر غير ذلك.

يقال كيف صورة هذه المسألة وفلان من العلم على صورة كذا، فالمراد الصفة لا الصورة. فيكون معنى قوله «في غير الصورة التي يعرفون» أي بغير صفته التي يعرفون، يُظهر الله لهم شدة البطش والبأس والأهوال والجبروت فلما أظهر لهم غير الصفة التي هي مستقرة في نفوسهم أنكروها.

وقوله: «يأتيهم في الصورة التي يعرفونها» أي التي يعرفونها في الدنيا ولا خلاف بين الخلائق أجمع أن الله تعالى لم تعرف له في الدنيا صورة وإنما عرفت صفاته.

أما بالنسبة للساق فهي عند العرب الشدة، وقوله: «يكشف عن ساق» أي عن تلك الشدة المتقدمة أي تزول تلك الشدة، وقد تقدم البيان.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، (ص ٨٨-٩٠).

قال الحافظ البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» ما نصه^(١): «وأما الحديث الذي أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرني أبو النضر محمد بن محمد بن يوسف الفقيه^(٢)، حدّثنا عليّ بن محمد بن عيسى، حدّثنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب بن أبي حمزة، عن الزهريّ، قال: أخبرني سعيد بن المسيّب، وعطاء بن يزيد اللّيثيّ، أنّ أبا هريرة، أخبرهما أنّ النّاس قالوا للنّبّيّ ﷺ: يا رسول الله، هل نرى ربّنا يوم القيامة؟ قال: «هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونها سحابٌ؟»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فهل تمارون الشّمس ليس دونها سحابٌ؟»، قالوا: لا يا رسول الله، قال: «فإنّكم ترونه كذلك، يحشر النّاس يوم القيامة، فيقال: من كان يعبد شيئاً فليتبّعه فمنهم من يتبع الشّمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنهم من يتبع الطّواغيت، وتبقى هذه الأّمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تبارك وتعالى في غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربّكم فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتّى يأتينا ربّنا، فإذا جاء ربّنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون...»، ثم قال^(٣): «فهذا

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٢٧٨، ٢٧٩).

(٢) أبو النضر الطوسي، الإمام الحافظ الفقيه العلامة القدوة شيخ الإسلام، أبو النضر محمد ابن محمد بن يوسف، الطوسي الشافعي، شيخ المذهب بخراسان. ولد في حدود ٢٥٠هـ. وسمع الحارث بن أبي أسامة، وإسماعيل القاضي، وعلي بن عبد العزيز البغوي، والفضل ابن عبد الله بن خرم اليشكري الهروي، وأحمد بن موسى الكوفي الحمار، وأحمد بن سلمة الحافظ، والحسين بن محمد القباني، وتميم بن محمد الحافظ، ومحمد بن نصر المروزي الفقيه. ولازمه مدة وأكثر عنه. وجمع وصنف، وعمل مستخرّجاً على صحيح مسلم، وكان من أئمة خراسان بلا مدافعة. قال الحاكم: «رحلت إليه إلى طوس مرتين، وسألته متى تتفرّغ للتصنيف مع هذه الفتاوى الكثيرة؟ فقال: جزأت الليل أثلاثاً: فثلث أصنف، وثلث أنام، وثلث أقرأ القرآن». قال الحاكم: مات في شعبان سنة ٣٤٤هـ. قلت: جاوز التسعين. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٥، ص ٤٩٠)، رقم الترجمة ٢٧٦.

(٣) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٢٨١).

حديثٌ قد رواه البخاريُّ في الصَّحيح عن أبي اليمان دون ذكر الصَّورة، ثم أخرجه من حديث معمر عن الزَّهريِّ، عن عطاء بن يزيد، وفيه ذكر الصَّورة وأخرجه أيضًا من حديث إبراهيم بن سعدٍ، عن الزَّهريِّ، ورواه أيضًا مسلم ابن الحجاج عن عبد الله بن عبد الرَّحمن الدَّارميِّ، عن أبي اليمان نحو حديث إبراهيم بن سعدٍ، عن الزَّهريِّ، عن عطاء بن يزيد وفيه ذكر الصَّورة».

وقال الحافظ ابن الجوزي الحنبلي في كتابه «كشف المشكل من حديث الصحيحين»^(١): «وهذا شيء قد تخبط فيه جماعة، فالمتقدمون من السلف قرأوه وعبروا ولم ينطقوا بشيء مع علمهم واعتقادهم أن الصورة التي هي تخاطيط لا تجوز على الله عز وجل ولا التغير، وهذان أصلان لا بد من اعتقادهما، التخاطيط لا تكون إلا في الأجسام، والتغير لا يصلح أن يطراً على الإله، فإن الخليل عليه السلام عاب النجم بالأفول فقال ﴿لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾^(٢)، لأنه علم أن ما يطرقه التغير لا يصلح أن يكون معبودًا».

وقال محمد بن خليفة الوشتاني الأبِّي في شرحه على صحيح مسلم المسمى «إكمال إكمال المعلم»^(٣): «قلت قال في الإرشاد: ... وأنت تعرف أن الإتيان حركة وانتقال، والصورة تشعر بالتركيب، وكلُّ على الله سبحانه محال»، وقال^(٤): «وقد جهل من لم يحصل كلامه ممن تقدم فأثبت صورة لا كالصور وهذا تناقض وتجسيم».

(١) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (ج ١، ص ٧٦٥).

(٢) سورة الأنعام، آية ٧٦.

(٣) الوشتاني، إكمال إكمال المعلم، (ج ١، ص ٥٥٧).

(٤) الوشتاني، إكمال إكمال المعلم، (ج ١، ص ٥٥٩).

وقال بدر الدين العيني الحنفي في كتابه «عمدة القاري شرح صحيح البخاري»^(١): «فإن قلت: لا بد للرؤية من المواجهة والمقابلة وخروج الشعاع من الحدقة إليه وانطباع صورة المرئي في حدقة الرائي ونحوها، مما هو محال على الله تعالى، قلت: هذه شروط عادية لا عقلية يمكن حصولها بدون هذه الشروط عقلاً»، ثم قال^(٢): «قال ابن الجوزي: معنى الخبر يأتيهم الله بأهوال يوم القيامة». وكذا قال محمد بن يوسف الكرمانى في كتابه «شرح الكرمانى على صحيح البخاري»^(٣).

وقوله ﷺ عن الله: «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد» أي إذا انتهى القضاء بين العباد، أما الله فلا ينشغل ويفرغ كالمخلوقين.

أما قوله ﷺ: «يضحك الله» وقوله: «ضحك الله» بمعنى الرضا أي رضي الله ويرضى، وقد سبق بيانه.

قبل الخوض في تأويل هذا الحديث وما جاء فيه من ألفاظ وعبارات، اعلم أن هذا الحديث برواياته فيه اضطراب وستجد الأدلة على هذا فيما يلي وقد نص على ذلك الكوثري. والإمام مالك شدد النكير على أحاديث نسبة الصورة لله تعالى والساق وأنه يمد يده إلى جهنم فيخرج منها ما شاء، ونهى عن رواية ذلك كما نص على ذلك الذهبي في «سيره».

(١) العيني، عمدة القاري، (ج ٢٥، ص ١٨٥).

(٢) العيني، عمدة القاري، (ص ٢٠٥).

(٣) الكرمانى، شرح الكرمانى على صحيح البخاري، (ج ١٢، ص ٣١٣).

أما عن رؤية المؤمنين لله في الآخرة، فقد قال تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾^(١) وقال تعالى عن الكفار: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ ﴿٥٥﴾﴾^(٢)، وقال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾^(٣).

وقد قال الإمام المجتهد أبو حنيفة النعمان بن ثابت رضي الله عنه أحد مشاهير علماء السلف إمام المذهب الحنفي ما نصه^(٤): «والله تعالى يرى في الآخرة، ويراه المؤمنون وهم في الجنة بأعين رؤوسهم بلا تشبيه ولا كمية، ولا يكون بينه وبين خلقه مسافة». وقال أيضًا رضي الله عنه في كتابه «الوصية»: «ولقاء الله تعالى لأهل الجنة بلا كيف ولا تشبيه ولا جهة حق».

قال الإمام أبو بكر بن فورك في كتابه «مشكل الحديث وبيانه» ما نصه^(٥): «اعلم أن قوله: «ترون ربكم كما ترون القمر» لم يقصد به إلا تحقيق رؤية العيان لا تشبيه المرئي بالمرئي، بل تحصيل ذلك تشبيه الرؤية بالرؤية، حتى كأنه قال: «رؤيتكم الله تعالى يوم القيامة كرؤيتكم القمر ليلة البدر» أي كما أنكم لا تشكون ليلة البدر في رؤية القمر أنه هو البدر ولا يتخالجكم فيه ريب وظن، كذلك ترون الله جل ذكره يوم القيامة معاينة يحصل معها اليقين بأن ما ترونه هو المعبود الإله الذي ليس كمثل شئ، وحقق ذلك قوله:

(١) سورة القيامة، آية ٢٢، ٢٣.

(٢) سورة المطففين، آية ١٥.

(٣) سورة الشورى، آية ١١.

(٤) ملا علي القاري، شرح الفقه الأكبر، (ص ١٣٦، ١٣٧).

(٥) ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، (ص ٢١٩-٢٢٣).

«لا تضامون في رؤيته»^(١)، فأما معنى قوله ﷺ: «لا تضامون في رؤيته» أي لا ينضم بعضكم إلى بعض كما تنضمون في رؤية الهلال رأس الشهر، بل ترونه جهرة من غير تكلف لطلب رؤيته كما ترون البدر وهو القمر ليلة الرابع عشر، إذا عاينه المعانين جهرة لم يحتاج إلى تكلف في طلب رؤيته ومعاينته، وكذلك قوله ﷺ: «لا تضارون»، أي لا يلحقكم الضرر في رؤيته بتكلف طلب، كما يلحق المشقة والتعب في طلب رؤية ما يخفى ويدق ويغمض، وكل ذلك المعاينة وأنها صفة تزيد على العلم، وكذلك من روى «تضامون» مخففاً فإنما مراده (الضيم) أي لا يلحقكم فيه ضيم، والضيم والضرر واحد في المعنى، وقد تأولت المعتزلة ذلك على معنى رؤية العلم، وأن المؤمنين يعرفون الله يوم القيامة ضرورة، وهذا خطأ من قبل أن الرؤية إذا كانت بمعنى العلم تعدت إلى مفعولين وذلك كما قال القائل: (رأيت زيدا فقيهاً) أي علمته كذلك، أما (رأيت زيدا منطلقاً) فلا يفهم منه إلا رؤية البصر، وقد حقق ذلك أيضا بما أكده به من تشبيهه برؤية القمر ليلة البدر، وتلك رؤية البصر لا رؤية علم، وعلى أن النبي ﷺ إنما يبشر المؤمنين من أصحابه بذلك، وذلك يوجب أن يكون معنى يختصون به، وأما العلم به فمشارك بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة وذلك يبطل معنى بشارته للمؤمنين بالرؤية، وذلك أن تلك الرؤية رؤية عيان، وقد روى الأثبات منهم خنيس عن جابر أن النبي ﷺ قال: «ترون ربكم يوم القيامة عياناً» وهذا يرفع الإشكال ويمنع الاحتمال، لأن الرؤية وإن كانت تُستعمل في معنى العلم، فإنها إذا قرنت

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، (ج٦، ص٢٧٠٣)، حديث ٦٩٩٧. مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، (ج٢، ص١١٣)، حديث ١٤٦٦.

بلفظ العيان لم يحتمل العلم، وذلك كقول القائل: (رأيت زيدًا معاينة)، و«عيانًا» لا يحتمل معنى العلم، كما أنه إذا قال: (رأيت زيدًا بقلبي) لم يحتمل رؤية البصر، فأما ما روي في الخبر الآخر: «أن الله جل ذكره ينزل كل يوم جمعة لأهل الجنة على كتيب من كافور فيكونون في القرب على قدر تكبيرهم إلى الجمعة ألا فسارعوا إلى الخيرات»، فقال محمد بن شجاع: إن هذا الخبر مما تفرد بروايته المنهال بن عمرو وهو ضعيف جدًا، فلا يحتاج به في العقائد ولا يروى في الصفات وبعد ذلك لا حاجة إلى تأويله، مع أنه إن صح (ما يقوله ابن فورك هو على فرض صحته، لذلك قال «إن صحَّ» لكن هو غير صحيح فليُنبه لذلك). وقيل فإنه يحتمل أن يكون معناه أن أهل الجنة يرونه على مقادير أوقات الدنيا بحسب أعمالهم الحسنة ومسارعتهم فيها، وكل ما قيل في ذلك من معنى أيام الدنيا وأوقاتها فيها كقوله: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾^(١) فذلك على تقدير أيام الدنيا وأوقاتها، لا أن هنالك غدوة وعشيا أو جمعة أو سبتا، فأما بروزه لأهل الجنة فذلك تجليه لهم وهو أن يخلق لهم رؤية له تعالى، فهم على كتيب كافور (والله تعالى منزه عن أن يكون مستترًا بالحجب أو مخفيًا ثم يظهر لأن هذا من صفات الحوادث، والله أزلي أبدي فلا يتصف بصفة حادثة، وأوله ابن فورك بمعنى رؤية أهل الجنة لله، لا أنه يظهر ويبرز بعد أن كان مستترًا، فالله ليس جسمًا ولا يتصف بصفات الأجسام، فالظهور والاختفاء والاحتجاب بالستر صفة المخلوق، والله خالق ولا يشبه المخلوقين بأي وجه من الوجوه، فهو سبحانه موجود بلا جهة ولا مكان ولا يتغيّر ولا يتطور ولا يتبدل ولا تحله

(١) سورة مريم، آية ٦٢.

الحوادث ولا يحل هو في حادث)، فأما معنى قربه منهم فذلك راجع إلى الكرامات والمنزلة لا إلى المكان والمسافة، وذلك معلوم مشهور بين الناس أنهم يقولون: (فلان قريب من فلان) وإنما يريدون قرب المنزلة لا قرب المسافة، وعليه يتأول قوله: «من تقرب مني شبرًا تقربت منه ذراعًا» أي من تقرب بالطاعة ضاعفت له الثواب وزدته كرامة، وكذلك يقولون للفاسق في فسقه: (إنه متباعد عن الله) يريدون بذلك التبعاد من طاعته وعبادته، وعلى هذا المعنى يقال: (إن الكافر بعيد عن الله والمؤمن قريب من الله والله قريب من المؤمنين بعيد عن الكافرين) ومعنى ذلك قرب رحمته وكرامته ولطفه وفضله من المؤمنين، وبعد جميع ذلك من الكافر، فأما قرب المكان فلا يليق بوصف الله تعالى، وعلى ذلك يتأول جميع ما في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾^(٢)، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾^(٤) إن جميع ذلك لا يخلو أن يكون قربًا بالطاعة من العبد أو قربًا بالكرامة وإظهار الرحمة من الله تعالى، فعلى ذلك جميع ما يوصف به الله عز ذكره من قربه من الخلق، ويوصف به العبد من قربه من الله وكذلك القول في البعد».

قال الحافظ النووي في شرحه على مسلم^(٥): «ومعناه تشبيه الرؤية بالرؤية

(١) سورة ق، آية ١٦ .

(٢) سورة الواقعة، آية ٨٥ .

(٣) سورة النجم، آية ٩ .

(٤) سورة العلق، آية ١٩ .

(٥) النووي، شرح النووي على مسلم، (٢م، ج ٣، ص ١٨).

في الوضوح وزوال الشك والمشقة والاختلاف». وكذلك قال ابن حجر في «فتح الباري»^(١).

واعلم أخي المسلم أنّ الرؤية لله تعالى في الجنة تكون بلا كيف ولا تشبيه ولا جهة ولا مسافة قرب أو بعد ولا كيفية ولا حجم ولا لون، ولا يكون عليهم في هذه الرؤية اشتباه، ولا أدنى شك هل الذي رآوه هو الله أو غيره، كما لا يشك مبصر القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب أن الذي رآه هو القمر، ففي ذلك قال رسول الله ﷺ: «إنكم سترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته». رواه البخاري^(٢) ومسلم^(٣).

وقد شبه الرسول ﷺ رؤيتنا له من حيث عدم الشك برؤية القمر ليلة البدر، ولم يشبه الله تعالى بالقمر كما زعم بعض الجهال، فإن الذي لم يتعلم التوحيد إذا سمع هذا الحديث قد يعتقد أن الله يشبه القمر ليلة البدر، وقد صرح بعض العوام بذلك».

وفي كتاب «توضيح العقيدة» وهو مقرر السنة الرابعة الإعدادية بالمعاهد الأزهرية بمصر، ما نصه: «فراه تعالى منزهاً عن الجهة والمقابلة وسائر التكييفات، كما أنّا نؤمن ونعتقد أنّه تعالى ليس في جهة ولا مقابلاً وليس جسماً».

(١) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١١، ص ٤٥٥).

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾، (ج ٦، ص ٢٧٠٣)، حديث ٦٩٩٧.

(٣) مسلم، صحيح مسلم، كتاب المساجد، باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما، (ج ٢، ص ١١٣)، حديث ١٤٦٦.

وفي كتاب «العقيدة الإسلامية» الذي يُدرّس في دولة الإمارات العربية ما نصه: «وأنه تعالى لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، تقديس عن أن يحويه مكان، كما تنزهه عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان».

وفيه أيضاً: «وإن عقيدة النجاة المنقذة من أحوال الشرك وضلالات الفرق الزائغة هي اعتقاد رؤيته تعالى في الآخرة للمؤمنين بلا كيف ولا تحديد ولا جهة ولا انحصار».

وقال المحدث محمد زاهد الكوثري في تعليقه على كتاب «الأسماء والصفات»^(١) للبيهقي: «اضطربت الروايات في ذكر الصورة والإتيان كما يظهر من استعراض طرق هذا الحديث ومتونه في الصحيحين وجامع الترمذي، وتوحيد ابن خزيمة وسنن الدارمي وغيرها».

ونقل الذهبي في كتابه «سير أعلام النبلاء»^(٢) إنكار الإمام مالك للفظ الصورة: «قال ابن القاسم: سألت مالكا عمّن حدّث بالحديث، الذين قالوا: إن الله خلق آدم على صورته، والحديث الذي جاء: إن الله يكشف عن ساقه، وأنه يدخل يده في جهنم حتى يخرج من أراد. فأنكر مالك ذلك إنكاراً شديداً، ونهى أن يُحدّث بها أحد». ولا شك أن مالكا أوسع اطلاعاً ممّن أثبت هذا اللفظ من غير تحقيق ومع ذلك مالك يُنكره.

وقال ابن بطلال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك في كتابه «شرح

(١) الكوثري، تعليق الكوثري على الأسماء والصفات، (ص ٢٧٩).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٦، ص ٣٢٩).

صحيح البخاري»^(١): «وأما وصفه ﷺ لله تعالى بالإتيان بقوله: فيأتيهم الله، فليس على معنى الإتيان المعهود فيما بيننا الذي هو انتقال وحركة، لاستحالة وصفه بما توصف به الأجسام». بل هو كقوله تعالى: ﴿فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ السَّمَاءِ نُزُلًا﴾^(٢).

وقال الحافظ ابن الجوزي الحنبلي في كتابه «كشف المشكل من حديث الصحيحين»^(٣): «وهذا شيء قد تخبط فيه جماعة، فالمتقدمون من السلف قرأوه وعبروا ولم ينطقوا بشيء مع علمهم واعتقادهم أن الصورة التي هي تخاطيط لا تجوز على الله عز وجل ولا التغير، وهذان أصلان لا بد من اعتقادهما، التخاطيط لا تكون إلا في الأجسام، والتغير لا يصلح أن يطرأ على الإله، فإن الخليل عليه السلام عاب النجم بالأفول فقال: ﴿قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ﴾^(٤) لأنه علم أن ما يطرقة التغير لا يصلح أن يكون معبودًا».

وقال محمد بن خليفة الوشتاني الأبي في شرحه على صحيح مسلم المسمى «إكمال إكمال المعلم»^(٥): «قلت: قال في الإرشاد: وأنت تعرف أن الإتيان حركة وانتقال، والصورة تُشعر بالتركيب، وكلُّ على الله سبحانه محال».

وقال^(٦): «وقد جهل من لم يحصل كلامه ممن تقدم فأثبت صورة لا كالصور وهذا تناقض وتجسيم».

(١) ابن بطل، شرح صحيح البخاري، (ج ١٠، ص ٤٦٢).

(٢) سورة النحل، آية ٢٦.

(٣) ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، (ج ١، ص ٧٦٥).

(٤) سورة الأنعام، آية ٧٦.

(٥) الأبي، إكمال إكمال المعلم، (ج ١، ص ٥٥٧).

(٦) الأبي، إكمال إكمال المعلم، ص ٥٥٩.

قال القاضي الفقيه ابن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل»^(١): «اعلم أن الأدلة العقلية والنقلية تحيل الصورة التي هي التخطيط على الله تبارك وتعالى كما تقدم، فوجب صرفها عن ظاهرها إلى ما يليق بجلاله تبارك وتعالى مما هو مستعمل في لغة العرب، وهو الصفة والحالة. يقال: كيف صورة هذه الواقعة؟ وكيف صورة هذه المسألة؟ وفلان من العلم على صورة كذا وكذا. فالمراد بجميع ذلك الصفة لا الصورة التي هي التخطيط، فعلى هذا، الصورة هنا بمعنى الصفة وتكون في بمعنى الباء، فمعنى الصورة التي أنكروها:

أولاً: أنه أظهر لهم شدة البطش والبأس والعظمة والأهوال والجبروت، وكان وعدهم في الدنيا يلقاها في القيامة بصفة الأمن من المخاوف والبشرى والعفو والإحسان واللفظ، فلما أظهر لهم غير الصفة التي هي مستقرة في نفوسهم أنكروها واستعاضوا منها، وقوله: «إِذَا أَنَا رَبَّنَا عَرَفْنَاهُ» أي بما وعده من صفة اللطف والرحمة والإحسان، ولذلك قال: «فيكشف عن ساق» أي يكشف عن تلك الشدة المتقدمة وتظهر لهم صفة الرحمن فيسجدون شكراً له (تظهر لهم آثار رحمة الله بهم فيرحمهم وينجيهم وليس معنى هذا الكلام المتقدم أن صفة الرحمن تحل في موقف القيامة حاشى وكلاً) وقد تقدم ذلك في قوله: «يوم يكشف عن ساق» ويدل لما قلنا أن المراد بالصورة الصفة، دلالة صريحة قوله «في الصورة التي يعرفونها».

ثانيها: «يأتيهم في الصورة التي يعرفونها»، المراد التي يعرفونها في الدنيا لأنهم لم يعرفوه يوم القيامة قبل ذلك بصورة متقدمة ولا رؤية سابقة، فدلّ

(١) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١٥٧-١٥٩).

على أن المراد: التي يعرفونها في الدنيا، ولا خلاف بين الخلائق أجمع أن الله تعالى لم تُعرف له في الدنيا صورة وإنما عُرِفَت صفاته تعالى وما وعد به الصالحين في القيامة من لطفه وأمنه وبشارتهم بجنته، فإن قيل: فلم عدل عن لفظ الصفة إلى لفظ الصورة؟ قلنا: لما كانت المتبوعات المتقدمة في الحديث لعابديهم صورًا، جاء بلفظ الصورة مشاكلة بين المعاني والألفاظ، فإنه من أنواع البلاغة، وقوله في الحديث: «في أدنى صورة» أي في أول صفة رأوه فيها لأنهم لم يروا صفة قبلها، ومعنى أدنى أقرب.

واعلم أنه لا يجوز إطلاق (الإله) على غير الله ومن أطلقه على غير الله فقد كفر^(١)، أما مع التقييد فلا ضرر في ذلك كما في قول موسى عليه السلام للسامري: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَى إِلٰهِكَ﴾^(٢)، أي الذي اتخذته أنت بزعمك إلهًا، ولم يقل العجل إله، كذلك لو قيل للمشركين عن أصنامهم التي يعبدونها: هذه آلهتهم، كان المعنى أي عندهم فهم اتخذوها آلهة كما يدعون، ولا يقال الشمس إله أو القمر إله أو الهوى إله أو الشيطان إله، لا بد من التقييد كما في مسألة موسى عليه السلام، ولذلك جاءت العبارة هنا مقيدة كما تراه في عبارة الحافظ ابن حجر في الفتح^(٣): «فيذهب أصحاب الصليب مع صليبيهم وأصحاب كل الأوثان مع أوثانهم وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم وفيه إشارة إلى من كان يعبد الشيطان ونحوه».

قوله: «فيقال لليهود ما كنتم تعبدون»، وفيه: «ثم يقال للنصارى ما كنتم

(١) قال الفيومي في المصباح المنير: «الإله هو المعبود بحق». أما قوله تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوْنَهُ﴾^(٣١) أي على زعمه.

(٢) سورة طه، آية ٩٧.

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١١، ص ٤٥٧).

تعبدون»، هذا ليس استنطاقاً لهم بالكفر، بل هو على سبيل الإخبار عن الماضي لأنهم بعد موتهم عرفوا أنهم كانوا على عقيدة كفرية باطلة، فيكون المعنى حكاية عن الماضي وليس سؤالاً لهم ليكون جوابهم كفرًا تلك اللحظة، كما أنه ثبت في الصحاح والمسانيد أن منكرًا ونكيرًا يسألان الكافر في القبر وهذا على المعنى الذي مر بمعنى أن المسئول يُخبر عما كان منه في الدنيا وقد تركه، أي ما عاد راضيا به، فلو استنطق بذلك فتكلم به فذلك يكون بعد معرفة منه ويقين بفساد ما كان عليه فيكون بمعنى الإخبار عن الماضي.

وقوله: «فَيَقُولُ الْجَبَّارُ بَقِيَتْ شَفَاعَتِي».

الشفاعة هي طلب الخير من الغير للغير، والله تعالى لا يرجو أحدًا من خلقه ولا يرجو شيئًا من أحد، فلا يقال الله يشفع وأما ما ورد في هذا الحديث «فَيَقُولُ الْجَبَّارُ بَقِيَتْ شَفَاعَتِي» فهنا بمعنى الفضل والرحمة، لذلك قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(١) ما نصه: «فيخرج أقواما قد امتحشوا ثم قال في آخره فيقول أهل الجنة هؤلاء عتقاء الرحمن أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه».

وقوله: «فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ أَنْتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ»:

قال العلامة الحافظ الشيخ عبد الله الهرري في كتابه «الشرح القويم»^(٢): «قال الله تعالى في توبيخ إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾^(٣)، فدل قوله تعالى ﴿بِيَدَيَّ﴾ على أن آدم خلق مشرفًا مكرمًا بخلاف إبليس،

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، (ج ١٣، ص ٤٣٨).

(٢) عبد الله الهرري، الشرح القويم، (ص ٢٠٢).

(٣) سورة ص، آية ٧٥.

ولا يجوز أن نحمل كلمة بيدي على معنى الجارحة، لأنه لو كان له أي الله سبحانه جارحة لكان مثلنا، ولو كان مثلنا لما استطاع أن يخلقنا، لذلك نقول كما قال بعض الخلف: أي خلقتة بعناتي بحفظي، معناه على وجه الإكرام والتعظيم له، أي على وجه الخصوصية خلق آدم، أي أراد له المقام العالي والخير العظيم، أما إبليس ما خلقه بعنائه لأن الله عالم في الأزل أنه خبيث، هذا الفرق بين إبليس و آدم».

قال الشاعر:

«إِنَّ حَدِيثًا لِلنَّبِيِّ طَالَا
يَذُكُرُ فِيهِ الْمُصْطَفَى الْأَهْوَالَا
وَإِنَّ تَأْوِيلَاتِهِ مُهِمَّةُ
وَالعَرَبُ الْأَقْفَاحُ كُلُّ أَدْرُكُوا
إِنَّ مُحِيطًا بِلسَانِ الضَّادِ
سَوْفَ تَرَوْنَ فِي غَدِ رَبِّ البَشْرِ
وَلَيْسَ مَعْنَاهُ بَأَنَّ البَارِي
مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ رَءَاهُ
فَمَنْ رَأَى البَدْرَ بِلَا سَحَابِ
فَافْهَمُ مُرَادَ الْمُصْطَفَى الْأَمِينِ
إِنَّ يَقِينَ مَنْ يَرَى البَدْرَ غَدَا
وَمَنْ نَعِيمِ الجَنَّةِ الْمُحْسُوسِ
يَرُونَهُ لَيْسَ لَهُ مَكَانُ
أَوَّلُهُ حَتَّى تَفْقَهُ المَقَالَا
وَمَوْقِفَ الحِسَابِ والسُّؤَالَا
فَالْمُتَشَابِهَاتُ فِيهِ جَمَّةُ
مَعْنَاهُ لَا زَلُّوا وَلَا هُمْ أَشْرَكُوا
أَحْسَنَ فَهَمَ مَا يَقُولُ الهَادِي
كَمَا تَرَوْنَ لَيْلَةَ البَدْرِ القَمَرِ
يَشِيعُ كَالْبُدُورِ وَالْأَقْمَارِ
لَيْسَ يَشَكُّ أَنَّهُ الْإِلَهُ
لَا يَعْتَرِيهِ مُطْلَقُ ارْتِيَابِ
قَدْ شَبَّهَ اليَقِينَ بِالْيَقِينِ
مِثْلَ يَقِينِ مَنْ يَرَى اللهَ غَدَا
رُؤْيَيْتُهُ بِأَعْيُنِ الرُّؤُوسِ
لَا تَتَفَكَّرُ تَعَجُّزُ الْأَذْهَانُ

قَدْ خَلَقَ الظَّلَامَ والأنوارا
 بِدَايَةِ الأنعامِ تلكَ الآيه
 كَانَ بلا نُورٍ ولا ظُلماتٍ
 مَعَ أَنَّ هذا يُعجزُ الأذهانا
 وَبَحْثُهُمْ عَن ذَاتِهِ إِشْرَاكُ
 قَدْ وَصَفَ الرَّحْمَنَ بِالإِتيانِ
 لَوْ مِثْلَنَا لَشَابَهَ الأَشْباهَا
 بِلا تَحَرِّكٍ ولا انْتِقَالِ
 فَكَفَرُوا مَنْ قَالَ بِالْحُدُودِ
 أَوْ قَالَ بِالتَّجْسِيمِ كاليَهُودِ
 قُولُوا أتى لا يُشبهُ الإنسانا
 وَضِدُّهُ مَالُهُ الحَرِيقُ
 إِلَى الإلهِ قَدْ أَضَافَ الصُّورَةَ
 وَنَزَّهُوا اللهَ عَنِ الأَشْكالِ
 قُولُوا لِكُلِّ فِرْقَةٍ مُحَرَّفَهُ
 أَمْثالُ ربي لَمْ تَكُنْ مَحْصُورَهُ
 لِاحِدٍ مُسْتَلزِمَةً والجِسْمِ
 وَلَيْسَ ذَا ما عَرَفُوهُ عَنْهُ
 قَالُوا عَرَفْنَا رَبَّنَا رَحِيمًا

نُقِرُّ أَنَّ رَبَّنَا الغَفَّارَا
 إِذْ نَ لِكُلِّ مِنْهُما بِدَايَهُ
 ما قُلْتَ فِي وَقْتٍ مِنَ الأوقاتِ
 قَدْ اعْتَقَدْنَا أَنَّ هَذَا كانا
 فَالعَجْزُ عَن إِدراكِهِ إِدراكُ
 وَفِي حَدِيثِ المصطفى العَدْناني
 «يَأْتِيهِمُ اللهُ» لها معناها
 «يَأْتِي» بِحَقِّ اللهُ ذِي الجَلالِ
 ما ذلِكَ الإِتيانُ بالمعْهُودِ
 أَوْ قَالَ بِالِجُلُوسِ والقُعُودِ
 وَأَوْلُوا المَجْييءَ والإِتيانا
 أتى كَمَا بِذاتِهِ يَلِيقُ
 طه لَهُ فَصاحَةٌ مَشْهُورَةٌ
 فَنَبَّهُوا النَّاسَ مِنَ الإِشْكالِ
 فَإِنَّمَا الصُّورَةُ مَعْنَاهَا الصِّفَةُ
 لَوْ لَمْ يَكُنْ كَذَاكَ مَعْنَى الصُّورَةَ
 فَالصُّورَةُ التي بِمَعْنَى الرَّسْمِ
 غَدًّا يَرُونَ الجَبْرُوتَ مِنْهُ
 وَإِذْ يَرُونَ بِطُشَّهُ العَظِيمَا

يُرِيهِمُ الشَّدَّةَ وَالْأَهْوَالَ
قَدْ أَبْصَرُوا مِنْ صِفَةِ الْقُدُّوسِ
ثُمَّ يَرُونَ غَيْرَ تِلْكَ الصُّورَةِ
فَيَعْرِفُونَ أَنَّهُ اللَّهُ الْأَحَدُ
وَعِنْدَنَا أَمْثَلَةٌ مَشْهُورَةٌ
تَقُولُ مَا صُورَةٌ ذَلِكَ الْفَتَى
وَفِي الْحَدِيثِ جَاءَ ذِكْرُ السَّاقِ
وَلَيْسَتْ السَّاقُ الَّتِي فَوْقَ الْقَدَمِ
وَفِرْقَتَانِ قَالَتَا بِالْجَارِحَةِ
وَالسَّاقُ فِي مَعْنَى اشْتِدَادِ الْكَرْبِ
قَامَتْ بِنَا الْحَرْبِ عَلَى سَاقٍ إِذَا
وَقَوْلُ طَهَ فَرَعَ الْإِلَهُ
فَاللَّهُ لَا يُشْبِهُهُ الْإِنْسَانُ
فَرَاغْنَا مِنْ شُغْلِنَا مَخْلُوقُ
مُرَادُ طَهَ يَنْتَهِي الْقَضَاءُ
وَقَوْلُهُ يَضْحَكُ فِي حَقِّ الصَّمَدِ
إِنَّ الرِّضَا فِي حَقِّنَا انْفِعَالُ
وَفِي الْحَدِيثِ: يُسْأَلُ الْيَهُودُ
وَمِثْلَ هَذَا يُسْأَلُ النَّصَارَى

فَيُنْكِرُونَ وَصَفَهُ تَعَالَى
غَيْرَ الَّذِي اسْتَقَرَّ فِي النُّفُوسِ
أَيَّ غَيْرِ تِلْكَ الصِّفَةِ الْمَذْكُورَةِ
وَلَيْسَ فِيهِمْ بَعْدَ هَذَا مَنْ جَحَدَ
عَنْ صِفَةٍ قَدْ بُدِّلَتْ بِالصُّورَةِ
مِنْ وَاسِعِ الْعِلْمِ وَتَعْنِي الصِّفَةَ
يَكْشِفُ عَنْهَا ذُو الْجَلَالِ الْبَاقِي
جَلَّ عَنِ الْعُضْوِ وَعَنْ رُوحٍ وَدَمٍ
مَذْكُورَتَانِ فِي خِتَامِ الْفَاتِحَةِ
تُقَالُ عِنْدَ الْعَرَبِ عِنْدَ الْحَرْبِ
مَا اشْتَدَّتِ الْأَهْوَالُ وَاشْتَدَّ الْأَذَى
مِنْ الْقَضَاءِ وَاضِحٌ مَعْنَاهُ
يَجْرِي عَلَى عِبَادِهِ الزَّمَانُ
كِلَاهُمَا بِضِدِّهِ مَسْبُوقُ
بَيْنَ عِبَادِهِ مَتَى يَشَاءُ
مَعْنَاهُ يَرْضَى لَا كَمَا يَرْضَى أَحَدُ
عَلَى إِلَهِي مِثْلُهُ مُحَالُ
مَنْ كَانَ عِنْدَكُمْ هُوَ الْمَعْبُودُ
لِيُخْبِرُوا عَمَّا جَرَى وَصَارَا

قَدْ سُئِلُوا وَلَيْسَ فِي السُّؤَالِ
 هُمْ يُخْبِرُونَ عِنْدَهَا عَمَّا مَضَى
 وَلَيْسَ يُسْأَلُونَ كَمَا يَقُولُوا
 وَمَنْ يَقُلْ فِي غَيْرِ ذِي الْجَلَالِ
 وَمَنْ أَضَافَ بَعْدَهَا ضَمِيرًا
 وَمَنْ يَقُلْ: إِلَهَكَ الْمَعْبُودُ
 وَفِي الْحَدِيثِ حَالَةٌ مُشَابِهَةٌ
 قِيَّدُهُ بِجَعْلِهِ مَنْسُوبًا
 وَفِي حَدِيثِ الْمُصْطَفَى الْعَدْنَانِي
 وَاللَّهُ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ حَالُهُ
 فَرَبُّنَا أَحَاطَ بِالأَشْيَاءِ
 يَسْمَعُهَا فِي اللَّيْلَةِ الظُّلَمَاءِ
 نَزَّهَ كَلَامَ رَبِّنَا الرَّؤُوفِ
 الصَّوْتُ مَخْلُوقٌ لَهُ ابْتِدَاءٌ
 مِنْ طَلَبٍ لِلنَّطْقِ بِالضَّلَالِ
 لَيْسَ لَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ أَيُّ رِضَا
 مَا هُوَ عِنْدَ رَبِّنَا مَجْهُولٌ
 هَذَا الإِلَهُ فَهُوَ فِي ضَلَالٍ
 لَا تُطْلَقُوا فِي حَقِّهِ التَّكْفِيرَا
 فَالْكَافُ أَوْ أَمْثَالُهَا قِيودٌ
 حَيْثُ النَّبِيُّ قَالَ لَفِظَ آلِهَةٍ
 إِلَى الَّذِينَ أَلْهَوْا مَرْبُوبًا
 أَنَّ الإِلَهَ سَائِلُ الْإِنْسَانِ
 وَلَا يَزِيدُ عِلْمَهُ سؤَالُهُ
 وَمُبْصِرٌ لِلنَّمَلَةِ السُّودَاءِ
 تَدُبُّ فَوْقَ الصَّخْرَةِ الصَّمَاءِ
 عَنْ حَادِثِ اللِّغَاتِ وَالْحُرُوفِ
 وَيَعْقُبُ ابْتِدَاءَهُ انْتِهَاءُ



المبحث الخامس والأربعون

تأويل حديث

«من ضحك رب العالمين»

عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجًا منها وآخر أهل الجنة دخولًا الجنة رجلٌ يخرج من النار حبواً فيقول الله تبارك وتعالى له اذهب فادخل الجنة فيأتيها فيخيل إليه أنها ملاءى فيرجع فيقول يا ربّ وجدتها ملاءى فيقول الله تبارك وتعالى له اذهب فادخل الجنة قال فيأتيها فيخيل إليه أنها ملاءى فيرجع فيقول يا ربّ وجدتها ملاءى فيقول الله له اذهب فادخل الجنة فإنّ لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها أو إنّ لك عشرة أمثال الدنيا قال فيقول أتسخر بي أو أتضحك بي وأنت الملك»، قال لقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه قال: فكان يقال ذلك أدنى أهل الجنة منزلة^(١).

وفي حديث آخر: قال: «من ضحك ربّ العالمين حين قال أتستهزئ مني»^(٢).

إن معنى «يضحك الله» أي يبدي من فضله ما يكون جزاء لعبده. أما نسبة السخرية إلى الله تعالى فهي على سبيل المقابلة أي أن العبد ظن أن في قول

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، (ج ١، ص ١١٨)، حديث ٤٧٩.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب آخر أهل النار خروجًا، (ج ١، ص ١١٩)، حديث ٤٨١.

الله له «ادخل الجنة» وتردده إليها وظنه أنها ملأى نوعًا من السخرية به جزاء على فعله، فسمى الجزاء على السخرية سخرية وقيل وَلَهُ عَقْلُهُ من السرور واستخفَّهُ الفرح فقال ذلك وهو غير ضابط لما قال... وقيل غير ذلك.

قال البيهقي في الكلام على حديث مما ضحكت يا رسول الله ما نصه^(١): «من ضحك رب العالمين» ما نصه: «فأما المتقدمون من أصحابنا فإنهم فهموا من هذه الأحاديث ما وقع الترغيب فيه من هذه الأعمال وما وقع الخبر عنه من فضل الله سبحانه، ولم يشتغلوا بتفسير الضحك مع اعتقادهم أن الله ليس بذي جوارح ومخارج، وأنه لا يجوز وصفه بكشر الأسنان وفغر الفم، تعالى الله عن شَبَهِ المخلوقين علوًّا كبيرًا».

وقال ما نصه^(٢): «قال أبو الحسن: فمعنى قول النبي ﷺ: «يضحك الله» أي يبين ويبيد من فضله ونعمه ما يكون جزاءً لعبده».

وقد قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»^(٣) ما نصه: «قوله «أتسخر مني» أو «تضحك مني» وفي رواية الأعمش «أتسخر بي» ولم يشك، وكذا لمسلم من رواية منصور، وله من رواية أنس عن ابن مسعود «أتستهزئ بي وأنت رب العالمين» وقال المازري:... ولكن لما كانت عادة المستهزئ أن يضحك من الذي استهزأ به ذكر معه، وأما نسبة السخرية إلى الله فهي على سبيل المقابلة، وإن لم يذكره في الجانب الآخر لفظًا لكنه لما ذكر أنه عاهد مرارًا وغدر حل فعله محل المستهزئ وظن أن في قول الله له «ادخل الجنة»

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤٧٤).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤٧٣).

(٣) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، (ج ١١، ص ٥٤٢).

وتردده إليها وظنه أنها ملأى نوعاً من السخرية به جزاءً على فعله، فسمى الجزاء على السخرية سخرية، ونقل عياض عن بعضهم أن أَلْفَ «أتسخر مني» أَلْفُ النفي في قوله تعالى: ﴿أَتَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا﴾ (١) على أحد الأقوال، قال: وهو كلام متدلل علم مكانه من ربه وبسطه له بالإعطاء، وجوز عياض أن الرجل قال ذلك وهو غير ضابط لما قال إذ وَلَهُ عَقْلُهُ من السرور بما لم يخطر بباله، ويؤيده أنه قال في بعض طرقه عند مسلم لما خلص من النار: «لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحدًا من الأولين والآخرين».

وقال القرطبي في «المفهم» ما نصه: «أكثرُوا في تأويله، وأشبهه ما قيل فيه: أنه استخفه الفرح وأدهشه فقال ذلك، وقيل: قال ذلك لكونه خاف أن يجازى على ما كان منه في الدنيا من التساهل في الطاعات وارتكاب المعاصي كفعل الساخرين فكأنه قال: أتجازيني على ما كان مني؟ فهو كقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ (٢)، وقوله: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (٣) أي ينزل بهم جزاء سخريتهم واستهزائهم».

فإن ورد في الشرع أن الله «قال» فليس كما نقول، وإن ورد أنه «يستهزئ» فليس كما يستهزئ المخلوق، وإن ورد أنه «سخر» فليس كما يسخر المحدثون، وإن ورد أنه «ضحك» فليس كما يضحك البشر، وإن ورد أنه «غضب» أو «رضي» فكل ذلك اتفاق في اللفظ اختلاف في المعنى لأن

(١) سورة الأعراف، آية ١٥٥.

(٢) سورة التوبة، آية ٧٩.

(٣) سورة البقرة، آية ١٥.

الصانع لا يشبه المصنوع وكل ما يخطر ببالك فهو مصنوع فلا يشبه الصانع وهو الله.

قال الشاعر:

«آخِرُ مَنْ سَيَدْخُلُ الْجَنَانَ
إِذْ قَالَ أَنْ رَبَّنَا الرَّحْمَنَا
فَظَنَّا قَدِ مَلَأْتِ فَعَادَا
فَقَالَ قَدْ نَظَرْتُ فِي الْجِنَانِ
فَقَالَ عُدْ فإِذْ بِهِ يَعُودُ
وَبَعْدَ مَرَاتٍ ثَلَاثٍ قَالَا
تَسْخَرُ بِي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ
وَعِنْدَهَا قَدْ ضَحِكَ الْمَخْتَارُ
قَدْ سَأَلُوا طَهَ عَظِيمَ الْجَاهِ
أَجَابَهُمْ: مِنْ ضَحِكَ اللَّهِ الْأَحَدُ
أَيُّ يُظْهِرُ الْإِلَهَ مَا أَعْطَاهُ
فَإِنْ سَمِعْتَ «يَضْحَكُ الْإِلَهُ»
وَاللَّهُ لَا يَضْحَكُ كَالْمَخْلُوقِ
تَعُوزُنَا الْأَسْنَانُ وَالْأَفْوَاهُ
وَقَوْلُهُ «تَسْخَرُ بِي» مَعْنَاهُ
فَالْعَبْدُ ظَنَّ أَنَّ رَبِّي شَاءَا
عَنْهُ حَدِيثُ الْمِصْطَفَى أَتَانَا
قَالَ لِعَبْدِهِ ادْخُلِ الْجِنَانَ
إِلَى الَّذِي قَدِ بَرَأَ الْعِبَادَا
فَلَيْسَ لِي هُنَاكَ مِنْ مَكَانٍ
عَسَاهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْمَوْعُودُ
مُخَاطِبًا إِلَهُهُ تَعَالَى
فِيضْحَكُ اللَّهِ كَمَا قَالَ الْأَمِينُ
تَعَجَّبَ الصَّحَابَةُ الْأَطْهَارُ
مِمَّ ضَحِكْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ
فَنَزَّهُوا الرَّحْمَنَ عَنْ شَكْلِ وَحَدِّ
لِلْعَبْدِ مِنْ خَيْرٍ وَمَا جَاذَاهُ
فَاللَّهُ يُبْدِي فَضْلَهُ مَعْنَاهُ
اتَّفَقَ اللَّفْظُ مَعَ الْفُرُوقِ
عَنْ مِثْلِهَا تَنْزَهُ الْإِلَهُ
هَذَا جَزَائِي مِنْكَ يَا اللَّهُ
أَنْ يَجْعَلَ السُّخْرِيَةَ الْجَزَاءَا

رَأَى جَزَا أَفْعَالِهِ الْمَسِيئَةَ إِسْأَلَهُ لِحَنَةِ مَلِيئِهِ
إِنْ سَخِرَ اللَّهُ فَلَئِنْ يَكُونَا يُشْبِهْنَا فَنَحْنُ مُخَدِّثُونَا
مَنْ يَتَغَيَّرُ حَالُهُ تَغْيِيرَا يَحْتَاجُ مَنْ طَوَّرَهُ تَطْوِيرَا
مَنْ كَانَ مُحْتَاجًا هُوَ الْمَغْلُوبُ مَا كَانَ رَبًّا إِنَّمَا مَرْبُوبٌ.



المبحث السادس والأربعون تأويل حديث الشفاعة

عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك وقال ابن عبید فيلهمون لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا قال فيأتون آدم ﷺ فيقولون أنت أبو الخلق خلقك الله بيده^(١) ونفخ فيك من روحه^(٢) وأمر الملائكة فسجدوا^(٣) لك اشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا فيقول لست هناكم^(٤) فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا نوحًا أول رسول بعثه الله^(٥) قال فيأتون نوحًا ﷺ فيقول لست هناكم فيذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا إبراهيم ﷺ الذي اتخذه الله خليلاً فيأتون إبراهيم ﷺ فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا موسى ﷺ الذي كلمه الله وأعطاه التوراة قال فيأتون موسى ﷺ فيقول لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها ولكن ائتوا عيسى روح الله وكلمته فيأتون عيسى روح الله وكلمته فيقول لست هناكم ولكن ائتوا محمدًا

(١) أي بعنايته.

(٢) أي أمر الملك فنفخ فيك الروح بأمره فهي إضافة تشريف والله ليس روحًا ولا له روح ولا يشبه الأرواح.

(٣) سجود تحية واحترام.

(٤) أي لست صاحب هذه الشفاعة كل نبي يعرف نفسه أنه في منزلة عالية وأنه من الشفعاء يوم القيامة ولكن هذه الشفاعة خاصة لمحمد ﷺ.

(٥) أي أول رسول بُعث لقوم كافرين.

عَبْدًا قَدْ غَفَرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذِنُ لِي فَإِذَا أَنَا رَأَيْتَهُ وَقَعْتَ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ فَيَقَالُ يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ قُلْ تَسْمَعُ سَلْ تَعْطُهُ اشْفَعْ تَشْفَعُ فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِيهِ رَبِّي ثُمَّ أَشْفَعُ فَيُحَدِّدُ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ فَأَقْعُ سَاجِدًا فَيَدْعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْعُنِي ثُمَّ يَقَالُ ارْفَعْ رَأْسَكَ يَا مُحَمَّدُ قُلْ تَسْمَعُ سَلْ تَعْطُهُ اشْفَعْ تَشْفَعُ فَارْفَعْ رَأْسِي فَأَحْمَدُ رَبِّي بِتَحْمِيدِ يَعْلَمُنِيهِ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيُحَدِّدُ لِي حَدًّا فَأُخْرِجُهُمْ مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ قَالَ فَلَا أَدْرِي فِي الثَّلَاثَةِ أَوْ فِي الرَّابِعَةِ قَالَ فَأَقُولُ يَا رَبِّ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مِنْ حَبْسِهِ الْقُرْءَانَ أَيْ وَجِبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ»^(١).

وفي حديث آخر: «إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ»..

وفيه عن نوح عليه السلام: «فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرِّسَالِ»..

وفيه عن نبي الله إبراهيم عليه السلام: «وَذَكَرَ كَذْبَاتِهِ»..

وفيه عن نبي الله موسى عليه السلام: «فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلَكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ»^(٢).

أولاً: نسبة اليد إلى الله وردت في القرءان ولا يُحتمل تفسيرها بمعنى الجارحة، بل لها معان تليق بجلاله.

ثانياً: الله ليس روحاً وحياته ليست كحياتنا فليس حياً بروح وجسد ودم.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلةً فيها، (ج ١، ص ١٢٣)، حديث ٤٩٥.

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلةً فيها، (ص ١، ص ١٢٧)، حديث ٥٠١.

ثالثًا: السجود لغير الله على نية العبادة كفر.

رابعًا: الأنبياء أفضل الخلق على الإطلاق ولكل منهم شفاعته أما محمد ﷺ فله شفاعته خاصة.

خامسًا: النبي قد يقع في ذنب ولكن هذا الذنب لا يكون كفرًا ولا كبيرة ولا صغيرة فيها حسة.

سادسًا: أول رسول بالإجماع هو آدم عليه السلام.

سابعًا: كلام الله ليس ككلامنا، ليس بلغة ولا حرف ولا صوت وليس له بداية ونهاية.

ثامنًا: روح عيسى روح مشرف كريم على الله وليس جزءًا من الله.

تاسعًا: رؤية المؤمنين لله في الآخرة حق وصدق، يرونه ليس كمثله شيء.

عاشرًا: الله لا يغضب كما نغضب فنحن غضبنا انفعال.

حادي عشر: النبي من الأنبياء يستحيل في حقه الكذب.

ثاني عشر: أفضل الخلق على الإطلاق هو سيدنا محمد ﷺ.

الدلائل على ما تقدم:

الدليل على أن الله ليس له في خلقه مثل أو نظير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(١)، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢)، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣)، وقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾^(٤)، وقول الرسول ﷺ:

(١) سورة الشورى، آية ١١.

(٢) سورة النحل، آية ٦٠.

(٣) سورة النحل، آية ٧٤.

(٤) سورة مريم، آية ٦٥.

«لا فكرة في الرب» رواه أبو القاسم الأنصاري^(١).

الآيات المذكورة في الدليل السابق تدل أيضًا أن الله ليس روحًا وأن حياته ليست كحياتنا.

الدليل على أن السجود لغير الله على نية العبادة كفر قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٢).

الدليل على أن الأنبياء أفضل الخلق وأن لكل منهم شفاعته وأن نبينا ﷺ له شفاعاة خاصة قوله تعالى في حق الأنبياء: ﴿وَكَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾^(٤)، وقوله ﷺ: «خَيْرَت بَيْن الشفاعاة وبين أن يدخل نصف أمّتي الجنة فاخترت الشفاعاة لأنها أعم وأكفى، أترونها للمتقين، لا، ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين»، رواه ابن ماجه.

الدليل على عصمة الأنبياء من الكفر والكبائر وصغائر الخسة قوله تعالى في حقهم: ﴿وَكَلَّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾^(٥)، أي هم أفضل الخلق على الإطلاق ومن كان كذلك فهو محفوظ من الكفر، كيف لا ومن دونهم من الأولياء لهم تلك العصمة، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٦)، ثم إن النبي بطبيعته البشرية معرض لارتكاب

(١) أبو القاسم الأنصاري، شرح الإرشاد، (ص ٥٨، ٥٩).

(٢) سورة فصلت، آية ٣٧.

(٣) سورة الأنعام، آية ٨٦.

(٤) سورة الأنبياء، آية ٢٨.

(٥) سورة الأنعام، آية ٨٦.

(٦) سورة يونس، آية ٦٢.

بعض الزلات من الصغائر التي لا دناءة فيها، لكن لو أن الواحد منهم لم يكن معصومًا من الكفر وزل إلى الشرك وعبد الوثن ثم جاء قومه ينكر عليهم عبادتهم الأوثان لقالوا: كنت تفعل ذلك في الأمس القريب، فكيف نقبل منك اليوم إنكارك علينا! وكذلك لو أنه لم يكن معصومًا من الكبائر فارتكب الزنا والفواحش وشرب الخمر وقتل بغير حق ثم جاء قومه ينهاهم عمّا عرفوا فيه وعهدوه متلبسًا بعمله، فهل يكون ذلك أدعى للناس على اتباعه؟! فاقتضت حكمة الله تعالى وأنبأ الشرع وشهد العقل بعصمتهم من الكفر والكبائر وخسيس الأفعال لأن ذلك كله يتناقض مع منصب النبوة، وقد قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصِّرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾^(١)، قال أهل العلم: النص في يوسف والحكم والمعنى يشمل كل الأنبياء لأن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

الدليل على أن أول رسول هو آدم عليه السلام الحديث: عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله، أنبيأ كان آدم؟ قال: «نعم، مُعَلِّمٌ مُكَلِّمٌ»، قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: «عشر قرون»، قال: كم بين نوح وإبراهيم؟ قال: «عشر قرون»، قالوا: يا رسول الله، كم كانت الرّسل؟ قال: «ثلاث مائة وخمسة عشرة جمًّا غفيرًا»، رواه الحاكم في المستدرک^(٢) على الصحيحين وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ» ووافقه الذهبي. وقد نقل ابن حزم الإجماع على نبوة آدم كما سيأتي.

الدليل على أن كلام الله ليس ككلامنا هو ما قاله إمام أهل السنة أبو منصور

(١) سورة يوسف، آية ٢٤.

(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرک على الصحيحين، (ج ٢، ص ٢٨٨).

الماتريدي في كتابه «تأويلات أهل السنة» مفسراً الآية ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٨٢) ﴿١﴾ ما نصّه: «من غير أن كان منه كاف أو نون أو شيء من ذلك إنما هو إخبار عن سرعة نفاذ أمره ومشيئته».

الدليل على أن عيسى ليس جزءاً من الله قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢) ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ (٣) ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (٤) ﴿٢﴾.

الدليل على رؤية المؤمنين لله في الآخرة قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّازِرَةٌ﴾ (٢٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (٢٣) ﴿٣﴾.

الدليل على أن الله يغضب لا كما يغضب قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) ﴿٤﴾.

الدليل على لزوم صدق الأنبياء قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ (٥٢) ﴿٥﴾، ثم إن مما تقتضيه النبوة السلامة من الكذب، فيستحيل شرعاً أن يكذب النبي لأن في ذلك هدماً لأصل النبوة وهو الصدق بالتبليغ ولو أن النبي صدر منه الكذب ثم دعا إلى الله لكان ذلك مستمسكاً بيد معارضيه إذ سيقولون: عهدنا فيك الكذب فكيف نصدق دعواك. وإن من حكمة الله صونه إياهم عن الكذب ليكون ذلك مدعاة للخلق إلى تصديقهم، وكيف لا يكون ذلك وهم سفراء الإسلام ودعاته.

(١) سورة يس، آية ٨٢.

(٢) سورة الإخلاص، آية ١.

(٣) سورة القيامة، آية ٢٢، ٢٣.

(٤) سورة الشورى، آية ١١.

(٥) سورة يس، آية ٥٢.

الدليل على أن أفضل الخلق على الإطلاق هو سيدنا محمد قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر»^(١)، رواه أحمد.

معنى ما ورد:

معنى قول الناس لآدم: «خلقك الله بيده» أي بعنايته.

وأما قول الناس لآدم: «ونفخ فيك من روحه». فإضافة الروح إلى الله إضافة تشريف كما يقال بيت الله، للتنويه بذكره والرفع من حاله.

وأما سجود الملائكة لآدم فهو بنية التحية لا العبادة وقد كان سجود التحية جائزاً إلا أنه محرم في شرعنا.

وأما قول آدم عليه السلام للناس إذ طلبوا منه الشفاعة: «لست هناكم». أي لست صاحب تلك الشفاعة المخصوصة وهو يعلم أن له منزلة عالية عند الله وأنه من الشفعاء.

وأما قول نبينا ﷺ عن آدم وغيره من الأنبياء: «فيتذكر خطيئته التي أصاب فيستحيي ربه منها». أي أن النبي من إجلاله لله وخشيته وشدة تعظيمه يستحي منه وليس معناه أنه مذنب يخشى العذاب على نفسه فالأنبياء محفوظون من العذاب.

وأما قول آدم عن نوح عليهما السلام: «أول رسول بعثه الله» أي أول الرسل إلى قومه المنتشرين في الأرض لأن الأنبياء الذين بعده كان الواحد منهم يُرسل إلى قومه.

(١) أحمد بن حنبل، مسند أحمد، (ج ٩، ص ٩).

وأما قول إبراهيم عن موسى عليهما السلام: «كلمه الله» أي أن موسى سمع كلام الله الذاتي بأن رفع الحجاب المعنوي عن سمعه فسمع الكلام الذي هو بلا حرف ولا لغة ولا صوت ولا مبتدأ ولا مختتم وهو كلام واحد غير متجزئ ولا متعدد، من غير أن يحل كلام الله في أذن موسى.

وأما قول موسى عن عيسى عليهما السلام: «روح الله وكلمته» فتلك إضافة تشريف لا يخرج معناها عن الملك والخلق والتدبير لاستحالة الإضافة إليه من طريق المجاورة له والتغيير له والجزئية.

وأما عن رؤية نبينا ﷺ لله فإنه يراه ليس كمثله شيء.

وأما قول نبينا ﷺ: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله»، أي ما يظهره الله تعالى من انتقامه فيمن عصاه وما يشاهده أهل الجمع من أهوال القيامة، ولا ريب أنه لم يتقدم قبل ذلك اليوم مثله ولا يكون بعده مثله. الغضب بالنسبة للخلق تغير يحصل عند غليان الدم في القلب، وهو انفعال نفساني. أما الغضب إذا وصف الله به فيكون بمعنى إرادة الانتقام. والرضا إرادة إنعامه على عباده، أي إرادة الرحمة والإكرام.

وقول نبينا ﷺ في حق إبراهيم عليه السلام: «وذكر كذباته» فمن العلماء مَنْ أوّل هذه الكلمة ومنهم من أنكراها. فالذين أولوها حملوها على ما حمل غيرها من النصوص، وذلك كقول إبراهيم في زوجته لما سأله النمرود: «إنها أختي» أي أختي في الدين وليس في النسب، ومراده من هذه التورية صيانتها من أذى الجبار فهو ليس كذباً في الباطن والحقيقة بل هو صدق.

وأما قول الناس لموسى عليه السلام: «أنت رسول الله فضلك الله برسالاته

وبتكليمه على الناس» فهذه العبارة لا تقتضي الأفضلية المطلقة بل أفضلية مخصوصة والمزية لا تقتضي الأفضلية.

قوله ﷺ: «وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ». قال الإمام أبو بكر بن فورك في كتابه مشكل الحديث وبيانه: «فصل آخر في تأويل ما روي من النفخ، وهو ما ذكر في قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾^(١)، وقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(٢)، وعن قتادة عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيهتمون لذلك فيقولون لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا فيأتون آدم فيقولون أنت الذي خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه»، وعن أبي سلمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لقي آدم موسى عليهما السلام فقال له موسى أنت الذي خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته ونفخ فيك من روحه ثم فعلت ما فعلت»، وذكر الحديث.

واعلم أنّ ما يُوصف به الله عز ذكره من نفخ الروح فالمراد به خلقه الروح فيمن يخلقه فيه، وأفعال الرب جل ذكره غير واقعة على طريق المباشرة والتولد، فأما وجه إضافة الروح إليه ومعناه وفائدته فهو تخصيص تشريف، لأن المذكور قد يخص بالذكر تشريفاً له وإن كان غيره في معناه، كما قيل بيت الله وعبد الله وناقة الله تخصيصاً بالذكر من جملة المسميات، وإبانة بالفضل، وأمارة له يبين بها عما سواه للتنويه بذكره والرفع من حاله، وعلى هذا الوجه، أضاف روح عيسى عليه السلام إليه فقال: «فنفخنا فيه من

(١) سورة الحجر، آية ٢٩.

(٢) سورة التحريم، آية ١٢.

روحنا»، وذلك أحد وجوه الإضافات مما معناه لا يخرج عن الملك والخلق والتدبير لاستحالة الإضافة إليه من طريق المجاورة له والتغيير به، لاستحالة أن يكون جسمًا أو جوهرًا فيتغير بما يحدث فيه أو يجاوره، فعلى ذلك أرتب هذه الأبواب إن شاء الله.

قال أحمد بن محمد القسطلاني الشافعي في كتابه «إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري»^(١) ما نصه: «غضبًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، والمراد من الغضب لازمه، وهو إرادة إيصال الشر إلى المغضوب عليه. وقال الحافظ النووي: المراد ما يظهره تعالى من انتقامه فيمن عصاه، وما يشاهده أهل الجمع من الأهوال التي لم تكن ولا يكون مثلها هذا عن أهوال القيامة وليس عن عذاب جهنم ولا ريب أنه لم يتقدم قبل ذلك اليوم مثله ولا يكون بعده مثله».

قال العلامة الحافظ عبد الله الهرري رضي الله عنه في كتابه «الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم» ما نصه^(٢): «والله تعالى يغضب ويرضى لا كأحد من الورى كما نطق به القراء بقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾^(٣) وفي حق الكفار: ﴿وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ﴾^(٤)، والأصل أن الله تعالى يوصف بما وصف به نفسه في كتابه العزيز وبما صح أن الرسول ﷺ وصفه به من غير أن يكون لأحد شركة مع الله تعالى لا في

(١) القسطلاني، إرشاد الساري، كتاب أحاديث الأنبياء، (ج٧، ص١١٣).

(٢) عبد الله الهرري، الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم، (ص١٧٦).

(٣) سورة المائدة، آية ١١٩.

(٤) سورة الفتح، آية ٦.

ذاته ولا في صفاته. ثم الغضب بالنسبة للخلق تغيّر يحصل عند غليان الدّم في القلب بإرادة إيصال الضّرر إلى المغضوب عليه. والغضب إذا وصف الله به يكون بمعنى الغاية أي إرادة الانتقام، وإرادة الانتقام أزلية، هذا المعروف عند الأشاعرة في عباراتهم، وإذا وصف المخلوق بالغضب يوصف باعتبار المبدأ وهو التغيّر أي الانفعال النفساني.

والرضا عبارة عن إرادة إنعامه على عباده، أو عن نفس إنعامه عليهم، وهذا هو معنى الرحمة أيضا، وليست رحمته رقة القلب. وأما ما ورد في حديث الشفاعة الذي رواه البخاري ومسلم من أن آدم وغيره يقولون يوم القيامة: «إن الله قد غضب غضبا لم يغضب مثله قبله ولا يغضب بعده مثله»، فهذا يُقصد به أثر الغضب ليس الغضب الذي هو صفة ذاتية لله.

وقد كان السلف إذا أرادوا اختصار العبارة يقولون: الله يغضب ويرضى بلا كيف، فمالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري والأوزاعي كانوا يذكرون الصفات التي وردت في حق الله تعالى مما يتوهم بعض الناس أنها كصفات المخلوقين لقصر أفهامهم، كانوا رضي الله عنهم يقولون: (بلا كيف). أما الخلف وبعض السلف أولوا فيقولون: رضا الله إرادته الرحمة، وغضبه إرادته الانتقام، أرجعوا الصفتين إلى الإرادة وكلا القولين صحيح.

قوله ﷺ: «فَيَذُكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ فَيَسْتَحْيِي رَبَّهُ مِنْهَا»، وفي حديث آخر: «فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ فَيَقُولُ وَهَلْ أَخْرَجَكُم مِّنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ^(١)».

(١) مسلم، صحيح مسلم، باب أدنى أهل الجنة منزلةً فيها، (ص ٩٧، ٩٨).

أي أنه من إجلاله لربه وخشيته له وشدة تعظيمه يستحي منه، وليس معناه أنه يخشى العذاب على نفسه، فالأنبياء محفوظون من العذاب، وما ورد من ذكر بعض الذنوب في شأن بعض الأنبياء فهو من قبيل الصغيرة التي لا خسة ولا دناءة فيها، وقد مرَّ تفصيل عصمة الأنبياء بأدلتها.

قوله ﷺ: «اتَّخَذَهُ اللهُ خَلِيلًا».

في هذا رد على النصارى حيث قاسوا تسميتهم عيسى بالولدية على اتخاذ إبراهيم خليلًا. فجواب أهل الحق عن ذلك، أن اتخاذ الولد يوجب المجانسة إذ الولد قط لا يكون إلا من جنس الوالد، والله يتعالى عن ذلك، وأما اتخاذ الخليل فلا يوجب المجانسة بل يوجب القرب والكرامة، حتى إن الخلّة تكون بين المختلفين في الجنس، كما كان يقال: جبريل خليل الرسول على ما ذكر في حديث المعراج أن الرسول قال لجبريل حين تركه عند سدرة المنتهى: «في مثل هذا الموضع يفارق الخليلُ خليله»، وقد ذكِرَ عن بعض العرب أنه يقال: سيفي خليلي. وليست الخلّة كالولادة لأن الولادة توجب البعضية والجزئية فيكون الولد جزءًا من الوالد، وهذا محال في حق القديم، واتخاذ الخليل لا يوجب شيئًا من ذلك، وكذلك يقال محمدٌ خليل الله.

قال الحافظ النووي^(١): «قوله «اتتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلًا»، قال القاضي عياض: أصل الخلّة الاختصاص والاستصفاء، وقيل أصلها الانقطاع إلى من خاللت، مأخوذ من الخلّة وهي الحاجة، فسمي إبراهيم ﷺ بذلك لأنه قصّر حاجته على ربه سبحانه وتعالى، وقيل الخلّة صفاء المودة التي توجب

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، (ج ٣، ص ٥٥، ٥٦).

تخلل الأسرار، وقيل معناها المحبة والأطاف، هذا كلام القاضي، وقال ابن الأنباري: الخليل معناه المحب الكامل المحبة والمحبوب الموفي بحقيقة المحبة اللذان ليس في حبهما نقص ولا خلل. قال الواحدي: هذا القول هو الاختيار لأن الله عز وجل خليل إبراهيم وإبراهيم خليل الله، ولا يجوز أن يقال ان الله تعالى خليل إبراهيم من الخلة التي هي الحاجة، والله أعلم.

وفي رواية أخرى: «وَذَكَرَ كَذَبَاتِهِ». هذه الكلمة أنكرها الرازي وأولها بعضهم وسيأتي بيان هذا الموضوع مفصلاً في هذا الكتاب.

قوله ﷺ: «رُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ».

قال العلامة الهري في كتابه «الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم»^(١): «وقوله ﷺ «روح منه» معناه أن روح المسيح روح صادرة من الله تعالى خلقاً وتكويناً، أي روحه روح مشرف كريم على الله، وإلا فجميع الأرواح صادرة من الله تعالى تكويناً، لا فرق في ذلك بين روح وروح، وكلمة «روح منه» ليس معناها أن المسيح عيسى جزء من الله، إنما معناها روح وُجدت بإيجاد الله أي الله أوجدها من العدم، ليس معناها أنه جزء من الله كما ادعى بعض ملوك النصارى».

قوله ﷺ: «قَدْ غَفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ».

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾^(٢).

(١) عبد الله الهري، الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم، (ص ١٦).

(٢) سورة محمد، آية ١٩.

هذه الآية فيها إثبات فعل المعصية في حق الرسول ﷺ وفي حق أمته،
فنحن نقول اقتداءً بالجمهور ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ﴾^(١) هي معصية حقيقية
صغيرة ليس فيها خسة ولا دناءة، فأمر الرسول بالاستغفار منها فاستغفر.

قال الإمام أبو منصور الماتريدي في كتابه «تأويلات أهل السنة» ما
نصه^(٢): «وجائز أن يكون له ذنب فيأمره بالاستغفار له، لكن نحن لا نعلم،
وليس علينا أن نتكلف حفظ ذنوب الأنبياء عليهم السلام وذكرها».

ولكن الأنبياء إن حصل منهم شيء من المعاصي الصغيرة التي ليس
فيها خسة ولا دناءة يُنبهون فوراً للتوبة، فيتوبون قبل أن يقتدي بهم في تلك
الصغيرة غيرهم فيفعل مثلما فعلوا لأنهم قدوة للناس.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ﴾ لسيدنا محمد ﷺ فقد فسره
بعض العلماء بأن معناه: ليحفظك الله من ذنبك في ما مضى وما بقي من
عمرك. وفسره بعضهم بغير هذا.

بعض الأشاعرة قالوا لا يجوز من الأنبياء معصية ولا مكروه، لأن الناس
مأمورون بالاقتداء بهم، فلو كان يحصل منهم ذنب أو مكروه لكان في ذلك
أمر للناس بالاقتداء بهم في المعصية والمكروه وهذا باطل، فوجب تنزيههم
عن المعصية والمكروه بالمرة. ويدفع هذا على قول الجمهور بأنهم ينبهون
قبل أن يقتدي بهم أحد فيتوبون، فلا يحصل اقتداء الناس بهم في ذلك، فلا
يلزم من ذلك أن يكون الأتباع مأمورين بالاقتداء بهم في المعصية والمكروه،
وبذلك اندفع المحذور.

(١) سورة محمد، آية ١٩.

(٢) أبو منصور الماتريدي، تأويلات أهل السنة، (م، ٩، ص ٢٧٤).

فالأنبيا عليهم الصلاة والسلام تجوز عليهم المعاصي الصغيرة التي ليس فيها خسة ولا ذناءة، ويستحيل عليهم الكفر والكبائر وصغائر الخسة قبل النبوة وبعدها، وهذا القول الموافق للأصول والقواعد، وقد مرَّ بيان ذلك موسعاً قبل الآن.

قوله ﷺ: «فَإِذَا أَنَا رَأَيْتُهُ».

ليس معناه أن الله تعالى يكون أمامه بالجهة والمكان أو أنه ذو هيئة وصورة، بل الله منزّه عن ذلك والمعنى مفهوم واضح لا لبس فيه لذوي البصائر وهو (فإذا كشف الحجاب عن بصري) لأن الحجاب يعود للمخلوق لا أن الله وراء حجاب يحجبه، ولا يقاس الخالق بالمخلوق، سبحانه ليس كمثله شيء، كما قال أبو سليمان الخطابي فيما يرويه عنه تلميذه البيهقي في الأسماء والصفات: «إن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن يعلمه أن ربنا ليس بذئ صورة ولا هيئة إذ أن الصورة تقتضي الكيفية، والكيفية عن الله وعن صفاته منفية». وإنما يرى سبحانه وتعالى بلا جهة ولا مقابلة ولا حيز ولا مكان، لأن الله سبحانه كان قبل خلق المكان بلا مكان، وما زال موجوداً بعد خلق المكان بلا مكان، ونحن نسجد ونركع لله مع اعتقادنا أنه موجود بلا مكان.

قوله ﷺ: «فَيَقُولُونَ يَا نُوحُ أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ».

قال الحافظ الهرري في «الشرح القويم»^(١) ما نصه: «فأدم من جملة الأنبياء الذين من أنكر نبوتهم يكفر، فكما أن من أنكر نبوة إبراهيم وموسى وعيسى

(١) عبد الله الهرري، الشرح القويم في حل ألفاظ الصراط المستقيم، (ص ٣١).

ومحمد يكفر، كذلك يكفر من أنكر نبوة آدم، كما نقل ابن حزم الإجماع على نبوة آدم، بل هو نبي رسول كما ورد ذلك في حديث أبي ذر الذي أخرجه ابن حبان وصححه وأقره الحافظ ابن حجر، ولا معنى لإنكار بعض الوهابية رسالة آدم، ولعل بعضهم ينكر نبوته ولا حجة لهم في حديث الشفاعة الذي فيه أن الناس يأتون آدم ليشفع لهم ثم نوحا، فيقولون لنوح: «أنت أول الرسل اشفع لنا إلى ربك» رواه البخاري وغيره، لأن معناه أنت أول الرسل إلى قومه المنتشرين في الأرض لأن الأنبياء الذين بعده كان النبي منهم يُرسل إلى قومه كما حكى الله عن عيسى أنه قال: ﴿يَبْنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾^(١)، فقد خالفت الوهابية في قولها هذا قول الله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾^(٢)، قال ابن عباس: «أي كلهم على الإسلام» كما نقله الطبري وغيره، فماذا تقول الوهابية عن آدم وأولاده؟ أتقول أنهم كانوا يعيشون عيشة البهائم لا يعرفون ما يأتون وما يذرون؟! وكفاهم هذا خزيا.

وقوله ﷺ: «فَيَقُولُونَ يَا مُوسَى أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ فَضَلَّكَ اللَّهُ بِرِسَالَاتِهِ وَبِتَكْلِيمِهِ عَلَى النَّاسِ».

أي أن موسى عليه السلام سمع كلام الله الذاتي، بأن رفع الله الحجاب المعنوي عن سمعه فسمع الكلام الذي هو صفة أزلية أبدية لله بلا حرف ولا صوت ولا لغة لا مبتدأ ولا مختتمًا لا يشبه كلام الخلق بالمرّة، وهو كلام واحد ليس متعددًا ولا متجزئًا ولا متبعضًا، من غير أن يحل كلام الله الذاتي في أذن موسى. ومن شبه كلام الله بكلام خلقه فقد كفر لأنه جعل الله مخلوقا

(١) سورة الصف، آية ٦.

(٢) سورة البقرة، آية ٢١٣.

وكذب قول الله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (١).

وفي رواية للبخاري: «فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيتُ ربي وَقَعْتُ لَهُ سَاجِدًا»: قال ابن حجر في «فتح الباري» (٢) ما نصه: «قال الخطابي: هذا يوهم المكان والله منزه عن ذلك، وإنما معناه في داره التي اتخذها لأوليائه، وهي الجنة، وهي دار السلام، وأضيفت إليه إضافة تشریف مثل بيت الله وحرَم الله».

قال الشاعر:

«هَآكَ حَدِيثًا جَاءَ عَن خَيْرِ الْبَشَرِ	المتشابهاتُ فيه اثنا عشرُ
يَذْكُرُ مَا يَحْدُثُ فِي الْقِيَامَةِ	تَلَازَمَ التَّأْوِيلُ وَالسَّلَامَةُ
فَأَوْلًا عَن آدَمَ أَبِينَا	وَأِنَّهُ مِنَ الْمَشْفَعِينَ
يَأْتِي إِلَيْهِ النَّاسُ سَائِلِينَ	قَالُوا لَهُ هَلَا شَفَعْتَ فِينَا
إِنْ وَصَفُوهُ بِإِدِ اللَّهِ خُلِقَ	بِأَنَّهَا إِضَافَةٌ التَّشْرِيفِ ثِقُ
جَاءَتْ بِهَذَا الْوَصْفِ غَيْرُ آيَةٍ	مَعْنَى يَدِ اللَّهِ هُنَا الْعِنَايَةُ
وِثَانِيًا قَالُوا وَسُوءُ الْفَهْمِ فَخُ	إِلْهِنَا مِنْ رُوحِهِ فِيكَ نَفْخُ
إِضَافَةٌ الرُّوحِ إِلَى السُّبُوحِ	فِيهَا إِشَارَةٌ إِلَى الْمَمْدُوحِ
فَذَاكَ تَشْرِيفٌ مِنَ الْإِلَهِ	كَمَا يُقَالُ ذَاكَ بَيْتُ اللَّهِ
فَنَسَبَةٌ إِلَى الْجَبَّارِ	تَكُونُ لِلتَّعْظِيمِ وَالْإِكْبَارِ

(١) سورة النحل، آية ٧٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٣﴾، (ج ١٣، ص ٤٣٩).

وكلُّ هذا لم يكن معناه
وثالثاً قد سجّد الملائك
قد كان للتَّحِيَةِ السُّجُودُ
جَازَ سُجُودَ مَنْ نَوَى التَّحِيَةَ
ورابعاً يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ
يَأْتُونَ آدَمًا وَيَطْلُبُونَا
يَعْلَمُ أَنَّ قَدْرَهُ رَفِيعٌ
كَأَنَّهُ يَقُولُ قَدْ جِئْتُمْ إِلَيَّ
فَإِنَّمَا الشَّفَاعَةُ الْمَذْكُورَةُ
وَحَامِسًا يَسْتَشْفِعُونَ آدَمًا
فِيَسْتَحِي أَنْ يَسْأَلَ التَّوَابَا
قَدْ اسْتَحَى مِنْ شِدَّةِ التَّعْظِيمِ
إِنَّ النَّبِيَّ إِنْ يَكُنْ مُخَالَفًا
فَالْأَنْبِيَاءُ لَا يُعَذِّبُونَا
قَدْ عَصِمَ النَّبِيُّ عَنْ كَبِيرِهِ
فَنَزَّهُوا النَّبِيَّ عَنِ ضَلَالِ
يَتَوَبُّ فَوْرًا فِي الْحَرَامِ لَوْ وَقَعَ
وُقُوعُهُ فِي الْكُفْرِ مُسْتَحِيلٌ
وَسَادِسًا يُقَالُ هَذَا نُوحٌ

إِضَافَةَ الْجُزْءِ تَعَالَى اللَّهُ
لِأَدَمَ فَمَا مُفَادُ ذَلِكَ
وَلَمْ يَكُنْ لِأَنَّهُ مَعْبُودٌ
فِي غَيْرِ شَرَعِ سَيِّدِ الْبَرِيَّةِ
النَّاسُ يَسْعَوْنَ إِلَى الشَّفَاعَةِ
«لَسْتُ هُنَاكَ» قَالَهَا أَبُوْنَا
وَأَنَّهُ لِبَعْضِهِمْ شَفِيعٌ
لِيَطْلُبُوا شَفَاعَةَ لَيْسَتْ لَدَيَّ
بِالْمَصْطَفَى نَبِينَا مَحْضُورَةٌ
عَلَى خَطِيئَةٍ يَكُونُ نَادِمًا
شَفَاعَةَ مَعَهُ أَنَّهُ قَدْ تَابَا
وَخَشِيَةَ رَبِّهِ الرَّحِيمِ
مِنَ الْعَذَابِ لَا يَكُونُ خَائِفًا
هُمُ عِنْدَ رَبِّنَا مُكْرَمُونَ
وَلَيْسَ مَعْصُومًا عَنِ الصَّغِيرَةِ
وَكُلُّ مَا خَسَّ مِنَ الْأَفْعَالِ
إِذْ لَمْ يُرِدْ فِي زَلَّةٍ أَنْ يُتَّبَعَ
كُلُّ عَلَى الْخَلْقِ لَهُمْ تَفْضِيلٌ
أَوَّلُ مَنْ أَرْسَلَهُ السَّبُوحُ

لَيْسَ الْمَرَادُ أَنَّ أَوَّلَ الْبَشَرِ
 فَقَوْمُ نُوحٍ فِي انْتِشَارِ كَانُوا
 قَدْ كَانَ مَبْعُوثًا مِنَ الْقَهَارِ
 بِمِثْلِ ذَا الْمَعْنَى يَكُونُ الْأَوَّلُ
 وَسَابِعًا يَقُولُ إِبْرَاهِيمُ
 كَلَّمَهُ إِلَهُنَا تَكْلِيمًا
 كَلَامُهُ جَلَّ عَنِ الْأَصْوَاتِ
 وَاللَّهُ لَيْسَ يُشْبَهُ الْمَخْلُوقَا
 ثُمَّ كَلَامُ رَبِّنَا الرَّحْمَنِ
 إِنَّ الْحِجَابَ الْمَعْنَوِيَّ قَدْ رُفِعَ
 وَثَامِنًا قَدْ جَاءَ فِي الْمَسِيحِ
 وَأَيُّ تَشْرِيفٍ تُرَى يُضَاهِي
 فِي هَذِهِ الْإِضَافَةِ الْمَدِيحُ
 وَاللَّهُ لَا يُصِيبُهُ تَغْيِيرُ
 فَإِنَّ نَكُنْ لَهُ مُشَابِهِينَا
 كَالْعَجْزِ وَالْأَمْرَاضِ وَالْوَفَاةِ
 وَتَاسِعًا جَاءَ عَنِ الْمَخْتَارِ
 فَإِنَّهُ يَرَى الْإِلَهَ بِالْبَصَرِ
 لَا يُشْبَهُ الْمَلَائِكَةَ الْكِرَامَا

لَيْسَ بِمُرْسَلٍ فَذَلِكَ اشْتَهَرَ
 أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمُ الرَّحْمَنُ
 وَأَوَّلَ الرَّسْلِ إِلَى الْكُفَّارِ
 وَوَصَفُهُ بِأَوَّلِ مُؤَوَّلٍ
 فِي وَصْفِ مُوسَى أَنَّهُ الْكَلِيمُ
 أَسْمَعَهُ كَلَامَهُ الْقَدِيمَا
 وَاللَّفْظِ وَالْحُرُوفِ وَاللِّغَاتِ
 وَلَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ مَنْطُوقَا
 يَحَالُ أَنْ يَحُلَّ فِي الْأَذَانِ
 عَنْ سَمْعِ مُوسَى فَالْكَلامَ قَدْ سَمِعَ
 مَا احتاجَ للتَّأْوِيلِ وَالتَّوَضِيحِ
 كَلِمَةَ اللَّهِ وَرُوحَ اللَّهِ
 بِقَوْلِهَا يُكْرَمُ الْمَسِيحُ
 هَذَا وَإِلَّا مِثْلَنَا يَصِيرُ
 لَجَازَ فِيهِ مَا يَجُوزُ فِينَا
 وَانْسَبُ إِلَى الْمَخْلُوقِ ذِي الصِّفَاتِ
 يُخْبِرُنَا عَنْ رُؤْيَا الْجَبَّارِ
 لَا يُشْبَهُ الْجِنَّ وَلَيْسَ كَالْبَشَرِ
 وَجَلَّ عَنْ أَنْ يُشْبَهَ الْأَجْسَامَا

تَنزَهُ الرَّحْمَنُ عَنِ أَشْكَالِ
تَفَكَّرُوا فِي كُلِّ مَخْلُوقَاتِهِ
قَوْلًا إِلَى الْإِلَهِ يَنْسُبُ الْغَضَبُ
تَحَرَّكَ ذَاكَ وَلَا سُكُونًا
مِنْ كَافِرٍ أَوْ فَاعِلِ الْحَرَامِ
مِنْهُ عَلَى عِبَادِهِ الْكَرَامِ
يَوْمَ غَدٍ فِي مَنْ لَقَدْ عَصَاهُ
مَنْ شَبَّهُوا اللَّهَ بِنَا قَدْ تَاهُوا
لَا يَكْذِبُ الرَّسُلُ فَهُمْ خَيْرُ الْبَشَرِ
عَنْ كَذِبٍ لِأَنَّهُ مَذْمُومٌ
إِلَى نَبِيٍّ فِي الْحَدِيثِ قَدْ نُسِبَ
أَوْ عُدَّ مَذْسُوسًا مِنَ الدَّخِيلِ
عَنْ زَوْجِهِ مَا كَانَ مُسْتَقِيمًا
وَأَيَّ شَيْءٍ يَسْأَلُ النَّمْرُودُ
بِقَوْلِ «أَخْتِي» صَانَهَا مِنَ الْأَذَى
وَلَيْسَ هَذَا ظَاهِرَ الْكَلَامِ
أَوْهَمَهُ بِأَنَّهَا شَقِيقَتُهُ
وَلَيْسَ هَذَا كَذِبًا فِي الْبَاطِنِ
جَاءُوا كَلِيمَ اللَّهِ قَائِلِينَ

وَلَا يَكُونُ فِي مَكَانٍ عَالٍ
حَذَارٍ أَنْ تُفَكَّرُوا فِي ذَاتِهِ
وَعَاشِرًا يَقُولُ سَيِّدُ الْعَرَبِ
إِنْ غَضِبَ اللَّهُ فَلَنْ يَكُونَ
بَلْ ذَلِكَ إِرَادَةٌ أَنْتِقَامِ
أَمَّا الرَّضَا إِرَادَةٌ الْإِنْعَامِ
سَيُظْهِرُ أَنْتِقَامَهُ الْإِلَهِ
فَالْغَضَبُ الْمَذْكُورُ ذَا مَعْنَاهُ
نَقُولُ فِي مَحْذُورِنَا الْحَادِي عَشَرَ
وَالْأَنْبِيَاءُ كُلُّهُمْ مَعْصُومٌ
يَقُولُ أَهْلُ الْعِلْمِ لَوْ أَنَّ الْكَذِبَ
إِمَّا قَبْلِنَاهُ مَعَ التَّأْوِيلِ
إِذْ سَأَلَ النَّمْرُودُ إِبْرَاهِيمَا
يَعْرِفُ إِبْرَاهِيمُ مَا الْمَقْصُودُ
أَرَادَ أَنْ يُؤْذِيَ زَوْجَهُ لِذَا
مُرَادُهُ أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ
قَالَ خَلِيلُ رَبِّنَا الْحَقِيقَةُ
تَوْرِيَةً تُقْبَلُ فِي مَوَاطِنَ
آخِرُ مَحْذُورٍ عَنِ الدِّينَا

فَضَّلَكَ اللهُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ
لَا تَقْتَضِي الْمَزِيَّةُ التَّفْضِيلًا
أَيُّ بِالرَّسَالَاتِ وَبِالْكَلامِ
فَلْيُظْهِرِ الْمَعْتَرِضُ الدَّلِيلًا
مُوسَى لَهُ مَزِيَّةُ الْكَلَامِ
لَيْسَ بِهَا خَيْرًا مِنَ التَّهَامِي.



المبحث السابع والأربعون

تأويل حديث

«قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن»

قال القرطبي في «المفهم» ما نصه: «إن قيل قد صح حديث «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن»^(١) فالجواب أنه إذا جاءنا مثل هذا في الكلام الصادق تأولناه أو توقفنا فيه إلى أن يتبين وجهه مع القطع باستحالة ظاهره لضرورة صدق من دلت المعجزة على صدقه، وأما إذا جاء على لسان من يجوز عليه الكذب بل على لسان من أخبر الصادق عن نوعه بالكذب والتحريف كذبناه وقبحناه، ثم لو سلمنا أن النبي ﷺ صرح بتصديقه لم يكن ذلك تصديقا له في المعنى بل في اللفظ الذي نقله كتابه عن نبيه، ونقطع بأن ظاهره غير مراد انتهى».

وقال في موضع آخر ما نصه: «ظاهر الأصبع محال على الله تعالى قطعاً.. وقد تأول بعض أئمتنا هذا الحديث فقال: هذا استعارة جارية مجرى قولهم: فلان في كفي وفي قبضتي، يراد به أنه متمكن من التصرف فيه والتصريف له كيف يشاء»^(٢).

قال القاضي الفقيه ابن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل في قطع حجج

(١) رواه مسلم بلفظ: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء». مسلم، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، (ج ٨، ص ٥١)، حديث ٦٩٢١.

(٢) القرطبي، المفهم، (ج ٦، ص ٦٧٢).

أهل التعطيل» ما نصه^(١): «لما كان حمل هذا الحديث على العضو المعروف منا محالاً على الله تعالى لما يلزم عليه من الجسمية وجب تأويله أما أولاً فلا أنه كلام يهودي فلا يحتج به وقد علم أن اليهود مشبهة ومجسمة، وأما ضحك النبي فلعله كان استخفافاً باليهودي وإنكاراً لما قاله بدليل تلاوة الآية فإنه ظاهر في رد ما قاله والإنكار عليه فإن سامع الكلام الباطل يضحك منه استخفافاً.

فإن قيل قد ورد في بعض طرقه تعجباً وتصديقاً قلنا لم يرو الأكثر ذلك ولعله توهم من الراوي لا أن ذلك من ألفاظ الرسول عليه الصلاة والسلام ولا في اللفظ ما يشعر بذلك، وبتقدير صحته (فإن من الحفاظ من ضعفه وعليه فلا يحتج به ولا حاجة إلى تأويله) فمعناه إن هذه المخلوقات العظيمة بالنسبة إلى عظم قدرته كنسبة ما يأخذه الإنسان على رأس الإصبع من قدرته بل نسبة ما ذكر في الحديث إلى قدرة الله تعالى أقل من نسبة المأخوذ على الأصبع فهو لعظم قدرته تعالى لأن ما يأخذه الإنسان على إصبعه أقل ما يقدر عليه وذلك بالنسبة إلى قوته وقدرته، وأما الحديث الثاني «مراده حديث مسلم: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» فمعناه أن القلوب في قهره وقدرته كقدرة أحدكم وقهره لما يقلبه بين أصبعيه وذلك لأن فعل العبد وتركه إنما يقع لحصول داع يخلقه الله تعالى في قلب العبد إلى ذلك فهو تمثيل لتصرف الرب تعالى في قلوب العباد يخلق ذلك الداعي».

(١) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١٧٩، ١٨٠).

قال البيهقي في «الأسماء والصفات» ما نصه^(١): «فذهب أبو سليمان الخطابي رحمه الله إلى أن الأصل في هذا وما أشبهه في إثبات الصفات: أنه لا يجوز ذلك إلا أن يكون بكتاب ناطق أو خبر مقطوع بصحته، فإن لم يكونا فيما يثبت من أخبار الأحاديث المستندة إلى أصل في الكتاب أو في السنة المقطوع بصحتها أو بموافقة معانيها وما كان بخلاف ذلك فالتوقف عن إطلاق الاسم به هو الواجب ويتأول حينئذ على ما يليق بمعاني الأصول المتفق عليها من أقاويل أهل الدين والعلم مع نفي التشبيه فيه، هذا هو الأصل الذي نبني عليه الكلام ونعتمده في هذا الباب، وذكر الأصابع لم يوجد في شيء من الكتاب ولا من السنة التي شرطها في الثبوت ما وصفناه وليس معنى اليد في الصفات بمعنى الجارحة حتى يتوهم بثبوتها ثبوت الأصابع بل هو توقيف شرعي أطلقنا الاسم فيه على ما جاء به الكتاب من غير تكيف ولا تشبيه فخرج بذلك عن أن يكون له أصل في الكتاب أو السنة أو أن يكون على شيء من معانيها وقد روى هذا الحديث غير واحد من أصحاب عبد الله من غير طريق عبيدة فلم يذكر فيه قوله تصديقاً لقول الحبر».

فإن قيل قد صحّ حديث: «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن» رواه مسلم وأحمد والترمذي فالجواب أنه إذا جاءنا مثل هذا الكلام عن الصادق المصدوق عليه السلام تأولناه أو توقفنا فيه إلى أن يتبين معناه مع القطع باستحالة ظاهره لضرورة صدق من دلت المعجزة على صدقه.

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، البيهقي، (ج ٢، ص ٧٠).

ولذلك قال الحافظ البيهقي في «الأسماء والصفات» ما نصه^(١): «وأخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدّثنا أبو العباس هو الأصمّ، أخبرنا العباس بن الوليد البيروتي^(٢)، حدّثنا محمّد بن شعيب بن شابور^(٣)، حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر^(٤)،

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٧٤، ٧٥).

(٢) البيروتي، الإمام الحجة المقرئ الحافظ، أبو الفضل، العباس بن الوليد بن مزيد، العذري البيروتي. ولد سنة ١٩٩هـ. فكان ممن عمر أكثر من مائة عام بيقين. سمع أباه، وتفقه به، ومحمد بن شعيب بن شابور، وعقبة بن علقمة البيروتي، ومحمد بن يوسف الفريابي، وأبا مسهر الدمشقي، وعبد الحميد بن بكار، وطائفة. وكان مقرئاً حاذقاً بحرف ابن عامر، تلا على أبيه. حدث عنه: أبو داود، والنسائي في كتابيهما، وأبو زرعة، وابن أبي داود، وابن جوصا، ومكحول البيروتي، وعبد الرحمن بن أبي حاتم، وأبو علي الحصائري، وخيثمة بن سليمان، وأبو العباس الاصم، وخلق كثير. قال أبو حاتم: «صدوق». وقال النسائي: «ليس به بأس». وقال إسحاق بن سيار: «ما رأيت أحسن سمّاً منه». قال الحسين بن أبي الحسين بن أبي كامل: سمعت خيثمة يقول: أتيت أبا داود السجستاني، فأملى علي حديثاً عن العباس بن الوليد، فقلت: وإياي حدث العباس. فقال لي: رأيتك؟ قلت: نعم. قال: متى مات؟ قلت: سنة ٢٧١هـ، كذا قال خيثمة. وأما عمرو بن دحيم فقال: مات في ربيع الآخر وعين اليوم، وقال سنة ٢٧٠هـ. فتحرر لي أن مجموع عمره مائة سنة وثمانية أشهر واثان وعشرون يوماً. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ١٢، ص ٤٧١)، رقم الترجمة ١٧٢.

(٣) محمد بن شعيب بن شابور، الأموي مولا هم أبو عبد الله الدمشقي أحد الكبار. كان يسكن بيروت. روى عن الأوزاعي وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر وعبد الله بن العلاء بن زبر وسعيد بن بشير وخالد بن دهقان وسعيد بن عبد العزيز التنوخي وعبد الرحمن بن حسان الكناني وإبراهيم ابن سليمان الأقطس وسعيد بن عبد الرحمن بن رقيش وعثمان بن أبي العاتكة ومعاوية ابن سلام وعمرو بن الحارث المصري وعمرو بن محمد بن زيد العمري وعمرو بن عبد الله مولى غفرة ويزيد بن أبي مريم الشامي ويحيى بن أبي شابور بالمعجمة والموحدة. ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، (ج ١٩، ص ٢٧٥).

(٤) عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، الإمام، الحافظ، فقيه الشام مع الأوزاعي، أبو عتبة الأزدي، الدمشقي، الدراني. ولد في خلافة عبد الملك بن مروان، ورأى الكبار، ورأى بعض الصحابة فيما أرى. وحدث عن أبي سلام الأسود، وأبي الأشعث الصنعاني، ومكحول، وعبد الله بن عامر اليحصبي، وابن شهاب الزهري، وأبي كبشة السلولي، وعطية بن قيس، وخلق. حدث عنه: ولده عبد الله، والوليد بن مسلم، وابن المبارك، وعمرو بن عبد الواحد، ومحمد بن شابور، وأيوب بن سويد، وحسين الجعفي، وخلق سواهم. وثقه يحيى بن معين وأبو حاتم، وقد لحقه =

عن بسر بن عبيد الله^(١)، عن أبي إدريس الخولاني^(٢)، عن النّوّاس بن سمعان الكلابي^(٣)، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الميزان بيد الرّحمن يرفع أقواماً ويضع آخرين، وقلب ابن آدم بين إصبعين من أصابع الرّحمن إن شاء أقامه وإن شاء أزاغه» وكان رسول الله ﷺ يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»^(٤) فقد قرأت بخطّ أبي حاتم أحمد بن محمّد الخطيب رحمه الله في تأويل هذا الخبر، قيل: معناه تحت قدرته وملكه، وفائدة تخصيصها بالذّكر أنّ الله تعالى جعل القلوب محلاً للخواطر والإيرادات والعزوم والنّيّات، وهي مقدّمات الأفعال، ثمّ جعل سائر الجوارح تابعة لها في الحركات والسّكنات، ودلّ بذلك على أنّ أفعالنا مقدورة لله تعالى مخلوقة، لا يقع

=أبو مسهر ورآه، لكن ما سمع منه. وبلغنا أن المنصور استقدمه إلى بغداد فوفد عليه. قال أبو عبيد وخليفة بن خياط: «توفي سنة ١٥٣هـ». وقال أبو مسهر وجماعة: «مات سنة ١٥٤هـ». الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٧، ص ١٧٦)، رقم الترجمة، ٥٧.

(١) بسر بن عبيد الله الحضرمي، الفقيه، شامي جليل، ثقة. يروي عن واثلة بن الأسقع، ورويفع، وطائفة. وعنه: عبد الرّحمن بن يزيد بن جابر، وثور بن يزيد، وزيد بن واقد، وابن زبر. قال أبو مسهر: «هو أحفظ أصحاب أبي إدريس الخولاني». قلت: عاش إلى حدود سنة عشر مائة، وكان من علماء دمشق، توفي في خلافة هشام بن عبد الملك. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٤، ص ٥٩٢)، رقم الترجمة ٢٢٩.

(٢) أبو إدريس الخولاني، عائد لله بن عبد الله بن عمرو الخولاني العوزي الدمشقي، تابعي، فقيه. كان واعظ أهل دمشق، وقاصهم، في خلافة عبد الملك. وولاه عبد الملك القضاء في دمشق. قال فيه الذهبي: «عالم أهل الشام». ولد سنة ٨٨هـ، وتوفي سنة ٨٠هـ. الزركلي، الأعلام، (ج ٣، ص ٢٣٩).

(٣) النّوّاس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب العامري الكلابي، له ولأبيه صحبة، وحديثه عند مسلم في «صحيحه». ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (ج ٦، ص ٤٧٨).

(٤) الترمذي، سنن الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء من أن القلوب بين أصبعي الرّحمن، (ج ٤، ص ٢٣٨)، حديث ٢١٤٠.

شيءٌ دون إرادته» ثم قال بعد كلام: «يؤيده أن في بعض هذه الأخبار: إذا شاء أزاغه وإذا شاء أقامه ويوضحه قوله في سياق الخبر: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي» وإنما ثنى لفظ الإصبعين والقدرة واحدة لأنه جرى على المعهود من لفظ المثل وزاد عليه غيره في تأكيد التأويل الأول بقولهم: ما فلان إلا في يدي، وما فلان إلا في كفي، وما فلان إلا في خنصري، يريد بذلك إثبات قدرته عليه، لا أن خنصره يحوي فلاناً، وكيف يحويه وهي بعض من جسده؟ وقد يكون فلاناً أشد بطشاً وأعظم منه جسمًا».

وقال الحافظ النووي في «شرح صحيح مسلم»^(١): «قوله ﷺ «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء» هذا من أحاديث الصفات وفيها القولان السابقان قريباً أحدهما الإيمان بها من غير تعرض لتأويل ولا لمعرفة المعنى بل يؤمن بأنها حق وأن ظاهرها غير مراد قال الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢) والثاني يتأول بحسب ما يليق بها فعلى هذا المراد المجاز كما يقال فلان في قبضتي وفي كفي لا يراد به أنه حال في كفه بل المراد تحت قدرتي ويقال فلان بين إصبعي أقلبه كيف شئت أي أنه مني على قهره والتصرف فيه كيف شئت فمعنى الحديث أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراده».

(١) النووي، شرح النووي على مسلم، باب باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، (م، ٨، ج ١٦، ص ٢٠٤).

(٢) سورة الشورى، آية ١١.

وقال الفقيه الشافعي أبو حامد الغزالي^(١): «قوله ﷺ «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» فإنه عند الجاهل يخيل عضوين مركبين من اللحم والعظم والعصب مشتملين على الأنامل والأظفار، نابتين من الكف، وعند العالم يدل على المعنى المستعار له دون الموضوع له وهو ما كان الإصبع له».

وقال الإمام الحافظ الفقيه الحجة الأصولي المجتهد المجدد الشيخ عبد الله بن محمد الهرري رضي الله عنه وأرضاه في كتابه «بغية الطالب لمعرفة العلم الديني الواجب» ما نصه^(٢): «أن كل ما دخل في الوجود أي وجد بعد أن كان معدومًا من الأعيان أي الأجسام والجواهر مما يقوم بذاته والأعمال ما كان منها خيرًا وما كان منها شرًّا والنوايا والخواطر التي لا نملك منعها من أن ترد هو بخلق الله تعالى فيدخل في ذلك أعمال العباد الاختيارية وغير الاختيارية، وهذا موافقٌ ومنسجمٌ مع قول النبي ﷺ «إن قلوب بني آدم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء». وليس معنى الحديث وصف الله بالجارحة كما زعمت المشبهة إنما هو بمعنى التقريب أي أن الله يتصرف بقلوب عباده كما يشاء من غير أن يلحقه تعبٌ ومشقةٌ بل بمحض إرادته الأزلية وقدرته الأزلية يحدثها من العدم إلى الوجود، وقد كان من دعاء رسول الله ﷺ «اللهم مصرف القلوب صرّف قلوبنا على طاعتك» رواه مسلمٌ والبيهقيُّ والحاكم^(٣).

(١) الغزالي، الاقتصاد في الاعتقاد، (ص ١٢٤).

(٢) الهرري، بغية الطالب لمعرفة العلم الديني الواجب، (ج ١، ص ٤٨، ٤٩).

(٣) مسلم، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف شاء، (ج ٤، ص ٤٦).
الحاكم، المستدرک، کتاب التفسیر، تفسیر سورة آل عمران، (ج ٢، ص ٢٨٨). البيهقي، =

المبحث الثامن والأربعون

تأويل حديث

«فأوى إلى الله فأواه الله»

قال النووي^(١): «قوله ﷺ: «أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله»^(٢)، لفظة «أوى» بالقصر، و«آواه» بالمد هكذا الرواية، وهذه هي اللغة الفصيحة، وبها جاء القرءان أنه إذا كان لازماً كان مقصوراً وإن كان متعدياً كان ممدوداً قال الله تعالى: ﴿أَرَعَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴿٦٣﴾﴾^(٣)، وقال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ ﴿١٠﴾﴾^(٤)، وقال في المتعدي: ﴿وَعَاوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوعٍ ﴿٥٠﴾﴾^(٥)، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَأْوَى ﴿٦﴾﴾^(٦). قال القاضي: وحكى بعض أهل اللغة فيهما جميعاً لغتين: القصر والمد، فيقال: أويت إلى الرجل بالقصر والمد وأويته بالمد والقصر، والمشهور الفرق كما سبق. قال العلماء: معنى أوى إلى الله أي لجأ إليه. قال القاضي^(٧): وعندي أن معناه هنا دخل مجلس ذكر الله تعالى، أو دخل مجلس رسول الله ﷺ ومجمع أوليائه، وانضم إليه،

=الاعتقاد، (ص ٩٨).

(١) النووي، شرح النووي على مسلم، (ص ٣٣٣).

(٢) مسلم، صحيح مسلم، كتاب السلام، باب من أتى مجلساً فوجد فرجةً فجلس فيها وإلا وراءهم، (ج ٧، ص ٩)، حديث ٥٨١٠.

(٣) سورة الكهف، آية ٦٣.

(٤) سورة الكهف، آية ١٠.

(٥) سورة المؤمنون، آية ٥٠.

(٦) سورة الضحى، آية ٦.

(٧) القاضي عياض، إكمال المعلم، (ج ٧، ص ٣٢).

ومعنى آواه الله أي قبله وقربه، وقيل: معناه رحمه أو آواه إلى جنته أي كتبها له».

وكذا قال السيوطي في تفسير «فآواه الله» أي جازاه بأن ضمّه أي شمله إلى رحمته ورضوانه^(١).



(١) السيوطي، تنوير الحوالك شرح موطأ مالك، (ج ١، ص ٣٨٢).

المبحث التاسع والأربعون

تأويل حديث

«اللهم أنت الصاحب في السفر»^(١)

ورد في كتاب الأذكار للنووي عن النبي ﷺ إذا سافر يقول^(٢): «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل؛ اللهم إني أعوذ بك من وعناء السفر وكآبة المنقلب، ومن الحور بعد الكون، ومن دعوة المظلوم، ومن سوء المنظر في الأهل والمال». قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

قال أبو العلا المباركفوري في شرح قوله ﷺ «اللهم أنت الصاحب في السفر» أي الحافظ والمعين والصاحب في الأصل الملازم والمراد مصاحبة الله إياه بالعناية والحفظ والرعاية، فنبه بهذا القول على الاعتماد عليه والاكتماء به عن كل مصاحب سواه، «والخليفة في الأهل» الخليفة من يقوم مقام أحد في إصلاح أمره. قال التوربشتي: المعنى أنت الذي أرجوه وأعتمد عليه في سفري بأن يكون معيني وحافظي وفي غيبتني عن أهلي أن تلم شعثهم وتداوي سقمهم وتحفظ عليهم دينهم وأمانتهم^(٣).

وقال المفسر البغوي في هذا الحديث ما نصه: «قوله ﷺ: «أنت الصاحب في السفر» أي: الحافظ، يقال: صحبك الله، أي حفظك. وكذا قاله صاحب

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب الحج، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج أو غيره، (ج ٤، ص ١٠٤)، حديث ٣٣٣٩.

(٢) النووي، الأذكار، (ج ١، ص ٢٨٢).

(٣) المباركفوري، تحفة الأحوذى، (ج ٩، ص ٢٨٠).

«عون المعبود»^(١)، والتبريزي في «مرعاة المفتاح»^(٢)، وملا علي القاري في «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح»^(٣).

وليحذر من قول بعض الجهلة الغوغاء «الله صديقي» فإنه لم يرد في الكتاب والسنة ولا إجماع الأمة، فأسماء الله توقيفية، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾^(٤).



(١) محمد آبادي، عون المعبود، (ج٧، ص ١٨٥).

(٢) التبريزي، مرعاة المفتاح، (ج١٨، ص ٢١٨).

(٣) ملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (ج٨، ص ٣٠٤).

(٤) سورة الأعراف، آية ١٨٠.

المبحث الخمسون تأويل حديث

«وساعد الله أشد من ساعدك»^(١)

اعلم رحمك الله أن الساعد في كلام العرب يطلق على معانٍ منها ساعد الإنسان وهو ذراعه، وقيل: عضده، وساعد الطائر جناحه، والساعد مجرى الماء إلى النهر والبحر، ومجرى المخ في العظم، والجمع السواعد، والساعد القوة والقدرة وهو المراد في الحديث، والمعنى أمر الله أنفذ من أمرك، وقدرته أتم من قدرتك، ومنه قولهم «جمعت هذا المال بقوة ساعدي» يعني به: رأيه وتدييره، وقدرته، وإنما عبّر عنه بالساعد للتمثيل لأنه محل القوة، يوضح ذلك قوله: «وموساه أحد من موساك» يعني أن قطعه أسرع من قطعك، فعبر عن القطع بالموسى لما كان سبباً على مذهب العرب في تسمية الشيء باسم ما يجاوره ويقرب منه ويتعلق به، كما سميت البصر عيناً^(٢).



(١) الطبراني، المعجم الكبير، (ج ١٩، ص ٢٩٧). أحمد بن حنبل، مسند أحمد، (ج ١١، ص ٢).

(٢) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٢٨٤).

المبحث الحادي والخمسون

تأويل حديث

«لا شخص أغير من الله»

قال أبو سليمان الخطابي في كتابه «أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري» في سياق ذكر حديث «لا شخص أغير من الله» ما نصه^(١): «قال أبو عبد الله: وقال عبيد الله بن عمرو، وعن عبد الملك: لا شخص أغير من الله»، قلت: إطلاق الشخص في صفة الله تعالى غير جائز، وذلك لأن الشخص لا يكون إلا جسمًا مؤلَّفًا وإنما يُسمَّى شخصًا ما كان له شُخوصٌ وارتفاعٌ ومثل هذا النعت منفي عن الله سبحانه وخليق ألا تكون هذه اللفظة صحيحة وأن تكون تصحيفًا من الراوي»، ثم قال «فدلَّت رواية أسماء وأبي هريرة قوله: لا شيء أغير من الله، على أن الشخص وَهْمٌ وتصحيفٌ». والغيرة بالمعنى المتعارف عليه بين الناس محالة على الله، لأن الله منزّه عن كل صفات المخلوقين، ولكن معنى ما ورد في الحديث من نسبة الغيرة إلى الله على معنى أن الله يكره لعبده فعل المحرمات. ومعنى «الشيء» هنا، قال أبو حنيفة: أي «الموجود» كما في بعض رسائله، وكذلك قال أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط في تفسير الآية ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾^(٢) وقال الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه: «والله شيء لا كالأشياء».

(١) الخطابي، أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، (ج ٤، ص ٢٣٤٤، ٢٣٤٥).

(٢) سورة الأنعام، آية ١٩.

وقال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(١) ما نصه: «قوله أغير أفعل تفضيل من الغيرة، وهي في اللغة تغير يحصل من الحمية والأنفة وأصلها في الزوجين والأهلين وكل ذلك محال على الله تعالى لأنه منزه عن كل تغير ونقص فيتعين حمله على المجاز، وقيل غيرة الله كراهية إتيان الفواحش وعدم رضاه به».

وقال أيضًا ما نصه^(٢): «قال ابن دقيق العيد المنزهون لله إما ساكت عن التأويل وإما مؤول والثاني يقول المراد بالغيرة المنع من الشيء والحماية وهما من لوازم الغيرة فأطلقت على سبيل المجاز كالملازمة وغيرها من الأوجه الشائعة في لسان العرب».

ثم قال: «قال ابن بطال: أجمعت الأمة على أن الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شخص لأن التوقيف لم يرد به وقد منعت منه المجسمة مع قولهم بأنه جسم لا كالأجسام. كذا قال والمنقول عنهم خلاف ما قال».

وقال ابن بطال: اختلفت ألفاظ هذا الحديث فلم يختلف في حديث ابن مسعود أنه بلفظ لا أحد فظهر أن لفظ شخص جاء موضع أحد فكأنه من تصرف الراوي. ثم قال: على أنه من باب المستثنى من غير جنسه قوله تعالى ﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾^(٣) وليس الظن من نوع العلم، قلت وهذا هو المعتمد وقد قرره ابن فورك ومنه أخذه ابن بطال

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، (ج ١٣، ص ٣٩٦).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١٠، ص ١٧١-١٧٣).

(٣) سورة النجم، آية ٢٨.

فقال: بعدما تقدم من التمثيل بقوله ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾^(١) فالتقدير أن الأشخاص الموصوفة بالغيرة لا تبلغ غيرتها وإن تناهت غيرة الله تعالى وإن لم يكن شخصا بوجه.

وأما الخطابي فبنى على أن هذا التركيب يقتضى إثبات هذا الوصف لله تعالى فبالغ في الإنكار وتخطئة الراوي، فقال إطلاق الشخص في صفات الله تعالى غير جائز لأن الشخص لا يكون إلا جسمًا مؤلفًا فخلق أن لا تكون هذه اللفظة صحيحة وأن تكون تصحيفًا من الراوي ودليل ذلك أن أبا عوانة روى هذا الخبر عن عبد الملك، فلم يذكرها ووقع في حديث أبي هريرة وأسماء بنت أبي بكر بلفظ شيء والشيء والشخص في الوزن سواء فمن لم يمعن في الاستماع لم يأمن الوهم وليس كل من الرواة يراعي لفظ الحديث حتى لا يتعداه، بل كثير منهم يحدث بالمعنى وليس كلهم فهما بل في كلام بعضهم جفاء وتعجرف، فلعل لفظ «شخص» جرى على هذا السبيل إن لم يكن غلطًا من قبيل التصحيف، يعني السمعى. قال ثم إن عبید الله بن عمرو انفرد عن عبد الملك فلم يتابع عليه واعتوره الفساد من هذه الأوجه، وقد تلقى هذا عن الخطابي أبو بكر بن فورك فقال لفظ «الشخص» غير ثابت من طريق السند، فإن صحَّ فيبانه في الحديث الآخر وهو قوله «لا أحد»، فاستعمل الراوي لفظ شخص موضع أحد ثم ذكر نحو ما تقدم عن ابن بطال ومنه أخذ ابن بطال ثم قال ابن فورك وإنما منعنا من إطلاق لفظ «الشخص» أمور: أحدها أن اللفظ لم يثبت من طريق السمع، والثاني الإجماع على المنع منه، والثالث أن معناه الجسم المؤلف المركب. ثم قال: ومعنى الغيرة

(١) سورة النجم، آية ٢٨.

الزجر والتحريم، فالمعنى أن سعدًا الزجور عن المحارم وأنا أشد زجرًا منه والله أزجر من الجميع انتهى.

وقد استدل الحافظ اللغوي محمد مرتضى الزبيدي بهذه الآية ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾^(١) على جواز قول «والله شيء لا كالأشياء» أي موجود لا كالموجودات هكذا رواه أبو عبد الله قال: كتاب النكاح: باب الغيرة: حدّثنا موسى بن إسماعيل قال: حدّثنا همّام عن يحيى عن أبي سلمة أنّ عروة بن الزبير حدّثه عن أمه أسماء أنها سمعت النبي ﷺ يقول: «لا شيء أغير من الله». وعن يحيى أنّ أبا سلمة حدّثه أنّ أبا هريرة حدّثه أنه سمع عن النبي ﷺ مثله. فدلت رواية أسماء وأبي هريرة قوله: لا شيء أغير من الله، على أنّ الشخص وهمّ وتصحيف، ثم قال: «فمن لم يمعن الاستماع لم يأمن الوهم، وليس كلّ الرواة يراعون لفظ الحديث حتى لا يتعدّوه، بل كثير منهم يحدث على المعنى وليس كلّهم بفقهاء. وفي كلام آحاد الرواة منهم جفاءً وتعجرف»، ثم قال^(٢): «وحرّيٌّ أن يكون لفظ (الشخص) إنما جرى من الراوي على هذا السبيل إن لم يكن من قبل التصحيف، ثم إن عبید الله ابن عمرو قد تفرّد به عن عبد الملك، ولم يتابع عليه فاعتوره الفساد من هذه الوجوه، فدلّ ذلك على صحة ما قلناه».

والغيرة بالمعنى المتعارف عليه بين الناس محالة على الله، لأن الله منزّه عن كل صفات المخلوقين، ولكن معنى ما ورد في الحديث من نسبة الغيرة إلى الله على معنى أن الله يكره لعبده فعل المحرمات.

(١) سورة الأنعام، آية ١٩.

(٢) الخطابي، أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري، (ج ٤، ص ٢٣٤٦).

وقال ابن بطال في كتابه «شرح صحيح البخاري» مانصه^(١): «اختلفت ألفاظ هذا الحديث فروى ابن مسعود عن النبي ﷺ: «لا أحد أغير من الله». ذكره في آخر كتاب النكاح، وفي رواية عبيد الله، ورواية ابن مسعود مبينة أن لفظ (شخص) موضوع موضع (أحد)» وقال: «وأجمعت الأمة على أن الله لا يجوز أن يوصف بأنه شخص؛ لأن التوقيف لم يرد به».

ثم قال ابن بطال^(٢): «وقد تقدم في كتاب النكاح في باب الغيرة، معنى الغيرة من الله: الزجر عن الفواحش والتحريم لها».

وقال سراج الدين المعروف بابن الملقن في كتابه «التوضيح لشرح الجامع الصحيح»^(٣): «وقال الداودي: قوله: (لا شخص أغير من الله). لم يأت متصلاً ولم تتلق الأمة مثل هذه الأحاديث بالقبول»، ثم قال: «ولم يسم نفسه شخصاً، إنما أتى مرسلًا» وقال^(٤): «وقال ابن فورك: لفظ (الشخص) غير ثابت من طريق السند، وإنما منعنا من إطلاق لفظ الشخص لأمر: أحدها: أن اللفظ لم يثبت من طريق السمع. وثانيها: إجماع الأمة على المنع منه. ثالثها: أن معناه أن تكون أجساماً مؤلفة على نوع من التركيب».

وقد اتفق كل العلماء على أن الغيرة المضافة إلى الله على معنى أنه يكره لعبده المعاصي، لا على معنى التأثر النفساني والتحسر، فالله ليس كمثله شيء وهو منزه عن الإحساس والشعور واللذة والألم والانبساط والتغير

(١) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، كتاب الغسل، (ج ١٠، ص ٤٤٢).

(٢) ابن بطال، شرح صحيح البخاري، (ج ١٠، ص ٤٤٣).

(٣) ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (ج ٣٣، ص ٢٧٧).

(٤) ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، (ج ٣٣، ص ٢٧٩).

والتطور والتبدل كما قال ربنا سبحانه ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾^(١).

وقال الإمام زين العابدين علي بن الحسين رضي الله عنهما: «لا إله إلا أنت سبحانه لست بمحدود فتحدّ لا يحويك مكان لا تحسّ ولا تمسّ ولا تجسّ». رواه الحافظ الزبيدي في الإتحاف.

قال القاضي الفقيه ابن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل» ما نصه^(٢): «اعلم أن حقيقة الشخصية لذات لها شخص وحجم مأخوذ من الشخوص وهو الارتفاع وإنما ذلك في الأجسام وهو محال على الله تعالى فوجب تأويل ذلك.

وكذلك الغيرة عبارة عن حالة نفسانية تقتضي منع الشيء وكرهيته والزجر عنه، واعلم أن إطلاق الشخص لا يكون إلا جسمًا مؤلفًا وسمي بذلك لما له من شخوص وارتفاع، ولفظ الشخص لم يورده البخاري بل حكاه عن عبيد الله بن عمرو، قال الخطابي عن لفظ الشخص: وخلق أن لا تكون هذه اللفظة صحيحة وأن تكون تصحيفًا من الراوي، لأن النظر الأول من (شيء وشخص) سواء، قال وليس كل الرواة يراعون لفظ الحديث ولا يتعدونه وكثير منهم يحدثون بالمعنى وليس كلهم بفقيه حتى يروى عن بعضهم أنه قال: نعم المرء ربنا لو أطعناه ما عصانا ولفظ المرء إنما هو للذكر من بني آدم، والظاهر أن مطلق هذا الحديث وشبهه لم يقصد المعنى الذي لا يليق بجلال الله تعالى وإنما جرى لسانه على بديهة الطبع من غير تفكير وتأمل بل

(١) سورة النحل، آية ٧٤.

(٢) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١٩٣-١٩٥).

معنى الكلام ليس أحد من المخلوقين أغير من الله تعالى ولا يلزم منه أن يكون مخلوقاً وهو كقولهم: ليس أحد من بني تميم أعدل من عمر وهو كلام صحيح مع أن عمر قرشي وليس تميمياً، ومنه ما روي في حديث ما خلق الله من جنة ولا نار أعظم من آية الكرسي، قال أحمد بن حنبل: الخلق هنا يرجع إلى المخلوق لا إلى القراءان، فلم يلزم من ذلك أن تكون آية الكرسي مخلوقة (أي ما تدل عليه آية الكرسي من الكلام الذاتي)، ولما حرم الله سبحانه الفواحش وزجر عنها وتوعد عليها وصف بالغيرة التي هي كراهة الشيء والزجر عنه كما تقدم».

قال الحافظ البيهقي في كتابه «الأسماء والصفات» ما نصه^(١): «باب ما جاء في الغيرة:

أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا الحسن بن علي بن عفان، حدثنا نمير، عن الأعمش، عن شقيق، قال: قال عبد الله: قال رسول الله ﷺ: «ما أحدٌ أغير من الله، ولذلك حرم الفواحش، وما أحدٌ أحب إليه المدح من الله». رواه مسلم في «الصحيح»^(٢)، عن

(١) البيهقي، الأسماء والصفات، (ص ٤٤٤، ٤٤٥).

(٢) رواه مسلم بلفظ: «لا أحدٌ أغير من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحدٌ أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه». مسلم، صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، (ج ٨، ص ١٠٠)، حديث ٧١٦٩.

أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الله بن نمير^(١)، وأخرجه البخاري^(٢) من وجه آخر، عن الأعمش.

أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد المقرئ ابن الحمامي، ببغداد، أخبرنا أحمد بن سلمان، حدّثنا إسحاق بن الحسن، حدّثنا القعني، عن مالك، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، فذكر حديث صلاة الخسوف وخطبة النبي ﷺ، ثم قال: يعني النبي ﷺ: يا أمّة محمّد، واللّه ما أحدٌ أغير من الله عزّ وجلّ أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أمّة محمّد ﷺ، واللّه لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا. رواه البخاري في «الصحيح»، عن القعني.

حدّثنا أبو بكر محمّد بن الحسن بن فورك، أخبرنا عبد الله بن جعفر، حدّثنا يونس بن حبيب، حدّثنا أبو داود، حدّثنا حرب بن شدّاد، عن يحيى ابن أبي كثير، حدّثني أبو سلمة، أنّ عروة بن الزبير، أخبره أنّ أسماء بنت أبي بكر أخبرته، أنّها سمعت رسول الله ﷺ، يقول على المنبر: «ليس شيءٌ أغير من الله عزّ وجلّ».

وأخبرنا أبو بكر، أخبرنا عبد الله، حدّثنا يونس، حدّثنا أبو داود، حدّثنا حرب بن شدّاد، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، رضي الله عنه،

(١) عبد الله بن نمير، الحافظ، الثقة، الإمام، أبو هشام الهمداني، مولا هم، الكوفي، ولد سنة ١١٥ هـ. روى عن هشام بن عروة، والأعمش، وأشعث بن سوار، وإسماعيل بن أبي خالد، وزكريا بن أبي زائدة، وخلق من طبقتهم. حدّث عنه: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وبنو أبي شيبة، وإسحاق الكوسج، وأحمد بن الفرات، وعدد كثير. وكان من أوعية العلم، وثقة يحيى بن معين وغيره، توفي سنة ١٩٩ هـ. الذهبي، سير أعلام النبلاء، (ج ٧، ص ١٣٦، ١٣٧)، رقم الترجمة ١٥١٩.

(٢) كذلك رواه البخاري كلفظ مسلم. البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة الأنعام، (ج ٤، ص ١٦٩٦).

قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّ الله تبارك وتعالى يغار، وإنَّ المؤمن يغار، وغيره الله أن يأتي المؤمن ما حرّم عليه. رواه مسلم في «الصحيح»، عن محمّد بن المثنّى، عن أبي داود، وأخرج ما قبله من وجهٍ آخر، عن يحيى بن أبي كثير، وأخرجهما البخاريّ من وجهٍ آخر، عن يحيى بن أبي كثير.

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله: وهذا، يعني حديث أبي هريرة، أحسن ما يكون من تفسير غيرة الله وأثبته وقال أبو الحسن بن مهديّ فيما كتب إليّ أبو نصر بن قتادة من كتابه: معنى قوله ﷺ «ما أحدٌ أغير من الله» أي: أزجر من الله، والغيرة من الله الزجر، والله غيورٌ بمعنى زجورٌ، يزجر عن المعاصي».

وقال ملا علي القاري الحنفي في كتابه «مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح» بعد ذكر مذهب السلف والخلف ما نصه^(١): «يعلم أن المذهبين متفقان على صرف تلك الظواهر كالمجيء والصورة والشخص والرجل والقدم واليد والوجه والغضب والرحمة والاستواء على العرش والكون في السماء وغير ذلك مما يفهمه ظاهرها لما يلزم عليه من محالات قطعية البطلان تستلزم أشياء يُحكم بكفرها بالإجماع، فاضطر ذلك جميع الخلف والسلف إلى صرف اللفظ عن ظاهره».



(١) ملا علي القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، (ج ٢، ص ١٣٦).

المبحث الثاني والخمسون

تأويل حديث

«تعلقت بحقو الرحمن»

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «خلق الله الخلق فلما فرغ منه^(١)، قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال^(٢) له مه^(٣)»^(٤).

الحقو قد يطلقه العرب في معنى الاستجارة به والتمنع به، ومن ذلك قول الشاعر:

سماع الله والعلماء إنى أعوذ بحقو خالك ابن عمرو
وقال البيهقي في تفسير الحديث ما نصه^(٥): «ومعناه عند أهل النظر أنها استجارت واعتصمت بالله عز وجل كما تقول العرب «تعلقت بظل جناحه» أي اعتصمت به.

وقيل: الحقو الإزار وإزاره سبحانه عزه بمعنى أنه موصوف بالعز فلاذت الرحم بعزه من القطيعة وعازت به»^(٦).

(١) قال العيني: «أي أتم خلقه، وهو تعالى لا يشغله شأن عن شأن». العيني، عمدة القاري، (ج ٣٦، ص ١٧٨).

(٢) قال الكرمانى: «قال بعضهم فإن قيل الفاء في «فقال» يجب كون قول الله عقيب قول الرحم فيكون حادثاً قلت: لما دل الدليل على قدمه أي قدم كلام الله وجب حمله على معنى إفهامه إياها أو على قول ملك مأمور يقول لها «قال». الكرمانى، الكواكب الدراري، (ج ٢٥، ص ١٩٢).

(٣) وقول الرحمن «مه» معناه الزجر.

(٤) البخاري، صحيح البخاري، كتاب التفسير، سورة محمد، (ج ٤، ص ١٨٢٨)، حديث ٤٥٥٢.

(٥) البيهقي، الأسماء والصفات، (ج ٢، ص ٣٢٦).

(٦) القرطبي، صفات الله تعالى، (ص ١٣٨).

فهذا من الأحاديث المتشابهة فلا يجوز حمله على ظاهره لأن الله منزّه عن الجسم والطول والعرض والأعراض والجوارح، فهو منزّه عن حقيقة الحقو لأنه من صفات المخلوقين.

قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»^(١) ما نصه: «ووقع في حديث ابن عباس عند الطبراني أن الرحم أخذت بحجزة الرحمن، وحكى شيخنا في شرح الترمذي أن المراد بالحجزة هنا قائمة العرش، وأيد ذلك بما أخرجه مسلم من حديث عائشة أن الرحم أخذت بقائمة من قوائم العرش».

ثم قال^(٢): «قال ابن أبي جمرة: الوصل من الله كناية عن عظيم إحسانه».

ثم قال أيضاً^(٣): «ولما كانت حقيقة ذلك مستحيلة في حق الله تعالى عرف أن ذلك كناية عن عظيم إحسانه لعبده، قال وكذا القول في القطع هو كناية عن حرمان الإحسان».

ثم قال ما نصه^(٤): «فمقصود هذا الكلام الإخبار بتأكد أمر صلة الرحم، وأنه تعالى أنزلها منزلة من استجار به فأجاره فأدخله في حمايته، وإذا كان كذلك فجار الله غير مخذول، وقد قال ﷺ: من صلى الصبح فهو في ذمة الله وأن من يطلبه الله بشيء من ذمته يدركه ثم يكبه على وجهه في النار» أخرجه مسلم.

وقال القاضي ابن جماعة في كتابه «إيضاح الدليل في قطع حجج أهل

(١) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، (ج ١٠، ص ٤٣١، ٤٣٢).

(٢) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، (ج ١٠، ص ٤٣١، ٤٣٢).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، (ج ١٠، ص ٤٣١، ٤٣٢).

(٤) ابن حجر، فتح الباري، كتاب الأدب، باب من وصل وصله الله، (ج ١٠، ص ٤٣١، ٤٣٢).

التعطيل» ما نصه^(١): «عن أبي هريرة عن النبي «قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن، فقال: مه فقالت: هذا مكان العائد بك من القطيعة. قال: نعم»، وفي رواية عائشة: «الرحم شجنة من الرحمن» رواه البخاري. الشجنة الشيء الملتف بعضه ببعض، معناه والله أعلم أن اسم الرحم شعبة من اسم الرحمن، أي حروفها بعض حروف الرحمن فوجب تعظيم حقها وقدرها ومراعاتها لذلك. وأما الأخذ بالحقو فظاهره محال على الله تعالى، وإنما معناه أنها استجارت واعتصمت به من القطيعة كما يستجير الإنسان من عدو بكبير البلد، والحقو الإزار، وكان أحد العرب إذا استجار بكبير القوم أخذ بإزاره مستجيرًا به، وذلك مستعمل في زماننا هذا وقيل: إزاره عزه، فاستجار بعزه من القطيعة، ومن حمل الحديث على ظاهره المعروف فمردود».



(١) ابن جماعة، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، (ص ١٨٤-١٨٦).

المبحث الثالث والخمسون

تأويل حديث

«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»

إن من كان في الدنيا مؤمناً مستعداً عاملاً بالخيرات الواجبات وغيرها والمبررات يكون من الفائزين في ذلك اليوم العظيم، ناجياً من عذاب الله، يحشر طاعماً راكباً كاسياً محفوظاً من أذى حر الشمس يوم القيامة، لأنَّ الشمس يوم القيامة تدنو من رؤوس العباد، تكون أقوى حرارةً لقربها من رؤوسهم فيلحق أذى كبيرٌ لبعض الناس، أما البعض الآخرون وهم عباد الله الصالحون هؤلاء في أمانٍ يكونون في مكانٍ يظلهم ظلُّ العرش لا يلقون أذى من حر الشمس، فهم في راحةٍ كالأتقياء السبعة الذين ذكرهم الرسول ﷺ في حديثه المشهور الذي رواه البخاري وغيره: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، إمامٌ عادلٌ، وشابٌّ نشأ في عبادة الله عزَّ وجلَّ، ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد، ورجلان تحابَّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ فقال إني أخاف الله، ورجلٌ تصدق بصدقةٍ فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»^(١).

أولئك السبعة وأناسٌ آخرون يظلهم الله يوم القيامة في ظله يوم لا ظل

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الصدقة، باب الصدقة باليمين، (ج ٢، ص ٥١٧)، حديث

١٣٥٧. مسلم، صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، (ج ٣، ص ٩٣)، حديث

٢٤٢٧.

إلا ظله، أي ظل العرش، فهم سالمون من أذى حر الشمس، فمن هؤلاء إمام عادل كأبي بكر الصديق وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز الذي هو من سلالة عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، وكان عمر بن الخطاب يقول عنه: «يكون من ولدي رجلٌ بوجهه شجرةٌ يملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً». فتحقق فيه قول جده فكان بوجهه شجرة، ضربته دابةً في وجهه وهو غلامٌ فجعل أبوه يمسح الدم ويقول: «إن كنت أشج بني أمية إنك لسعيد». فهو الذي أزال ما كانت بنو أمية تفعله من مسبة الإمام عليّ على المنابر وذكره بالسوء، ولما استلم الخلافة كتب إلى عمّاله: «إذا دعتكم قدرتكم على الناس إلى ظلمهم فاذكروا قدرة الله عليكم».

وقد قال رسول الله ﷺ: «وشابُّ نشأ في عبادة الله» من صغره نشأ، تربي على عبادة الله، تعلم شرع الله، طبّق شرع الله، اشتغل بالطاعات واجتنب المحرمات.

«ورجلٌ قلبه معلقٌ بالمساجد» علق قلبه بأفضل بقاع الأرض مخلصاً لله رب العالمين مغتنماً أوقاته وأنفاسه. فقد قال عليه الصلاة والسلام: «بشر المشائين في الظلم إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة».

وقد قال رسول الله: «ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه». فالتحابّ في الله سببٌ في كون المؤمن في ظل العرش يوم القيامة وهو من الأمور التي توصل إلى محبة الله وقد قال عليه الصلاة والسلام: «تصافوا الحبّ في الله». فهذا يأمر هذا بالخير وهذا يأمره بخير، يصدقه، ولا يغشّه ولا يداهنه ولا يخدعه، ينهاه عن الشر، يتعاونان على الطاعات، وإبداء النصيحة.

والرسول قال: «ورجلٌ دعته امرأةٌ ذات منصبٍ وجمالٍ فقال إني أخاف الله».

فقد ورد أنّ رجلاً من الصالحين سمع بشخصٍ في بلدةٍ، مجاب الدعاء، فذهب إليه واستضافه ثلاث ليالٍ فلم يجد فيه شيئاً زيادةً، فقال له بعد الأيام الثلاث: أسألك: ما سرّ إجابة دعوتك؟، فقال له: تلك دعوة نفسٍ عضّها الجوع، وصدقت الله في السجود والرّكوع، فأعطاها منها وأجاب دعاها. قال: وكيف ذلك؟، قال له: أصاب الناس قحطٌ، فبينما أنا ذات ليلةٍ، فإذا بامرأةٍ جميلةٍ تخجل البدر من جمالها دقت الباب، وطلبت مني طعاماً فقلت لها لا، إلا أن تراوديني عن نفسك. فقالت لي: الموت ولا معصية ربي، ورجعت وهي تبكي، ثم رجعت بعد أيامٍ وقد طواها الجوع وأشرفت على الهلاك وطلبت مني طعاماً، فقلت لها: إلا أن تراوديني عن نفسك، فقالت: الموت ولا معصية ربي، الموت ولا معصية ربي، فعادت ولم تكذ تحتمل، فقلت لها مثل ذلك فرجعت وهي تبكي فلحقت بها وسمعتها تقول آياتٍ تناجي الله تعالى، فلمّا سمعتها تقول ذلك زاد الإيمان في قلبي وحب الخير، وتبت إلى الله، فقلت لها ارجعي وخذي ما تشائين لوجه الله، فرجعت وفعلت ثم رفعت يديها إلى السماء وقالت: اللهم كما هديت قلبه، وأنرت لبه فأجب دعاءه، ولا تردّه اللهم خائباً.

وقال الرسول: «ورجلٌ تصدّق بصدقةٍ فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» لأنّه بالغ في إخفائها. ولا يدري الإنسان إلى أين يذهب سرّ الصّدقة ولو كانت قليلة.

ثم قال الرسول: «ورجلٌ ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»، وقد قال رسول

الله: «عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت من خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله» فبذكر الله تطمئن القلوب.

وليحذر مما ظنه بعض الجهلاء بأن الله حجمٌ له ظلٌ والعياذ بالله تعالى مفسرين قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «في ظله» على معنى أن الله تعالى جسمٌ له ظلٌ، تعالى الله عن ذلك وتنزهه وتقدس عن مشابهة الحوادث.

وقد قال القاضي عياض المالكي رحمه الله في تفسير لفظ «في ظله» ما نصه^(١): «وقوله في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: إضافة الظل هنا إلى الله إضافة ملك، وكل ظل فهو لله ومن خلقه وملكه وسلطانه، وهو ظل العرش^(٢) على ما في الحديث الآخر، والمراد بذلك يوم القيامة، إذا قام الناس لرب العالمن، ودنت منهم الشمس ويشد عليهم الحر ويأخذهم العرق، ولا ظل هناك لشيء إلا ظلُّ العرش كما جاء في بعض الروايات: «في ظل عرشي». وقد يراد به هنا ظل الجنة أو ظل طوبى، وهو نعيمها، والكونُ في دارها، كما قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾^(٣)، وذهب ابن دينار إلى أن معنى الظل هنا: الكرامة والكنف والكن من المكاره في ذلك الموقف، قال: ولم يرد الظل من الشمس، وما قال معلوم في اللسان، يقال: فلان في ظل فلان، أي في كنفه وحمائته، وهو أولى الأقوال، ويكون إضافته إلى العرش لأنه مكان التقريب والكرامة».

(١) عياض المالكي، إكمال المعلم، (ج ٣، ص ٢٩٥).

(٢) السيوطي، شرح سنن النسائي، (ج ٨، ص ١١٤).

(٣) سورة النساء، آية ٥٧.

وذهب الزرقاني^(١) في «شرح موطأ مالك» والنووي^(٢) في «شرح صحيح مسلم» إلى أن الظل إذا أضيف لله فيكون إضافة ملكٍ إلى مالك.

وقد قال المناوي في «فتح القدير» ما نصه^(٣): «يظلمهم الله في ظله: أي يدخلهم في ظل رحمته وإضافة الظل إليه تعالى إضافة تشريف كناية عن رحمة الله، وهو سبحانه منزّه عن الظل إذ هو من خواص الأجسام، يوم لا ظل إلا ظله: لا رحمة إلا رحمته وهو يوم القيامة».

وقال التبريزي^(٤): «يظلمهم الله: جملة في محل الرفع على أنها خبر للمبتدأ أعني قوله: سبعة، أي يدخلهم، في ظله: إضافة تشريف ليحصل امتياز هذا عن غيره كما يقال للكعبة: بيت الله. مع أن المساجد كلها ملكه، وقيل: المراد بظلمه كرامته وحمايته وكنفه، يقال: فلان في ظل الملك أي في كنفه وحمايته، والمعنى يحفظهم من كرب الآخرة ويكنفهم في رحمته. قال عياض: وهو أولى الأقوال. وقيل: المراد ظل عرشه. ويدل عليه ما رواه سعيد بن منصور بإسناد حسن من حديث سلمان: سبعة يظلمهم الله في ظل عرشه فذكر الحديث. ثم كونهم في ظل عرشه يستلزم ما ذكر من كونهم في كنف الله وكرامته من غير عكس، فهو أرجح وبه جزم القرطبي، ويؤيده أيضاً تقييد ذلك بيوم القيامة كما صرح به في رواية: يوم لا ظل إلا ظله، أي ظل عرشه، على حذف المضاف، والمراد يوم القيامة إذا قام الناس لرب

(١) الزرقاني، شرح موطأ مالك، (ج ٤، ص ٤٣٧).

(٢) النووي، شرح صحيح مسلم، (ج ٧، ص ١٢٠).

(٣) المناوي، فتح القدير، (ج ١١، ص ٣٨).

(٤) التبريزي، مرعاة المفتاح، (ج ٥، ص ١٨).

العالمين وقربت الشمس من الرؤوس واشتد عليهم حرها وأخذهم العرق،
ولا ظل هناك لشيء إلا العرش».

وقال الفقيه ملا علي القاري في شرحه على المشكاة ما نصه^(١): «يظلمهم
الله، أي يدخلهم في ظله أي رحمته، وقيل: المراد ظل العرش إذ جاء في
بعض طرق الحديث: في ظل عرشه».



(١) ملا علي القاري، شرح المشكاة، (ج ٣، ص ١٨٠).

المبحث الرابع والخمسون

تأويل حديث

«فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي

يبصر به»

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتَهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحْبَبْتَهُ فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يَبْصُرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ وَلِتُنَّ اسْتِعَاذَنِي لِأَعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدَتْ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»^(١).

يجب أن يعلم أن هذا الحديث القدسي من الأحاديث المتشابهة التي لا يجوز حملها على ظاهرها بل يجب أن تصرف عن الظاهر وتحمل على معنى يليق بالله عز وجل، فالله تعالى منزّه عن الحلول والاتحاد فهو سبحانه لا يحل فيه شيء ولا ينحل منه شيء ولا يحل هو في شيء لأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾^(٢)، ولأنه قال: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾^(٣)، وفي هذه الآية نفي للمادية والانحلال، وقد نقل الحفاظ والعلماء كالسيوطي والنووي وابن دقيق العيد الإجماع على كفر من يقول بالحلول والاتحاد.

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (ج ٥، ص ٢٨٣٤)، حديث ٦١٣٧.

(٢) سورة الشورى، آية ١١.

(٣) سورة الإخلاص، آية ٣.

وإليك تأويلات علماء أهل السنة والجماعة في هذا الحديث:

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»^(١) ما نصه: «المعنى كليته مشغولة بي فلا يصغي بسمعه إلا إلى ما يرضيني، ولا يرى ببصره إلا ما أمرته به».

ثم قال^(٢): «قال الفاكهاني وسبقه إلى معناه ابن هبيرة: هو فيما يظهر لي أنه على حذف مضاف والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به فلا يسمع إلا ما يحل استماعه، وحافظ بصره كذلك إلخ، وقال الطوفي: اتفق العلماء ممن يعتد بقوله أن هذا مجاز وكناية عن نصره العبد وتأيبه، وقال الخطابي: والمعنى توفيق الله لعبده في الأعمال التي يباشرها بهذه الأعضاء وتيسير المحبة له فيها بأن يحفظ جوارحه عليه ويعصمه عن موقعة ما يكره الله من الإصغاء إلى اللهو بسمعه ومن النظر إلى ما نهى الله عنه ببصره ومن البطش فيما لا يحل له بيده ومن السعي إلى الباطل برجله، وإلى هذا نحا الداودي ومثله الكلاباذي وعبر بقوله أحفظه فلا يتصرف إلا في محابي لأنه إذا أحبه كره له أن يتصرف فيما يكرهه منه .

وقال الخطابي أيضًا: وقد يكون عبر بذلك عن سرعة إجابة الدعاء والنجح في الطلب وذلك أن مساعي الإنسان كلها إنما تكون بهذه الجوارح المذكورة، وأسند البيهقي في «الزهد» عن أبي عثمان الجيزي أحد أئمة الطريق قال: معناه كنت أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الأسماع وعينه في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي».

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (ج ١١، ص ٣٥٢).

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (ج ١١، ص ٣٥٢).

وقال الحافظ المجتهد عبد الله الهرري في تفسير هذا الحديث القدسي ما نصه: «وهذا الحديث معناه أحفظ له سمعُهُ وبصرُهُ ويدهُ ورجلهُ، وقال بعضهم: أي أعطيه قوة غريبة في سمعِهِ وبصره ويده ورجله»^(١).

وقد حصل من بعض أهل وحدة الوجود في بلاد الشام أن حرّفوا هذا الحديث فقالوا: «قال الله تعالى: فإذا أحببته كنت هو»، على زعمهم أن الله يصير هو هذا الولي، وهذا من أصرح الصريح في الكفر. وهذا في كتابهم المسمى «معراج التشوف إلى حقائق التصوف»، والذي ينسب إلى أحمد ابن محمد بن عجيبة، وقد ردّ عليهم في هذه المسألة الحافظ ابن حجر في الفتح، وقد نشرته مؤخرًا وللأسف مكتبة دار البيروتي في دمشق وقد ذهبت إلى مالكة وأريته ما في هذا الكتاب وكلمته ناصحًا ومشفقًا على سمعة التصوف الحقيقي وأن المشبهة المجسمة سيتخذون هذا الكلام وهذا الكتاب سيفًا لمحاربة التصوف الإسلامي الحقيقي لأنهم لا يميزون بين الصوفية الصادقين والمتصوفة المتزندقين، ولقد علمت بعد تلك النصيحة أنه لا زال ينشر هذا الكتاب ولم تأخذه الغيرة على دين الله وعلى الصوفية الصادقين، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

أما قوله «وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته»^(٢)، فإن حقيقة التردد مستحيل على الله لأنه صفة حادثة والله أزلي أبدي وصفاته أزلية أبدية، ومعنى الحديث القدسي «ترددي» أي تردد رسلي أي الملائكة الذين يقبضون روح التقي، وهذا لا تعارض فيه

(١) الهرري، الشرح القويم، (ص ١٠٠).

(٢) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (ج ٥، ص ٢٣٨٤)، حديث ٦١٣٧.

مع قول الله تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) لأن تردد الملائكة ليس معناه اعتراض أو عدم التنفيذ، إنما هو إظهار لحبهم وعطفهم وشفقتهم على المؤمن التقي.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري»^(٢) ما نصه: «قال الخطّابي: التردّد في حقّ الله غير جائزٍ والبداء عليه في الأمور غير سائغٍ ولكن له تأويلان أحدهما أنّ العبد قد يشرف على الهلاك في أيام عمره من داءٍ يصيبه وفاقه تنزل به فيدعو الله فيشفيه منها ويدفع عنه مكروهها ولا بدّ له من لقائه إذا بلغ الكتاب أجله لأنّ الله قد كتب الفناء على خلقه واستأثر بالبقاء لنفسه والثاني أن يكون معناه ما رددت رسلي في شيء أنا فاعله كترديدي إياهم في نفس المؤمن كما روي في قصة موسى وما كان من لطمه عين ملك الموت وتردّده إليه مرّة بعد أخرى، قال: وحقيقة المعنى على الوجهين لطف الله به. وعبر ابن الجوزي عن الثاني بأنّ التردّد للملائكة الذين يقبضون الرّوح، وأضاف الحقّ ذلك لنفسه لأنّ تردّدهم عن أمره، قال: وهذا التردّد ينشأ عن إظهار الكراهة، فإن قيل: إذا أمر الملك بالقبض كيف يقع منه التردّد؟ فالجواب: أنّه يتردّد فيما يحدّ له فيه الوقت كأن يقال لا تقبض روحه إلّا إذا رضي ثمّ ذكر جواباً ثالثاً وهو احتمال أن يكون معنى التردّد اللطف به كأنّ الملك يؤخّر القبض فإنّه إذا نظر إلى قدر المؤمن وعظم المنفعة به لأهل الدّنيا احترامه فلم يبسط يده إليه فإذا ذكر أمر ربّه لم يجد بدّاً من امتثاله».

(١) سورة التحريم، آية ٦.

(٢) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، كتاب الرقاق، باب التواضع، (ج ١١، ص ٣٥٣، ٣٥٤).

وهذا الحديث القدسي دليل جليّ قاطعٌ على وجوب التأويل وعدم الحمل على الظاهر في الآيات والأحاديث المتشابهة، وأما على قول الوهابية ومن سبقهم من أسلافهم المجسمة بمنع التأويل فقد جعلوا الله تعالى حالاً في عين وأذن ويد ورجل الولي، وحاشى لله تقدس ربنا وتنزهه عن ذلك، ومما يؤكد وجوب التأويل بلا شك ولا ريب حديثٌ آخر صريح ظاهر في أنه مؤول وليس على ظاهره وهو ما رواه الحافظ الإمام مسلم بن الحجاج في كتابه الجامع الصحيح نذكره مع تأويله لمناسبة قوية بينه وبين حديث البخاري المتقدم.



المبحث الخامس والخمسون

تأويل حديث قدسي

«مرضت فلم تعدني»

فعن أبي هريرة أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تُعِدْنِي. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فَلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تُعِدْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عِدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطَعْمَتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي. قَالَ يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطَعَمَكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أُطْعِمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ فَلَمْ تَسْقِنِي. قَالَ يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فَلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»^(١). فماذا تفعل الوهابية بهذا الحديث، فهل تقول أن الله تعالى يمرض ويعطش وتصيبه الحاجة والفاقة كما يحصل للبشر، تعالى الله وتنزهه عن ذلك علوًّا كبيرًا، ونعوذ بالله من كفر الوهابية التي تقول «إن التأويل تعطيل» وهذا الحديث القدسي تأويله فيه صريح، وأما على قول الوهابية فالله يحثُّ على التعطيل حيث جاء في هذا الحديث التأويل.

(١) مسلم، صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، (ج ٨، ص ١٣)، حديث ٦٧٢١.

قال القاضي عياض في الإكمال ما نصه^(١): «قال الإمام: قد فسر في هذا الحديث معنى المرض، وأن المراد به مرض العبد المخلوق! إضافة الباري سبحانه (ذلك) إلى نفسه تشريفاً للعبد، وتقريباً له. والعرب إذا أرادت تشريف أحد حلتة محلها، وعبرت عنه كما تعبر عن نفسها. وأما قوله: «لو عدته لو جدتني عنده» فإنه يريد ثوابي وكرامتي، وعبر عن ذلك بوجوده على جهة التجوز والاستعارة، وكلاهما (سائغ) سائغ في لسان العرب، وقد قدمنا ذا أمثاله. وعلى هذا المعنى يحمل قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾^(٢) يعني مجازاة الله تعالى ومثل هذا كثير. قال القاضي: وقد جاء في آخر الحديث في الإطعام: «لو أطعمته لو جدت ذلك عندي» وكذلك قال في السقي أي ثواب ذلك وجزاؤه. وهذا تفسير: «لو جدتني عنده».



(١) القاضي عياض، إكمال المعلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل عيادة المريض، (ج ٨، ص ٣٩).

(٢) سورة النور، آية ٣٩.

المبحث السادس والخمسون

تأويل حديث

«لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، سقط على بعيره وقد

أضله في أرض فلاة»

أخرج البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم، سقط على بعيره وقد أضله في أرض فلاة»^(١).

قال القرطبي في «المفهم»^(٢) وقد أقره ابن حجر^(٣): «هذا مثل قصد به بيان سرعة قبول الله تعالى لتوبة عبده التائب فإنه يقبل عليه بمغفرته ورحمته، ويعامله معاملة من يفرح به. ووجه هذا المثل: أن العاصي حصل بسبب معصيته في قبضة الشيطان وأسره، وقد أشرف على الهلاك. فإذا لطف الله تعالى به وأرشده للتوبة خرج من شؤم تلك المعصية، وتخلص من أسر الشيطان، ومن المهلكة التي أشرف عليها، فأقبل الله تعالى عليه برحمته ومغفرته، وبادر إلى ذلك مبادرة هذا الذي قد انتهى به الفرح، واستفزه السرور إلى أن نطق بالمحال، ولم يشعر به لشدة سروره وفرحه، وإلا فالفرح الذي هو من صفاتنا محال على الله تعالى لأنه اهتزاز وطرب يجده الإنسان من نفسه عند ظفره بغرض يستكمل به الإنسان نقصانه، ويسد به خلته، أو يدفع عن نفسه ضررًا أو نقصًا، وكل ذلك محال على الله تعالى، فإنه الكامل

(١) البخاري، صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعوة، (ج ٥، ص ٢٣٢٥)، حديث ٥٩٥٠.

(٢) القرطبي، المفهم، (ج ٢٢، ص ١١٥).

(٣) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١١، ص ١٠٦).

بذاته، الغني بوجوده، الذي لا يلحقه نقص ولا قصور، لكن هذا الفرح عندنا له ثمرة وفائدة، وهو الإقبال على الشيء المفروح به، وإحلاله المحل الأعلى، وهذا هو الذي يصح في حقه تعالى، فعبر عن ثمرة الفرح بالفرح على طريقة العرب في تسميتها الشيء باسم ما جاوره، أو كان منه بسبب. وهذا القانون جارٍ في كل ما أطلقه الله تعالى على نفسه من الصفات التي لا تليق به، كالغضب، والرضا، والضحك وغير ذلك».

وقال الحافظ ابن حجر^(١): «وإطلاق الفرح في حق الله مجاز عن رضاه.

قال الخطابي: معنى الحديث أن الله أرضى بالتوبة وأقبل لها، والفرح الذي يتعارفه الناس بينهم غير جائز على الله، وهو كقوله تعالى ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾^(٢) أي راضون.

قال ابن العربي: كل صفة تقتضي التغير لا يجوز أن يوصف الله بحقيقتها، فإن ورد شيء من ذلك حمل على معنى يليق به وقد يعبر عن الشيء بسببه أو ثمرته الحاصلة عنه فإن من فرح بشيء جاد لفاعله بما سأل وبذل له ما طلب، فعبر عن عطاء الباري وواسع كرمه بالفرح، وقال ابن أبي جمرة: كنى عن إحسان الله للتائب وتجاوزه عنه بالفرح لأن عادة الملك إذا فرح بفعل أحد أن يباليغ في الإحسان إليه».

وقال النووي في شرحه على صحيح مسلم ما نصه^(٣): «قال العلماء فرح الله تعالى هو رضاه، وقال المازري: الفرح ينقسم على وجوه: منها: السرور،

(١) ابن حجر، فتح الباري، (ج ١١، ص ١٠٦).

(٢) سورة المؤمنون، آية ٥٣.

(٣) النووي، شرح صحيح مسلم، كتاب التوبة، (ج ١٧، ص ٦٠).

والسرور يقاربه الرضا بالمسرور به، قال: فالمراد هنا أن الله تعالى يرضى
توبة عبده أشد مما يرضى واجد ضالته بالفلاة، فعبر عن الرضا بالفرح تأكيداً
لمعنى الرضا فى نفس السامع ومبالغة فى تقريره».



الباب الخامس

ردّ شبه المشبهة المجسمة

ويتضمن ستة مباحث:

- ١- المبحث الأول: تبرئة الإمام أحمد بن حنبل من المشبهة المجسمة.
- ٢- المبحث الثاني: الشبهة الأولى: إن قال قائل: لم أنكرتم أن يكون القديم سبحانه جسمًا.
- ٣- المبحث الثالث: الشبهة الثانية: قولهم بالجسمية والحيز والجهة في حق الله تعالى.
- ٤- المبحث الرابع: الشبهة الثالثة: تمسك المجسمة بحديث الجارية.
- ٥- المبحث الخامس: الشبهة الرابعة: تمسك المجسمة بقوله تعالى ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ لإثبات الجلوس بزعمهم في حق الله تعالى.
- ٦- المبحث السادس: الشبهة الخامسة: تمسكهم بقصة المعراج وقول فرعون، وبيان أهل الحق بخصوص ذلك.

المبحث الأول

تبرئة الإمام أحمد بن حنبل من المشبهة المجسمة

لا يوجد مذهبٌ إلا ورُمي صاحبه بشبهةٍ، والمذهب الحنبلي بسبب تميزه وانتشاره في القرون السابقة خاصة في العراق والشام ونجد رماه المخالفون بشبهات عديدةٍ منها قولهم بأن الإمام أحمد والحنابلة من المجسمة المشبهة، وهذه من أشهر الافتراءات التي افترى بها على الحنابلة. والرد على ذلك أن نقول: إنَّ الحنابلة كانوا يثبتون الأحاديث الصحيحة كما جاءت بلا زيادةٍ أو نقصان مع تنزيه الله تعالى عن كل ما يقتضيه الحس من الجوارح والحد والمكان وحلول الحوادث فيه، وهذا يشترك فيه كل أهل الحديث من المذاهب الأخرى من الشافعية والمالكية والحنفية. ولا يعني هذا أنه لم ينتسب إلى المذهب الحنبلي بعض المجسمة.

وأقوال الحنابلة في نفي التشبيه والتجسيم كثيرة. هذا وتجد أيها القارئ أن الحنابلة يكفرون من شبه الله تعالى بخلقه وجعله جسمًا، فانظر وتأمل:

نقل ابن حمدان^(١) عن الإمام أحمد رضي الله عنه^(٢) «تكفير من قال عن الله:

(١) أحمد الحراني، أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان بن شبيب بن حمدان بن محمود بن شبيب بن غياث الحراني، النميري، الحنبلي، نزيل القاهرة، نجم الدين، أبو عبد الله، فقيه، عارف بالأصلين، والخلاف، والأدب. ولد بخران، وأولي القضاء. من مؤلفاته: «الرعاية الصغرى» و«الرعاية الكبرى» في فروع الفقه الحنبلي، و«صفة المفتي والمستفتي»، و«الجامع المتصل في مذهب أحمد»، و«مقدمة في أصول الدين»، و«الإيجاز في الفقه الحنبلي». ولد سنة ٦٣١هـ، وتوفي سنة ٦٩٥هـ. عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، (ج ١، ص ٢١١).

(٢) ابن حمدان، نهاية المبتدئين، (ص ٣٠).

جسم لا كالأجسام». ونقله صاحب الخصال من الحنابلة كما ذكر ذلك المحدث الأصولي بدر الدين الزركشي^(١).

وقال ابن الأثير^(٢) في تاريخه^(٣): «وفيها أي سنة ٤٢٩ هـ أنكر العلماء على أبي يعلى بن الفراء الحنبلي ما ضمّنه كتابه من صفات الله سبحانه وتعالى المشعرة بأنه يعتقد التجسيم، وحضر أبو الحسن القزويني الزاهد بجامع المنصور، وتكلم في ذلك تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً».

ويقول ابن الأثير أيضاً ما نصه^(٤) عند ذكر السنّة التي توفي فيها أبو يعلى المجسم وهي عام ٤٥٨ هـ: «وهو مصنف كتاب الصفات أتى فيه بكل عجيبة، وترتيب أبوابه يدل على التجسيم المحض، تعالى الله عن ذلك، وكان ابن التيمي الحنبلي يقول: لقد خرى أبو يعلى الفراء على الحنابلة خرية لا يغسلها الماء». وسبب ذلك أنه ألف كتاباً سماه إبطال التأويلات وهو كتاب بدعي، وهذا غير مؤلفاته الأخرى التي فيها التجسيم والبدع.

ويقول ابن تيمية الحراني^(٥) وكلامه هنا حق: «إذ لا يختلف أهل السنّة أن الله تعالى ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، بل أكثر

(١) الزركشي، تشنيف المسامع، (ج ٤، ص ٦٨٤).

(٢) علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، أبو الحسن عز الدين بن الأثير، المؤرخ الإمام، من العلماء بالنسب والأدب. ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر وسكن الموصل ت ٦٣٠ هـ. من تصانيفه: «الكامل»، و«أسد الغابة في معرفة الصحابة». الزركلي، الأعلام، (ج ٤، ص ٣٣١).

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج ٨، ص ١٦).

(٤) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (ج ٨، ص ١٠٤).

(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (ج ٦، ص ٣٥٦).

أهل السنة من أصحابنا وغيرهم يكفرون المشبهة والمجسمة». وهو يناقض نفسه، وهذا شأنه من التذبذب، والعياذ بالله.

ومما قاله الشيخ ابن حجر الهيتمي^(١) في التحذير من ابن تيمية المجسم وتلميذه ابن القيم تحت عنوان «مطلب في عقيدة الإمام أحمد رضي الله عنه وأرضاه»: «وسئل أي الهيتمي: في عقائد الحنابلة ما لا يخفى على شريف علمكم، هل عقيدة الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه كعقائدهم؟ فأجاب بقوله: عقيدة إمام السنة أحمد بن حنبل رضي الله عنه وأرضاه وجعل جنان المعارف متقلبه ومأواه وأفاض علينا وعليه من سوابغ امتنانه وبوآه الفردوس الأعلى من جنانه، موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة من المبالغة التامة في تنزيه الله، تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً عن الجهة والجسمية وغيرهما من سائر سمات النقص، بل وعن كل وصف ليس فيه كمال مطلق. وما اشتهر به جهلة المنسويين إلى هذا الإمام الأعظم المجتهد من أنه قائل بشيء من الجهة أو نحوها فكذب وبهتان وافتراء عليه، فلعن الله من نسب ذلك إليه أو رماه بشيء من هذه المثالب التي برأه الله منها. وقد بين الحافظ الحجة القدوة الإمام أبو الفرج بن الجوزي من أئمة مذهبه المبرئين من هذه الوصمة القبيحة الشنيعة أن كل ما نسب إليه من ذلك كذب عليه وافتراء وبهتان، وأن نصوصه صريحة في بطلان ذلك وتنزيه الله تعالى عنه، فاعلم ذلك فإنه مهم. وإياك أن تصغي إلى ما في كتب ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية وغيرهما ممن اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم، وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله،

(١) ابن حجر الهيتمي، الفتاوى الحديثية، (ج ١، ص ٤٨٠، ٤٨١).



تمّ الجزء الثاني بحمد الله
يليه الجزء الثالث



